
تفسير العهد الجديد
وليم باركلي
شرح
بشارة يوحنا
Bibliotheca Alexandrina
0016574

تفسير العهد الجديد

للدكتور

وليم باركلي

أستاذ العهد الجديد بجامعة كلاسكو

مجلس التحرير

صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٣٠٤ - القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٢٤١٤ دولى رقم ٢ - ٩ - ٠٠٩ - ٩٧٧/٢٣٥
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة بالقاهرة

شرح
بشارة يوحنا

(الجزء الأول)

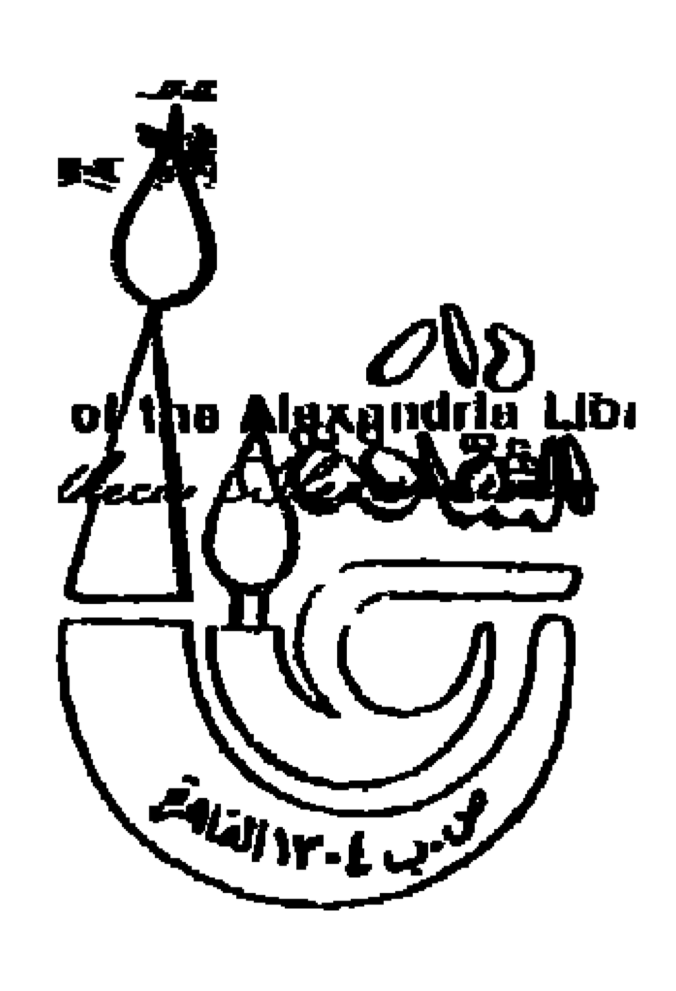
[من الاصحاح الأول — الاصحاح السابع]

للدكتور

وليم باركلى

ترجمة

الدكتور عزت زكى



محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

هذه السلسلة

الدكتور وليم باركلى من كبار المفكرين والباحثين فى العالم المسيحى فى هذا العصر ، وهو أستاذ العهد الجديد فى جامعة كلاسكو باسكتلندا . وقد قام بإعداد دراسات مسلسلة فى العهد الجديد تدلُ على تعمق فى البحث والدرس ، وطلاوة فى حسن التعبير ، وطرافة فى المعنى ، وسهولة فى الاستيعاب . وقد بيع من هذه السلسلة التى تشمل أسفار العهد الجديد كلها مليون نسخة فى عام واحد فى بريطانيا وحدها ، وأعيد طبعها حتى الآن خمس مرات ، ومايزال الإقبال عليها شديداً .

وقد صحّت عزيمة دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة ، ودار الثقافة المسيحية التابعة للهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعيـــة ، بالاشتراك مع مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى، على إصدار هذه السلسلة تباعاً . ويقدمها فى العربية نخبة من المترجمين فى أسلوب سهل خال من الحذلقة اللغوية والإعجاز اللفظى .

ومما يقوله المؤلف فى مقدمته العامة ان الهدف من إصدار هذه السلسلة هو وضع نتائج أبحاث العلم الحديثة تحت تصرف القارىء العادى ، الذى لم ينل حظاً موفوراً من الدراسات اللاهوتية ، ثم تطبيق تعاليم أسفار العهد الجديد على الحياة العملية فى هذا العصر .

وليست هذه السلسلة تفسيراً بالمعنى الذى نفهمه عادة من التفاسير الأخرى، ولكنها دراسات تحليلية فى الآيات والفقرات والأمثال والأحداث ، بأسلوب شيق ، فيه جاذبية التاريخ ، وعذوبة الخيال ، وقوة العظة ، وعمق التحليل ، وروحانية المعنى .

وقد سبق لهذه الدار أن نشرت الجزئين الأول والثانى من بشارة متى ، وها هى تقدم الآن الجزء الأول من بشارة يوحنا .

ورجاؤنا أن تقود هذه الدراسات جميع القارئين إلى معرفة يسوع المسيح فى وضوح وجلاء أكثر ، وإلى محبته حباً أعزز ، وإلى السير وراءه فى خطوات أقرب .

الناشرون

مقدمة البشارة الرابعة

البشير الذى له عين النسر

بشارة . . يوحنا ، بالنسبة للكثيرين من المسيحيين ، هى أثمن سفر بين أسفار الإنجيل ، بل هى قدس أقداس العهد الجديد . فهو السفر الذى يغذى العقل ، ويملأ القلب ، وتستريح اليه النفس . وكثيرا ما نشاهد مرسوماً على زجاج النوافذ فى الكنائس التقليدية ، صور الحيوانات الأربعة التى شاهدها يوحنا الرائى حول العرش (سفر الرؤيا ٤ : ٧) لترمز إلى البشيرين الأربعة . ومع أن هذه الرموز يمكن أن نطبقها على أكثر من بشير ، إلا أن التقليد اصطلح على أن يرمز إلى البشير مرقس بوجه إنسان ، لأنه كاتب أكثر البشائر صراحة ، وأوضحها ، وأقربها الى صورة الإنسان .

أما الأسد ، فهو يرمز إلى البشير متى ، لأن بشارة متى تقدم لنا شخص المسيح فى صورة المسِّيا ، والأسد الخارج من سبط يهوذا . والثور هو رمز البشير لوقا ، لأن الثور رمز الخدمة ، والتضحية ، والذبيحة . ولقد رسم لنا البشير لوقا ، شخص المسيح فى صورة خادم الإنسانية الأعظم ، والذبيح الذى يكفى البشرية جمعاء . .

أما النسر فهو الرمز الذى يشير الى كاتب البشارة الرابعة ، لأن النسر بين كافة المخلوقات الحيَّة ، هو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يتطلع بعينين مفتوحتين إلى وهج الشمس الساطع ، وهو يشق طريقه إلى العلاء . ويوحنا

بين كافة كتّاب العهد الجديد هو الوحيد الذى استطاع بنظرته الثاقبة ، أن يفتح عينيه على سعتهما ، فى نور شمس البر . . .أن يخترق أسرار الحق الخالد ويصل إلى قلب الله . لذلك لا غرابة أن نقول ، ان كثيرين يقتربون أكثر إلى معرفة الله ، فى شخص المسيح ، عن طريق بشارة يوحنا ، أكثر من أى انجيل آخر ...

البشارة التى تختلف عن سواها :

والدارس لهذه البشارة ، حتى ولو بصورة سطحية سريعة ، يستطيع أن يكتشف تباينها عن البشائر الثلاث الأولى . فهى لا تورد الكثير مما أوردته تلك البشائر . إنها لا تتحدث عن ميلاد المسيح ، ولا معموديته ، ولا تذكر شيئاً عن التجارب الثلاث فى البرية . وهى لا تتحدث أيضاً عن العشاء الأخير ولا جثسيمانى ، ولا حادثة الصعود .

ولا تشير بكلمة واحـــدة إلى معجزات إخراج الشياطين ، والأرواح الشريرة . وربما أغرب الكل ، أننا لا نقرأ فيها شيئاً من أمثال المسيح ، وقصصه ، التى تكوّن جانباً جوهرياً من البشائر الأولى . فى البشائر الثلاث الأولى نستمع إلى يسوع يتحدث إلينا ، إما عن طريق أمثاله أو قصصه التعليمية أو فى صور كلمات قوية حية أخاذة ، تلصق بالذاكرة . أما فى البشارة الرابعة، فإننا نجد أى خطاب للمسيح يحتل اصحاحاً كاملا أو أكثر من اصحاح. وأقوال المسيح فى بشارة يوحنا نراها تتخذ طابعاً جدلياً ، على النقيض من الجمل الحكمية التى تتألق فى البشائر الأولى .

ومن الأمور التى تدعو للغرابة أيضاً ، الصورة المغايرة التى قدم بها يوحنا بعض الحقائق عن حياة المسيح وخدمته ، مما يعطى المجال للقارىء السطحى أن يكتشف بعض التناقضات الظاهرية ...

١ — فالبشائر الثلاث الأولى تؤكد أن خدمة المسيح الجهارية بدأت بعد أن أسلم يوحنا المعمدان . في بشارة مرقس الاصحاح الأول والعدد الرابع عشر ، نجد القول « وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله » . ونفس المعنى يتكرر في لوقا (٣ : ١٨ — ٢٠) وفي متى (٤ : ١٢) . ولكننا في بشارة يوحنا نرى خدمة يسوع تتداخل مع خدمة المعمدان في حياته . (يوحنا ٣ : ٢٢ — ٣٠ ، ٤ : ١ ، ٢) .

٢ — في بشارة يوحنا أيضاً ، نرى مسرح خدمة المسيح ، يختلف عن مسرح خدمته في البشائر الأخرى . فخدمة المسيح في البشائر الأولى تتركز في الجليل ، ولا نراه يتألق في العاصمة ، إلا في الأسبوع الأخير من حياته . وهذا على خلاف ما يبدو في بشارة يوحنا ، حيث تكون أورشليم واليهودية هي مسرح خدمة المسيح ، ولا نراه في الجليل إلا في فرص خاصة . فهو في أورشليم في عيد الفصح الذي قام فيه بتطهير الهيكل ، (يوحنا ٢ : ١٣) . وهو أيضاً في أورشليم في العيد الذي لا يسجل البشير اسمه (يوحنا ٥ : ١) . وهو هناك في عيد المظال (يوحنا ٧ : ٢ — ١٠) . وهو هناك في الشتاء في عيد التجديد (يوحنا ١٠ : ٢٢) . كما أنه لم يترك أورشليم بعد هذا العيد . أي أنه بقي شهوراً طويلة من الشتاء ، إلى عيد الفصح الذي تم فيه القبض عليه ومحاكمته وصلبه . ويبدو لنا من فقرة وردت في مرثية المسيح على أورشليم ، وسجلها لنا متى ولوقا ، أن يوحنا على حق . فإننا نستمع إلى قول السيد : « يا أورشليم . . . يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين إليها ، كم مرة أردت أن أجمع أولادك ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا » (متى ٢٣ : ٣٧) ، (لو ١٣ : ٣٤) . ومعنى هذا أن السيد قام بزيارة أورشليم المرة تلو المرة . فليس من المنطق أن يتقدم بمثل هذا القول في أول زيارة يقوم بها للمدينة المقدسة .

ويليق بنا فى هذا الصدد،أن نورد ما جاء فى التاريخ الكنسى ليوسابيوس عن البشائر الأربع، قال « فى أيامنا (حوالى ٣٠٠ ميلادية) أعتاد كثيرون من العلماء ، أن ينادوا بهذه الآراء عن البشائر . قالوا ان متى قام بنشر الدعوة بين شعب اليهود ، فلما حان الوقت ليفارقهم إلى خدمته بين الأمم ، بدأ يسجل كتابة قصة يسوع باللغة العبرانية حتى يعوض ببشارته الخدمة التبشيرية التى سيضطر إلى تركها . وبعد أن قام مرقس ولوقا ، بتقديم بشارتيهما ، كان يوحنا مايزال يتقدم بقصة يسوع للجماهير شفاهياً دون أن يسطرها . وأخيراً قام بكتابة بشارته للأسباب التالية : ان البشائر الثلاث كانت قد كتبت ، وتداولتها الجماهير ، كما تداولها هو ، وأقر الجميع بقانونيتها وشهدوا لصدقها . ولكن كانت تنقصها قصة الأعمال التى قام بها المسيح فى بداية خروجه للخدمة . وهكذا قام يوحنا بتسجيل أحداث الفترة التى أغفلها البشيرون الأولون ، والأعمال التى قام بها السيد فيها ، أى خدمة السيد قبل سجن يوحنا المعمدان ونهايته . وهكذا فإن التلميذ الحبيب ، يقدم لنا فى بشارته الأعمال والتعاليم التى تقدم بها السيد قبل أن يقبض على يوحنا المعمدان ، ويزج به فى السجن ، بينما يذكر البشيرون الآخرون الأحداث التى لحقت هذا التاريخ ، أى الجزء الأخير من حياة المسيح » (التاريخ الكنسى ليوسابيوس ٥ : ٢٤). وعلى ذلك حسب رأى يوسابيوس لا يوجد تعارض بين البشارة الرابعة ، وبين الثلاث الأول . كل ما فى الأمر أن البشارة الرابعة — على الأقل فى اصحاحاتها الأولى — تصف خدمة السيد فى أورشليم فى نفس الوقت الذى كان فيه المعمدان يقوم بخدمته حراً طليقاً .

٣ — إن القارىء للبشائر الأولى يكاد يرى أن خدمة المسيح لا تزيد فى فترتها عن عام واحد. فليس هناك سوى فصح خلال الخدمة كلها. وربما يرجع ذلك إلى الفترة القصيرة التى عرض لها البشيرون .

بينما بشارة يوحنا تقدم لنا ثلاثاً من فرص أعياد الفصح ، الواحد الذى تم فيه تطهير الهيكل (يوحنا ٢ : ١٣) ، والثانى قبيل معجزة أشباع الخمسة آلاف (يوحنا ٦ : ٤) ، والثالث الذى تم فى خلاله صلب المسيح . هنا نرى خدمة المسيح تصل إلى عامين أو ثلاثة أعوام . ومع ذلك فالذى يدرس البشائر الأولى بامعان ، يستطيع أن يرى أن الحوادث المتلاحقة تشير إلى فترات طويلة ، وهذا مما يؤيد صدق البشير الرابع . فحينما قطف التلاميذ سنابل الحنطة ، وكانوا يفركونها بأيديهم ، ويأكلون — (مرقس ٢ : ٢٣) — لا بد أن الوقت كان ربيعاً . وحينما أشبع السيد الجماهير (مرقس ٦ : ٣٩) أجلسهم التلاميذ على العشب الأخضر . وهذا يشير ضمناً إلى أن هذا ربيع آخر ، فلابد وان تكون قد مرّت فترة عام كامل بين الربيعين . بعد هذا تأتى جولة السيد مع تلاميذه فى ربوع صور وصيداء ، ثم حادثة التجلى . وفى حادثة التجلى نستمع إلى بطرس يقول للسيد «جيد يارب أن نكون ههنا : فلنصنع ثلاث مظال». فمن الأرجح أن تكون تلك الفرصة فرصة عيد المظال . ومن الطبيعى أن تتجه أفكار بطرس ، إلى العادة السارية فى ذلك العيد (مرقس ٩ : ٥) .

وعيد المظال اليهودى يأتى فى شهر أكتوبر . فهناك فترة أخرى بينه وبين الفصح الأخير فى أبريل ، أى أننا نستطيع أن نميز فى حياة السيد ، من خلال بشارة مرقس ، ربيعاً ، ثم ربيعاً بعده ، ثم عيد المظال ، ثم الفصح الأخير ، أى ما لا يقل عن ثلاثة أعوام ، وهذا يؤيد صدق يوحنا ، كما يؤيد بالتالى صدق البشائر الأخرى . ان الأحداث المتراكبة قد تعطى للدارس السطحى ، صورة تغاير الحقيقة ، ولكن المتعمق يستطيع أن يلمس وحدة البشائر كلها .

الأحداث التى تتفرد بها البشارة :

وإن يوحنا ، فى عدم تكراره ، لما تقدم به البشيرون الآخرون ، قد أفسح المجال لقصص وأحداث أخرى فى حياة السيد ، لم ترد فى البشائر الأولى.

فيوحنا هو الوحيد الذى يخبرنا عند معجزة المسيح فى عرس قانا الجليل (٢ : ١ ـ ١١)، وعن حوار السيد مع نيقوديموس (٣ : ١ ـ ١٥) ، وعن المرأة السامرية ، (ص٤) وعن معجزة إقامة لعازر من بين الأموات ، (ص١١) وعن حادثة غسل أرجل التلاميذ (١٣ : ١ ـ ١٧) ، وعن حديث السيد الذى يكشف الكثير من أسرار الأقنوم الثالث ـ الروح القدس المعزى . وهذا نجده فى كثير من المواضع ما بين الفصل الرابع عشر إلى السابع عشر . فى يوحنا نرى لمسات رائعة تظهر لنا شخصية التلاميذ ، فتوما نستشف طبيعته من خلال أحاديثه (١١ : ١٦ ، ١٤ : ٥ ، ٢٠ : ٢٤ ـ ٢٩) . وأندراوس شخصية حية نلمسها ونعرفها (١ : ٤٠ ـ ٤١ ، ٦ ; ٨ ، ٩ ، ١٢ : ٢٢). وفيلبس نراه مجسماً أمامنا (٦ : ٥ ـ ٧ ، ١٤ : ٨ ـ ٩) . ويهوذا نصغى إلى اعتراضه على السيد ، فى بيت عينا (١٢ : ٤) . إن هذه اللمسات الشخصية هى الصورة الفريدة التى نلمسها فى بشارة يوحنا . والصورة التى ترسمها ريشة البشير عن توما ، أو أندراوس ، أو فيلبس هى رسوم خالدة تلتصق بالذاكرة كما بنار ، حتى أننا لا يمكن أن ننساها . . بل الأكثر من هذا أن التفاصيل الدقيقة التى يقدمها عن بعض الأحداث تظهره لنا كشاهد عيان لتلك الأحداث.

فالأرغفة التى تقدم بها الصبى ليسوع لإشباع الجماهير ، كانت من شعير (٦ : ٩). وحينما جاء يسوع إلى تلاميذه بينما كانوا معذبين فى التجديف فى تلك الأمسية العاصفة ، كانوا قد جذفوا بعيداً عن الشاطىء خمسة وعشرين أو ثلاثين غلوة ، أى ما يقرب من ثلاثة أو أربعة أميال (٦ : ١٩) . وفى عرس قانا الجليل كانت هناك ستة أجران حجرية للتطهير حسب تقاليد اليهود (٢ : ٦) . وفى حادثة الصليب ينفرد يوحنا بذكر حادثة أكليل الشوك (١٩ : ٥) . وبعد دفن يسوع يذكر حادثة الإقتراع على ملابسه

(١٩ : ٢٣) . حتى المر والأطياب ، التى أُستخدمت فى تطييب جسد المسيح بعد الموت ، كانت نحو مئة منآ (١٩ : ٣٩) . هذه تفاصيل قد تبدو بلا لزوم لكنها تشير إلى صدق ماتقدم به البشير ، وتدل على أنه شاهد عيان لتلك الاحداث.

لمحة أخرى تدل على عمق معرفة هذا البشير ، ودرايته التفصيلية بكل ما يتعلق ببلاده ، والأحداث التى مرّت بها . فهو يعرف كم من الوقت استغرق الهيكل فى بنائه (٢ : ٢٠) . وهو يتحدث عن العداوة التقليدية السائدة بين اليهود والسامريين (٤ : ٩) . وهو يشير إلى نظرة اليهود ، أو الشرقيين عامة ، إلى المرأة ، وإلى الحديث معها (٤ : ٩).وهو يعرف الطريقة التى يحفظ بها اليهود السبت ، ويقدسونه (٥ : ١٠ ، ٧ : ٣١ – ٢٣ ، ٩ : ١٤) . زد على ذلك معرفته الدقيقة بجغرافية فلسطين. فهو يعرف أن بيت صيدا ، كانت موطن بعض التلاميذ (١ : ٤٤ ، ١٢ : ٢١) . أما قانا فهى فى الجليل (٢ : ١ ، ٤ : ٦ ، ٢١ : ٢) وسوخار بالقرب من شكيم (٤ : ٥) . أما أورشليم فهو يعرف كل مكان فيها . فهناك بوابة الضأن ، والبركة القريبة منها (٥ : ١) وبركة سلوام (٩ : ٧) ورواق سليمان بالهيكل (١٠ : ٢٣) ، ونهير قدرون (١٨ : ١) ، والبلاط المدعو جباثا (١٩ : ١٣) ، والجلجثة التى تشبه فى منظرها الجمجمة (١٩ : ١٧).

ويلاحظ القارىء أن أورشليم خربت عام ٧٠ للميلاد ، وان يوحنا لم يكتب بشارته ، حسبما يرجح المؤرخون ، وتدل القرائن ، إلا قرب عام ١٠٠ للميلاد . ومع ذلك كان له من صفاء الذاكرة ، ما يجعله يتذكر كل كبيرة وصغيرة فى أورشليم فى أيام السيد المسيح .

الظروف التى سطرت فيها البشارة

نرى ما هى الظروف التى دفعت يوحنا إلى كتابة بشارته ؟ وما هو الهدف من كتابتها ؟

من المرجح أن بشارة يوحنا ، قد كتبت حوالى عام ١٠٠ للميلاد ، فى مدينة أفسس . فى ذلك الوقت ، كانت قد ظهرت ظاهرتان متميزتان، فى وضع الكنيسة المسيحية : أولاهما أن المسيحية كانت قد انتشرت فى العالم الوثنى . فلم تعد بعد وقفاً على أورشليم، واليهودية، والسامرة . ومعظم أتباعها لم يعودوا من اليهود، بل من الأمم. وابتدأت المسيحية تقف وجها لوجه أمام الفلسفة اليونانية.

لذلك فقد أصبح من اللازم تقديم الحق المسيحى الخالد ، فى ثوب جديد . ليس لأن حق المسيحية يحتاج إلى التغيير والتبديل حسب مقتضيات العصر ، بل لأن هذا الحق ، ينبغى أن يلبس الثوب الذى يلائمه . لنأخذ مثلا واحداً : بشارة متى — لنفرض أن يونانياً فى ذلك العصر تناول هذه البشارة ، ماذا يرى فيها؟ ان أول ما يلتقى به سلسلة طويلة من الأنساب التى تتصل بشخص المسيح وأصله حسب الجسد . ولقد كانت الأنساب معروفة عند اليهود . ولكن العقلية اليونانية ما كانت تستسيغها . ثم ماذا بعد ؟ انه يقرأ عن يسوع أنه ابن داود ، من النسل الملكى . وماذا يعرف اليونانيون عن داود ، وعن نسبه ، وعن تلك الرموز العنصرية التى تتركز فيها آمال أمة خاصة ، وشعب خاص ؟ وأى صلة لليهود به ، ولملوكهم بأفكاره وآماله ؟ ثم تتحدث البشارة عن يسوع كالمسيا ، أو الملك المنتظر . هل يلزم لليونانى ، الذى يريد أن يعتنق المسيحية أن يدخل فى معميات هذه الأفكار اليهودية ومجاهلها ؟ هل يلزم له أن يدرس التاريخ اليهودى ، والأدب الرمزى النبوى ، الذى تحدث عن المسيا ، وعلاماته ، حتى يصبح مسيحياً ؟ ألا يوجد هناك طريق سهل للوصول إلى قلب المسيحية ورسالتها ، غير هذا الطريق اليهودى الطويل ؟ لقد كانت العقلية اليونانية، مركز الفكر الثقافى فى العالم الكائن حينذاك. ترى هل يلزم لليونانى أن يتنكر لتراثه الفلسفى العظيم ويعتنق العقلية اليهودية ، ومنهج الفكر العبرانى ليكون فى هذا المدخل الوحيد إلى الفلسفة المسيحية ؟

ولقد جابه يوحنا المشكل بعقلية متسعة متزنة . وأرشده روح الله للحل الذى يبدو كأعظم حل توصلت إليه عقلية إنسان ، رضع لبان العبرانية ، وتأثر بها ، ثم عنّت له مشاكل الفلسفة اليونانية . وسوف نعرض للمنهج الفكرى الذى أتبّعه يوحنا فى تفسيره لبعض المشكلات اللاهوتية ، مما يتفق والعقلية اليونانية وذلك خلال سطور التفسير . ولكن يكفينا الآن أن نعرض باختصار لمشكلتين رئيستين ، فى مجال الفكر اليونانى . .

اللوجوس فى الفكر اليونانى :

فقد كان لليونانيين مفهومهم عن اللوجوس . فاللوجوس، بحسب الفكر اليونانى ، كان يعنى الكلمة ، وكان يعنى العقل أيضاً ، أما اليهودى فقد كان يدرك كلمة الله الكلى القدرة ، الذى به كان الخلق « وقال الله ليكن نور فكان نور » (تكوين ١ : ٣) .

وكان اليونانى يدرك معنى العقل . كان يتطلع إلى هذا الوجود فيرى نواميس ثابتة محكمة كل صغيرة وكبيرة فيه. فالليل يتعاقب مع النهار بلا تغيير ولا تبديل والسنة تتوالى فصولها بكل نظام ، والكواكب تسير فى مجراتها وهى لا تخطىء المسير ، والطبيعة كلها لها نواميسها التى لا تتبدل . ترى ماذا يكمن وراء هذا النظام الكونى العجيب ؟ مَن الذى يتحكم فى هذا النظام ويمسك بزمامه ؟ وما كان اليونانى يتردد فى أن يجيب : الكلمة لا سواه . كلمة الله الحى، فكرة الله الكامل ، هو المسئول عن كل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود .

ثم يستمر اليونانى فى تساؤله : ما الذى يهب الإنسان المقدرة ليتأمل ، ويفكر ، فيصل إلى المعرفة ؟ ما الذى يجعله كائناً عاقلا مفكراً ؟ والجواب : اللوجوس ، كلمة الله ، فكر الله الساكن فى أعماق الإنسان ، هو الذى يخلق منه كائناً مفكراً متزناً عاقلا . وهكذا اغتنم يوحنا هذه العقيدة ، وقال

لليونانيين . «انكم طوال حياتكم قد تملكتكم هذه العقيدة عن اللوجوس ، وأصبحتم منساقين لتأثير هذه القوة الجبارة المسيطرة . . قوة الكلمة الألهى ، قوة العقل الألهى المسيطر . ها كم الكلمة الأزلى ، قد تجسد بشرا سويا فى شخص ربنا يسوع المسيح. تطلعوا إليه لتروا كلمة الله غير المنظور . . تأملوا فيه لتشاهدوا فكر الله الذى لا يدرك . لقد وجد يوحنا الطريق ليتحدث عن ألوهية ابن الإنسان المتجسد .. الكلمة الأزالى المساوى لله فى الجوهر ، الذى جاء فى ملء الزمان ، وتمثل بين احضاننا بشرا كريماً . .

الفكر اليونانى عن العالمين :

ثم كان لهم أيضاً مفهوم خاص عن هذا الوجود ، وعن العالم الآخر . كانت لهم الفكرة الخاصة عن العالمين . الواحد هو العالم الذى نعيش فيه ، وهو مع إعجازه فى نظمه ، وظواهره ، ونواميسه ، لا يزيد على عالم من الخيالات ، والأشباح ، وصور الحقيقة . أما العالم الثانى ، فهو الوجود الحقيقى ، الذى يبدو أمامه وجودنا المادى ظلا باهتا خياليا ، فالعـــالم غير المنظور عند اليونانى هو العالم الحقيقى ، والعالم المنظور بالنسبة إليه ، هو عالم الأشباح غير الحقيقية . ولقد كان أفلاطون هو أول من نظم هذا الفكر القديم فى فلسفته عن الصور أو الأفكار ، فنادى بأن العالم غير المنظور هو الذى يضم المثال الأكمل لكل مافى الوجود . أما أشياء هذا العالم ، فهى لا تزيد عن كونها ظلالا باهتة لهذه المثُل الحقيقية الخالدة . أو لنتحدث فى أمثوله مبسطة فنقول ان أفلاطون قد وضع لكل شىء ملموس مثاله الكامل فى العالم غير المنظور ، حتى هذه المنضدة التى نكتب عليها ، ماهى إلا صورة من مثال كامل للمنضد هناك . وعلى نفس القياس المثُل المعنوية ، والجمال الأرضى ، هى صور ناقصة مبتورة للخير الأعظم فى عالم غير المنظور ، والجمال الأسمى فيه . فهناك تتمثل كل المثل العليا ، فى أبهى صورها . حتى إذا وصلنا إلى ذات الله ، نرى فيه تاج الفكر الأسمى ،

ومثال المثل جمعاء ، وينبوع كل الصور الخالدة. والآن تصطدم أفكارنا بهذا المشكل . كيف يتأتى لنا ونحن فى بردة الخيال المنظور ، أن نخلع أثواب المادة لنحلق بارواحنا بعيداً عن مستوى الأشباح ، إلى عالم الحقائق الخالدة ؟ كيف يأتى لنا أن تكتحل عيوننا المادية ، بلمحة من لمحات غير المنظور ؟ هنا يتقدم إلينا يوحنا بالحل . فيسوع هو الحقيقة الخالدة المتجسمة فى عالم الخيالات المنظورة وفى ناسوته تستطيع عيوننا أن تكتحل بلمحة من عالم غير المنظور . ان الكلمة اليونانية المرادفة لكلمة « حقيقى » هى « الثينوس » وهى مشتقة من كلمة « اليثيا» ومعناها الحق. وهكذا نرى يسوع كالنور الحقيقى الذى ينير كل إنسان (١ : ٩) .

وهو الخبز الحقيقى النازل من السماء الواهب حياة للعالم (٦ : ٣٢) .

وهو الكرمة الحقيقية (١٥ : ١) . وله وحده الديونة الحقيقية (٨ : ١٦) . فهو وحده الحقيقة الخالدة فى عالمنا ، عالم القصور والخيالات العاجزة .

وتتبع هذه الحقيقة حقيقة أخرى . إن كل عمل قام به يسوع لم يكن بوحى الحاجة الطارئة ، بل كان نافذة نطل منها على عالم الحقيقة . وهذا مايقصده يوحنا ، حينما يتحدث عن معجزات السيد كآيات ، كما تشير إلى ذلك الكلمة فى الأصل اليونانى : (سيمياء) . وهو بالتالى يفسر لنا الطريقة التى يقدّم بها يوحنا قصص المعجزات . فهو يتقدم بها بصورة تغاير طريقة البشائر الأولى .

١ — ففى حديث يوحنا من معجزات المسيح ، لانلمس نغمة العواطف الفياضة ، التى تذخر بها قصص المعجزات فى البشائر الثلاث الأولى . فيسوع فى بشارة مرقس ، يتحنن فيبرىء الأبرص (مرقس١ :٤١) ، ويفيض بعواطفه على يايرس (مرقس ٥ : ٢٢) ، ويتألم مع والد الصبى المصاب بداء الصرع (مرقس ٩ : ١٤) . ولوقا يتحدث عن يسوع فى حادثة إقامة ابن أرملة نايين ، فيصوره فى رقة بالغة ، وقد دفع الصبى إلى أمه (لوقا ٧ . ١٥) .

ولـكن المعجزات فى بشارة يوحنا ، ليست أعمال عطف ، بقدر ماهى آيات تظهر أمجاد المسيح وسلطانه .

فبعد أن نقرأ تفاصيل معجزة قانا الجليل ، نرى البشير يُعقب على هذه الآية بالقول . « هذه بداية الآيات فعلها يسوع فى قانا الجليل ، وأظهر بها مجده فآمن به تلاميذه » (يوحنا ٢ : ١١) .

وإقامة لعازر من بين الأموات ، كانت « لأجل مجد الله » ، « ليتمجد ابن الله به (يوحنا ١١ : ٤) . أما الرجل المولود أعمى من بطن أمه ، فلم يخطىء هو ، ولاأبواه ، « لـكن لتظهر أعمال الله فيه » (يوحنا ٩ : ٣) . ان يوحنا لاينفى عاطفة المحبة من قلب السيد ، حينما يتقدم بمعجزاته ، فنحن نراه يبكى على قبر لعازر ، ولـكنه يرى فى هذه المعجزات ، زيادة على ذلك ، مجد الله يُشرق على الزمن من خلال هذه النوافذ المفتوحة . . المعجزات التى قام بها السيد .

٢ — تتضح أيضاً للدارس حقيقة أخرى : إن معجزات المسيح التى سجلت فى البشارة الرابعة ، غالباً ما يتبعها خطاب طويل .

فمعجزة إشباع الخمسة آلاف يتبعها خطاب طويل عن خبز الحياة . (الاصحاح السادس) ، وشفاء المولود أعمى ، ينبع من حقيقة كون المسيح نور العالم (الاصحاح التاسع) ، وإقامة لعازر تصل بنا إلى إعلان السيد « أنا هو القيامة والحياة (الاصحاح الحادى عشر) . فالمعجزات عند يوحنا ليست حوادث فردية تختص بالزمن ، ولا هى وليدة الحاجة الطارئة ، بل هى صور .. أمثلة .. آيات .. علامات تصل بنا إلى عمق مايعمله الله على الدوام من أجلنا ، فى شخص الابن المبارك . فهى نوافذ نطل منها على كنه ذات الله . فيسوع لم يشبع مرة واحدة ، خمسة آلاف نفس ، بالخبز المادى وكفى . ان

هذه المعجزة مثال ، ورمز ، وصورة ، إلى أنه « الخبز الحى النازل من السماء الواهب حياة للعالم » . ومعجزة إقامة لعازر من الأموات تدور حول لعازر لا سواه . انها إشارة إلى أن المسيح هو على الدوام ، القيـــامة والحق والحياة لجميع الذين يرقدون فى قبورهم المادية والمعنوية . وفتح عينى الأعمى معجزة لاتختص بهذا المسكين فقط ، بل أنها تشير إلى أن المسيح نور العالم الذى له القدرة على إزالة عمى الجسد ، وعمى الروح . إن المعجزة عند يوحنا هى المدخل ، لحقيقة الله فى المسيح . . . ، لما يعمله الآب على الدوام فى الأبن ، من أجل البشرية جمعاء ، فى كل العصور ، والأجيال ، والى نهاية الدهر ..

هذا هو الفـكر الذى وصل اليه اكلندس الفيلسوف المسيحى الاسكندرى (عام ٢٣٠ للميلاد)، والذى أنار أمامه الفـكرة والهدف من كتابة البشارة الرابعة . فانجيل متى ، وانجيل لوقا ، اللذان يحويان سلسلة إنساب المسيح ، قد كتبا أولا . ثم جاء بعد ذلك أنجيل مرقس بناء على رغبة الـكثيرين ممن سمعوا بطرس يتحدث عن ذكرياته مع السيد ، فطلبوا منه أن يسجل هذه الذكريات، فأملاها على ابن أخته مرقس ، وآخر الـكل كتب يوحنا بشارته « بشارة روحية سامية لا تتكرر فيها الصور المادية ، ولا النواحى التى اتجه إليها البشيرون الأولون » . وإن ما يقصده اكلندس أن يوحنا لم يهتم كثيرا بالحقائق ، بقدر اهتمامه بالمعانى المستترة وراء هذه الحقائق فيوحنا لم ير الأحداث التى عرضت للمسيح ، أحداثاً مجردة وكفى . لقد شاهد فيها معانى عظمى ... رؤى من العالم الآخر تلبس ثوب الحدث ، والمعجزة، وتعلن حقائق روحية خالدة . وهكذا قدم لنا معجزات المسيح ، وكلماته ، وتعاليمه ، بصورة تدخل بنا إلى الأعماق . هذا أصدق تحليل وصل إليه الفـكر عن البشارة الرابعة. فيوحنا لم يكتب بشارة تاريخية ، بل سجل لنا أنجيلا روحيا .

نشأة الهرطقات

الحقيقة الثانية التى جابهت الـكنيسة فى الوقت الذى كتبت فيه البشارة الرابعة ظهور البدع والهرطقات فى قلب الـكنيسة. ولقد عرضنا للمشكل الأول فى السطور السالفة ، حينما تحدثنا عن أثر الفلسفة اليونانية فى تطوير الفـكر المسيحى .

وكان قد مضى على صلب المسيح قرابة سبعين عاما . فى تلك الأثناء كانت الـكنيسة قد تأسست ، وتدعمت أركانها فى كثير من بقاع العالم الـكائن ، وأصبحت هيئة منظمة لها كيانها ، وابتدأ اللاهوتيون يفسرون تعاليم المسيحية وعقائدها ، ويضعون أسس الإيمان المسيحى ، الذى تسير عليه الـكنيسة المسيحية حتى يومنا الحاضر . وطبيعى أن يظهر فى هذه الفترة معلمون يشتط بهم الفـكر إلى طرق خاطئة ، فتظهر الهرطقات . وقلما تـكون الهرطقة كذبة كاملة ، أو تنطوى بنودها على انحراف كامل ، فهى ترتـكن فى العادة على جانب من الحق ، وتنأى به بعيداً عن الحق ، وهى تتمسك بعقيدة سليمة فى المنبع ، وتبتعد بها عن طريق السلامة فى المجرى والمصب ، وهى تتمسك بتعليم خاص ، ثم تنحرف به عن طريق تفسير خاطىء .

وسنعرض فى السطور التالية لإثنتين من هذه الهرطقات والأخطاء ، التى جابهها يوحنا وحاول تصحيحها من خلال سطور بشارته .

الأولى : تدور حول يوحنا المعمدان . ولقد قام يوحنا بدعوته قبيل ظهور المسيح ، وتقدم بتعاليمه للجموع ، والتفت حوله هيئة من التلاميذ ، وأصبح له مقامه فى المجتمع اليهودى حتى أنه بعد نهاية حياته حينما ظهر السيد على مسرح الخدمة الجهارية ظن هيرودس أن المعمدان قد قام من الأموات . لقد كان فى المعمدان ما يتفق ونفسية اليهود ، ويلائم ذوقهم . فقد كان يتحدث بصوت

النبوة ! ورأى اليهود فيه وَصْلاً لما انقطع من سلسلة الأنبياء ، وحديثاً جديداً للسماء التى انقطعت عن أن تتحدث إلى الأرض قرابة خمسة قرون . ونحن نعلم من سفر الأعمال أن هيئة من اتباع المعمدان ، قد ظهرت وتكونت فى قلب المجتمع اليهودى القديم . فى سفر الأعمال (١٩ : ١ — ٧) نقرأ عن جماعة مكونة من اثنى عشر رجلا ، كانوا على أعتاب المسيحية ، ولكنهم لم يختبروا شيئا سوى معمودية يوحنا المعمدان . ولذلك فإننا نرى البشير الرابع ، يقف فى حزم أمام هذا المشكل ، ويضع المعمدان فى وضعه الصحيح ، مكرراً ذلك أكثر من مرة ، فهو يسطر كلمات المعمدان ، والفرص التى تحدث فيها مؤكداً أنه ليس المسيا المنتظر ، وان وضعه لايزيد عن وضع صديق العريس ، أو خادم رب البيت « الذى لست أهلا أن انحنى وأحل سيور حذائه » ، فهو فى اتضاع يخلى مكانه للسيد الحقيقى . إن البشائر الثلاث الأولى تتحدث بأن خدمة يسوع لم تبدأ إلا بعد أن أسلم يوحنا المعمدان .

ولكن البشارة الرابعة ترينا أن خدمة السيد تتداخل مع نهاية خدمته . ولعل البشير قد حرص على أن يقدم لنا هذه الصورة الرائعة المتقابلة ، لكى يتيح الفرصة ليوحنا المعمدان ، ليتقدم باعترافه عن سمو المسيح ، ورفعته عليه وليدفع الآخرين إليه ، فهو ليس النور الحقيقى ، (١ : ٨) . وهو ليس المسيا الذى تتركز فيه آمال اليهود وأحلامهم ، (١ : ٢٠ ، ٣ : ٢٨ ، ٤ : ١ ، ١٠ : ٤١) . بل أنه لا يسمح لنفسه بأن يتخذ مكانة الشاهد الأعظم ، فهو مجرد صوت صارخ فى البرية (٥ : ٣٦) .

إن البشارة الرابعة لا تتحدث بنقد عن المعمدان وعلى خدمته ، ولكنها توبخ أولئك الذين يرفعونه إلى مكانة تليق بيسوع ويسوع وحده .

الثانية : تختص بهرطقة تدعى الغنوسية ، ويطلق اتباعهـا على أنفسهم

الغنوسيين ، أى أصحاب المعرفة . ولقد كانت هـذه الهرطقة منتشرة فى عهد كتابة البشارة وبدون أن نعرف تعاليمها ، لا نستطيع أن نصل إلى إدراك عظمة البشير يوحنا ، ولا عمقه ، ولا الهدف من الـكثير من التعاليم التى عرض لها . لقد كانت تعاليم الغنوسيين تدور حول اعتبار المادة أساس الشر ،وحول اعتبار الروح أساس كل خير . ثم استمر الغنوسيون فى منطقهم الخاطىء ، قائلين : ما دامت المادة شر ، والله هو كلى الخير ، لذلك فلا صلة لله بهذا الوجود المادى ، ولم يقم هو بخلقه . ولـكى يصل الله إلى خلق المـادة ، صدرت عنه سلسلة من الظهورات . وكل ظهور منها يبتعد شيئاً فشيئاً من ذات الله ، حتى نصل أخـــيراً إلى ظهور فى بعده السحيق عن الله يستطيع أن يتصل بالمادة ، ويرتبط بشئونها . هذا الظهور الأخير هو خالق هذا الوجود . وهذه العقيدة الرديئة ، قد زادتها رداءة عقيدة أخرى تتصل بها . فلقد كان أولئك الغنوسيين يعتقدون أن كل ظهور من سلسلة الظهورات المتتالية ، على قدر بعده عن الله يعرف أقل عنه ، حتى نصل أخيراً إلى طور لا يكون فيه الظهور فى جهل تام عن الله ، بل فى حالة عداء له . وهكذا وصل الغنوسيون إلى النتيجة إن الإله الخالق ليس فقط مغايراً للاله الحقيقى ، بل هو فى حالة جهل عنه ، وعداء كلى له . يقول واحد من فلاسفتهم « ان العالم لم يُخلق بواسطة الله ، بل بقوة منفصلة بالـكلية عنه ، بعيدة كل البعد عن سلطانه الذى يسيطر على الوجود ، وفى حالة جهل تام عن الإله الأزلى المسيطر ». لقد كان الغنوسيون يعتقدون أنه لا صلة لله بخلق هذا الوجود .

ولعل هذا ما حدا بالبشير يوحنا أن يستهل انجيله بهذه الـكلمات : « وكان الـكلمة الله . . . كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان » (يوحنا ١ : ٣) . ولعل هذا ما دفعه أيضاً إلى تأكيد محبة الله لهذا الوجود المخلوق

فى القول المأثور : « لأنه هكذا احب الله العالم » (يوحنا ٣ : ١٦) . لقد تقدم يوحنا بهذا التأكيد فى وجه الهرطقة الغنوسية التى كانت ترتفع بالله إلى وجود اثيرى ، هيولى ، لا صلة له بالمادة ، ولا بخلق المادة . لقد حرص يوحنا على أن يظهر بجلاء العقيدة المسيحية عن الله الذى خلق العالم ، والذى يملأ بمجده ومحبته وسلطانه، هذا الوجود الذى قام بخلقه .

ولقد كان لعقائد الغنوسيين أثرها فى تشكيل تفكيرهم عن شخص المسيح . لقد وصلوا عن طريق هـذه العقائد ، فى تفسيرهم لذات المسيح إلى نتيجتين رئيسيتين :

الأولى : وقد آمن بها فريق منهم ، ان يسوع واحد من الظهورات المتسلسلة التى صدرت عن ذات الله . فهو ليس إلهاً بما فيه الكفاية ، بل هو أبعد ، بقليل ، او بكثير عن جوهر الله . انه لا يزيد عن كونه نصف إله : واحداً من سلسلة الظهورات الأقل ، بين الله وبين المادة .

والثانية ، وقد اعتنقها فريق آخر ، ان يسوع لم يكن له جسد حقيقى . فالجسد ينتمى الى رتبة المادة الملموسة ، والله لا يمكن أن يكون فى صلة أو اتفاق مع المادة . لذلك لا بد ان يكون يسوع نوعاً من الأشباح ، بلا جسد حقيقى ، ولا عظام . فحينما كان يسير فى الطريق ـ هكذا قالوا ـ لم يكن يترك أثراً لخطواته ، اذ ليس لجسده ثقل ، لأنه ليس مادياً على الاطلاق . لذلك كان لزاماً على يوحنا أن يتحدث بصريح العبارة قائلا : «والكلمة صار جسداً » (يوحنا ١ : ١٤) .

يقول اوغسطين ، انه قرأ الكثير من مؤلفات الفلاسفة الوثنيين فى عصره ، والتقى بالكثير من التعاليم ، التى تبدو وكأنها تصطبغ بنفس الصبغة المسيحية ، ولكنه ما اكتشف هناك مرادفاً للقول : « والكلمة صار جسداً

وحلّ بيننا » . هذا هو السبب الذى دفع يوحنا، فى رسالته الأولى، ان يؤكد عن يسوع بأنه جاء فى الجسد، وان كل من ينكر هذه الحقيقة يدفعه روح ضد المسيح (رسالة يوحنا الأولى ٤ : ٣) .

هذه الهرطقة النابعة من الغنوسية، عُرفت فى التاريخ باسم الدوكيتية، من الأصل اليونانى « دوكين » ومعناه يشبه . ولقد لقبت بهذا اللقب، لأنها نادت بأن المسيح كان شبه إنسان .

والثالثة، نادى بها فريق ثالث من الغنوسيين، اتخذت لها تفسيراً مغايراً للفريقين، فنادت بأن يسوع مجرد إنسان حلّ فيه روح الله عند المعمودية، وبقى معه طوال حياته على الأرض .

ولكن مادام روح الله لا يجوز عليه الألم المادى، ولا يعرف اختبار الموت فقد فارقه روح الله قبيل الصليب، وهكذا حوّروا صرخته على الصليب « إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟ ! . . إلى : « ياقوتى، ياقوتى، لماذا فارقتنى ؟ ! » . وفى كتبهم يتحدثون عن شبيه ليسوع كان على جبل الزيتون، يعلّم الجموع، فى الوقت الذى كان فيه يسوع بالجسد معلقاً على الصليب .

وهكذا انتهت الهرطقات الغنوسية إلى نتيجتين : أن يسوع إما أن يكون ليس إلهاً على الإطلاق، بل هو واحد من سلسلة الظهورات الإلهية الأخيرة، مجرد نصف إله، أو شىء من هذا القبيل، وامّا أن يكون شبحاً بلا جسد، فى صورة إنسان وليس هو بالإنسان . لقد كانت العقائد الغنوسية تتجه إلى الطعن فى لاهوت المسيح وناسوته على السواء . .

يسوع ابن الانسان :

هذه الحقيقة حقيقة إنكار الغنوسية للاهوت المسيح وناسوته، دفعت

البشير يوحنا ، إلى أن يؤكد هاتين الحقيقتين بصورة واضحة . فهو من الجانب الواحد يؤكد حقيقة إنسانية يسوع ، أكثر من أى بشير آخر . فهو أى المسيح يشتعل غضباً حينما يشاهد الذين يبيعون ويشترون فى ساحة الهيكل (٢ : ١٥) .

وهو فى تعبه الجسمانى ، يجلس على بئر سوخار فى السامرة (٤ : ٦). وفى تلك الفرصة يتقدم إليه تلاميذه بالطعام المادى كأى إنسان جائع بحـــاجة إلى الطعام (٤ : ٣١) . وهو يشفق على الجموع الجائعة (٦ :٥ـ٢٠) . وهو قد اختبر الحزن ، وسكب الدموع ، كأى إنسان حزين (١١ : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨). وهو فى نيران آلامه على الصليب صرخ قائلا : أنا عطشان (١٩ : ٢٨). ان البشارة الرابعة لا تقدم لنا يسوع فى صورة شبح ، أو طيف يشبه الإنسان ، بل فى صورة ابن الإنسان الحقيقى ، الذى جاع وعطش وتألم ، وحزن ، وبكى ، واضطرب بالروح . ان بشارة يوحنا تؤكد لنا حقيقة الإنسان يسوع المسيح .

الوهية المسيح :

ومن الجانب الآخـــر ، كما اسلفنا ، يصور لنا يوحنا الحبيب كمال لاهوت المسيح .

(ا) فهو كائن قبل أن يكون ابراهيم ، كما قال هو لليهود بفمه الطاهر : « قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن » . (٨ : ٥٨) وهو أزلى الأمجاد ، كما طلب فى صلاته الشفاعية « مجدنى أنت أيها الآب بالمجد الذى كان لى عندك قبل كون العالم » (١٧ : ٥) . وهو يتحدث لليهود مراراً عن أصله السماوى ، ومجيئه من السماء (٦ : ٣٣ ـ ٣٨) .

(ب) وهو الكلى العلم ، الذى تحيط معرفته بكل شىء . فهو قد عرف ماضى المرأة السامرية قبل أن تخبره (٤ : ١٦ ـ ١٧) . وهو يعرف دون أن يخبره أحد ، كم مضى على ذلك الإنسان المريض الملقى على حافة البركة المعجزية

(٥ : ٦) . وقبل أن يتقدم فيلبس بسؤاله ، عرف الجواب (٦ : ٦). وقبل خيانة يهوذا ، عرف ما هو مزمع أن يفعله (٦ : ٦١ – ٦٤) . أما لعازر فقد عرف تفاصيل موته دون أن يخبره بذلك أحد (١١ : ١٤) . لقد أراد يوحنا أن يؤكد إعجاز يسوع فى علمه السابق لكل شىء ، وبهذا يؤكد لاهوته . فهو ما كان بحاجة إلى أن يتقدم لإنسان بسؤال ، لأنه كان يعرف الجواب .

(ج) وهو يعمل بوحى من ذاته ، وليس بدافع أى إنسان . فمعجزة الاستحالة التى تمت فى عرس قانا ، لم تكن بإيحاء العذراء ، أو بطلبها ، ولكن بقرار من ذاته ، ليظهر أمجـــاده فيؤمن به تلاميذه (٢ : ٤) . أما زيارته لأورشليم فى عيد المظال ، فلم تكن بسبب إلحاح أخوته عليه . بل صعد إلى أورشليم من نفسه (٧ : ١٠) . حتى فى موته ، لا سلطان لأحد عليه كما قال « لى سلطان أن أضعها ، ولى سلطان أن آخذها » (١٠ : ١٨ ، ١٩ : ١١) . لقد كان كما صوره يوحنا ، الإله المتفرد بذاته ، وفكره ، وجلاله ، عمن سواه .

وهكذا لـكى يدحض البشير ادعاءات الغنوسيين ، نراه يتقدم إلينا بصورة يسوع الفريدة ، فى جانبيها ، كمال الناسوت متحداً بجلال اللاهوت .

كاتب البشارة الرابعة :

رأينا أن الغرض من كتابة البشارة الرابعة هو تقديم حياة المسيح فى أسلوب دفاعى ، ضد الهرطقات والبدع التى ظهرت فى المجتمع المسيحى ، بصورة تصل إلى العقلية اليونانية ، فتستطيع أن تدركها . والآن نأتى إلى سؤال هام ، مَن يكون كاتب هذه البشارة ؟

والتقليد يجيبنا على الفور ، يوحنا الحبيب تلميذ المسيح . وسنرى أن هناك من الأسباب ما يؤكد صحة هذا التقليد ، ولنبدأ بمعرفة بعض المعلومات عن يوحنا . فهو الابن الأصغر لزبدى الذى كان يمتلك قارباً للصيد على بحر الجليل

والذى كان له من المقدرة والثراء، ما يمكنه من إستخدام الخدام الأجيرين، يعاونونه فى العمل (مرقس ١ : ١٩) . أما أمه فكانت تدعى سالومة ، ويرجح أنها شقيقة العذراء مريم أم يسوع (متى ٢٧ : ٦٥) (مرقس ١٦ : ١) . ويبدو أن يعقوب ويوحنا كانا شريكين لبطرس فى مهنة الصيد (لوقا ٥ : ٧ ـ ١٠) ولقد استجاب يوحنا وأخوه يعقوب لدعوة السيد (مرقس ١ : ٢٠). وكان يوحنا واحـــدا من الثلاثة المقربين لشخص المسيح ، من الدائرة الثلاثية الضيقة التى تحيط به . وكثيراً ما يقترن أصحاب هذه الأسماء الثلاثة معاً : بطرس ويعقوب ، ويوحنا . وفى فرص خاصة كان يسوع يصطفى هؤلاء الثلاثة ، ليــكونوا بصحبته (مرقس ٣ : ١٧ ، ٥ : ٣٧ ، ٩ : ٣ ، ١٤ : ٣٣) . أما شخصيته فقد كانت تتسم بالثورة والطموح ، حتى أن يسوع أطلق عليه مع أخيه لقب ابنى الرعد ، « بوانرجس » . لقد كان طبعيهما حاداً بصورة ملحوظة (مرقس ٩ : ٣٨ ، لوقا ٩ : ٤٩) .

ويبدو ذلك من تصرفهما من نحو قرية من قرى السامرة ، رفضت أن تفتح أبوابها للمسيح وتلاميذه ، فقد سألا السيد أن يطلب ناراً من السماء ، لتهلك المدينة بمن فيهـــا (لوقا ٩ : ٥٤) . أما البشائر الثلاث الأولى فإنها تصور لنا يوحنا فى مركز زعامة التلاميذ ، ولو أن له طبيعته الثائرة الطموحة التى تــكشفها بعض المواقف . فقد كان له ولأخيه من الطموح ما يدفع أمه سالومة إلى أن تطلب من السيد أن يجلس الاثنان ، واحد عن اليمين ، والآخـــر عن اليسار فى الملــكوت العتيد (مرقس ١ : ٣٥ ، متى ٢٠ : ٢٠) . ومع ذلك فقد كان بطرس ويوحنا أقرب التلاميذ إلى قلب السيد ، حتى أنه حينما أراد أن يعد العشاء الأخير ائتمنهما على القيام بهذه المهمة (لوقا ٢٢ : ٨) . وفى سفر الأعمال» يظهر يوحنا مع بطرس فى معظم المواقف . أما إسمه فيحتل المقدمة ، بين الأسماء

الثلاثة التي تتزعم جماعة التلاميذ، تماماً كما كان في عهد سيده (أعمال ١ : ١٣). فهو يظهر مع بطرس في معجزة شفاء الأعرج الذي كان يقبع على باب الهيكل الذي يقال له الجميل (أعمال ٣ : ١). وهو مع بطرس يُساق أمام جماعة الكهنة، ويجابه قادة وشيوخ اليهود بشجاعة تدهش الجميع (أعمال ٤ : ١ — ١٣). وهو مع بطرس يسافر من اورشليم إلى السامرة، ليراقب ما تم على يدي فيلبس (أعمال ٨ : ١٤). أما في رسائل بولس، فإن إسمه لا يظهر سوى مرة واحدة. ففي الرسالة إلى أهل غلاطية (٢ : ٩) يذكره الرسول كواحد من أعمدة الكنيسة مع بطرس، ويعقوب . . . ولقد كانت شخصية يوحنا تجمع الكثير من المتناقضات. فهو واحد من قادة الإثنى عشر، وهو من الدائرة الضيقة التي تحيط بشخص المسيح، ومع ذلك فإن له طبعه الحاد، وطموحه الذي كثيرا ما وبخه السيد.

والآن دعنا نلقي لمحة خاطفة إلى مايقوله التقليد القديم عن يوحنا، فيخبرنا « يوسابيوس »، أنه نفي إلى جزيرة بطمس في عهد الامبراطور دومثيان، ويذكر عنه قصة — نقلا عن أكلمندس الاسكندري — يبدو أنها تتفق مع طبيعته. فهو في مقتبل العمر يُنتخب اسقفا لكنائس آسيا. وفي أثناء زيارته لإحدى الكنائس القريبة من أفسس، يرى ضمن المجتمعين شاباً حدثاً يتوسم فيه البراءة والذكاء، فيتجه إلى راعي الكنيسة ويطلب منه أن يتعهد الشاب بالرعاية ثم يضيف : « وأني أشهد عليك هذا المجمع، بأن الشاب قد أصبح في عهدتك ». ويتعهد الراعي الشاب بالرعاية، والتعليم كأنه واحد من أبنائه، حتى يأتي اليوم الذي يصبح فيه مؤهلا لنوال المعمودية. ولكن يبدو أن للاوساط الردية قوتها وتأثيرها. فسرعان مايلتف حول الشاب أصدقاء السوء، ويندفع من خطية إلى خطية، ويصبح زعيما لعصابة من القتلة،

واللصوص ، تقطن الجبال ، وتغير على المسافرين . وبعد سنين يعود يوحنا الأسقف لزيارة الكنيسة ويقول لراعيها « أعطنى وديعتى التى أودعتك إياها وأشهدت عليك الجميع ». وفى البداية لم يدرك الراعى مايرمى إليه أسقفه وعاد يوحنا يقول « النفس التى استودعتك إياها قبل رحيلى فى المرة السالفة ». ويجيب الراعى « لقد مات وانتهى » . « مات ؟! كيف ذلك ؟ » « لقد مات بالنسبة لله ، واضطر إلى الفرار من المدينة بسبب جرائمه ، وهو الآن يقطن المغاور فى الجبال » . وعلى الفور يعد يوحنا عدة الرحيل ويسعى فى الجبال المقفرة فيبصره أفراد العصابة ، ويقبضون عليه ، ويحضرونه لزعيمهم الشاب ، فيعرفه الشاب ويملأ الخجل نفسه ، ويحاول الفرار منه . ويسعى الشيخ وراءه ، وهو يهتف « ولدى ! ياولدى ، هل تهرب من أبيك ؟ أننى إنسان ذبلت قواى . أشفق علىَّ ياولدى . لاتخف . لقد أتيت لأعينك على الرجوع إلى أحضان محبة الله ، يوجد رجاء أيضاً لك . وسوف أطلب من أجلك أمام العرش الإلهى . آه ياولدى ، لو اقتضى الأمر ، فاننى على استعداد أن أموت عنك ، كما مات سيدى من أجلى . آمن فقط . صدِّق ما أقول . ان يسوع قد أرسلنى لك » . ويذوب قلب الشاب من هذه المعاملة الطيبة ، ويلقى سلاحه نادما . ويعود مع يوحنا الشيخ خلال الدروب الجبلية الوعرة ، إلى الكنيسة ، وإلى الإيمان الأول ـ هنا نرى صورة من شجاعة يوحنا الحبيب ومحبته.

وفى مكان آخر من التاريخ الكنسى ، يتقدم المؤرخ يوسابيوس بقصة أخرى ، نقلا عن إيريناوس . فلقد كان ضمن قادة الغنوسيين الذين أسلفنا الإشارة إليهم ، واحد يدعى كرنتوس . وتصادف أن كان هذا المرطوق ، فى أحد الحمامات العمومية ، حينما دخل يوحنا المكان . وما أن علم بوجوده ،

حتى هبَّ من مكانه مذعوراً ، وهو يطلب ممن كانوا معه ، أن يسرعوا بمغادرة المكان قائلا : « دعنا نهرب حتى لاينهار الحمام بنا ، لأن كرنتوس عدو الحق بالداخل ». هنا نرى صورة من طبع ابن الرعد الحاد الملتهب . .

وهناك قصة أخرى يذكرها المؤرخ « كاسيان »، فهو يروى عن يوحنا أنه شوهد يوما يربت فى حنان على ريش واحدة من طير السمان المستأنس . ولما رأى عيون مَن حوله تتطلع إليه فى استفسار، قال « ان القوس التى تعرف كيف تنحنى ، تعرف كيف تصيب الهدف جيداً ».

أما الآب « يوحنا فم الذهب » فهو يحتفظ لنا بقصة الكلمات الأخيرة التى رددها يوحنا قبل انتقاله للمجد . فحينما وآتته الساعة التف حوله تلاميذه طالبين منه أن يتقدم إليهم برسالة الوداع ، فكان جوابه « يا أولادى أحبوا بعضكم بعضاً . أحبوا بعضكم بعضاً » ، ثم استمر يكرر عليهم هذه الوصية المباركة . فلما سألوه أكثر أن كانت لديه وصية أخرى ، أجابهم : « يكفى . . انها وصية الرب » .

هذه هى الصورة التى يقدمها التقليد عن يوحنا . انها تظهره لنا إنسانا نارى الطباع ، واسع المطامع ، قوى الشكيمة ، فائض القلب .

التلميذ الحبيب :

لاحظ أيضاً حقيقة غريبة ، تبدو لنا فى تتبعنا لحياة يوحنا الحبيب :

إن كل المصادر الكتابية التى تتحدث عن حياته ، تتركز فى البشائر الثلاث الأولى ، بينما بشارته ـ البشارة الرابعة ـ لا يرد فيها اسمه مرة واحدة ، من البداية إلى النهاية ، إلا أن البشارة الرابعة يظهر من خلال سطورها لقبان: اللقب الأول، «التلميذ الذى كان يسوع يحبه» . وهذا اللقب يتردد وروده فى البشارة أربع مرات ، فهو يتكىء على صدر يسوع فى العشاء الأخير (يوحنا

١٣ : ٢٣ ـ ٢٥). وهو الذى يستودعه الرب العذراء المباركة ، حينما كان على الصليب (١٩ : ٢٥ ـ ٢٧) . ومريم المجدلية فى عودتها من القبر الفارغ فى صباح القيامة ، نراها تلتقى مع بطرس والتلميذ الذى كان يسوع يحبه (٢:٢٠) وهو واحد من الذين حضروا المشهد الأخير من مشاهد القيامة ، بجوار بحيرة طبرية (٢١ : ٢٠) .

والثانى نستشفه من وراء لقب « الشاهد ». فحينما يطعن الجند الرومان رب المجد ، وهو على الصليب ، بالحربة فى جنبه ، فيتفجر الدم الطاهر مختلطاً بماء ، نقرأ تعليق البشير : « والذى عاين ، شهد ، وشهادته حق ، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم » (١٩ : ٣٤ ـ ٣٥). فمن يكون هذا الشاهد ؟ اننا نعرفه حينما نصل إلى نهاية البشارة ، فيتضح لنا أنه هو كاتبها ، وأن الشاهد هو بعينه التلميذ الحبيب ، وليس إنساناً آخر .

« هذا هو التلميذ الذى يشهد بهذا ، وكتب هذا . ونعلم أن شهادته حق » (٢١ : ٢٤) .

من المؤكد إذاً أن التلميذ الحبيب ليس سوى يوحنا . وأنه يلقب نفسه بالشاهد ، لأنه شهد كل الأحداث التى قام بتسطيرها ، والتعليق عليها . وقد حاول بعض المفسرين ، أن يثبتوا أن التلميذ الذى كان يسوع يحبه ، ليس سوى لعازر ، لأنه ورد القول ان يسوع كان يحب لعازر (١١ : ٣ ـ ٥) . وقال آخرون انه الشاب النبيل الثرى ، الذى جاء إلى السيد ، والذى نقرأ أن يسوع نظر إليه وأحبه (مرقس ١٠ : ٢١) . ولكن من المرجح أن هذه التأويلات لاتستند على الحق . وماذا يضيرنا إن كنا نستنتج أن هذا اللقب قد اختص به يوحنا ، أقرب الكل إلى قلب السيد ؟ !

ترى هل أراد يوحنا بهذا اللقب أن يتحاشى ذكر اسمه صراحة اختفاء

منه واتضاعا ؟ أم أن هذا اللقب قد خلعه عليه بقية التلاميذ ، وأصبح معروفا به فيما بينهم ؟

البشارة الفريدة :

اننا كلما تعمقنا أكثر فى دراسة إنجيل يوحنا ، نستطيع أن نكتشف أكثر كنوز هذه البشارة الفريدة . فهذه البشارة ، هى خلاصة تأملات يوحنا، وأفكاره ، وذكرياته عن المسيح ، فى مدى سبعين عاما من حياته . لقد كان روح الله يكشف له يوما بعد يوم ، عن معان جديدة مباركة ، وتأملات جديدة سامية فيما قاله السيد . وهكذا سطر يوحنا ، ليس الأحداث التى وقعت فى حياة المسيح فحسب ، بل المعانى المستترة وراء هذه الأحداث ، وليس الكلمات التى نطق بها فقط ، بل ما يستتر من مدلولات خلف هذه الكلمات. وربما لزم الأمر أن تمر هذه السنون الطويلة حتى تتكشف معانى الأشياء ، ومدلولات الأحداث أمام عينى يوحنا، فالنفس فى طفولتها لا تستطيع أن تستوعب كل شيء . كما قال السيد « ان لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ويخبركم بأمور آتية »(يوحنا ١٦: ١٢ـ ١٣) . وهكذا تحت سيطرة الروح القدس ، وبإرشاده ، تألقت ذاكرة يوحنا الحبيب ، بتفاصيل حياة المسيح وكلماته ، وتألقت أمامه أيضاً معانى ومدلولات هذه الكلمات وهـــــذه التفاصيل ، فكتب بشارته الخالدة ، فى سنواته الأخيرة ، ونور المجد يشع عليه من بعيد .

وكما يقول أحد الثقات : ان مرقس يتفق فى بشارته مع تفكير المرسل

بسرده للوقائع كما هى ، ومتى يوافق عقلية المعلم بطريقته المنطقية فى سرد تعاليم المسيح ، ولوقا يناسب فكر الكاهن بقلبه العطوف ، وتصوره ليسوع صديقا للجميع ، أما يوحنا فإن إنجيله هو إنجيل الصوفى المتعبد . ثم يتقدم الكاتب بعد ذلك بمقارنة بين بشارة مرقس ، وبشارة يوحنا . فيقول « إن الوقائع التى تناولها الاثنان فى مضمونها تتفق معاً بصورة عجيبة ، ولكن بينما يسرد البشير مرقس هذه الوقائع كما وردت ، فإن يوحنا يتعمق ليلونها بدراسة ، واختبار ، ونضوج ، حياة كاملة . ففى نور سبعين عاما من حياة الشركة العميقة الروحية ، والتأمل التعبدى تحت إرشاد الروح القدس ، تقدم يوحنا بهذه البشارة الروحية العميقة . ان يسوع الحى الروحى يتضح لنا من خلال سطورها ، بصورة أعمق . وإذا جاز لنا أن نضع عنوانا آخر لهذه البشارة ، فاننا نلقبها ليس بشارة يوحنا ، بل بشارة الروح القدس . فيوحنا ليس هو الذى كتب البشارة ، بل سطرها الروح القدس ممسكا بقلم يوحنا ..

والآن قبل أن نبدأ فى دراسة هذه البشارة الفريدة ، لنتقدم إليها بروح الصلاة والتعبد . لنطرد كل فكر لا يستأسر لطاعة المسيح .. لنخلع أحذيتنا من أرجلنا لأن الأرض التى تقف عليها أرض مقدسة .

الكلمة

الكلمة صار جسدا

الاصحاح الأول:

فِي ٱلْبَدْءِ كانَ ٱلْكَلِمَةُ وَٱلْكَلِمَةُ كانَ عِنْدَ ٱللهِ وكانَ ٱلْكَلِمَةُ ٱللهَ . هٰذَا كانَ فِي ٱلْبَدْءِ عِنْدَ ٱللهِ . كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كانَ وبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كانَ . فِيهِ كانَتِ ٱلْحَيٰوةُ وٱلْحَيٰوةُ كانَتْ نُورَ ٱلنَّاسِ وٱلنُّورُ يُضِيءُ فِي ٱلظُّلْمَةِ وٱلظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ .

كانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ ٱللهِ ٱسْمُهُ يُوحَنَّا . هٰذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ لِكَيْ يُؤْمِنَ ٱلْكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ .لَمْ يَكُنْ هُوَ ٱلنُّورَ بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ . كانَ ٱلنُّورُ ٱلْحَقِيقِيُّ ٱلَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِيًا إِلَى ٱلْعَالَمِ . كانَ فِي ٱلْعَالَمِ وكُوِّنَ ٱلْعَالَمُ بِهِ ولَمْ يَعْرِفْهُ ٱلْعَالَمُ . إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ وخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ . وأَمَّا كُلُّ ٱلَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ ٱللهِ أَيِ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ . ٱلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ ولا مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ ولَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ بَلْ مِنَ ٱللهِ .

وٱلْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وحَلَّ بَيْنَنَا ورَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْدًا كَمَا

لِوَحِيدٍ مِنَ ٱلْآبِ مَمْلُوًّا نِعْمَةً وَحَقًا . يُوحَنَّا شَهِدَ لَهُ وَنَادَى قَائِلاً
هٰذَا هُوَ ٱلَّذِى قُلْتُ عَنْهُ إِنَّ ٱلَّذِى يَأْتِى بَعْدِى صَارَ قُدَّامِى لِأَنَّهُ
كَانَ قَبْلِى . وَمِنْ مِلْئِهِ نَحْنُ جَمِيعاً أَخَذْنَا . وَنِعْمَةً فَوْقَ نِعْمَةٍ . لِأَنَّ
ٱلنَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ . أَمَّا ٱلنِّعْمَةُ وَٱلْحَقُّ فَبِيَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ
صَارَا . ٱللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ . اَلِابْنُ ٱلْوَحِيدُ ٱلَّذِى هُوَ فِى حِضْنِ
ٱلْآبِ هُوَ خَبَّرَ .   (يوحنا ١ : ١ — ١٨)

لمحة تاريخية

إن الأصحاح الأول من بشارة يوحنا ، يُعتبر أروع ما سما إليه الفكر الإنسانى ، فى دائرة الدين . وسوف نتناول هذا الإصحاح كما نتناول بقية البشارة بالتأمل فى فصول مختصرة تصلح للتأمل اليومى . ولكننا نرى أن نبدأ بدراسة تاريخية تلقى أضواء على هذا الإصحاح ، كما تنير لنا الطريق فى دراستنا لبقية البشارة . . .

ولقد أسلفنا أن الكنيسة قد جابهتها مشكلة رئيسية حينما اتسعت دائرة الخدمة ، واتجهت إلى مجال أكثر اتساعاً من أورشليم واليهودية والسامرة . فلقد نشأت الكنيسة فى مهد يهودى ، وكان يسوع يهوديا بحسب الجسد . وعدا رحلات قصيرة لصور وصيداء والمدن العشر ، لم يخرج السيد عن حدود دائرة فلسطين إلى أرض أممية . وهكذا ولدت المسيحية فى مهد يهودى ، وكان طبيعياً أن تتكلم بلغة اليهود ، وفكر اليهود ، للعقلية اليهودية .

ومع أن المسيحية قد ترعرعت بين أحضان اليهودية ، إلا أنه سرعـــان ما حان الوقت لتخرج إلى العالم ، وتشق طريقها بين الأمم . وهكذا لم يمض ثلاثون عاماً على صعود المسيح ، إلا وكانت قد سيطرت على أهم بقاع آسيا الصغرى ، وغزت بلاد اليونان ، ووصلت إلى روما . ويقدر البعض أنه فى تلك الحقبة الضئيلة كان تعداد المسيحيين من الأمم ، بالنسبة للمسيحيين من اليهود ما يوازى مائة ألف أممى بالنسبة لـكل يهودى مسيحى . ولم تـكن العادات اليهودية ولا التقاليد الموسوية ، معروفة عند هـذه الجماهير . مثال ذلك أن اليونانيين ما سمعوا قط عن « المسيا » الذى ينتظره اليهود . وفكرة مجىء المسيح ، وملـكه الشامل ، بحسب الفـكر اليهودى ، كانت عقيدة غريبة ومعادية للامم . فما لهم ورجاء اليهودية ، وأحلامها ومليكها ؟ وهكذا فإن سلسلة نسب المسيح ، وانتماءه إلى داود ، وحسبانه حسب الجسد من النسل الملـكى ، ما كانت تعنى شيئا بالنسبة لليونانى . هنا لبُّ المشكل . فكيف تقدم المسيحية للعالم اليونانى ؟ وكما يقول أحد المؤرخين ان قوة ، وانتشار ، عقيدة من العقائد ، لا تعتمد على قوة هذه العقيدة ، قدر اعتمادها على توافقها مع فكر العصر ، واستعداد الجماهير لقبولها . وكان على المسيحية أن تخلق هذا التوافق ، أن تهيىء نفسها لقبول الجماهير لها . ألا يوجد مدخل فكرى جديد ، غير المدخل اليهودى تستطيع به المسيحية أن تجتذب أصحاب الفكر الهلينى ، إلى حظيرتها ؟ أيلزم للامى أن يتهود أولا ، حتى يدرك أسرار المسيحية ؟ لقد كانت المشكلة تكمن فى كيف نقدم المسيح والمسيحية فى ثوب يستطيع اليونانى أن يدركه ويستوعبه .

ولقد استخدم الوحى الإلهى يوحنا الرسول ، ليقوم بحل هـذا المشكل . ولقد عاش يوحنا فى مدينة أفسس حوالى عام ١٠٠ للميلاد . وعرف بلا شك مشاكل الفكر اليونانى ، ومداخله . وهكذا تقدم ببشارته لليونانيين ، واليهود على السواء ، تحت عصمة الوحى الألهى ، وإرشاد الروح القدس . ولقد تمجد

الإعلان الإلهى فيه ، حينما أرشده بأن المدخل للفكر اليونانى، واليهودى على السواء هو فى الحديث عن « الكلمة » . هنا يستطيع أن يصل إلى العقل اليهودى ويستوعبه الفكر اليونانى . فكلتا الدائرتين ، تتداخلان معا عند هذه النقطة الفريدة .

وسوف نتحدث عن « الكلمة » فى الفكر اليهودى . ثم نعرض بعد ذلك للكلمة عند فلاسفة اليونان . ونخلص من هذه وتلك إلى التطبيق المسيحى .

الكلمة فى الفكر اليهودى :

ولقد كانت هناك عوامل أربعة ، شكلت أفكار اليهود عن الكلمة .

١ — فاليهودى كان يرى فى الكلمة أكثر من صوت صارخ ، فالكلمة لها قوتها ، ولها وجودها الذاتى المستقل الذى يعمل عمله . وكما قال أحد أساتذة اللاهوت « الكلمة المنطوقة عند العبرانى ، كانت قوية حية رهيبة . فهى وحدة نشاط مشحونة بالقوة . انها تندفع كطلقة الرصاص لتصيب الهدف . » وربما لهذا السبب كانت اللغة العبرية شحيحة فى كلماتها . فهى لا تضم أكثر من عشرة آلاف كلمة ، بينما اليونانية التى يتحدث بها الشعب ، زادت كلماتها عن المائتى ألف كلمة ..

قال واحد عن أحد الشعراء ، « إن كلماته قوة حيّة تتمشى فى صدور سامعيه » . والتاريخ له أمثلته الكثيرة . ففى أوقات الإصلاح فى اسكتلندا ، حينما كان « جون نوكس » يعظ بين الجماهير ، قيل عنه ان صوت ذلك الرجل الواحد كان يبث الحماس فى صدور سامعيه ، أكثر من عشرة آلاف بوق ينفخ فيها عشرة آلاف جندى . لقد كان للكلمة عملها فى القلوب . وفى أيام الثورة الفرنسية كتب الشاعر الفرنسى « روجيه دى لايل » نشيد المارسلييز الذى ألهب صدور الملايين من أبناء فرنسا ، ودفعهم فى طريق الثورة . وحينما

اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية ، فى الوقت الذى كانت فيه انجلترا بلا عتاد، ولا استعداد ، ولا حليف ، استطاع رئيس وزراء بريطانيا ، ببعض الخطب المذاعة ، أن يبعث الشجاعة فى القلوب ويغير دفة الحرب . حتى فى مجتمعنا الشرقى ، حينما يتقدم مسلم بالتحية التقليدية « السلام عليكم ورحمة الله » فهو يعتقد أنه يعطى لسامعيه بركة يضن بها على غير المسلم . ويذكر أحد العلماء الذين زاروا الشرق حادثة مثل هذه . فقد كان مسافرا فى الصحراء ، حينما مرّ به ركب من الأعراب، لم يدرك أصحابه فى البداية أنه مسيحى ، فأقرأوه السلام ولما أدركوا غلطتهم ، أسرعوا خلفه يطلبون استرداد البركة ! . هنا نرى الكلمة لها أثرها ، تستطيع أن تتجه للسامع لتعمل عملا ، كما يمكن استردادها ، وكما قال أحد الشعراء .

« إذا كنت حريصاً مرة فى تداول النار . .

« فاحرص عشر مرات على تداول الكلمات » .

فالله — جلّ جلاله — لا يستطيع أن يمحو الكلمات الحية التى تقال .

إن الكلمة فى الفكر الشرقى ، لها كيانها المستقل الجبار الفعّال . . .

٢ — والعهد القديم يمتلىء بالاشارات إلى هـذه الفكرة العامة عن قوة الكلمة . فحينما خُدع اسحق ، ونطق بالبركة ليعقوب بدلا من عيسو البكر ، لم توجد هناك قوة تستطيع أن تسترد البركة ، ولم يبق للبكر سوى اللعنة . (تكوين ٢٧) . لقد خرجت الكلمة من فيه لتعمل عملها ، ولا تستطيع قوة على الأرض أن توقفها .

وفى بداية سفر التكوين ، يُفتتح كل فصل من فصول قصة الخلق بالقول « وقال الله . . . . » . (تكوين ١ : ٣ ، ٦ ، ١١) . إن كلمة الله قوة جبارة تخلق كل شىء من لا شىء . وفى سفر المزامير نستمع إلى المرنم يقول « بكلمة

الرب صُنعت السموات » (مزمور ٣٣ : ٦) . وفى المزمور المائة والسابع « أرسل كلمته فشفاهم » (مزمور ١٠٧ : ٢٠) . وفى المزمور المائة والسابع والأربعين « يُرسل كلمته فى الأرض سريعاً جداً يجرى قوله » . (مزمور ١٤٧ : ١٥) وفى نبوات اشعياء : «لأنه كما ينزل المطر . . . هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى ، لا ترجع الىَّ فارغة ، بل تعمل ما سررت به وتنجح فيما أرسلتها اليه » . (اشعياء ٥٥ : ١١) . ويتحدث الله على لسان أرميا : « أليست هكذا كلمتى كنار ، وكمطرقة تحطم الصخر » (أرميا ٢٣ : ٢٩) . ونفس النغمة نلمسها فى الأسفار الأبوكريفية :

ففى سفر عزرا يتحدث الكاتب عن الله بالقول : « لقد تكلمت من بدء الخليقة ، من أول يوم ، وقلت : « لتسكن السموات والأرض . وكانت كلمتك عملا كاملا » . أما كاتب سفر الحكمة فيخاطب الله « كالواحد الذى صنع كل شىء بكلمته » . إن العهد القديم بجملته نستطيع أن نلمح فيه إشارات متعددة يضيق بها المقام ، عن قوة الكلمة وأثرها . وإذا كانت كلمة الإنسان لها مثل هذه القوة ، فكم تكون كلمة الله الحى ؟ . .

٣ — ثم حدث تطور فى الحياة العبرانية ، نجم عنه أثر كبير فى تشكيل الفكر العبرانى ، عن الكلمة . فلمدة تزيد على مائة عام قبل مجىء المسيح ، أمست فيها العبرية لغة منسية . ولقد كانت الأسفار المقدسة مسطّرة باللغة العبرية ، التى لم يكن يدركها عامة الشعب ، عدا فئة قليلة من العلماء . وكان الشعب يتحدث الأرامية ، وهى لغة متطورة عن العبرانية . ولذلك كان لزاماً أن تترجم الأسفار المقدسة إلى الأرامية حتى يستطيع الشعب أن يدرسها ، ويستوعبها . وهكذا قام العلماء بترجمة أسفار العهد القديم ، ودُعيت هذه الترجمات « بالترجوم » . وكانت فصول التوراة تُقرأ فى المجامع بالعبرية ، ثم تُتلى بعد ذلك بالأرامية من أسفار الترجوم . ولقد كتبت أسفار الترجوم ، فى وقت ساد على أفكار

الناس الإحساس بعظمة الله وسموه ، وأصبح اتضاعه أمراً يدعو للدهشة . فالله يسمو على أفكارنا وتشابيهنا ، وأمثالنا ، وتصوراتنا . وطبيعى كان أولئك الذين قاموا بترجمة التوراة ، يشاركون أبناء عصرهم هذه العقيدة . لذلك فقد كانوا يخشون أن ينسبوا لله الصور المادية والتشبيهات الحسّية ، واللمسات الإنسانية . وهكذا بذلوا غاية الجهد فى تخليص الذات الإلهى من هذه الصور . والدارس للتوراة يستطيع أن يلمس الكثير من هذه الصور ، والاستعارات المادية ، أى أن التوراة تتحدث عن الله بصور إنسانية . فحيثما التقى علماء الترجوم بآية يُستشف منها الاتجاه إلى هذه الصور ، كانوا يعبرّون عن ذات الله بلقب « كلة الله » . على سبيل المثال ورد فى سفر الخروج القول : « وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله » . فقد رأى العلماء ، أن هذا التعبير أكثر بشرية من أن نتحدث به عن الله . فترجموها « فأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة كلمة الله » (١٩ : ١٧) . وفى نفس السفر نقرأ أيضاً إن الله قال لشعبه عن يوم السبت « سبوتى تحفظونها ، لأنه علامة بينى وبينكم فى أجيالكم المتعاقبة » (خروج ٣١ : ١٣). هذه لمسة بشرية يسمو عنها جلال الله . فلذلك لا بد وأن يكون «السبت علامة بين كلمتى وبينكم» . وفى سفر التثنية : «الرب إلهك العابر أمامك نار آكلة » (تثنية ٩ : ٣). وقد وردت فى الترجوم « كلمة الرب إلهك . . . . . نار آكلة » . ونقرأ أيضاً فى نبوات أشعياء قول الله من الخليقة « أنا الأول ، وأنا الآخر . . . . . . يدى أسست الأرض ويمينى نشرت السموات » (أشعياء ٤٨ :١٣)، وقد رأى فيها علماء الترجوم استعارة بشرية ، فترجموها : « بكلمتى أسست الأرض ، وبقوتى نشرت السموات» . ولقد وردت « كلة الله » فى الترجوم، ما يقرب من ثلمائة وعشرين مرة . ولكن لا ينبغى أن يتطرق إلى القارىء الظن أن المقصود استبدال كلمة من كلمات الوحى ، بل لقد كان هدف أحبار اليهود ، التعبير عن ذات الله باسم

جديد حيث لا يجوز ارتباط الصفات المادية ، والاستعارات البشرية ، بالذات الإلهية . ولكن الحقيقة بقيت أن «كلمة الله» أصبح تعبيراً جديداً فى قاموس علم اللاهوت العبرى ، وابتدأ الشعب يعتاده ويدركه ، لأنه كثيراً ما كان يسمعه يتردد فى قراءات المجامع اليهودية . ان كل يهودى كان معتاداً أن يسمع لقب « الممْرا » كلمة الله ، من فم الكتبة والأحبار .

٤ — فى هـذا المجال علينا ألا نغفل أيضاً حقيقة جوهرية كان لها أيضاً أثرها فى تطوير الفكر اليهودى عن الكلمة . فلقد كان لليونانيين معرفتهم باللوجوس . ولكن اللوجوس اليونانى ، كان يعنى الكلمة كما كان يعنى الفكر ، أو العقل . ولقد كان كلا المعنيين ، مترابطين فى ذهن الرسول يوحنا ، وفى أذهان كبار المفكرين من اليهود فى حديثهم عن « الكلمة » . فحينما كانوا يتحدثون عن « الكلمة » كانوا يقصدون فكر الله ، وكلمة الله . وهذا يبدو واضحاً فى أماكن متفرقة من أسفار الحكمة .

ولقد كان الأدب العبرى يحوى مجموعة عُرفت بأسفار الحكمة . وهـذه الأسفار هى خلاصة أقوال الحكماء ، والفهماء ، ممن اختبروا الحياة أكثر من سواهم . ولكن هـذه الأقوال لم تكن فلسفية نظرية ، بقدر ما كانت عملية يمسُّ شئون الحياة ، ومشاكلها . ومن بين أسـفار الحكمة اليهودية سفر الأمثال لسليمان . وفى سفر الأمثال نلتقى بجمل غريبة تضفى على الحكمة قُوىً سرية خلاَّقة ، أزلية ، حتى يخيل للباحث وكأن الحكمة ذات متميزة ، وواسطة أزلية ، وعامل خلاَّق مع الله منذ البدء . وهناك ثلاث فقرات تبدو فيها هذه الفكرة بوضوح :

ففى الأصحاح الثالث من الأمثال القول عن الحكمة . .

« هى شجرة حياة لممسكيها ، والمتمسك بها مغبوط ، الرب بالحكمة أسس

الأرض ، أثبت السموات بالفهم . بعلمه انشقّت اللجج، وتقطّر السحاب ندى» (أمثال ٣ : ١٨ ـ ٢٠) .

ولقد عرفنا من اليونان، أن اللوجوس Logos يعنى الكلمة ، ويعنى أيضاً العقل ، أو الفكر . ورأينا كيف أضفى الفكر اليهودى على الكلمة السلطان والقوة الخلاّقة ، هنا نرى الجانب الثانى من الفكر عن « اللوجوس» يتبلور ويتضح . . . . فما الحكمة والعقل أو الفهم إلا صنوان ، أو تعبيران عن شىء واحد. فى البداية رأينا الفكر العبرانى يتحدث عن كلمة الله، وهنا نراه يتحدث عن حكمة الله ، وفكر الله .

وفى الاصحاح الرابع من سفر الأمثال : «اقتن الحكمة . اقتن الفهم . . . احفظه فإنه هو حياتك » (أمثال ٤ : ٥ ، ١٣) .

يقول يوحنا «فى البدء كان الكلمة . . . فيه كانت الحياة» . وهنا يتحدث سليمان عن الفهم أنه الحياة . الجانب الواحد يرتبط مع الآخر فى الفكر العبرى عن الكلمة .

على أن أوضح الفقرات هى الفقرة الثالثة من الأصحاح الثامن. وفيها نقرأ القول عن الحكمة «الرب قنانى أول طريقه. من قبل أعماله منذ القدم منذ الأزل مُسحت. منذ البدء ، منذ أوائل الأرض. إذ لم يكن غمر أبدئت، إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه . من قبل أن تقررت الجبال مثل التلال أبدئت إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد ولا البرارى ، ولا أول أعفار (تراب) المسكونة . لما ثبت السموات كنت هنالك أنا . لما رسم دائرة على وجه الغمر ، لما أثبت السحب من فوق ، لما تشددت ينابيع الغمر، لما وضع للبحر حده ، فلا تتعدى المياه تخمه، لما رسم أسس الأرض ، كنت عنده صانعاً ، وكنت كل يوم لذته. فرحة دائما قدامه (أمثال ٨ : ٢٢ ـ ٣٠) .

ألا يرى القارىء فى هذه الكلمات صورة مما ورد فى حديث يوحنا عن الكلمة؟ ألا يسمع هنا اصداء من أفكار الوحى فى البشارة الرابعة عن الكلمة الأزلى؟

فالحكمة هناك منذ الأزل ، قوة جبارة خالقة ، يصدر عنها النور، والبهجة والحياة . أليس هذا هو نفس حديث يوحنا عن الكلمة ، اللوجوس ؟ الذى من البدء كان، وبغيره لم يكن شىء مما كان ؟!

إن الحكمة هنا تبدو صنواً لشخص ربنا يسوع بالصورة التى وردت فى مستهل بشارة يوحنا . .

ولا تتوقف هذه الفكرة عن الحكمة عند الأسفار القانونية فحسب . فبين العهد القديم والعهد الجديد ، استمرت كتابات اليهود الحكمية ، التى جُمعت فى مابعد ضمن أسفار الأبوكريفا ، فيما يسمى بأسفار الحكمة . .

وفى أحدها ، ويدعى « حكمة يشوع بن سيراخ » ، نقرأ هذه الفقرة على لسان الحكمة :

« من فم العظيم الأسمى خرجت .
وملأت الوجود كله كالضباب . .
فى الأماكن العالية مسكنى . .
وعرشى فى عمود السحاب . .
بمفردى طوفت دائرة السماء ،
وقدماى سارتا فى أعماق الهاوية . . ».

هنا نرى الحكمة قوة أزلية خالقة كانت مع الله منذ البدء

ولقد كتب سفر يشوع بن سيراخ ، أو الجامع كما يلذ للبعض تسميته ، فى فلسطين قبل ميلاد المسيح بمائة عام ، وحوالى نفس التاريخ ، كتب سفر آخر بالاسكندرية فى مصر ، وعرف باسم « حكمة سليمان » . هذا السفر يضم أسمى ما كُتب عن الحكمة .

فالحكمة هي الكنز الذى يقتنيه بنو البشر ، ليصبحوا أقرب الكل إلى الله ، وهي صانعة كل شيء ، وهي نفخة سلطان العليّ ، والذات المنبثقة من القدير ، وهي تستطيع أن تصنع كل شيء ، وتعيد خلقه من جديد . والأكثر من هذا أن كاتب السفر لا يقف عند حد الحديث عن الحكمة وعن صفاتها ، بل يصل إلى حد مساواة الحكمة بالكلمة . فالكلمتان تعبران عن ذات واحدة . فهو يتحدث عن حكمة الله ، وعن كلمة الله بنفس الجمل ، وبنفس المعنى . ففي صلاته إلى الله نستمع إليه يقول :

« يا الله . إله آبائي ، ورب المراحم ، الذى صنعت كل شيء بكلمتك ، وهيأت الإنسان بحكمتك » (٩ : ٢) .

وفي حديثه عن الكلمة نستمع إلى أصداء مما نادى به التلميذ الحبيب: « فبينما كل شيء في سكون تام ، والليل في مسيره السريع ، إذا بكلمتك الأزلى الجبار ، يقفز من السماء ، من عرشك الملكى كجبار حـــرب شديد البأس ، إلى أرض الخراب والدمار ليقدم وصيتك الصريحة ، كسيف حاد . . »

إن كاتب « حكمة سليمان » يتحدث عن الحكمة كقوة الله الخالقة ، المنيرة ، الأزلية . فالحكمة والكلمة صنوان . انهما واسطتا الخالق للخلق . وهما يقربان إرادة الله ، إلى قلوب وعقول الناس .

وهكذا وجد يوحنا ، أن أفضل طريق يصل به إلى قلوب أبناء شعبه أن يبدأ بالحديث عن الكلمة . . . الكلمة التي ليست مجرد صوت صارخ ، بل قوة دافعة لما فاعليتها . . كلمة الله الذى به خلق العالمين . . . الكلمة كما وردت في الترجوم لتعبر عن فكر الله ، وذاته ، وصفاته . . . ثم الحكمة الإلهى كما تصوره أسفار الحكمة ، قوة الله الخالق الأزلى ، الذى ينير كل إنسان . وهكذا قال لأبناء شعبه مستعيراً هذا الفكر ليعبر عن المسيح : « إذا اردتم أن تروا كلمة الله الأزلى ، وأن تنظروا قوة الله الخلاقة . . . إذا أردتم أن تبصروا الكلمة

الذى به خلق الوجود بما فيه، والذى وهب النور والحياة لكل إنسان ، تطلعوا إلى ربنا يسوع المسيح ، ففيه كلمة الله قد تمثل بشرا فيما بينكم . . »

وفى الفكر اليونانى

ولكننا أسلفنا فى البداية ان مشكلة يوحنا لم تكن فى تقديم المسيح لليهود ، بقدر ما كانت فى تقديم المسيح لليونانيين ، ترى هل واءمت فكرة الكلمة العقلية اليونانية ؟

لقد عرفنا أن فكرة الكلمة كانت معروفة عند مفكرى اليونان. ويرجع تاريخها إلى ٥٦٠ ق . م . قبل ميلاد المسيح ، ومن الغريب فى مدينة أفسس أيضا ، حيث كتبت بشارة يوحنا. فهناك عاش فى ذلك الحين ، فيلسوف يدعى هيراكلتوس ، كان محور فلسفته ان كل شىء فى الوجود فى حالة فيضان وتدفق وحركة مستمرة ، فكل ما فى الوجود يتغير يوما بعد يوم ، ولحظة بعد لحظة . ولقد كانت الصورة التى استلهمها : إنك لا تضع قدمك فى نفس مجرى الينبوع الواحد مرة بعد أخرى ، فالمياه تتغير بين حين وآخر ، لأن المجرى دائم الجريان. وعلى هذا القياس نادى « هيراكلتوس» بأن كل ما فى الوجود فى حالة فيضان متغير . ولكن ان كان الأمر كذلك، ألا يعنى هذا أن الحياة كلها فى حالة فوضى ، وتغير، وارتباك كامل ؟ واين نكتشف معنى ثابتا فى وجود كلمة يسود عليه المد ، والجذر ، والتغير، والتبدل ؟ يجيب ذلك الفيلسوف أن هذا المد والجذر ، والفيضان العارم ، والثورة المتغيرة ، لا تسير على غير هدى وإلا عمت الفوضى الوجود. ولكن تحكمها نواميس ثابتة ، وقوانين محددة . وتتبع مثالا معينا لا يتغير خلال العصور والأجيال ، وإلى أبد الدهر . ومن الذى يحكم هذه النواميس ويسيطر على هذا المثال ؟ . . إنه اللوجوس . . الكلمة . . العقل الإلهى. فالكلمة عند هذا المفكر هو رائد كل نظام يسير عليه الوجود ،

والمهيمن على كل ناموس يخضع له . ولكنه لم يكتف بالوقوف عندهذا الحد ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك . فقال انه لا يوجد فقط مثال فى العالم الطبيعى ، بل هناك أيضا مثال فى عالم الأحداث . فلا يتحرك شىء فى هذا الوجود على غير هدى . وفى كل حياة ، ووراء كل حادث فى الحياة ، يوجد هدف وقصد وخطة موضوعة . ومَن الذى يسيطر أيضا على الأحداث ، ويجريها حسب حكمته ؟ الجواب مرة ثانية : اللوجوس ـ الكلمة ـ العقل الإلهى . ثم تعمق المفكر بعد ذلك إلى أبعد من هذا . فبدأ يتأمل فى أعماق الإنسان . قال وما هو ذلك الشىء فى أعماق الإنسان الذى يجعله يميّز بين الخير والشر ؟

ما الذى يعطينا المقدرة على التأمل ، والتفكير ؟ ما الذى يعيننا لنعرف الحق ، ونختار الخير ؟ . ومرة ثالثة يجيب المفكر : انه اللوجوس فى أعماق الإنسان ، فهو الذى يهب الإنسان العقل المميز ، ومعرفة الحق ، والمقدرة على تمييز الأشياء المتخالفة . ففى عالم الطبيعة والأحداث يسير كل شىء حسب سلطان اللوجوس ، وفى عالم باطن الإنسان ، اللوجوس فى الأعماق هو الكائن المميز بين الحق والباطل ، والقوة المعينة على قبول الخير ، فاللوجوس يسيطر على هذا الوجود ، كما يسيطر على كيان الإنسان .

وحين اكتشف اليونانيون هذا الحق ، تمسكوا به . ونادى به أكثر اتباع المدرسة الرواقية . فقد كان الرواقيون فى عجب ودهشة من النظام الذى يسير عليه هذا الوجود . فالنظام يستلزم وجود قوة مفكرة ، والناموس يستوجب كيان عقل مدبر . وحيث هناك نظام ، ومثال ، وناموس ، وأنموذج فلابد وأن يكون وراء هذه كلها العقل المنظم .

فمن الذى يحفظ الكواكب فى مجراتها ؟ من الذى يسيطر على المد والجذر ؟ من الذى يسود على تعاقب الليل والنهار ، وتعاقب الفصول بانتظام ؟

والجواب كما أسلفنا : اللوجوس، كلمة الله ، عقل الله. فاللوجوس هو هذه القوة التي تفسر ظواهر هذا الوجود .

وهو السلطان الذى يسيطر على نواميس الـكون ، فلا يسوده الارتباك والتشويش . وهو المقدرة السامية التي تدفع العوالم إلى الحركة بكل هدوء ونظام ، أو بحسب التعبير الرواقى ، اللوجوس هو الذى يتخلل كل شيء ، ويتسلط على كل شيء .

بقيت لمحة أخرى فى الفـكر اليونانى عن الـكلمة . فبين يهود الاسكندرية عاش فيلسوف يدعى « فيلو » . ولقد أوقف هذا الفـكر حياته على دراسة الفلسفتين ، اليهودية واليونانية . فلم يكن هناك واحد بين اليهود نظيره ، له الإلمام التام بكل ما ورد فى أسفار العهد القديم ، كما لم يكن هناك يهودى مثله ، أدرك عظمة الفـكر اليونانى وتعمق فى أسراره . وهو أيضا خلبت لبه فـكرة الـكلمة أو اللوجوس ، فنادى بأن اللوجوس كائن منذ الأزل ، وأنه الواسطة التي بها ُخلق الوجود . ثم قال بأن اللوجوس هو فـكر الله مطبوعاً على العالم كما أنه وسيلة الله للخلق . وعلى حد تعبيره ، كما يمسك المزارع بالمحراث ويتخذ منه واسطة لبعث الحياة والازدهار فى الأرض الجرداء، هكذا الـكلمة هو الواسطة لبعث الـكون وتسيير دفته . ثم قال ان عقل الإنسان يحمل طابع اللوجوس .

فهو الذى يهبه التمييز ، والمقدرة على المعرفة ، فاللوجوس هو الوسيط الواحد بين الله والإنسان . . . بين الـكائن والحادث .. وكما قال، اللوجوس هو الـكاهن الذى يسمو بالإنسان أمام الله .

وهكذا كان الـكلمة فى الفكر اليونانى ، قوة الله الخالق ، والمسيطر ،

والمرشد ، والحافظ ، والمسيِّر لكل ما في الوجود . فأتى يوحنا في بشارته ، وقال لليونانيين: « انكم لأجيال طويلة كنتم تفكرون عن الكلمة ، وتكتبون عن الكلمة ، وتحلمون عن الكلمة ، القوة الخالقة لهذا الكون ، والقوة الحافظة والمسيِّرة لهذا الوجود ، والقوة العاقلة المفكرة في قلوب الناس ، والقوة الروحية الملهمة لكل ما هو سام ، ورفيع في الحياة. وهاهو اللوجوس .. كلمة الله ، فكر الله ، قد تجسد إلى العالم في شخص يسوع المسيح . . .

« والكلمة صار جسدا وحل بيننا »

وهكذا استطاع اليهود ، واليونانيون على السواء ، أن يصلوا إلى إدراك معنى اللوجوس ـ كلمة الله ، وفكر الله ، وعقل الله ، الذى أبدع هذا الوجود ، والذى أعطى لكل شيء معناه . وهكذا أتى يوحنا إلى اليهود واليونانيين على السواء ، ليخبرهم أن يسوع المسيح هو كلمة الله ، القوة الخالقة الحافظة ، المسيطرة ، المنيرة لكل عقل . قد أتى في ملء الزمان ، ولبس جسم بشريتنا ، وما عليهم بعد أن يرهقوا عقولهم في البحث والتنقيب الا أن يتطلعوا بالإيمان إلى يسوع المسيح ، ليلمسوا فكر الله المتجسد الحي في شخصه المبارك.

هذا هو يسوع المسيح الذى تدعوه المسيحية « ابن الله » .

الكلمة الازلى

«فِي ٱلْبَدْءِ كَانَ ٱلْكَلِمَةُ . وَٱلْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ ٱللهِ . وَكَانَ ٱلْكَلِمَةُ ٱللهَ . هٰذَا كَانَ فِي ٱلْبَدْءِ عِنْدَ ٱللهِ .»

(يوحنا ١ : ٢)

إن الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا من القوة والعمق ، بحيث يقتضى منا دراسة مفصلة ، آية بعد أخرى . وهذا ماسنتبعه فى هذا الإصحاح بالذات. ان الفكر الرئيسى الذى أراد الوحى أن يثبته بقلم يوحنا أن يسوع ليس سوى كلمة الله الحى الخالق، واهب النور والحياة . فهوقوة الله الذى به خلق الوجود، وهو حكمة الله الذى يحفظ هذا الوجود ويسوسه ، وهو فى ملء الزمان ، قد أتى وتجسد فى جسم بشريتنا .

وهنا فى هذه الآية الأولى تبرز أمامنا حقائق ثلاث فى حديث يوحنا عن الكلمة ، أو عن يسوع . .

١ ـــ الحقيقة الأولى : أن الكلمة كائن منذ البدء «فى البدء كان الكلمة» وهذا البدء ليس البدء الذى تحدث عنه سفر التكوين . أننا نقرأ فى أول عدد من أول اصحاح ، لأول سفر من أسفار الكتاب قول الوحى « فى البدء خلق الله السموات والأرض » .

ولكن هذا البدء الذى يتحدث عنه يوحنا ، يعود بنا إلى ما قبل بدء سفر التكوين . فالكلمة كائن : « كان » . انه غير مخلوق ، إنه كائن قبل بدء الخليقة . إنه ليس جزءا من الزمن الحادث ، من الوجود الذى ظهر مع الزمن. إنه كائن منذ الأزل ، قبل الزمن والوجود ، وكل شىء . إن يوحنا فى هذه

الفقرة يؤكد كينونة المسيح قبل كل الدهور وهذا الفكر لابد وأن يعنى حقيقة جوهرية هامة . فإن كان الكلمة مع الله قبل بدء الزمن ، وإن كان جزءاً من الأزل السحيق ، فلا بد أن يكون الله هو بعينه يسوع المسيح . اننا كثيرا ماتختلط الأمور أمام أذهاننا القاصرة ، فترتسم أمامنا صورة الله فى مظهر صارم غاضب منتقم ، ونرى فى المسيح الإبن الكريم الذى حوّل غضب الله إلى رضى، وانتقامه إلى رحمة ومحبة. ولكن العهد الجديد لاتبرز فيه هذه الصورة. إن العهد الجديد بأكمله ، وبالأخص هذه الآية بالذات ، يرينا أن إله العهد القديم ، وإله العهد الجديد ، ليس سوى واحد : يهوه يسوع . ومافعله يسوع بتجسده ، وحياته ، وموته ، وقيامته ، هو أنه فتح أمام أنظارنا البشرية نافذة نستطيع أن نطل منها لنرى محبة الله الأزلية الأبدية التى لاتتغير ولاتتبدل . لانه هكذا احب الله العالم . وإذا كنا نلمس فى بعض فصول العهد القديم ما يغاير هذه الحقيقة ويصور لنا الله فى صورة إله عادل غاضب ، فذلك لأن حكمة الله قد اقتضت هذا المظهر بالنسبة للبشرية فى طفولتها .

انك حينما تريد أن تبدأ مع طفلك الصغير ، برنامجاً تعليميا فأنت لاتقدم له منهج الدراسة الجامعى . وهكذا اقتضى الأمر أن يتدرج الله مع الانسانية شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى إعلان الحق الكامل ، فى ملء الزمان ، فحينما تجسد ابن الله الأزلى ، استطاع الإنسان البشرى أن يعرف من هو الله ، وأن يبصر فيه الإله غير المنظور ، وأن يلمس فى شخصه صفاته العظمى التى لاتلمس ،ولاتدرك بالعقل القاصر .

ان يوحنا يؤكد هنا أن يسوع هو صورة الله الازلى الابدى كما كان ، وكما يكون ، وكما سيكون ، وأن البشر لم يستطيعوا أن يدركوا ذلك إلا بتجسد ابن الله .

٢ — الحقيقة الثانية : ان الـكلمة كان عند الله . ماذا يعنى الوحى بهذا التعبير ؟ انه يتحدث عن صلة سرية كائنة منذ البدء ، لايدرك أسرارها العقل البشرى، بين الـكلمة ، وبين الله ، بحيث أن أعماق قلب الله ، مكشوفة ومعلنة أمام الـكلمة . انه تعبير عن صلة قوية أزلية عجيبة بين الله وبين يسوع . على هذا لن يستطيع ملاك ، ولا رئيس ملائكة ، ولا أى كائن مهما سما مقامه أن يخبرنا عن صفات الله ، ومحبة الله ، وقلب الله ، وفـكر الله ، قدر ما يستطيع يسوع .

دعنا نأخذ مثلا بشريا يقرّب لنا هذه الحقيقة . لنفرض أننا نريد أن نصل إلى إدراك أسرار إنسان عظيم لانستطيع أن نصل إليه بأنفسنا، اننا نختار أقرب الكل إليه : مَن عاشره ، وعرفه لسنين طويلة . اننا لانتجه إلى إنسان يعرفه معرفه سطحية ، أو يتصل به عن بعد . فهذا لن يستطيع أن يشفى غليلنا . ان القريب ، أو صديق العمر، يستطيع أن يفسر لناعقل ، وقلب ، وطبيعة ، ذلك العظيم . علىهذا القياس يتحدثالوحى عن يسوع . انه يخبرنا أن يسوع كان منذ البدء عند الله ، وانه كائن معه منذ الأزل . لذلك فأسرار الله — نتحدث بشريا — وذاته ، وطبيعته ، وصفاته ، كلها معلنة لشخص يسوع ، فهو الوحيد الذى يستطيع أن يخبر عن ذات الله ، وعن مشاعره من نحونا ، كما أن الـكلمة تشير إلى ذاتية مستقلة .

٣— وأخيراً يتقدم الوحى فى إعلانه خطوة أخرى فيقول « وكان الـكلمة الله » . علينا أن نغمض أعيننا فى خشوع أمام هذا الإعلان المقدس ، فحيث يقصر الفهم عن الادراك ، لاسبيل أمامنا إلا التعبد . هنا يبدأ عمل الإيمان . إن هذه الآية المثلثة الأركان تـكشف لنا عن حقائق ثلاث بالنسبة للكلمة .

١ ــ فالكلمة هو الله فى أزليته : «فى البدء كان. انه الكائن قبل الدهور .

وهو الله فى ذاتيته: فهو ذات متميز عن الله ، «والكلمة كان عند الله».

وهو الله فى جوهره : فمع كونه ذات متميز ، إلا أن هذا لن يقلل من الحقيقة أنه الله فى الجوهر . « وكان الكلمة الله ».

٢ ــ ثم تتحدث الآية عن الكلمة فى شركته السعيدة مع الآب قبل كل الدهور والأجيال . فهو فى حضن الاب رمزاً للمحبة والحنان والشركة السعيدة . الابن مسرته فى الآب ، والآب مسرته فى الإبن .

٣ ــ كما تكشف لنا أيضاً عن مشورات الأزل بين الأب والإبن. سرُّ الفداء الذى كان فى أعماق فكر الله قبل الدهور ، كان معروفاً ، ومعلنا ، ومتفقاً عليه بين الآب والإبن، بين الله والكلمة الأزلى .

وهكذا يؤكد يوحنا فى بداية بشارته أنه فى يسوع ، ويسوع وحده ، قد أعلنت مشاعر الله تجاه البشر ، بل أعلن شخص الله للانسانية جمعاء .

خالق كل الأشياء

« كُلُّ شَىْءٍ بِهِ كانَ وبغَيرِهِ لَمْ يَكُنْ شَىْءٌ مِمَّا كانَ » .

(يوحنا ١ : ٣)

هنا نرى الوحى ، يؤكد الوسيلة الوحيدة التى بها خلق العالم ، فهو يربط عملية الخلق ، بشخص يسوع ، ولقد كان هذا أسلم طريق للرد على بدعة الغنوسيين .

ولقد أشرنا قبل ذلك إلى الغنوسية ، وقلنا ان البشارة الرابعة كتبت فى وقت حاولت الغنوسية أن تسود على المجتمع المسيحى لذلك كان من الطبيعى أن يتصدى الوحى لهذه الهرطقة ويقاومها فى مهدها . ولقد أظهرنا جانبا من

جوانب هذه الهرطقة التى لم يعجبها الإيمان المسيحى فى بساطته ، فحاولت أن تفسر المسيحية بنظراتها الفلسفية . ولا بأس أن نتوسع قليلا فى الحديث عن نظرياتها عن الخلق، لما فى ذلك من مساس بموضوعنا هذا .

فلقد كانت الغنوسية تنادى بأنه فى البدء كان أثنان : الله ، والمادة . فمنذ كيان الله وجدت المادة . والمادة هى المظهر الخام ، والعناصر التى منها تكون الوجود ، ومافيه . ولقد كانت المادة التى خلق منها الوجود ، ناقصة غير كاملة أو بمعنى آخر أن العالم حينما خلق ، خلق من أساس دنىء . فالمادة التى صنع منها تحوى فى جوهرها ، عناصر الفساد والشر . ولكن الله روح نقى . وكيف يمكن للروح النقى الكامل أن يصدر عنه هذا العالم الفاسد ، أو يكون فى اتصال به ؟ وكيف به أن يلمس المادة ، أو يكون فى صلة بها ؟ ولذلك لم يكن من الممكن أن يقوم الله بخلق هذا الوجود الفاسد . وهكذا صدرت عن الله سلسلة من الظهورات ، أو الصدورات ، كل منها يتباعد شيئاً فشيئاً عن ذات الله ، وتقل معرفته به على قدر بعده عنه . حتى إذا وصلنا إلى منتصف الطريق فى هذه السلسلة جاءت « صدورات » تجهل بالكلية كل شىء عن الله . فإذا وصلنا إلى الطور النهائى والأخير ، ظهر صدور ، ليس يجهل كل شىء عن الله وحسب ، بل بالتالى فى عداء له . وهذا الصدور الأخير هو الذى يستطيع أن يقوم بخلق العالم ، والاتصال بالمادة الشريرة ، فهو الذى تمّ على يديه خلق الوجود. فالله الخالق عند الغنوسيين، هو إله منفصل كل الانفصال عن الله الحقيقى بل هو فى عداء معه .

ثم اندفع الغنوسيون ، ليطبقوا نظرياتهم الباطلة على اللاهوت المسيحى ، قالوا ان الله الخالق فى العهد القديم ، لاصلة له بأبى ربنا ، ومخلصنا يسوع المسيح

بل هو فى عداء معه، وفى أيام يوحنا انتشرت هذه البدعة بين المسيحيين البسطاء وسادت على عقول الناس العقيدة بأن هذا الوجود المادى شرير ، وأن الإله الذى خلقه ، لابد أن يكون إلها شريراً .

وهكذا ليدحض هذه البدعة ، تقدم يوحنا هنا ليرسى قاعدتين أساسيتين من قواعد الحق المسيحى . فهو يؤكد هنا الصلة الكائنة بين يسوع ، وبين الخليقة. وعلى النمط عينه نرى بولس يتحدث فى رسالته إلى أهل كولوسى قائلا عن المسيح « فإنه فيه خلق الكل ، مافى السموات ، وماعلى الأرض ، مايرى ومالايرى سواء أكان عروشاً ، أم سيادات ، أم رياسات ، أم سلاطين الكل به ، وله قد خلق» (كولوسى ١ : ١٦) .

وفى رسالته الأولى إلى كورنثوس ، نستمع إلى نفس النغمة تتكرر عن شخص الرب يسوع « الذى منه جميع الأشياء » (كورنثوس الأولى ٨ : ٦) أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فيتحدث عن الابن « الذى به أيضاً عمل العالمين « (عبرانيين ١ : ٢). نقول ان يوحنا ، وكل كتَّاب العهد الجديد ، قد أكدوا حقيقتين رئيسيتين عن الخالق :

الأولى : ان المسيحية تؤمن على الدوام بالخلق من لاشىء أى من العدم . فالله حينما خلق هذا الوجود ، لم يعتمد على مادة صالحة أو طالحة ، لتشكيل كل ما فيه ، بل: قال كن ، فكان . كما أن الوجود حينما خرج من بين يدى الله ، لم يكن يحوى أى عجز ، أو قصور ، أو فساد . ان عملية الخلق لم تبدأ بالله معتمداً على شىء آخر ، بل بدأت بالله فقط . فوراء كل ماهو منظور يوجد الله ، وليس سواه .

الثانية : ان المسيحية تؤمن بأن هذا الوجود هو وجود الله . فالله هو المهيمن المسيطر ، والمسير لهذا الوجود . لقد حاول الغنوسيون أن يرجعوا

باللوم على الخالق ، بسبب ما فى الوجود من شرور ومآسٍ . ولكن المسيحية تؤمن بأن كل ما هو خطأ فى هذا الوجود مردّه إلى عدو الخيرَ ، وإلى خطية الإنسان . وبالرغم من أن الخطية قد شوّهت هذا الوجود ، وأوصلته إلى ما وصل إليه من تعاسة وشقاء ، فإننا لا ينبغى أن نحتقره ، أو نبغضه لأنه منذ البداية هو الوجود الذى أبدعته يدا الخالق . كما أن الخطية لم تكن فى مخططه أو برامجه ، حينما قام بالخلق .

لقد كان له العلم بما سيحدث . وان كنا نؤمن بهذا الحق ، فإن هذا يهبنا إحساساً جديداً بقيمة الوجود ، ويضع على اكتافنا مسئولية جديدة تجاهه . هناك قصة تروى عن طفلة صغيرة كانت تعيش فى المدن حينما أتيحت لها الفرصة لزيارة الريف • وكان الوقت ربيعاً ، والزهور تكسو الحقول . وفى براءة الأطفال قالت لمن معها ، وقد ظهر عليها التردد : « هل تظن أن الله يغضب لو قطفت زهرة من زهوره الجميلة » ؟ ! . إن احساسنا بأن هذا الوجود هو وجود الله ، وان كل شيء يسيطر بقدرته عليه ويرعاه ، يعطينا معنى جديداً لكافة الأشياء ، ويهبنا أحساساً مرهفا بالمسئولية الموضوعة على عاتقنا . فينبغى أن نستخدم كل ما بأيدينا كأنه ليس ملكا لنا ، وكأننا مجرد وكلاء عليه ، سنعطى حساب وكالتنا لصاحب هذا الوجود . إن المسيحى لا يحتقر الوجود ، ولا يعتقد بأن يدا أخرى غير يد الله قد قامت بابداعه . انه يمجد الله فى الطبيعة الحية ، ويرى كل ما فى الوجود مسبحا باسم الله بالرغم من القصور والخطية ، والآلام الناشئة عن خطية الإنسان ، إنه يؤمن بأن اليد التى ثُقبت على خشبة العار فى سبيل فداء الإنسانية ، وانقاذها من الخراب والهلاك ، هى التى قامت بأبداع هذا الوجود أولا . وما عملية الفداء إلا طريق الله بواسطة المسيح ، ليعيد خلق الوجود من جديد للمرة الثانية ، بصورة أكمل وأمجد ، مما حدث فى المرة الأولى .

الحياة والنور

« فِيهِ كَانَتِ ٱلْحَيٰوةُ وَٱلْحَيٰوةُ كَانَتْ نُورَ ٱلنَّاسِ »

(يوحنا ١ : ٤)

إن أى موسيقار ، حينما يريد أن يكتب سيمفونية موسيقية، يبدأ قبل كل شيء بوضع الخطوط الرئيسية التى يسير عليها . وهذا ما عمله يوحنا هنا . ففى البشارة الرابعة نراه يرسى دعامتين رئيسيتين ، يقوم عليهما بناء البشارة كله : الحياة والنور .

فهو يبدأ بشارته بالحياة ، وينتهى أيضا بها. فى بدايتها نستمع إليه يتحدث عن يسوع قائلا: «فيه كانت الحياة » . وقرب نهايتها نصغى إليه يقول إن « هذه قد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ، ولكى تكون لكم إذا آمنتم ، حياة باسمه » (يوحنا ٢٠ : ٣١) . وكلمة الحياة نستمع إليها على الدوام خلال فصول البشارة الرابعة، وهى تتكرر من شفتى يسوع .فهو يتألم لأن كثيرين لا يريدون أن يأتوا إليه لتكون لهم حياة (٥: ٤٠). وهو فى موضع آخر ينادى بأنه هو واهب الحياة للناس، وان الذين فى يده لا يستطيع أحد أن يخطفهم منه (١٠ :٢٨). وهو يعلن على رؤوس الأشهاد ، أنه وحـــده الطريق ، والحق ، والحياة . (١٤ : ٦). وفى البشارة كلها ، تتكرر كلمة الحياة مايزيد على خمسٍ وثلاثين مرة . أما الفعل ، يحيا، أو تكون له الحياة، فإنه يتردد أكثر من خمس عشرة مرة . ترى ما الذى يقصد الوحى بهذه الكلمة ؟

١ — الحياة فى أبسط معانيها، نقيض الموت والخراب والهلاك «فالله قد أرسل أبنه الحبيب لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» .

(٣ : ١٦) « وكل من يسمع ويؤمن بالأبن له حياة أبدية ، ولا يأتى إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة » . (٥ : ٢٤). وهناك فارق بين القيامة للحياة والقيامة للدينونة (٥ : ٢٩) . فالذين يهبهم يسوع الحياة لن يهلكوا إلى الأبد (١٠ : ٢٨) . والإيمان بيسوع يهب الإنسان الأمان هنا ، وفى العالم الآتى . وما لم نقبل يسوع مخلصا لنا ، ونجلسه ملكا على عرش قلوبنا ، لا نستطيع أن نقول اننا أحياء على الأطلاق . إن الإنسان الذى يعيش بلا مسيح إنسان موجود ، ولكنه ليس إنساناً حياً ، وهناك فارق عظيم بين الوجود والحياة . ويسوع هو الوحيد الذى يهب الحياة ، والذى فيه يصبح للموت مقدمة لحياة أكمل ، وأعمق .

٢ — ومع أن يسوع هو معطى الحياة ، إلا أن البشارة تتحدث أيضاً عن الله الآب كمصدرها وباعثها . فإرادة الآب أن كلّ من ينظر إلى يسوع ، ويؤمن به تكون له الحياة (٦ : ٤٠). وهو يعطى الحياة لأن الآب قد ختمه وأرسله للعالم (٦ : ٢٧) . وهو يهب الحياة الأبدية لكل من أعطاهم الاب له (١٧ : ٢) . فوراء كل شىء الله الآب ، وكأنى بالآب يقول « لقد خلقت البشر لكى تكون لهم حياة حقيقة ، ولكنهم فى خطيتهم قد انقطعوا عن مجمع الأحياء ، ولم يصبح لهم إلا الوجود . وهكذا أرسلت ابنى الحبيب ليعيد إليهم بركة الحياة مرة ثانية » .

٣ — وما هى الصفة الجوهرية المميزة لهذه الحياة؟ تقول البشارة انها حياة أبدية . وسوف نعرض بالبحث لهذه الكلمة فيما بعد . ولكن يكفينا الآن أن نلاحظ أن الصفة التى يستخدمها يوحنا للحياة ، والتى ترجمت إلى كلمة أبدية ، قد وردت فى اليونانية بلفظ « أيونيوس » ، ولكن هذه الكلمة لا تعنى على الاطلاق استمرار هذه الحياة الحاضرة إلى الأبد . فحياتنا هذه بصورتها الحاضرة ، إذا استمرت للأبد لن تكون بركة لنا ، بل تكون لعنة رهيبة .

وما الموت إلا اليد الرحيمة التى تقطع عنا ربط هذه الحياة بويلاتها القاسية . ان الحياة الأبدية التى تتحدث عنها البشارة هنا هى اسمى من مجرد استمرار هذه الحياة . انها لا بد وأن تكون حياة ذات صبغة جديدة . والصفة المستخدمة هنا تفسر نفسها بنفسها . فكلمة « أيونيوس » تلازم على الدوام ذات الله وترتبط به إن البشارة تتحدث عن الإله الأبدى ، كما تصف هذه الحياة بالأبدية. فالله هو وحده « أيونيوس » أبدى لذلك فالحياة المذكورة هنا ليست سوى حياة الله نفسه . ان ما يتقدم به يسوع للمؤمنين باسمه ، ليس أقل من حياة الله ، وهو يدعونا لهذا الاختبار المبارك المجيد .

٤ — وكيف ننال هذه الحياة الأبدية ؟ ما هو الطريق إليها ؟ الطريق الوحيد هو الإيمان بالرب يسوع المسيح . وكلمة « يؤمن » قد وردت فى البشارة لا أقل من سبعين مرة . «فالذى يومن بالابن له حياة أبدية » (٣:٣٦) . « ومن يؤمن بى فله حياة أبدية » .. (٦:٤٧) وماذا يعنى الوحى بالإيمان؟ إنه يعنى أمرين:

الأول : اننا ينبغى أن نتيقن أن يسوع هو فعلا وحقيقة ، ابن الله الحى . فإن كان يسوع إنساناً . انساناً كاملا ولا شىء آخر ، فليس هناك من داع يدفعنا الى طاعته وتسليم الحياة له . ينبغى أن نقرر فى أنفسنا مَن يكون يسوع . ينبغى أن تكون لنا عقيدتنا الثابتة عنه لنعرفه ، لندرسه ، لنتعمق فيه ، لنتأمل فيه ، وحينذاك لا بد وأن يقودنا البحث والمنطق ، إلى أن ذاك الذى حلّ على أرضنا منذ ألفى عام ، وجال بين الناس يصنع خيراً ، وختم حياته بميتة العار فى سبيلنا ، ليس سوى الله قد ظهر فى الجسد .

الثانى : لكن هناك ما هو أعمق من الإيمان العقلى . ان الإيمان بيسوع معناه أن نقبل كلامه ونثق به . . . ألاّ يعترينا الشك فى كلمة نطق بها . . أن نفتح عقولنا ، وقلوبنا ، لوصاياه وتعاليمه ، ونرتبط بها . . أن نوقن بأننا

لا نستطيع إلا أن نقبل كلمته كالحق الألهى ، ونعمل على أساس هذا اليقين .
ان الإيمان عند يوحنا ، له درجات ثلاث ، فهو أولا اقتناع العقل بأن يسوع هو ابن الله. هذا هو الإيمان العقلى . وهو ثانيا الثقة فى القلب بأن كل ما قاله صادق وحق . هذا هو الإيمان القلبى . وهو أخيرا بنيان الحيـاة ، كل صغيرة وكبيرة فيها ، على أساس هذا اليقين . هذا هو الإيمان العملى . حينما نصل إلى هذا الحد ، فإننا نختبر الحياة الحقة ، وننتقل من عالم الوجـــود ، إلى عالم الأحياء . اننا نختبر حينذاك الحياة بأحرف كبيرة .

الحياة والنور (تابع)

« فِيهِ كَانَتِ ٱلْحَيٰوةُ وَٱلْحَيٰوةُ كَانَتْ نُورَ ٱلنَّاسِ »

(يوحنا ١ : ٤)

قلنا ان المفتاحين الرئيسيين، فى سيمفونية البشارة الرابعة ، هما الحياة والنور . ولقد عرضنا للمفتاح الأول فى السطور السابقة. وفى السطور التالية سنتحدث عن النور :

وكلمة « النور » تتردد فى البشارة لا أقل من إحدى وعشرين مرة. فيسوع كما تقول الآية، هو نور الناس . وما ظهر المعمدان ، وقام بدوره فى مجال الخدمة إلا للشهادة .. ليشهد للنور . ويتحدث يسوع مرتين عن نفسه قائلا انه نور العالم(٨ :١٢، ٩ : ٥). وهذا النور يمكن أن يحل فى قلوب البشر(١١ : ١٠) حتى يصبحوا أبناء النور (١٢ : ٣٦) . ويقول يسوع « جئت نورا للعالم حتى كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة » (١٢ : ٤٦) .

دعنا نحاول أن ندرك شيئـا عن ذلك النور الذى اشرق به يسوع على العالم .ان صفات ثلاثا تبرز أمامنا فى تأملنا فى ذلك النور العجيب :

١ — فهو أولا نور طارد ماحق انه النور الذى يطرد ظلمة الخراب ، والهلاك ، والأضطراب ، والتشويش. فى قصة الخلق نقرأ عن روح الله ، وهو يرف فى الظلمة القاسية، على وجه الغمر ، والخراب .

ونستمع إلى الصوت الإلهى يهتف قائلا : « ليكن نور » (تكوين ١ : ٣) وما لبث نور الله الساطع أن أشرق ماحقا أمامه الخراب والظلمة والدمار. هكذا بالتمام يسوع . انه النور الذى يضىء فى الظلام (١ : ٥) فلا تدركه الظلمات ولا تغلبه ، بل تهرب أمامه ، وتنمحى . انه الوحيد الذى يستطيع أن ينقذ الحياة من عوامل الفوضى ، والإرتباك ، والإضطراب انما إذا تُركنا لأنفسنا ، فإننا نقع فريسة لنوازعنا . . لغرائزنا . . لمخاوفنا . . لهمومنا ، ولكن حينما يشرق يسوع بنوره فى الحياة ، فإنه يبدد كل ظلام . ان حياتنا ممتلئة بكل أنواع الظلمة ، من المخاوف الغريزية ، إلى ظلمة الخطية ، إلى الدينونة الآتية ، ولكن النور فى مقدوره أن يبدد كل هذه . هناك قصه تروى عن صبى حلّ ضيفا فى بيت غريب ، وأفردت له ربة البيت حجرة خاصة ، وظنت انها تزيد فى اكرامه ، حينما أوى إلى فراشه ، فأضاءت النور . ولكن الصبى أشار إليها بأن تطفئه . وفى عجب قالت السيدة « ظننت انك لا تستطيع أن تنام فى الظلام » وعندها أجاب الصبى : « وكيف بى أخشى الظلام ، ووجه يسوع الحلو ينير المكان ؟! »

٢ — وهو ثانيا نور فاحص كاشف . ان النور الذى يشرق به يسوع هو نور كاشف ، ان الأشرار قد أحبوا الظلمة أكثر من النور ، لأن أعمالهم كانت شريرة ، لأن كل من يفعل السيئات يبغض النور ، ولا يقبل إليه لئلا توبخ أعماله ، كما تهرب الخفافيش عند إشراق الصبح (٣ : ١٩ — ٢٠) . فالنور يوبخ كل ما هو ردىء . انه يظهر النفس على حقيقتها ، انه يجرد الإنسان

من ثياب تنكره ورداء ريائه ، انه يعلن الحقيقة العارية : قلب الإنسان ، وأعماق ذاته قديماً قال الفلاسفة فى سخرية لاذعة ان الناس يبغضون الحق ، لأن النور يؤذى الأعين الرمداء ، وعناك صورة رمزية غريبة وردت ضمن أشعار الراهب كيدمون. فهو يصور لنا فى شعره يوم الدينونة الرهيب ، وفى وسط المشهد يرتفع الصليب، ومن الصليب يشع نور أحمر مخيف ، بلون الدم، وهذا النور له خاصية عجيبة ، يكشف الأشياء على حقيقتها ، انه ينفذ من الثياب ، والأغطية ، والأقمطة الخارجية إلى الأعماق ، وكل شيء يبدو أمامه عريانا ، مكشوفا ، بلا تعميق ، ولا اختفاء .

وهذا بالتمام مايفعله نور يسوع . اننا لن نستطيع أن نعرف نفوسنا على حقيقتها ، إلا إذا تطلعنا إلى ذواتنا بعيني يسوع . وحينما نعرف حقيقة ذواتنا ، وضعفنا ، فإن هذا يدفعنا إلى أحضان الله عن طريق ابن محبته . .

٣ – وهو ثالثاً نور « مرشد » هاد فمالم يسطع فينا ذلك النور ويبين الطريق أمامنا، فاننا نسير فى الظلام ، ولا نعلم اين نمضى لأن الظلمة تعمى أعيننا (١٢ : ٣٦) . وحينما يقبل الإنسان هذا النور بالإيمان ، فانه لايسير بعد فى الظلمة (١٢ ـ ٤٦). إن الظاهرة المتكررة التى نلمحها فى قصص الانجيل عن أولئك الذين أتوا إلى يسوع تبدو فى سؤالهم « ماذا ينبغى أن أفعل ؟ ». فحينما يطرق يسوع باب الحياة ، ويلج إلى الأعماق ، فأن مظاهر الشك تختفى ، وعدم اليقين لايجد له مكانا . والطريق الذى كان مظلماً يتألق بالنور . والعقل الذى يخالجه الشك وتختلط عليه السبل يبدو كل شيء أمامه واضحا كل الوضوح ـ اننا بدون يسوع نكون كسائح ضال يخبط فى الصحراء ، فى ليلة داجية بلانجوم .

الظلمة المعادية

« وَٱلنُّورُ يُضِيءُ فِي ٱلظُّلْمَةِ وَٱلظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ »

(يوحنا ١ : ٥)

هنا نرى إحدى الكلمات الرئيسية الأخرى التي ترد في البشارة، وهي كلمة ترد سبع مرات في البشارة. ان الظلمة السائدة على العالم هي في نظر يوحنا ظلمة حقيقية واقعية، كالنور تماماً.

١ ــ ان الظلمة على الدوام في عداء مع النور. النور يسطع في الظلمة، والظلمة تحاول جاهدة أن تطفئه ولكنها لا تستطيع: والإنسان الخاطيء يبغض النور، لأن النور يكشف أعماله، ويوبخها. اننا نقرأ عن اتباع زرادشت أنهم كانوا يؤمنون بقوتين عظيمتين متضاربتين تسيطران على الوجود: إله النور، وإله الظلمة ــ أهريمان، وأرمزد.

وما الوجود كله إلا ميدان قتال لهذه المعركة الأزلية الأبدية بين النور والظلمة. ومصيرنا يتوقف على أي من الاثنين نختار للوقوف إلى جواره. وكأني بيوحنا يقول على نمط هذا الفكر القديم: « لقد أتى يسوع نوراً للعالم الذي ساد عليه الظلام. وعملت الظلمة جاهدة لتدركه، لتلحق به.. لتقبض عليه وتظفر به وتطفئه، لكنها لم تستطع أن تنتصر عليه. فهو النور الذي لا يُقهر. إن الظلمة تبغضه، وتحاربه وتقاومه، ولكنها لا تقدر أن تتخلص منه. كما قيل ان نور الشمعة الواحدة لن تنتصر عليه ظلمة الوجود كله. ولكن يسوع هو شمس البر الذي لابد وأن ينتصر على جحافل الظلام. وكأني بيوحنا يقول لنا أيضاً: اختاروا اليوم الجانب الذي تريدون الوقوف

إلى جواره . وليكن اختياركم صائباً . تعالوا لتختاروا الوقوف إلى جانب النور فى هذه المعركة الأزلية الأبدية .

٢ ـ وهذه الظلمة تضم فى محيطها كل من يبغض الحق . فلا يبغض النور «إلا من كانت أعماله شريرة، لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور» (٣: ١٩ ـ ٢٠) . وكل من لديه شىء لا يريد أن يظهره ، يبغض النور ويحب الظلام . ولكن هل يمكن إخفاء أمر عن عينى الله؟ ان نور الله الفاحص يغمر كل مكان بل يحول الظلمة نفسها إلى نور . «الظلمة أيضاً لا تظلم لديك ، والليل مثل النهار يضىء ، كالظلمة هكذا النور» .

٣ ـ وقد ترمز الظلمة إلى الجهل ، الجهل المتعمد الذى يرفض نور المسيح. لقد قال السيد «جئت نوراً للعالم حتى كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة» (١٢ ٢٦) . «أنا هو نور العالم. من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة بل يكون له نور الحياة» (٨ ـ ٢٢) . وقال أيضاً لليونانيين «النور معكم زمانا قليلا بعد . فسيروا فى النور مادام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذى يسير فى الظلام لا يعلم إلى أين يذهب» (١٢ ـ ٣٥). فالإنسان بغير يسوع لا يستطيع أن يرى الطريق . . صرخ «جوته» الفيلسوف الألمانى ساعة موته «النور . . أضيئوا النور» . وقال واحد من قادة الاسكتلنديين للذين حوله فى لحظاته الأخيرة : «أضيئوا النور لأرى كيف أموت» . ان يسوع هو النور الذى يضىء طريق الحياة ، وهو النور الذى يسطع فى وادى ظلال الموت .

على أننا نستطيع أن نستشف من خلال الأحداث التى تحدث فيها يوحنا عن الظلمة أشارات رمزية تتعمق إلى أكثر من الظلمة المادية . فحينما أتى يسوع إلى تلاميذه سائرا على مياه بحيرة طبرية ، حينما كان التلاميذ معذبين فى التجديف ، نقرأ القول . «وكان الظلام قد أقبل ، ولم يكن يسوع قد أتى إليهم»

(٦ : ١٧). فبدون محضر يسوع الكل ظلام فى ظلام . ثم فى صباح القيامة ، قبل أن يعرف تلاميذه بأنه قام منتصراً على الموت ، نقرأ قوله فى مستهل الاصحاح العشرين : « وفى أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر والظلام باق » (٢٠ : ١) . لقد كانت تعيش فى عالم ظلمته أنه قد خلا من المسيح . فالمسيح، حسب ظنها كان فى القبر ، وعلى القبر حجر كبير ،لذلك فعالم كهذا لا بد وأن يسوده الظلام ، وفى قصة العشاء الأخير حينما اجتمع التلاميذ حول مخلصهم لتناول الفصح ، وفى أثناء اجتماعهم أعلن السيد الحقيقة المؤلمة ، حقيقة خيانة يهوذا ، وأعطى اللقمة لتلميذه الخائن ، « فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت ، وكان ليلا » (١٣–٣٠) . لقد كان الليل الذى سار فيه رمزاً لظلمة اليأس ، والخطية ، والعار ، والموت ، والأبدية التى تخلو من يسوع .

إن الحياة بدون يسوع ، حياة يسيطر عليها الظلام ، فى الزمن ، وفى الأبدية . والإنسان الذى يدير ظهره ليسوع وخلاصه العجيب يتخبط على غير هدى ، ولا يعلم أين يمضى ، لأن الظلمة قد أعمت عينيه . .

وقبل أن نختم هذا التأمل،هناك أمر آخر ينبغى أن نلاحظه ، إن الكلمة التى ترجمت (تدركه) فى الأصل اليونانى ، تحتمل معانى ثلاثة .

المعنى الأول: قد يفيد بأن الظلمة لا تستطيع أن تفهم النور . وهذا له مدلوله الرمزى ، فالإنسان الطبيعى ، إنسان العالم ، لا يستطيع أن يفهم شخص المسيح ولا خلاص المسيح ، ولا وصايا المسيح . انه يتطلع بعين الجهل والغباء ، إلى الكنوز المقدمة له ، فلا يرى فيها شيئا ، ولا يقيم لها وزنا . إن الإنسان البعيد عن شخص المسيح ، الذى لم يسلم له القلب والحياة ، لا يستطيع أن يدرك عمل المسيح .

والمعنى الثانى : ان الظلمة لم تستطع أن تنتصر على النور . إن الكلمة

فى الأصل اليونانى ،قد تعنى : يتبعه حتى يلحق به ، ثم يلقى الأيادى عليه ويغلبه ولقد حاولت الظلمة بكل الوسائل ، أن تنتصر على شخص المسيح فى طفولته ، وفى خدمته، وفى صليبه وموته . ولـكنه استطاع فى النهاية أن يسحق الخطية والموت ، ويقوم جباراً منتصراً .

المعنى الثالث : ان الظلمة ليست فى مقدورها أن تطفىء النور ولقد حاول رئيس قوات الظلمة بكل وسيلة أن يطفىء النور الإلهى الذى يسطع فى شخص المسيح ليضىء العالمين ، فلم يستطع . وتقدم بالاضطهادات لأتباعه ، بالبـدع والهرطقات لمقاومة حقه . . بالتحزبات والشقاقات فى كنيسته ، ومع كل هذا فإن نور المسيح يتزايد من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل ، حتى يصل إلى النهار الـكامل ، فى مجيئه الثانى ، وملـكوته الشامل .

الشهادة للسيد المسيح

« كَانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ ٱللهِ ٱسْمُهُ يُوحَنَّا . هٰذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ لِـكَىْ يُؤْمِنَ ٱلْـكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ . لَمْ يَـكُنْ هُوَ ٱلنُّورَ بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ ».

(يوحنا ١ : ٦ — ٨)

من الحقائق التى تدعو للدهشة ، والتى نلمسها بوضوح فى البشارة الرابعة أن كل إشارة ليوحنا المعمدان تتبعها كلمة تحط من قدره ، أو تضعه فى مكان أقل . ولهذه الحقيقة ما يفسرها .

فقد كان المعمدان صوتاً هاتفاً من أصوات النبوة . ارتفع بين الناس بعد صمت يزيد على أربعة قرون كاملة . لقد كان صورة من أنبياء القديم .

ولقد ارتفع بسبب هذا إلى مرتبة عظمى فى أعين الشعب . ورفعه البعض إلى مركز أعظم مما يليق به . بل أن هناك من الدلائل الكثيرة ما يشير إلى أنه كانت هناك هيئة تحفظ وصايا المعمدان ومراسيم عماده وتنادى بها . وهذه الهيئة نجد صدى لها فيما ورد فى سفر الأعمال (١٩ : ٣ : ٤) . وفى أفسس التقى بولس بجماعة لا تعرف شيئاً إلا معمودية التوبة عن الخطايا التى نادى بها المعمدان . لذلك فلا يقصد كاتب البشارة أن يوجه الطعن إليه ، أو يقلل من قيمة الدور الذى قام به . ولكن السبب كما قلنا ، هم أولئك الذين رفعوا المعمدان الى مقام مساو لمقام المسيح . وهكذا أتى يوحنا ليعلن أن المعمدان مهما سما فإن نسبته للمسيح لا تزيد عن نسبة الخادم لرب البيت . ان خدمته لا تدخض ومقامه كممهد الطريق للملك القادم لا ينسى . ولكن ترتيبه يأتى بعد شخص المسيح . فذاك الذى جاء بعد المعمدان ، صار قدامه لأنه كان قبله . إنه ليس النور بل مجرد الشاهد للنور (١ : ٨) . وهو ليس المسيح ، أو النبى العظيم الذى تحدث عنه موسى ، كما شهد هو عن نفسه (١ : ٢٠) .

وحينما أتى اليه اليهود ، وأخبروه أن يسوع قد بدأ خدمته الجهارية كانوا يتوقعون منه أن يستنكر هذا الموقف . ولكننا نراه ينكر على نفسه المقـــام الأول ، ويعـــــترف بأن يسوع ينبغى أن يزيد ، أما هو فينقص . (٣ : ٢٥ ، ٣٠) .

ويؤكد البشير أن خدمة يسوع كانت أكثر نجاحا من خدمة يوحنا (٤ : ١) بل أن الجموع شهدت أن المعمدان لم يعمل معجزة واحدة مما قام به يسوع . (١٠ : ٤١) ولعل هيئة قد قامت فى قلب الكنيسة وحاولت أن ترفع من قدر المعمدان ، فى العصر الرسولى الأول ، ولكن البشير تصدى لهذه الهيئة مؤكدا بكل طريق أن هذا ليس المسيح وأننا لا ينبغى أن نعطيه المجد اللائق

بالسيد. وقد يحدث أحيانا أن يبهر أنظار الشعب ، رجل من رجال المنبر ، وقد يرون فيه شيئاً عظيماً فيقدمون له الاكرام اللائق بالمسيح • إن ماحدث فى العصور الأولى ، كثيراً ما يتكرر حدوثه • كثيراً ما يجتذب الياور أنظار الجماهير، أكثر من الملك نفسه — وأننا لانلوم المعمدان لأجل هذا، ولكن الوحى أراد أن ينبهنا الى انه ينبغى ألاّ نضع مخلوقاً ما على العرش بجوار يسوع •

ومن المهم أيضاً أن نلاحظ فى هذه الآية ، احدى الكلمات الرئيسية فى البشارة الرابعة• وهذه الكلمة هى: «الشاهد» • ان البشارة الرابعة تقدم لنا الشاهد بعد الآخر على مقام السيد المسيح وحقيقته • وفى البشارة الرابعة نستمع الى شهادة ثمانية شهود يتحدثون عن مقام يسوع الفريد •

١ — فهناك قبل الكل شهادة الآب . قال السيد مرة لليهود « الآب نفسه الذى أرسلنى يشهد لى » (٥ : ٣٧) . « يشهد لى الآب الذى أرسلنى » (٨ : ١٨) . ترى ماذا يعنى يسوع بهذا القول ؟ اعتقدأنه يهدف إلىمعنيين : الأول أنه يشير بهذه الشهادة إلى حقيقة تمس دائرة مشاعره الشخصية . فمن أعماق قلبه كان صوت الآب يتحدث له شاهداً بحقيقة جوهره الإلهى ، بحيث أن هذا الصوت الواضح لم يدع مجالا للتساؤل، عمنّ هو،وعن الهدف من إرساليته. إنه يرى أن اختياره للدور الذى قام به ، كان مرتباً من قبل الآب قبل الدهور الأزلية. لقد كان له الاقتناع الداخلى بأن مجيئه إلى العالم، وموته على الصليب ، هو بترتيب من الآب لخلاص البشرية جمعاء . . أما المعنى الثانى فهو يشير إلى حقيقة تمس مشاعر الناس . فلا بد وأن الذين عرفوه ، واختبروه ، وعاصروه قد لمسوا فيه ما هو أكثر من الإنسان . ان أى إنسان يلتقى بالمسيح ، ويعرفه إختباريا ، لا بد وأن يهتف مع بطرس قائلا : أنت المسيح ابن الله الحى » . قال

أحد المفكرين : « ان العالم لن يستطيع أن يتخلص من قبضة ذاك المعلَّق على خشبة العار » .

وهذه القوة الداخلية التي تدفعنا أن نعود بأفكارنا ، وأنظارنا ، وقلوبنا ، إلى المصلوب ، مهما حاولنا أن نبتعد عنه ، أو نتناساه . . هذا الصوت الداخلي الذي يؤكد لنا سلطانه ومحبته في الوقت نفسه ، لا بد وأن يؤكد لنا أيضاً أنه ابن الله مخلص البشرية . وهذه شهادة الآب لنا .

إن شهادة الآب التي تحدث عنها المسيح ، تتجه لتعلن حقيقته في أعماق السيد نفسه ، كما تتجه بالاقناع في قلوب البشر . .

٢ — وهناك شهادة يسوع لنفسه. يقول السيد « أنا هو الشاهد لنفسي » (٨ : ١٨) . « وان كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق . لأني أعلم من أين أتيت . وإلى أين أذهب » (٨ : ١٤). ما معنى هذا ؟ انه يعني أن يسوع هو تماما كما شهدعن نفسه ، وأنه أعظم شاهد لأصله ، وحقيقة رسالته . وأننا نستمع إليه يتحدث عن نفسه كنور العالم ، والخبز الحي الواهب حياة للعالم . والطريق الوحيد لإرضاء الله ، وخلاص الإنسان ، والواحد مع الآب ، ومخلص البشرية جمعاء . ونثق بأن كل كلمة صدق وحق ، لأنه برهن بأعماله وحياته على صدق أقواله . .

٣ — وهناك شهادة الأعمال . يقول السيد « الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها . هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها ، هي تشهد لي أن الاب قد أرسلني (٥ : ٣٦) . « الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي » (١٠ : ٢٥) . وفي حديثه مع فيلبس يخبره أنه واحد مع الاب . ثم يؤيد كلامه بالقول « صدقوني أني في الآب والآب في . وإلاّ فصدقوني لسبب الأعمال نفسها » (١٤ : ١١) . وأحد بنود الدينونة الموجهة ضد غير المؤمنين به ، أنهم لمسوا أعماله

ولم يؤمنوا « لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالا لم يعملها أحد غيرى لم تكن لهم خطية. أما الان فقد رأوا وأبغضونى » (١٥: ٢٤).وينبغى ألاَّ يفوتنا أنه حينما يتكلم يوحنا عن أعمال يسوع ، فإنه لا يقصد معجزاته فقط ، ولكنه يقصد حياته بجملتها ، ليس اللحظات المعجزية الحاسمة فى حياته فحسب ، بل كل لحظة من لحظات حياته التى قضاها على الأرض . فما كان ممكنا أن يقوم يسوع بما قام به من معجزات ، لو لم تكن له حياة الشركة القوية مع الآب . فوراء معجزات أعماله ، توجد معجزة صلته القوية الخفية بالله الآب ، والتى لم تنقطع لحظة واحدة . ولو لم يكن فى الآب ، والآب فيه، ما كانت له حياة الخدمة والتضحية والمحبة ، التى ختمها بأروع تقدمة قدمت فى سبيل الأنسانية،تقدمة حياته ودمه. ان وراء أعماله المعجزية، توجد حياته المعجزية . وفى هذا لنا تعليم واضح، أن أقوى دليل على شركتنا القوية مع الله ، وحياة المسيح فينا ، ليس بما نقوم به من أعمال عظيمة ، بل ما لنا من حياة مباركة نحياها كل ساعة ، وكل لحظة . ان بنود الحياة العادية هى التى تظهر مَن نحن ، ولمن نحن .

٤ — وهناك شهادة الكتب عنه . يقول يسوع « فتشوا الكتب ، لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية ، وهى التى تشهد لى » (٥ : ٣٩) وقال أيضاً لليهود: « لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه هو كتب عنى »(٥ : ٤٦).ولقد كان من أسباب إيمان فيلبس بالمسيح أنه وجد« الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء » (١: ٤٥).وخلال تاريخ اسرائيل الطويل ، كان الشعب يحلم بالمسيًّا ، فمن الناموس والأنبياء ، عرفوه ، وتكونت صورته فى مخيلتهم ، وها هم يطبقون هذه الصورة التى تتركز فيها أحلامهم وآمالهم على شخص يسوع المسيح . وأخيراً جاء ذاك الذى انتظره العالم طويلا .

٥ — وهناك شهادة آخر الأنبياء عنه : يوحنا المعمدان: «هذا جاء للشهادة

ليشهد للنور » (١ : ٧ — ٨) . ولقد شهد المعمدان ، بأنه رأى الروح القدس فى هيئة جسمية ، يحل على يسوع . ان خاتم الأنبياء والمرسلين ، همزة الوصل بين القديم والجديد .. الذى جاء عنه القول «هانذا أرسل أمام وجهك ملاكى» قد شهد عن يسوع بأن فيه تركزت كل نبوات الأنبياء . .

٦ — وهناك شهادة أولئك الذين عرفوا يسوع ، وتقابلوا معه .

فالمرأة السامرية شهدت لحكمة يسوع (٤: ٣٩) .

والإنسان الذى ولد أعمى ، ونال الشفاء على يديه ، شهد لقوته . (٩ :٢٥ — ٣٨) . وأولئك الذين شهدوا معجزاته ، تعجبوا من الأعمال التى قام بها. (١٢ : ١٧) . هناك تقليد خيالى يقول ، انه حينما إلتأم مجلس السنهدريم ، لمحاكمة المسيح ، أرسل يستدعى شهوداً للشهادة ضد المسيح ، فتقدم جمهور كبير للشهادة الواحد يقول « كنت مصابا بالبرص ، ونلت البرء على يديه »، والآخر يقول «كنت أعمى ، وفتح عينى » ، وثالث يقول « وأنا كنت مصابا بالصمم ، فلمسنى بلمسة الشفاء » . إن أعمال يسوع هى التى تشهد له . بل أن معجزاته الروحية فى شفاء النفس ، والروح ،فى كل العصور والأجيال تشهد له . ان جمعاً غفيراً لا يستطيع أحد أن يعده ، من كل الأمم والشعوب والألسنة ، يستطيع أن يشهد لعمل نعمته العجيبة فى القلب والحياة . .

٧ — وهناك شهادة التلاميذ ، وبالأخص شهادة كاتب البشارة .

لقد قال السيد لتلاميذه « وتشهدون انتم أيضا لأنكم معى من الإبتداء » (١٥ : ٢٧). ويوحنا الحبيب هو الشاهد الأمين، بكل مارأى،وسمع وكتب. إنه يقول « هذا هو التلميذ الذى يشهد بهذا ، وكتب هذا ، ونعلم أن شهادته حق » (٢١ : ٢٤) . وعن حادثة الصلب يقول « والذى عاين شهد ،وشهادته حق ، ونعلم أنه يقول الحق » (١٩ : ٣٥) . ان بشارته لا تستند على قصة

مسموعة ، أو منقولة ، أو تقليد متواتر ، بل هي شهادة شاهد عيان . ان اعظم شهادة هي شهادة إنسان يستطيع أن يقول « هذا حق ، لأنني اختبرته شخصيا».

٨ — وهناك أخيراً شهادة الروح القدس « ومتى جاء المعزى ٠٠٠ روح الحق ٠٠٠ فهو يشهد لي » (١٥ : ٢٦) ٠ وفي رسالة يوحنا الأولى « الروح هو الذي يشهد ، لأن الروح هو الحق » (١ يوحنا ٥ : ٦). لقد كان اليهود يؤمنون أن عمل الروح القدس ، عمل مزدوج ، فهو يأتي بالحق الالهي للانسان ، وهو ينير قلب الإنسان ليدرك الحق ، وهذا بالتمام عمله في الشهادة للمسيح ، إنه يعلن شخص المسيح لنا ، ويعيننا على قبوله والثقة به ٠

لقد كتب يوحنا بشارته ، ليؤكد بشهادته أن يسوع المسيح هو الله الذي ظهر في الجسد ، ليعلن ذات الله وصفاته للبشر أجمعين ٠

النور الذي ينير كل انسان ٠ ٠ ٠

« كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِي الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ ... »

(يوحنا ١ : ٩)

في هذا العدد ، يستخدم يوحنا صفة ممتازة يصف بها يسوع ، فهو يلقبه بالنور الحقيقي . وفي الأصل اليوناني ، نجد كلمتين مرادفتين للكلمة التي ترجمت «حقيقي» في ترجمتنا العربية: الأولى « أليثيس »، ومعناها صادق ، على النقيض من كاذب أو زور ، وهي تطبق على تقرير ما أو شهادة . والثانية «أليثينوس» وهي تعني كلمة أصلي أو حقيقي على عكس الشيء الزائف المغشوش .

وهذا ما يقصده يوحنا حينما يلقب يسوع بالنور الحقيقي . فهو النور الفعلي الأصلي الذي لا زيف فيه ، الذي وحده يستطيع أن ينير كل إنسان . فقبل أن يأتي يسوع كانت هناك أنوار يتبعها الناس . البعض منها أشعة من نور الحق ،

والبعض لمحات خاطفة من الحقيقة ، والبعض شعلات كاذبة تتأجج ثم تنطفىء تاركة الإنسان فى ليل أشد سواداً . وما زال هذا حال العالم ، ما زالت هناك أنوار جزئية ، لا تعلن الحق كله ، وأنوار كاذبة تضلل البشر ، والناس بالرغم من هذا يتبعونها ، ويعتقدون أنها تكفى لارشادهم فى طريق الحياة . ولكن يسوع هو النور الحقيقى الوحيد ، الذى ينير قلب الإنسان ، والذى يضىء الطريق أمامه .

ان الوحى هنا يقول ، على لسان يوحنا ، ان يسوع بمجيئه إلى العالم قد أشرق بالنور الحقيقى لكل إنسان . فهو الشعلة المتوهجة التى أحرقت ظلمة الليل ، الفجر الصادق الذى انبثق بالرجاء الحى . يتحدث أحد السياح الذين زاروا إيطاليا ، عن اختبار له بينما كان واقفاً على قمة تلة تشرف على خليج نابولى . كان الوقت فى أشد ساعات ظلمة الليل ، والسماء ملبدة بالغيوم . وفجأة لمع لسان من البرق فى صفحة الغيوم المكفهرة ، أضاء الوهاد والتلال والخليج وكل شىء . حينما جاء يسوع لم يكن نوراً خاطفاً ظهر ثم اختفى ، فإن نوره تزايد إلى النهار الكامل .

١ — لقد محق بإشراقه أشباح الشك . فحتى يوم مجيئه ما كان الناس يعرفون شيئاً عن ذات الله ، أو صفاته او معاملاته مع البشر . قال واحد من حكماء الأغريق « من العسير علينا أن نكتشف الله . وإذا استطعنا أن نعرفه فمن المستحيل أن نصفه للآخرين » . لقد كان الله يحيا بالنسبة للأممى ، أما فى عالم يسوده الظلام ، فلا يصل إليه أحد ، أو فى نور لا يُدنى منه . ولكن حينما جاء يسوع استطاع الناس أن يروا فيه إعلان الله الكامل . لقد ذهبت الأشباح والظلال إلى الأبد ، وانتهى العهد الذى كان البشر يتلمسون فيه الله فى فيافى عقولهم المظلمة ، وأفهامهم القاصرة . لقد انتهى عهد الغنوسية بتفسيراتها السقيمة ، فالنور قد جاء .

٢ — ومحا بظهوره ظلمة اليأس والخطية . لقد أتى يسوع إلى عالم يسوده اليأس والضيق . قال سنيكا « فى أدق ضروريات الحياة ، كان الناس يشعرون بعجزهم . كانوا يشتاقون إلى اليد التى تتنازل لترفع الساقط ، وتقوّم المنحنى . لقد كانوا يبغضون شرورهم ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يتخلصوا منها ». وهكذا تملكهم اليأس من إصلاح حالهم أو إصلاح المجتمع كما يشتاقون وكما ينبغى أن يكون . ولكن بمجىء يسوع وُلدت قوة جديدة فى الحياة . لقد أتى ، لا بالمعرفة الخلاقة فحسب ، بل أيضاً بالقوة البناءة . لم يأت ليشير بأصبعه إلى الطريق الصحيح فقط ، بل ليعين الناس أيضاً على المسير فيه . لم يأت ليقدم لهم التعليمات والوصايا ، ويتركهم لحال سبيلهم ، بل وهبهم القوة التى تجعل كل ما هو مستحيل ممكناً وسهلا . وهكذا اندحرت ظلمة اليأس والخطية ، وحل محلها نور الرجاء والبر .

٣ — وبمجيئه بدد ظلام الموت . ان الموت هو العدو اللدود للانسانية ، فى كافة الأجيال والعصور . لقد كان الناس فى القديم يخشونه ، كما هو الحال الآن . وفى خوفهم قد أصبحوا طيلة العمر ، تحت نير العبودية . كان البعض يعتقدون فى القديم أن الموت يعنى على أقل تقدير ، الفناء النهائى ، وكان أشجع القلوب يذوب عند ذكر هذا العدو ، والبعض الآخر كان يؤمن بانتقام الآلهة من نفس الإنسان الخاطىء . ولكن يسوع بمجيئه المبارك إلى هـــذا الوجود ، وحياته الظافرة على الموت ، وصليبه الذى قهر أقوى أعداء الإنسان أى الخطية ، وقيامته التى أيّدت صدق أقواله ، قد أظهر لنا أن الموت ليس سوى الطريق لحياة أعمق ، وأوسع . للروائى ســتيفنسون صورة فى إحدى رواياته ، عن شاب أرغم على أن يكون طرفاً فى مبارزة غير متكافئة ، أيقن فيها بأنه هالك لا محالة . . . ولكنه نجا من الموت المحقق بمعجزة . والكاتب

يصوّر هذا الشاب ، وهو يسير فى طريقه ، مردداً فى ذهول « لقد مضت مرارة الـكأس » . لقد مضت مرارة الـكأس . ان يسوع قد انتزع مرارة الموت إلى الأبد ...

ولـكن يوحنا يقول أكثر من ذلك ، انه النور الذى ينير كل إنسان، فيوحد القلوب فى ألفة صادقة .

لقد سادت التحزبات العنصرية على العالم القديم . كان اليهودى يكره الأممى ، ويرى أن جميع الأمم هم وقود لنار جهنم . صحيح انه بين أنبياء اليهود ، قام أشعياء منادياً بأن هدف الله من خلق إسرائيل ، أن يـكون نور اعلان للأمم (أشعياء ٤٢ : ٦ و ٤٩ : ٦) . ولـكن مثل هذا الهدف النبيل ، قد تنـكرت له إسرائيل ورفضته . والأغريق كانوا يعتقدون أنهم هم وحدهم الشعب الذى خصته الآلهة بالحـكمة دون الآخرين . والرومان كانوا يتطلعون باحتقار الى تلك القبائل البربرية ، التى بلا ناموس ... ولـكن حين جاء يسوع كان النور الحقيقى الذى أنار كل انسان فى الوجود . اليهودى والسامرى ، واليونانى ، والرومانى ، والبربرى ، والسكيثى ، والعبد، والحر . الجميع أشرق يسوع بنوره الساطع عليهم ، وأنار حياتهم وجمعهم فى وحدة صادقة . ألا يظهر هذا اتساع قلب الله الذى يضم جميع الناس معاً فى شخصه الواحد ، ونعمته الفياضة ؟

لم يعرفه العالم

« كَانَ فِي الْعَالَمِ وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ . إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ وَخَاصَّتُه لَمْ تَقبَلْهُ ».

(يوحنا ١ : ١٠ ، ١١)

إن وراء هذه العبارة يكمن فكران :

١ — الأول يعود بنا إلى بدء الخليقة ، قبل أن يظهر يسوع بالجسد فى عالمنا هذا . هناك فى تلك الأزمنة السحيقة ، كان اللوجوس ، كلمة الله ، يعمل بقوة فى بناء هذا الوجود . « فى البدء كان الكلمة » كلمة الله الحى ، الخالق البناء ـ يعمل ليظهر هذا الوجود ، إلى عالم الوجود . ومنذ ذلك الحين والكلمة ، عقل الله الأزلى، ما زال يمسك بدفة هذا الوجود ، ويهب الإنسان نعمة العقل . ولو كان للانسان العين المفتوحة ، لاستطاع أن يبصر «الكلمة» فى كل صغيرة ، وكبيرة ، جامدة أو حية ، فى هذا الكون . فأنوار الطبيعة ، وأعمال الخليقة ، وتصرفات العناية ، كلها تظهر أصبع الكلمة الازلى ، حتى إن الإنسان بلا عذر . يقول الرسول بولس : ان أشياء هذا العالم الظاهرة قد صنعها الله لتقود أفكار الناس إلى الأمور غير المنظورة . ولو كانت للناس البصائر ، النيرة المفتوحة ، لاستطاعت أن تبصر الخالق فى كل شىء . ان علم اللاهوت قد وضع حداً فاصلا بين اللاهوت الطبيعى ، واللاهوت المعلن . فاللاهوت المعلن ، أو الموحى به ، هو الحق الذى وصل إلينا رأساً من الله ، على ألسنة الأنبياء ، وصفحات الكتاب المقدس، وبلغ تمامه فى شخص ربنا ، ومخلصنا يسوع المسيح . أما اللاهوت الطبيعى ، فهو الحق الذى نكتشفه

بأنفسنا، عن طريق حواسنا ، وإدراكنا ، فى عالم الموجودات الذى يحيط بنا .
والآن دعنا نرى :

كيف نصل إلى رؤية كلمة الله ، فكر الله ، عقل الله ، فى الوجود الذى نعيش فيه ؟

١ — بالنظر إلى ما حولنا . لقد كان من الأسس الثابتة فى الفكر الأغريقى ، انه حيثما يوجد نظام ثابت ، هناك العقل المدبر . وحيثما نتطلع إلى عالمنا ، نرى نظماً ثابتة تدعو إلى الدهشة .

فالكواكب تسير بنظام فى مجراتها ، والفصول تتوالى فى دقة ثابتة ، والحصاد يأتى دائماً فى الصيف ، والليل يتعاقب مع النهار. ان كل شىء فى الطبيعة يسير وفق نظام مرسوم . ولذلك لابد وأن وراء كل هذا قوة عاقلة مدبرة . وهذه القوة العاقلة لا بد أن تكون أقوى ، وأسمى ، وأعقل ، من العقل الإنسانى ، لأنها تصل إلى نتائج ، أسمى وأعظم من أن يصل إليها إنسان .

فلا قوة تستطيع أن تؤخر مغيب الشمس أو حلول المساء ، ولا سلطان لإنسان أن يوقف الكواكب فى مسيراتها ، ولا مقدرة لواحد من البشر ، أن يخلق خلية واحدة حيّة . ولذلك فالعقل الأكبر الخلاق العظيم ، لا بد أن يكون أسمى بما لا يقاس من العقل الإنسانى .

إن التطلع بعمق ودراسة ، إلى ما يحيط بنا ، لابد أن يأتى بنا وجها لوجه ، أمام الكلمة الأزلى ، خالق العالمين .

٢ — وبالتطلع الى فوق . فلا شىء يظهر النظام الأسمى فى هذا الوجود ، بقدر حركة العوالم الجبارة . يحدثنا الفلكيون بأن هناك كواكب فى الفضاء ، بعدد الرمال التى تنتشر على شاطىء البحر . واذا شئنا أن نتحدث بلغة التشبيه الرمزى، لنتحدث عن « حركة المرور » فى الفضاء ، وكيف أنها تتم بكل دقة

الى أقل جزء من الثانية فلا يصطدم كوكب بكوكب . واذا عرفنا أن الأرض تعتبر من أصغر كواكب المجموعة الفلكية أدركنا عظمة هذه القوة التي تسيّر هذا الوجود . حتى أنه قد قيل ، انهلا يوجد عالم فلكى ، لا يؤمن بالله ، فحينما نتطلع الى فوق ، نستطيع أن نرى الله .

٣— وبالتأمل فى الباطن ، فمن أين وهبنا القوة لنفكر لنتأمل ، لندرك غوامض الأشياء ؟ من أين عـــرفنا الخير ، وميزنا بينه وبين الشر ، وكيف يستطيع أقسى القلوب العاتية أن يعرف فى أعماق نفسه اذا أخطأ أنه ارتكب شراً ؟ لقد قال الفيلسوف « كانت » منذ أمد طويل ، إن هناك أمرين يقنعانه بوجود الله : السماء المرصعة بالكواكب فوقه ، والناموس الأدبى فى أعماقه ، فنحن لا نهب أنفسنا الحياة ، وليس فى امكاننا أن نزرع فى قلوبنا القوة المدركة المميزة ، فلا بد أن هذه قد أتت الينا ، من مستوى أعظم من امكانياتنا . اننا حينما نخالف الناموس الأدبى ، نشعر فى أنفسنا بالمرارة ، والخجل ، والشعور بالذنب . من أين أتى هذا كله ؟ لماذا لا نسير فى طريقنا بهدوء وتكون فى سلام مع نفوسنا ؟ اننا حينما نتأمل فى الباطن نكتشف « الإله الداخلى » ، كما اسماه مرقس أوريليوس ، أو « الروح القدس الكامن فى أعماق نفوسنا » كما لقبه سنيكا . وهكذا لا نستطيع ان نفسر حقيقة ذواتنا ، بعيداً عن الله .

٤ — وبالرجوع الى الوراء .. الى التاريخ . قال « فرود » المؤرخ الكبير : ان التاريخ كله هو تدليل على فاعلية الناموس الأدبى فى الجماعات . فالدول تزدهر ، ثم تنهار ، لكن هذا المبدأ واحد فى كل العصور .

والحقيقة العظمى فى التاريخ ، أن انهيار الأمة ، وتدهورها ، يرتبط ارتباطا وثيقا ، بانحلالها الأدبى ، وكما قال جورج برنا رشو « لا توجد أمة استطاعت

أن تستمر فى الحياة بعد موت آلهتها » . ان منطق التاريخ ، هو الدليل العملى فى الأحداث الجارية على وجود الله .

وهكذا نرى ، انه حتى ولو لم يأت المسيح الى العالم فى صورة منظورة ، فإنه فى امكان الناس أن يلمسوا اللوجوس ـ كلمة الله ، عقل الله ، ويرونه عاملا فى هذا الوجود ولكن بالرغم من أن عمل الكلمة الإلهى ، يشير بوضوح الى وجوده فى العالم فإن العالم لم يعرفه .

لم يعرفه العالم (تابع)

« كَانَ فِي الْعَالَمِ وكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ . إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ وخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ » .

(يوحنا ١ : ١٠ ، ١١)

(ب) وأخيراً ، فى ملء الزمان ، جاء الكلمة الحى القدير ، فى صورة الإنسان يسوع المسيح. يقول يوحنا « إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله ». ترى ماذا يعنى بهذا القول ؟

انه يعنى أن كلمة الله ، حينما أراد أن يأتى لعالمنا لم يتجه إلى روما ، ولم يتجسد بين شعب اليونان ، ولم يختر أن تكون مصر ميدان خدمته ، أو أى دولة عظمى من دول المشرق ، بل جاء إلى فلسطين . وفلسطين هى أرض الله منذ سحيق الزمن .

حتى العناوين التى يختارها الكتاب لفلسطين وشعبها ، تشير إلى هذه الحقيقة . فهى الأرض المقدسة (زكريا ٢ : ١٢ ، ٢ مكابيين ١ : ٧) . وهى أرض الرب . فالله يتحدث عنها كأرضه (هوشع ٩ : ٣ ، أرميا ٢ : ٧ ، ١٦ : ١٨ ، لاويين ٢٥ : ٢٣) .

فحينما أتى يسوع إلى شعب أرض هى أرض الله ، وإلى الشعب هو شعبه المختار ، كان من المنطقى ، أن يلقى ترحيباً من أرضه ، ومن أمته . كان ينبغى أن تتفتح الأبواب لاستقبال المليك الآتى ، وأن يتوجه كل فرد فى الشعب ، ملكا على عرش القلب . كان ينبغى أن يأتى إلى بيته وداره وشعبه ، كما يأتى السائح المتغرب فى بلد بعيد ، إلى وطنه ، ومنزله ، ومع ذلك لم يلق منهم غير الرفض لقد استقبلوه بصيحات العداء ، بدلاً من هتاف الخشوع والولاء . هنا يكمن سر المأساة . ان الله اختار أرضا ، وأمة ، وشعبا ، لتكون أرضه ، وأمته ، شعبه ، فانتهت هذه الأمة والشعب إلى الفشل ، والتمرد . تخيل أنك ربيت ونشأت أبنا ، وبذلت كل الجهود والتضحيات الممكنة فى الحياه لهدف خاص : لكى يكون عونا ، وسنداً لك فى سنى العجز ، أو أن يحتل مركزا ممتازاً فى المجتمع وحينما تأتى الفرصة ، إذا بذلك الذى علقت عليه كل آمالك ، والذى بذلت من أجله كل الجهود . وتحملت كل التضحيات ، يقصر عن الهدف الذى حددته له ، أو يرفض التبعات التى أعددته لها . هنا سر المأساة . وهذا ، بصورة مصغرة ماحدث فى تعامل الله مع شعبه وأمته .

ومن الخطأ أن نظن بأن الله قد أعدّ شعب اليهود فقط للتعامل معهم ، ان لله برنامجه فى حياة كل انسان ، وهو يعدّ كل رجل ، وكل امرأة . . كل فتى . . وكل فتاة ، لهذا العمل الذى أعده له . يصور لنا أحد الكتاب ، فى رواية خيالية ، صورة فتاة كانت ترفض أن تمس أى شىء قذر يلوثها . وحينما سئلت عن السبب كان جوابها : « انى أوقن أن شيئاً جميلا سيحدث فى حياتى يوما ما ، وانى أعدّ نفسى لهذا الشىء وهذا اليوم » .

ولكن مأساة الكثيرين تكمن فى رفضهم للهدف الذى أعده الله لهم .

أو دعنا نتحدث بصورة أخرى . هناك كثيرون يعجزون عن أن يصلوا الى ادراك الامكانيات التى أودعها الله فى كيانهم، والاستجابة لها. وربما كان ذلك بسبب الكسل والتراخى، أو الجبن والخور، أو عدم التعود على ضبط النفس، أو تشتيت القوى، والمجهودات فى اتجاهات متعددة . ان العالم يذخر بالكثيرين الذين يقصرون عن الوصول لأهدافهم الحقيقية بسبب عدم معرفتهم للامكانيات التى فيهم .

على أنه ينبغى الا نتوقع العمل الذى أعده الله لنا، فى صورة شيء عظيم، أو انجازات جبارة يصفق العالم لها . فقد يكون الدور الذى أعده الله لنا لنقوم به على مسرح الحياة، دوراً صغيرا، أو عملا مغمورا . قد يكون كل الدور الذى ستقوم به تربية نشئنا فى خوف الله، وقد يكون تدريبنا لكلمة صغيرة أو عمل خفى من شأنه ان ينقذ حياة انسان من الدمار، وقد يكون لأ كثر من هذا، لعمل يتم على أيدينا، أو فكرة تنبعث من عقولنا، تنير حياة وعقول الكثيرين . ولكن الحقيقة الواحدة التى تختفى وراء كل هذه أن الله يعد كل واحد منا لدور ما فى الحياة، صغيراً كان هذا الدور أو كان كبير، اوان كثيرين يرفضون أن يقوموا بدورهم الذى أعدهم الله لهم حينما تأتى اللحظة الفاصلة فى حياتهم، ربما عن قصـــد، وربما عن غير قصد.

إن التقرير الذى يتقدم به الوحى هنا، قوى . . فياض . . زاخر بالمعانى : « إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله » . لقد حدث هذا فى حياة المسيح، منذ آن بعيد، وما زال يتكرر حدوثه كل يوم . .

أولاد الله

« وأَمَّا كُلُّ الَّذينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللهِ أَيِ المُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ . الَّذينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ بَلْ مِنَ اللهِ »

(يوحنا ١ : ١٢ ، ١٣)

حينما جاء المسيح إلى عالمنا ، لم يرفضه الكل ، لقد قبله البعض ورحب به وأولئك الذين قبلوه، أعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله ، أى المؤمنين باسمه.

هناك معنى يستتر وراء كلمة « يصيروا » المذكورة هنا ، ونستطيع أن نصل إلى إدراك هذا المعنى عن طريق صورة بشرية ملموسة ، لأن الصلات الإنسانية هى التى تستطيع أن تقرب لأذهاننا كل شيء ، فهناك ابن يجعل كل همه استغلال بيت أبيه ، وحقوقه البنوية . فهو يأخذ من البيت كل مايمكن أن يقدمه بيت الآب ، ولا يعطى مقابل ذلك شيئاً ، فقد يعمل والده ، ويكد ، ويجتهد، ويضحى بالكثير ، ليعطيه فرصة الوقوف على قدميه فى الحياة ، وهو يتقبل ذلك كحق مكتسب له ، ولا يسعى ليثبت استحقاقه لهذا الحق ، ليرد جزءاً من هذا الدين. وحينما يصل إلى الظروف التى تمكنه من مغادرة المنزل ، لا يحاول أن يكون على اتصال به . لقد قدم البيت له كل مايمكن ، وانتهى الأمر . فلا علاقة حب ولا دَين يُرد . هذا الفتى هو مع ذلك ابن لأبيه ، بحق الدم ، وبحق الشرع ، فإلى أبيه يرجع الفضل فى وجوده ، والى أبيه يرجع الفضل فى ما وصل اليه ، ولكن لا توجد بينه وبين أبيه صلة المحبة ، والألفة ، والأرتباط .

وهناك ابن آخر ، يعرف حق أبيه عليه ، ويحاول طيلة العمر أن يغتنم كل الفرص التى يثبت بها أنه ابن أبيه . وكلما مرت الأعوام ، ازدادت صلته توثقا بأبيه فتصبح صلته به صلة الشركة ، والمحبة . واذا حان الوقت لمغادرته المنزل فإن هذه الصلة تزداد قوة ، والرباط يزداد توثقا ، وشعوره يزداد ويتعمق بالدين الكبير الذى لا يستطيع أن يردّه . فى الحالة الأولى نرى الابن يزداد بعداً وبعداً عن البيت، كلما تهيأت له فرصة الابتعاد. وفى الحالة الثانية يزداد قربا من البيت ، بمرور الأيام . الإثنان أبناء بالفعل ، ولكن مفهوم البنوية يختلف فى كل من الحالين . لقد « صار » الثانى ابنا بالطريق الذى لم يستطع الأول أن يصل به .

أودعنا نتجه الى تفسير آخر لهذه الصلة من دائرة أخرى ولوانها مشابهة. لنفترض وجود استاذيذكر أمامه اسم واحد من تلاميذه ، فيجيب : «لقد كان هذا أحد الذين أتيحت لهم فرصة حضور محاضراتى ، ولكنه لم يكن يوما ما تلميذى». هناك فارق بين انسان يحضر محاضرات استاذه ويدرسها ويسوعبها، وبين آخر يصبح تلميذا وثيق الشركة لذلك الاستاذ ، فقد تكون هناك صلة بغير شركة .

ان جميع الناس أولاد لله على أساس أن الكل يدينون بوجودهم لله فالله مصدر حياة كل انسان ، وحافظ كيانه، ولكن القلائل هم الذين يصبحون أبناء لله بكل ما تحويه صلة البنوية بالآب من معان عميقة زاخرة .

وهذه البنوة المباركة لله، يستطيع الإنسان أن يصل اليها عن طريق المسيح. ويوحنا هنا يستخدم الأفكار اليهودية السائدة فى حديثه عن هذه البنوة . فهى ليست من دم، لأن اليهود كانوا يعتقدون أن الجنين يتكون من اتحاد

زرع الرجل بدم الأم ، وهى لا تأتى بدافع رغبة بشرية ، أو إرادة إنسانية لأن مصدرها الله ، لا سواه . فنحن لا نستطيع أن نصير أنفسنا أولاداً لله ، بمجهودنا الذاتى ، أو بأى طريق آخر ، غير هذا الطريق . ينبغى أن ندخل من الباب الذى أعده الله ، وأن ندخل فى الشركة التى مهدها الآب . ولا قوة فينا تستطيع ذلك ، ولا مجهود بشرى يوصلنا إليه ، ولا مقدرة لنا أن نعبر الهـــوة الرهيبة بيننا وبين الله ، ما لم يفتح الله أمامنا الباب ، ويدعونا إلى الدخول فى شركة البنوية السعيدة معه ، عن طريق الابن الحبيب .

ولنأخذ مثالا بشرياً : فلا يستطيع رجل الشارع أن يصل إلى صداقة رئيس كبير ، ما لم يكن هذا من جانب الرئيس نفسه . ينبغى أن يفتح الرئيس الباب له ، ويمهد الطريق . وهكذا بالتمام الأمر فى صلتنا بالله . نحن لا نستطيع أن ندخل فى شركة معه ، ما لم يتنازل فى محبته ، ويفتح أمامنا الباب للوصول إليه .

على أن هناك جانباً يقع على الإنسان . فما يقدمه الله لنا ينبغى أن يلقى قبولا منا . فالوالد الأرضى قد يتقدم لأبنه بنصيحته ، وصداقته ، ومحبته ، والابن قد يرفض هذه كلها ، ويختار طريقه بنفسه . وهكذا الأمر فى صلة الله بنا . فالله على استعداد أن يهبنا البنوة المباركة له على اساس ان نقبل هذه النعمة . انه يعطينا الحق فى القبول او الرفض .

فإذا آمنا باسم المسيح ، فإن الإيمان هو الباب الذى منه نصل إلى هذه البركة العظمى . ماذا يعنى الإيمان باسم المسيح ؟ ان الفكر العبرانى كثيراً ما يستخدم كلمة اسم ، بصورة لم نعهدها نحن . فهو لا يعنى بها مجرد اللقب الذى يطلق على شخص ما ، بقدرمايعنى اكتشاف ذاتية هـــذا الشخص ، والتعمق إلى أسراره ، ومعرفة طبيعته . هذا معنى الإيمان باسمه . فالإيمان

باسم المسيح هو معرفته وإدراكه ، والتعمق فى أسراره ، والدخول فى صلة اختبارية معه .

لنأخذ مثالا لذلك ، ماورد فى المزمور التاسع حيث يقول المرنم : « ويتكل عليك العارفون اسمك . لأنك لم تترك طالبيك يارب »(مزمور ٩ : ١٠) .

فمن الواضح هنا أن العارفين اسم الله لايقصد بهم الذين يعرفون أن اسمه يهوه. فأولئك الذين يتكلمون عليه هم الذين يعرفونه معرفة اختبـــارية . . يدركون طبيعته، وصفاته، ومحبته. هؤلاء هم الذين يعرفون اسمه ويتكلمون عليه فى كل ظروف حياتهم .

وفى المزمور العشرين نقرأ القول :

« هؤلاء بالمركبات ، وهؤلاء بالخيل ، أما نحن فاسم الرب الهنا نذكر » (مزمور ٢٠ : ٧) .

وواضح هنا أيضاً أن هذا لايعنى أن الشعب سيذكر أن اسم الرب يهوه، بل يعنى أنهم يتذكرون طبيعته ، وجبروته ، ومعاملاته السابقه معهم ، فهم لذلك يثقون به فى وقت الحرب . فاولئك بالخيل ، وأولئـك بالمركبات ، أما هم فيكفيهم جبروته .

ان الإيمان باسم المسيح ، معناه أن نعرف من هو يسوع ، ونضع ثقتنا فيه . . . أن نؤمن أنه الله المتجسد ، والمحبة المجسمة ، والتضحية الـكاملة ، والـكفارة الوحيدة . اذا كنا نؤمن باسمه بهذه الصورة ، فإننا نخضع أنفسنا لله ويعمل الله فينا تلك العملية العجيبة التى بها نولد من فوق ، ونصبح أبناء له . هذا هو الطريق الوحيد الذى نصبح به أبناء الله . وفى المسيح وحـــده لنا إمكانية الوصول الى هذه البركة .

الكلمة صار جسدا

« وَٱلْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ ٱلآبِ مَمْلُوًّا نِعْمَةً وَحَقّاً »

(يوحنا ١ : ١٤)

هنا نصل الى الكلمة التى تعتبر مركز البشارة الرابعة ، والتى من أجلها سطر البشير إنجيله . لقد استمعنا اليه يتحدث عن كلمة الله الحىّ ، الخالق الحياة ، وحافظها ، ومقومها ، الذى يحفظ الكون فى نظامه السرمدى ، ويهب الكائن العاقل،الفكر الصائب النقى. وهذه الأفكار كلها كانت معروفة بين العبرانيين واليونانيين على السواء ، وها هو يتقدم بتصريح يذهل كل إنسان ، لأنه يسمو على أفكار كل إنسان ، فيقول : « ان هذا الكلمة الإلهى ، الذى خلق هذا الوجود . . هذا العقل الأعظم الذى يدير الكون بفكره . . هذا الحكمة الأسمى الذى يهب الحكمة لكل إنسان ، صار فى ملء الزمان جسداً، بأعيننا رأيناه » .

والكلمة التى يستخدمها البشير للدلالة على الرؤية هنا ، تكرر استخدامها أكثر من عشرين مره فى العهد الجديد . وهى تعنى الرؤية الحرفية الفعلية ، وليس الرمزية المعنوية . إن يوحنا يتحدث هنا ، لاعن رؤية القلب بالشعور والإحساس،ولاعن يقين العقل ، ولكنه يتحدث عن نظرة العينين الماديتين . فالكلمة هنا صار جسداً فى هيئة انسان تراه العينـــــان ، وتلمسه اليدان . وكأنى به يتحدث الى أهل عصره، والينا فى كل جيل ، قائلا : « إن شئتم أن تنظروا بأعينكم الكلمة الخالق ، وتلمسوا أمجاد العقل الأعظم المسيطر على كل الوجود ، أنظروا الى يسوع الناصرى » .

هنا يأتى يوحنا إلى مفترق الطرق ، فى الحديث الذى تقدم به . هنا يتقدم بالفكر الفريد ، الذى كان غريباً كل الغرابة عن مفاهيم الفكر اليونانى . لقد قال اوغسطين — وهو حجة فى الدراسات الفلسفية القديمة — انه قرأ ، ودرس ، جميع الفلسفات التى تقدم بها كبار فلاسفة الوثنية ، ولكنه لم يجد فى واحدة منها كلمة توازى ما جاء فى بشارة يوحنا ، من أن الكلمة صار جسداً وحل بيننا . لقد كان اليونانيون يعتقدون أن هذا هو الأمر المستحيل . فالشيء الوحيد الذى ما كان ممكنا ان يحلم به يونانى ، أن يرى الله ، وقد أخذ جسداً ، وحل إنسانا بين بنى البشر . فالجسد فى الفكر اليونانى ، كان شرا . . سجنا قضى على النفس أن تبقى فيه لاختبارها وتصفيتها . . قبرا منتنا كتب على الروح أن تلازمه ردحاً من الزمن . حتى « بلوتارك » المؤرخ اليونانى الحكيم ما كان يؤمن بأن الله يدبر دفة هذا الكون المادى بنفسه . فكيف يلتقى منبع الطهارة والبر ، بأساس كل قصور وشر ؟ ! كيف يمد إله القداسة يديه ، ليدبر هذا الكون الذى مبعثه شر ، ونهايته شر ؟ لابد من وسطاء ليقوموا بهذا الأمر . فمن التجديف أن نقرن أحداث هذا الوجود ، بتصرفات العناية الإلهية .و « فيلو » الفيلسوف الاسكندرى لم تحو كتاباته شيئا على الإطلاق يشير إلى هذا الحق . ونحن نسمعه يقول « أن حياة الله لا يمكن أن تتنازل إلينا ، ولا يمكن أن تتضع إلى مستوى حاجاتنا . » و « مرقس اوريليوس » الإمبراطور الرومانى الكبير ، والفيلسوف الرواقى ، كان يحتقر الجسد بالقياس إلى الروح . فيقول « ينبغى أن نحتقر هذا الجسد ـ هذه المجموعة المتشابكة من الأعصاب والأوردة ، والشرايين التى تحيط بالنظام ويغذيها الدم » « فإن تركيب الجسد كله خاضع للفساد » .

وهنا نرى يوحنا يتقدم بالفكر الأسمى الجرى ، بأن الله يستطيع ويريد ،

أن يصير إنسانا، ويدخل فى الدائرة التى فيها نحيا ... وأن الأبدية فى إمكانها الاتحاد بالزمن .. وأن الخالق يستطيع أن يتجسد فى صورة المخلوق، فتراه العيون ويبصره المبصرون .

ولقد كان هذا فكراً جريئا جديدا عن الله ، لم يُسمع به من قبل . لذلك لاغرابة أن نجد أناساً، حتى من قلب الكنيسة ينكرون هذا الحق، ويرفضونه. ان كلمة « جسد » التى يستخدمها يوحنا هنا ، وردت فى الأصل اليونانى بكلمة « سركس »، ومعناها الجسد بكل ماهو معرض له من ضعفات ومتاعب . وهى الكلمة التى تتكرر كثيراً فى رسائل بولس. ان مجرد التفكير فى جعل الجسد يقترن بالكلمة الأزلى ، لم يكن أمراً من الممكن احتماله . وهكذا ظهرت فى الكنيسة بدعة تعرف ببدعة « الدوكتيين » من كلمة « دوكين » اليونانية ، وهى تعنى : يبدو كذلك . ولقد نادى أصحاب هذه البدعة ، بأن يسوع لم يكن له جسد فعلى ، بل كان روحاً مجسماً فى شبه جسد ، يسير بين الناس كأنه إنسان ، وما هو بإنسان ، وانه لم تكن تعتريه ضعفات البشر من آلام، ومتاعب ، وحاجة للنوم، ورغبة فى الطعام. ولقد جابه يوحنا هذه الضلالة مجابهة صريحة فى رسالته الأولى، حيث يقول ، « بهذا تعرفون روح الله. كل روح يعترف بيسوع المسيح، انه قد جاء فى الجسد ، فهو من الله . و كل روح لا يعترف بيسوع المسيح ، انه قد جاء فى الجسد فليس من الله . هذا هو روح ضد المسيح» (١ يوحنا ٤: ٢–٣) . صحيح أن هذه البدعة نشأت بدافع احترام زائد لشخص المسيح ، اتجه بأصحابه اتجاها خاطئاً . لقد خشى أولئك أن يقرنوا جلال المسيح، بصفات ، وقصور الطبيعة الإنسانية . والرسول يوحنا يؤكد فى رسالته أن هذه أفكار ضد المسيح ، أو المسيح الكاذب ، وأنها تناقض حق الإنجيل بأكمله .

ولكننا نحن ، كثيراً ما نقع فى الخطأ الذى وقع فيه أولئك . كثيراً ما

تطغى حقيقة لاهوت المسيح ، على الجانب الإنسانى فى تفكيرنا . كثيراً ما تبهرنا أضواء اللاهوت ، فننسى حقيقة الناسوت: الكلمة صار جسداً . هنا أكثر مما فى أى موضع آخر فى العهد الجديد ، نجد تصريحاً ، واضحا ، لا غموض فيه ، عن إنسانية الرب يسوع فى كمالها . هنا نرى فى يسوع كلمة الله الأزلى ، وعقل الله الأسمى ، متحدا مع الإنسان الكامل... فى يسوع نرى الله حيًّا مجسما ، متصرفا كما ينبغى أن يتصرف الله حين يوجد فى الجسد. لنفرض أن يسوع لم يتقدم بمعجزة واحدة . . يكفينا أن نرى فيه كيف يمكن أن يحيا الله حياتنا التى نحياها . .

الكلمة صار جسدا (تابع)

« وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوًّا نِعْمَةً وَحَقًّا » .

(يوحنا ١ : ١٤)

ينبغى أن ندرك أن هذا العدد ، هو أسمى وأعظم الآيات الواردة فى العهد الجديد كله . لذلك لا غرابة أن نفسح المجال لسطور أخرى ، متأملين فيه بنعمة الله ، حتى نكتشف أعماق كنوزه ونغوص فى غناه .

ولقد عرضنا ، فى تأملات سابقة لبعض الكلمات الكبرى التى تدور حولها الأفكار الرئيسية فى بشارة يوحنا .

وهنا نجد ثلاث كلمات جديدة . . .

١ — الأولى ، كلمة « نعمة » . وهذه الكلمة تضم فى مفهومها فكرين رئيسيين . . أما الفكر الأول فهو يشير إلى هبة مجانية لا يستحقها مَن قدّمت

إليه، لا يستأهلها على الإطلاق . فهى عطية مجانية لم نكسبها بمجهودنا ، ولم نتعب فى الحصول عليها ، ولم نسعَ إليها بأنفسنا . إن حقيقة كون الله قد أتى إلى عالمنا ، ليعيش، ويموت لأجل الإنسانية ، هو أمر لا يستحقه البشر ، وهو عمل إيثارى عجيب ، قام به الله بدافع محبته ولا دافع سوى هذا . فحينما تذكر كلمة نعمة ، تقفز إلى الذهن فى الحال حقيقة فقر الإنسان ، وبؤسه ، وجهله ، وعدم استحقاقه ـ مقترنة بمحبة الله ، وتضحيته، وغناه الذى لا يستقصى ...

والفكر الثانى الذى يستتر وراء النعمة ، الجمال المبارك. وفى اللغة اليونانية الحديثة تعنى الكلمة السحر ، والجاذبية . ففى المسيح نرى جمال الله ، وسحره العجيب، ومجده الذى لا يُرى ...

ولقد حاول البشر أن يتفكروا عن الله ، ويتحدثوا عنه ، بلغة الجلال، والمجد ، والجبروت . ان جلال الله، وعظمته ،وقوته الخارقة للطبيعة ، والمسيطرة على الوجود ، هى التى تسيطر على أفكارهم . ولكننا فى المسيح يسوع نستطيع أن نرى جمال الله فى محبته العظمى من نحو البشر .

٢ — والكلمة الثانية : الحق . وهذه الكلمة هى إحدى الأنغام التى نستمع إليها كثيراً فى البشارة . وكلما تقدمنا أكثر فى دراستنا لها ، نلتقى بها بين الحين والحين . وهنا لا يسعنا إلا أن نجمع باختصار ما تحدث به يوحنا عن يسوع، وعن الحق، وعن صلة الاثنين معاً .

(ا) فيسوع قبل كل شىء ، هو الحق المجسم . لقد قال بفمه الطاهر « أنا هو ... الحق » (١٤:٦) . فإذا أردنا أن نعرف الحق ، لنتطلع إلى يسوع . انه الكنز العجيب ، الذى يملأ النفس والقلب بغناه . ان القلائل هم الذين يستطيعون أن يصلوا إلى إدراك الحق المجرد . ومعظمنا بحاجة الى الصورة الملموسة ، التى نصل بها الى ادراك الفكرة المجردة . والجمال، كفكرة

مجردة ، لا نستطيع أن نصل الى ادراك كنهه ، مهما تعددت الأفكار وتنوعت التعبيرات ، وقضينا أجيالا طويلة فى مطارحات فلسفية . ولكن اذا تمثل أمامنا انسان جميل فأشرنا إليه وقلنا : هنا يكمن سر الجمال ، عند ذلك يتضح أمامنا معنى الجمال، بصورة عملية ملموسة . ومنذ بدأ البشر يفكرون فى طبيعة الله، وصفاته، وذاته ، ازداد الأمر غموضاً أمامهم، وأستغلقت السُبُلْ . ولكننا نستطيع ، إذ تمثل الله أمامنا بشراً سوياً فى شخص المسيح ، ان نقول بكل يقين « هذا هو الله ، وهذا ما يكون عليه الله » . ان يسوع لم يأت ليتحدث إلى البشر عن الله ، لقد أتى ليعلن للبشر فى شخصه مَن يكون الله . وفيه يستطيع أبسط العقول أن يكتشف الله تماماً، نظير أقوى العقول الجبارة .

(ب) ويسوع بالتالى هو الواسطة لتوصيل الحق . فكما انه ينبوع الحق ، فهو أيضاً مجراه . لقد قال السيد يوماً لتلاميذه انهم إن استمروا فى معرفته ، والاتحاد به ، يعرفون الحق (٨ : ٣١). وأمام بيلاطس قال انه أتى إلى العالم ليشهد للحق (١٨ : ١٧). ان الجماهير على استعدادان تتكدس حول معلم أو مبشر ينادى بالحق ، وينير الطريق أمامهم فى هذا الموضوع المتشابك الشائك. ويسوع هو المعلم الأعظم الذى نادى بالحق ، وأوصله إلى قلوب سامعيه . انه الوحيد الذى سطع بنوره على الحق الأسمى ، فأوضحه ، وأظهر بنوره، انه المعلم الفريد الذى يهب سامعيه المقدرة على اختيار الحق ، حينما تختلط السبل أمامهم، وتأتى الساعة الفاصلة ، بل انه الحق المجيد الذى يدوى فى قلوبنا وسط أصداء العالم ، وضوضائه المتنافرة .

(حـ) وحينما ترك يسوع هذا الوجود بالجسد ، فإن إرشاده لنا لم ينقطع قط، لأنه ترك لنا روحه القدوس ليخبرنا بالحق ، ويرشدنا فيه . فروحه هو روح الحق (١٤ : ١٧ و ١٥ : ٢٦ و ١٦ : ١٣) .

ان يسوع لم يترك لنا برنامجاً تعليمياً ، أو كتاباً مدرسياً ، ولكنه ترك لنا قوة حيّة مرشدة للحق . ولا حاجة بنا أن نبحث فى معميات مجلد فلسفى عقيم لنعرف الحق ، لأن روح الحق يسكن فى أعماقنا . وما علينا الا ان نسلّم له كل التسليم ، ونَعطى مقودنا لقيادتنا الحية الرشيدة ليقودنا بسلام فى كل خطوة من خطوات الطريق .

(د) والحق هو الذى يحررنا (٨ : ٣٢) . فالحق على الدوام ، يقترن بالتحرير ، ويحوى القوة التى تحطم أغلال الخوف والجهل . والطفل فى جهله ، حينما يستسلم لتفكيره ، وخياله الساذج يشطح به الخيال بعيداً فى تصورات خاطئة ، فيمتلىء بالخوف ولكنه سرعان ما يتحرر من مخاوفه حينما تُعلن له حقائق الأمور . وعلى نفس القياس ، قد يسيطر على الإنسان منا الخوف من المرض ، فيمتلىء عقله بالأوهام ، ولكنه حينما يذهب الى طبيبه ، ويعرف الحق ، تزول عنه أوهامه وتسكن مخاوفه ، حتى ولو أخبره الطبيب بحقيقة مرضه .

ان الحق الذى أتى به يسوع ، يحـــررنا من عداوتنا لله ..... يحررنا من الفشل فى الحياة ... يحررنا من مخاوفنا ، وضعفاتنا فى امتحان اجتزناه ... وينصرنا أمام عدو نراه ، أو لا نراه . ان يسوع المسيح ، الحق الأوحد ، هو أعظم محرر لنا فى هذا الوجود .

(هـ) والحق فى الإمكان رفضه ومقاومته . فنحن نقرأ كيف أن اليهود ثاروا على يسوع لأنه أخبرهم الحق (٨ : ٤٠) . فالحق يظهر حقيقة الإنسان ، ويدين خباياه . والذى يعيش فى الظلمة يبغض النور ، لأنه يوبخ أعماله . يقول الفلاسفة الساخرون ، أمثال ديوچين . « الحق كالنور للعيون الرمداء » . وقالوا أيضاً ان المعلم الذى لا يُغضب أحداً ، لا يتقدم بالمنفعة لأحد . لكن حقيقة واحدة تبقى : ان الإنسان يستطيع أن يصم أذنيه فلا يسمع صوت الحق ،

ويغمض عينيه، فلا يراه، ويمد يد الحقد إلى من ينادي بالحق، فيزيحه من طريقه، لكن الحق يبقى مع كل هذا . فلم يوجد إنسان حطّم الحق برفضه الاستماع إلى صوته . فالحق لا بد أن يبقى ويدينه فى النهاية ..

(و) والحق فى إمكاننا ألاّ نؤمن به (٨ : ٤٥). وعدم تصديق الحق اما أن يكون سببه أن الحق يعلو عن الأفهام ، بحيث لا يمكن تصديقه ، أو أن الإنسان يبقى مرتبطاً بمعتقداته التى لا تصل إلى الحق الكامل، فلا يرضى عنها بديلا . ونصف الحق هو أقسى أعداء الحق الكامل .

(ر) والحق ليس فلسفة مجردة لا يمكن تجسيمها فى الحياة العملية . انه شىء يمكن ممارسته (٣ : ٢١) . فالحق ينبغى أن يقبله العقل وان يشق طريقه إلى القلب وان يتمثل فى الحياة .

الكلمة صار جسداً (تابع)

« وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوًّا نِعْمَةً وَحَقّاً » .

(يوحنا ١ : ١٤)

إننا لو قضينا العمر كله، فى التأمل فى هذه الآية ودراستها، فإننا لن نستطيع أن نصل إلى أعماق كنوزها . لذلك لا بأس من أن نلقى عليها نظرة أخرى . ولقد درسنا فى التأمل السابق كلمتين من الكلمات الرئيسية التى تحويها ، وبقى لنا أن نتأمل فى الكلمة الثالثة : المجد . ونحن نلاحظ أن البشير يربط هذه الكلمة على الدوام بشخص المسيح . وسوف نتأمل أولا فيما يقوله يوحنا عن مجد المسيح ، وفيما يقصده من وراء ذلك .

١ — قبل كل شيء لقد كانت حياة المسيح إعلاناً للأمجاد . فحينما قام بمعجزة تحويل الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل ، فإننا نستمع إلى يوحنا يقول معلقا ، ان تلك كانت أولى المعجزات التى أظهر بها يسوع مجده ، فآمن به تلاميذه (٢ : ١١) . إن النظر إلى يسوع ، والدخول فى اختبار أمجاده ، ومحبته ، معناه الدخول إلى دائرة أمجاد جديدة مباركة .

٢ — وتلك الأمجاد هى أمجاد الله ، فالله مصدرها . ان يسوع لا يقبل مجدا من الناس (٥ : ٤١) . وهو يتخلى عن أمجاده ليمجد الآب الذى أرسله (٧ : ١٨) . والآب بدوره يمجد الابن . (٨ : ٥٠ ، ٥٤) . والهدف من إقامة لعازر من القبر ، هو تمجيد الله ، فالسيد يقول لمرثا : إن آمنت ترين مجد الله (١١ : ٤) ليتمجد الابن به . (١١ : ٤) ان المجد الذى ظهر فى معجزات يسوع ، وأحاط به ، وشعّ كالضياء الساطع منه ، هو مجد الله المتجسد .

٣ — وهذا المجد أيضاً هو مجد المسيح الفريد . فنحن نستمع إليه فى صلاته الشفاعية ، يطلب من الاب قائلا : مجدنى . . بالمجد الذى كان لى قبل إنشاء العالم (١٧ : ٥) . إن مجد يسوع مجد أصيل . . مجده الأزلى الذى كان له قبل إنشاء العالم .

٤ — ومجد يسوع الذى له ، شاء فى محبته أن ينقله لتلاميذه . إن المجد الذى مجّده به الآب ، شاء أن يهبه لأتباعه (١٧ : ٢٢). فيسوع يشترك مع الآب فى أمجاده ، والتلاميذ يشاركون المسيح مجده . فتجسد الابن فى العالم ، تجسد أمجاد الله بين البشر .

والآن ما الذى تهدف إليه البشارة من وراء هذا كله ؟

للجواب على هذا السؤال دعنا نعود الى العهد القديم . فلقد كانت عقيدة حلول مجد الله ، أو الشاكناه ، بين البشر ، عقيدة عزيزة بالنسبة لليهود .

وكلمة « شا كناه » معناها الحرفى : ذاك الذى يحلّ . انها الكلمة التى أستخدمت للاشارة الى حلول الله المرئى بين البشر . وتتكرر حقيقة ظهور مجد الله بصورة مرئية مرارا ، بين أحداث العهد القديم . ففى برية التيه قبل أن يهب الرب جموع الشعب المنّ ، نقرأ أن بنى اسرائيل « التفتوا نحو البرية ، واذا مجد الرب قد ظهر فى السحاب » (خروج ١٦ : ١٠) . وقبل إعطاء الوصايا العشر نقرأ أن مجد الرب حلّ على جبل سيناء « وغطاه السحاب ستة أيام » (خروج ٢٤ : ١٦) . وحين أقيمت خيمة الإجتماع إذا بمجد الرب يملأ الخيمة (خروج ٤٠ : ٣٤) . وحين دُشن هيكل سليمان ، لم يستطع الكهنة أن يدخلوا ليقوموا بالخدمة « بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب » (ملوك الأول ٨ : ١١) . وفى رؤيا أشعياء فى الهيكل نستمع إلى الملائكة تهتف لله قائلة « مجده ملء كل الأرض » (أشعيا ٦ : ٣) . وحزقيال فى رؤياه العجيبة شاهد شبه مجد الرب (حزقيال ١ : ٢٨) . ان فرص ظهور مجد الله فى العهد القديم ، كانت لتعلن عن إقتراب الله من شعبه ، فى الأوقات الحاسمة .

وهكذا يعنى مجد الرب حضور الله وسط شعبه . ويوحنا يستخدم تشبيها عاديًا من واقع الحياة . فالآب يعطى إبنه البكر سلطانه ومجده ، ووريث العرش يخلع عليه الملك ، كل أمجاد المُلْك ، وهكذا الأمر مع يسوع . فحينما أتى إلى هذا الوجود ، تطلع الناس إليه ليروا آية الله ، وكانت هذه الآية المحبة . وحينما تجسد فى عالمنا شاهد فيه البشر بهاء مجد الله ، وكان هذا المجد مجد المحبة . وهكذا رأى الناس أن مجد الله يقترن بمحبته .

فمجد الله ليس كجبروت ملك أرضى قاسٍ ، ولكنه مجد المحبة التى يقف أمامها الجميع فى خشوع ، مرددين ترنيمات الشكر والحمد . .

الملء الذى لا يُستقصى

« يُوحَنَّا شَهِدَ لَهُ وَنَادَى قَائِلاً هٰذَا هُوَ الَّذِى قُلْتُ عَنْهُ إِنَّ الَّذِى يأْتِى بَعْدِى صَارَ قُدَّامِى لِأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي . وَمِنْ مِلْئِهِ نَحْنُ جَمِيعاً أَخَذْنَا . وَنِعْمَةً فَوْقَ نِعْمَةٍ . لِأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ . أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا »

(يوحنا ١ : ١٥ ـ ١٧)

رأينا أن البشارة الرابعة كتبت فى ظروف خاصة ، ساد فيها الاعتقاد ، بين البعض ، أن يوحنا المعمدان هو المسيًّا . وهكذا يبدأ البشير هذه الفقرة بشهادة المعمدان نفسه عن يسوع ، وكيف أنه يضعه فى المرتبة الأولى ، والموضع الفريد الذى يسمو على ما عداه . .

يقول المعمدان فى شهادته عن يسوع :« الذى يأتى بعدى ... كان قبلى». ترى ماذا يعنى المعمدان بهذا القول ؟

(أ) لعله يعنى بكل بساطة أن ذاك الذى جاء بعدى — لأن يوحنا أكبر من المسيح بستة شهور — صار سابقاً لى ، ومتقدماً علىَّ .

(ب) أو لعله يقصد : « لقد كنت فى ميدان الخـدمة سابقاً ليسوع ، وكانت الأضواء كلها مسلطة علىَّ قبل أن يأتى ، وقمت بجهودى فى الكرم قبل أن يبدأ عمله ، ولكن كل ما عملته كان بمثابة إعداد الطريق له . كنت طليعة حرس الشرف ، والياور الذى يتقدم الملك .

(حـ) ولعل يوحنا كان يرمى إلى أعمق من هذه الأفكار . لعله لم يكن فى مجال تفكيره أحداث الزمن ، بل دائرة الأزل والأبد . لعله يقصد أن

يسوع كائن قبل خلق العالم ، لذلك فلا مجال للمقارنة بينه وبين أى كائن آخر، فالجميع بجواره أصفار لا قيمة لها .

لعل هذه الأفكار الثلاثة ، أو لعل واحداً منها ، كان ماثلا فى فكر المعمدان حينما نطق بهذه الشهادة . على أنه ينبغى ألا ننسى أن المعمدان لم يمجد نفسه، ولكن آخرين حاولوا أن يرفعوه أكثر مما ينبغى . فجاءت شهادته لتؤكد أفضلية المسيح ، وسمو مركزه عليه .

ثم يتقدم المعمدان فى شهادته ، ليؤكد لنا أمورا رئيسية ثلاثة عن المسيح:

الأمر الأولى ، ملؤه الذى منه جميعاً أخذنا . ان الكلمة التى يستخدمها البشير فى الأصل اليونانى ، تدلُّ على جُمَّاع كل ما فى الله . انها كلمة كثيراً ما يستخدمها بولس الرسول فى رسائله . ففى كولوسى (١ : ١٩) نقرأ أنه فيه سُرَّ أن يحل كل الملء . وفى نفس الرسالة (٢ : ٩) ، نقرأ أيضاً عن المسيح أنه حلَّ فيه كل ملء اللاهوت . ومعنى هذا أن مجموع حكمة الله ، وقوة الله، ومحبة الله ، قد تركزت فى المسيح . ما أعظم ذلك الملء الذى لا يستقصى ! يستطيع كل ذى حاجة أن يلجأ إلى يسوع فيجد سداً لحاجته مهما كان نوعها . يستطيع كل إنسان يشتاق إلى الوصول إلى مَثل أعلى يضعه أمام عينيه ، أن يتجه إلى ذاك الذى سُرَّ أن يحل فيه كل ملء اللاهوت ، فيجد تحقيقاً لمثله الأعلى. يستطيع كل عاشق للجمال ، فى معناه الأسمى المبارك ، أن يتجه إليه فيجد فيه أسمى مثال للجمال الكامل . يستطيع كل باحث عن الحكمة أن يجد إعلان الحكمة فى أمجد صورها فى يسوع . يستطيع مَن تعوزه الشجاعة ، أن يجد مثالها ، وسرها، وقوتها ، فى يسوع صخر الدهور . يستطيع ذاك الذى كاد ينفض يديه من الحياة ، ويستسلم لليأس ، أن يبدأ حياته من جديد ، بنعمة ذاك الذى يجدد الحياة .

يستطيع ذلك الذى تثقل ضميره بحمل ذنبه وعاره ، أن يلقى منه كلمة السماح والغفران ، وقوة الانتصار على غرائزه . فالإنسان العادى ، يستطيع فى يسوع ، أن يصل إلى كل ملء الله . . . كل الملء الذى فى جلال الله ، أو كما قال أحدهم : فى استطاعته أن يصل إلى ينابيع الحياة الإلهية المباركة فى كمال ملئها وقوتها .

٢ — الأمر الثانى : النعمة التى نلناها ، والتى يعبر عنها الوحى هنا بالقول ، نعمة فوق نعمة — حرفياً نعمة بديلة عن نعمة .

ترى ماذا تعنى هذه الجملة الغريبة ؟

١ — انها قد تعنى أننا وجدنا فى المسيح ، معجزة تؤدى إلى معجزة . أحياناً حينما تتيح لنا الظروف أن نذهب فى رحلة إلى الريف وسط الحقول ، فإن عيوننا تبهرها المناظر الطبيعية الخلاّبة ، المنظر يتلو المنظر . وقد نصل إلى بقعة نظن أنهـا أجمل ما وقعت عليه أعيننا ، فإذا بالسيارة تحملنا إلى ما هو أجمل وأجمل . وفى ميدان الأدب ، والفن ، والشعر نستطيع أن نـكتشف كلما تعمقنا فى دراستنا ، أشياء أروع وأروع . ان آفاقاً من الجمـال تتفتح أمامنا ، كلما ازددنا تعمقاً فى المعرفة والاختبار .

هكذا الأمر فى اختبارنا الحى لشخص المسيح . كلما تعمقنا فى معرفته ، ازداد جمالاً وروعةً وجلالاً وعجباً فى أعيننا . وكلما عشنا أكثر بأمانة له ، ازداد جاذبية فى أنظارنا . وكلما تأملنا فيه أكثر وازدادت شركتنا معه ، اتسعت آفاق حقه فى أعيننا .

هذه طريقة الوحى على لسان البشير فى التعبير عن لا محدودية المسيح ، وعمقه الذى لا يستقصى . إن البشير هنا يقول ان الذى يعيش مع المسيح ، فى

شركة مباركة نقية ، سوف تشرق على نفسه ، يوماً بعد يوم ، أعاجيب جديدة ، تنير عقله ، وتملأ قلبه بالسحر .

٢ — أو قد يكون المقصود المعنى الحرفى : نعمة متبدلة كل يوم . . . . نعمة بديلة عن النعمة التى تسبقها . ان العصور المتباينة ، والظروف المختلفة للحياة ، تحتاج إلى أوجه جديدة من النعمة الإلهية . ففى أيام النجاح نحتاج إلى النعمة التى تحفظنا من الانحراف ، وفى أوقات الفشل نحتاج إلى النعمة التى تقينا ظلمة اليأس . فى أيام الشباب المنيرة نحتاج إلى النعمة التى تجنبنا مزالق الطريق ، وفى ظـــلال الشيخوخة المهدمة ، نحتاج إلى النعمة التى تنير أمامنا الطريق . ان الكنيسة فى أوقات الاضطهاد ، تحتاج إلى النوع الواحد من النعمة . وفى فصول النجاح والازدهار تحتاج إلى النوع الآخر . والمؤمن يحتاج إلى النعمة الواحدة حينما يكون على قمة الجبل ، ويحتاج إلى النعمة الأخرى حينما يسير بخطى وئيدة فى أعماق الوادى . نحن نحتاج إلى النعمة التى تعيننا على حمل أثقالنا ونحتاج إلى نعمة أخرى لنحمل أحمال سوانا . ان نعمة الله ليست شيئاً جامداً ، محدداً ، ولـكنها قوة جبّارة ، محركة ، متجددة . انها لا تعجز عن أن تجابه كل حالة بحسب حاجتها ، فحينما تدهم الحياة موجة طارئة فإن النعمة الإلهية تقف لتجابهها . فإن ارتفعت موجة أخرى ، هبّت نعمة الله لمواجهتها بقوة جديدة . ان نعمة الله تـكفينا فى كافة ظروف الحياة . وكل يوم يثبت لنا ان الله يتقدم إلينا فى المسيح « بنعمة فوق نعمة » .

٣ — الأمر الثالث ، ان الناموس بموسى أعطى ، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا . لقد كانت الحياة فى العهد القديم محكومة بالناموس . كان الإنسان يفعل هذا الأمر ، أو ذاك ، سواء كان يعرف معنى ما يكلف به ، أو لا يعرف . . . . سواء أحب هذا الواجب ، أم لم يحبّه . ولـكن بمجىء

المسيح ، أشرق عهد النعمة ، فلم نصبح بعد عبيداً ، نطيع بنود الناموس ، طاعة عمياء، اننا نستجيب لمحبة الله استجابة الأبناء . ففي يسوع المسيح ، رأينا الله مشرّع الناموس، فى صورة الآب الحنون، ورأينا الديّان العادل ، فى مظهر الإله المحب الفائض القلب من نحو نفوس البشر .

إعلان الله

« اللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ . الِابْنُ الْوَحِيدُ الَّذِى هُوَ فِى حِضْنِ الْآبِ هُوَ خَبَّرَ » .

(يوحنا ١ : ١٨)

حينما قال يوحنا ان الله لم يره إنسان ، فإنه كان متفقاً فى هـذا القول ، مع كافة الأديان فى العهد القديم . لقد كان الناس يتطلعون فى دهشة ، وغموض، وأحياناً فى ضيق، إلى بُعد الله العظيم عن مخيلة البشر ، وعمقه الذى لا يستقصى. فى سفر الخـــروج نستمع إلى الله محدثاً موسى بالقول : « لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الإنسان لا يرانى ، ويعيش » (خروج ٣٣: ٢٠) . وفى سفر التثنية ، نرى موسى يذكر الشعب بحادثة إعطاء الناموس ، فيقول « فـكلمكم الرب وانتم سامعون صوت كلام ، ولـكن لم تروا صورة، بل صوتاً » ، ولا واحد فى العهد القديم تحدث بأن فى استطاعة الإنسان أن يرى الله .

والفـكر الأغريقى ، كان يتجه إلى نفس المنحى . يقول « زينوفون » : « ان الأمر لا يعدو مجرد تخمين » . ويؤكد افلاطون : « من المحال أن يلتقى الإنسان بالله » . وكلسوس هزأ بأفكار المسيحيين الذين يلقبون الله بالآب « لأن الله أبعد من ذلك، يسمو فوق كل شىء . مفـكر واحد يُدعى أبوليوس،

يُؤخذ عنه القول : « ان الإنسان يستطيع أن يرى لمحة من لمحات الله ، كالبرق الساطع فى الليلة الظلماء ، كما يسطع لسان البرق إلى لحيظة ، ويعود الظلام قاتماً كما كان ».وكما يقول المؤرخ «جلوفر» ـ «مهما كانت صورة الله فى مخيلة القدامى ، فقد كان أبعد من أفكار الإنسان العادى ، ومن تصوراته » . لقد كانت هناك لحيظات قليلة جداً، نادرة، من الهيام الروحى استطاع البعض فيها أن يرى لمحة من « الكيان المطلق » ، ولكن الإنسان العادى ، كان أسير جهالاته ، ومخاوفه . فحينما قال يوحنا ، الله لم يره أحد قط ، فإنه كان معبراً عن فكر قديم سائد بين الجميع .

ولكن يوحنا لم يتوقف عند هذا الحد ، بل تقدم أكثر ليعلن لنا الحقيقة الخالدة ، بأن يسوع قد أعلن للبشر حقيقة الله . لقد أعلن، ليس مجرد عالم الله الخفى فحسب ، بل أعلن ذات الله ، وكيان الله ، وصفات الله . هنا نرى مفتاح البشارة كلها : « ان كنت تريد أن ترى الله ، تطلع إلى يسوع المسيح . . . » .

لماذا ينفرد يسوع على سواه ، بما لم يقم به من سبقه من الأنبياء ؟ أين تكمن تلك القوة العجيبة التى أعلنت الله للبشر ؟ يتقدم يوحنا بأسباب ثلاثة فى هذا الصدد . . فيقول :

١ — ان يسوع هو الابن الوحيد . أو بحسب الأصل الابن الفريد، الذى لا نظير له . وللمعنى الحرفى للكلمة يفيد الابن الفريد الحبيب الذى يتمتع بمحبة خاصة . وطبيعى ان الابن الوحيد له مكانته فى قلب أبيه ، ومحبته الخاصة التى لا ترتفع إلى مستواها محبة . وهكذا جاءت هذه الكلمة ، معبّرة عن الوحدة ، أو التفرد والمحبة ، فى نفس الوقت . ان تفرد يسوع على سواه هو محور رسالة العهد الجديد . فهو له مقامه الذى لا يطاوله مقام، وامتيازاته التى لا يصل

إليها امتياز ، وسلطانه الذى لا يرتفع إليه سلطان . انه وحده الذى يستطيع أن يقرب الله للانسان ، ويوحّد الإنسان مع الله فى شخصه الفريد .

٢ — ويسوع هو الله . لقد قال : الذى رآنى فقد رأى الآب . هنا نرى نفس التعبير الذى ورد فى مستهل الاصحاح يتكرر بصورة أخرى . اننا نرى فى يسوع صفات الله الأزلية غير المنظورة ، بل كيان الله العجيب ظاهراً ، وملموساً ، ومرئياً من كل عين . فهو الله الذى ظهر فى الجسد . لاحظ كلمة « هُوَ » التى تتكرر مرتين فى هذا العدد — « الابن الوحيد الذى هو الله ، الذى فى حضن الآب ، هو خبّر » .

٣ — ويسوع فى حضن الآب . وهذه الاستعارة المأخوذة من الحياة فى الشرق ، جيّاشة ، زاخرة بالمعانى . فكون الإنسان فى حضن آخر ، يشير إلى أعمق درجات الألفة ، والمحبة ، والمعرفة .

وهل هناك صلة أعمق من صلة الأم وقد احتضنت طفلها ؟ وهل هناك علاقة أحلى من علاقة الزوج ، وقد احتضن زوجته ؟ فى سفر العدد ، نستمع إلى موسى مخاطباً الله بخصوص الشعب المتذمر الثائر ، بالقول « ألعلى حملت بجميع هذا الشعب أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع » (عدد ١١:١٢) . وفى سفر التثنية يرد الوصف عن الزوجة « امرأة حضنك » (تثنية ١٣:٦) . والكلمة تستخدم أيضا عن صديقين فى أقصى درجات الألفة ، والمحبة ، والشركة القوية . فحينما استعار يوحنا هذه الصورة ليعبر بها عن الصلة الكائنة بين الآب والابن ، كان يعبّر عن صلة ، واتحاد ، ومحبة ، وشركة ، ومعرفة لا نظير لها .

وهذا معناه أن يسوع واحد مع الآب . ومادام الأمر كذلك فهو الوحيد

الذى يستطيع أن يكشف لنا قلب الآب المحب . لقد أتى يسوع المسيح ، بالله العظيم السامى ، المتعالى ، جل جلاله ، الذى لا يستقصى كنهه ، ولا يصل الانسان بعقله القاصر إلى إدراك أعماقه ، ليعرفه البشر ، ويلمسوه ، ويحبوه ، فى شخصه العجيب. فليس الله الآب غريباً عنا بعد، لأننا رأيناه فى الابن الحبيب.

شهادة المعمدان

« وَهٰذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً ولاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ مَنْ أَنْتَ . فاعْتَرَفَ ولَمْ يُنْكِرْ وأَقَرَّ إِنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ . فَسَأَلُوهُ إِذًا مَاذَا . إِيلِيَّا أَنْتَ . فَقَالَ لَسْتُ أَنَا . أَلنَّبِيُّ أَنْتَ . فَأَجَابَ لاَ . فَقَالُوا لَهُ مَنْ أَنْتَ لِنُعْطِيَ جَوَابًا لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا . مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ . قَالَ أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ . وكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ . فَسَأَلُوهُ وقَالُوا لَهُ فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ إِنْ كُنْتَ لَسْتَ الْمَسِيحَ ولاَ إِيلِيَّا ولاَ النَّبِيَّ . أَجَابَهُمْ يُوحَنَّا قَائِلاً أَنَا أُعَمِّدُ بِمَاءٍ ولٰكِنْ فِي وَسَطِكُمْ قَائِمٌ الَّذِي لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ . هُوَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي الَّذِي صَارَ قُدَّامِي الَّذِي لَسْتُ بِمُسْتَحِقٍّ أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ . هٰذَا كَانَ فِي بَيْتِ عَبْرَةَ فِي عَبْرِ الأَرْدُنِّ حَيْثُ كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ »

(يوحنا ١ : ١٩ — ٢٨)

بهذا الفصل القصير ، يبدأ يوحنا الجانب القصصى لبشارته ، بعد أن انتهى من المقدمة . فى مقدمته أعلن المخطط الشامل لبشارته ، فيسوع هو فكر الله عقل الله . . كلمة الله ، تجسد فى العالم فى صورة جسدية بشرية . وبعد أن انتهى البشير من المقدمة تقدم بنا ليبدأ قصة حياة يسوع .

ويبدو أن يوحنا هو الوحيد بين البشيرين، الذى يهتم بكل دقائق وتفاصيل حياة المسيح . فمن بداية هذه الأعداد حتى نهاية العدد الحادى عشر من الأصحاح الثانى ، نراه يسجل بكل أمانة تفاصيل الأسبوع الأول ، لخدمة يسوع الجهارية يوما بعد يوم . فاليوم الأول يبدأ من العدد التاسع عشر إلى الثامن والعشرين، وما حدث فى اليوم الثانى ، يرويه فى الإعداد الخمسة ، من التاسع والعشرين ، إلى الرابع والثلاثين، أما أحداث اليوم الثالث فيسجلها فى الأعداد الأربعة التى تليها ، واليوم الرابع يحتل ما كتب من العدد الأربعين إلى الثانى والأربعين ، واليوم الخامس من العدد الثالث والأربعين إلى نهاية الأصحاح الأول . ثم يُغفل البشير اليوم السادس ، ويعود لتسجيل أحداث اليوم السابع فى الأعداد الإحد عشر من الأصحاح الثانى . وخلال هذه السطور كلها ، يحملنا البشير معه فى جولة سريعة لنسير يوما بعد يوم ، فى سلسلة أحداث الأسبوع الأول ، من خدمة المسيح الجهارية ، فلا بشارة نظير بشارة يوحنا نهتم بتتابع الأحداث ، وترتيبها الزمنى .

زد على ذلك ، أن الفصل ما بين العدد التاسع عشر ، من الأصحاح الأول، إلى العدد الحادى عشر ، من الأصحاح الثانى ، يعطينا ثلاثة أنواع مختلفة من الشهادات ، تشهد ليسوع ، وتعلن عظمته وتفرده على سواه .

١ — فهناك أولا شهادة للمعمدان (١ : ١٩ — ٣٤) .

٢ — وهناك ثانياً شهادة أولئك الذين قبلوا يسوع معلماً ، وتتلمذوا على يديه (١ : ٤١ — ٥١) .

٣ — وهناك ثالثاً شهادة سلطانه للمجزى (٢ : ١ — ١١) .

ان يوحنا يسلط على يسوع هذه الأضواء الثلاثة المتباينة ، ليظهر عظمته ، وسموه ، وتفرده على سواه .

سبق وقلنا ان البشارة الرابعة كتبت فى وقت ظهرت فيه بعض الهيئات التى تنادى بأفضلية المعمدان ، وسبقه ليسوع . وحتى عام ٢٥٠ للميلاد يخبرنا أكليمندس « أن بعض تلاميذ يوحنا كانوا ينادون به، وكأنه المسِّيا » . وهكذا تتقدم البشارة الرابعة لتدحض هذه المزاعم ، وتؤكد للناس ، من كلام المعمدان نفسه ، أنه ليس للسيا على الأطلاق .

والآن دعنا نتجه إلى تحليل النص . ففى بدايته نلتقى بصورة مميزة تنفرد بها البشارة الرابعة : انها قصة « سفارة » اليهود الذين أتوا لاستجواب المعمدان ويتكرر اسم اليهود فى البشارة لا أقل من سبعين مرة . وفى كل هذه نراهم فى مركز المعارضة . فهم الشعب الذى وضع نفسه فى موضع مقاومة المسيح . ان ذكرهم يجرُّ إلى الحديث عن معارضتهم، كما يتبع الظل صاحبه . ان بشارة يوحنا تتركز فى أمرين : الأول أن يسوع أعلان الله للبشر ، لأنه الكلمة المتجسد . والثانى أن النور جاء إلى العالم ، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور . فهذه البشارة هى قصة محبة الله ، ورفض البشر . . محبة الله المقدمة فى يسوع ، وعناد البشر . .. خلاص الله فى المسيح ، وخطية البشر .. ان بشارة يوحنا هى مزيج من محبة الله الفائضة ، وتحذيراته للنفس العنيدة الرافضة . . .

ولقد كانت البعثة التى جاءت لاستجواب يوحنا ، تتألف من فريقين من اليهود . لقد أتى إليه الكهنة واللاويون . وكان هذا أمراً طبيعياً . فالمعمدان هو ابن زكريا ، وزكريا كان كاهنا (لوقا ١ : ٥) . لقد كان المؤهل للانخراط فى السلك الكهنوتى فى الدينية اليهودية ، التسلسل من دماء كهنوتية . فإن لم

يكن الإنسان من سلالة هارون ، فلا شيء على الأطلاق يستطيع أن يرفعه إلى المركز الكهنوتي ، وإذا كان من نسل هارون ، فالطريق سهل ممهد أمامه . وهكذا كان المعمدان في نظر الجموع ، هو بالفعل كاهن . وكان من الطبيعي أن يتوافد عليه الكهنة ليكتشفوا لماذا يتصرف واحد من الكهنة مثل هذا التصرف الغريب .

ثم كان هناك الفريسيون . وكان وراء أولئك مجلس السنهدريم . ولقد كانت وظيفة السنهدريم أن يبحث إدعاءات أي داعية ينادي بدعوة جديدة ، ليرى ان كان إدعاؤه حقا أم باطلا . وكانت الجماهير تتدفق على يوحنا المعمدان . وأحس مجلس السنهدريم أن من واجبه أن يفحص ذلك الإنسان ليكتشف ان كان واحداً من الأنبياء الكاذبين .

هذا يرينا نظرة القلق، والتحفظ،التي تتطلع منها الديانة الرسمية لأي حركة خارج حدودها . فالمعمدان لم يسر في نفس الركاب الكهنوتي ، ولم ينضو تحت نفس اللواء ، ولم تتفق تصرفاته ، مع تصرفات المعلم العادي . لذلك فلا بد وأن تنظر إليه السلطات الدينية ، نظرة الشك والريبة . والكنيسة كثيراً ما تقع في نفس الخطأ . كثيراً ما تقف موقف الشك والعداء ، من أية حركة جديدة ، لا تسير في ركابها. وكم من معلم عظيم ، أو مفكر قدير، تخرجه من حظيرتها ، وتشهر به ، لا لسبب إلا لأنها تكره كل شيء جديد .

شهادة المعمدان (تابع)

(يوحنا ١ : ١٩ — ٢٨)

ولقد جالت في مخيلة اليهود ، احتمالات ثلاثة قد يكون المعمدان متجهاً إلى إدعائها . .

(أ) فسألوه ان كان يدّعى أنه للسيا . لقد كان اليهود ينتظرون المسيا ، ومازالوا حتى اليوم ينتظرون ظهوره . وأى شعب تحت الآلام ، ينتظر مَنْ يخلصه من ضيقاته وآلامه . ولقد ظن اليهود أنهم الجنس المختار ، ولم يقم عندهم أدنى شك فى أن الله يوما ما، ان عاجلاً أو آجلا ، لابد وأن يتدخل لإنقاذ شعبه . ولم تكن هناك فكرة واحدة موحدة ، عن كيان المسيا وهدفه. فلقد تضاربت الآراء فى هذا الصدد . لقد ظن البعض منهم أن المسيا سوف يأتى بالسلام الكامل على الأرض فتبطل الحروب ، ويطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل ، واعتقد البعض أنه سيثبت أركان مملكة البر على الأرض، أما معظمهم فقد ساد عليه الاعتقاد بأن المسيا لابد وأن يأتى فى صورة زعيم وطنى يقود الجيوش الظافرة ، التى تسحق الأمم ، وتمهد لحكم اليهود على العالم .

ولقد أعتقد البعض أيضاً بأن المسيا إنسان غير عادى سيأتى من الله رأساً ، ولكن معظم اليهود كانوا يتوقعونه فى صورة رئيس من بيت داود ، تجرى فى عروقه الدماء الملكية . ولقد كانت القلاقل والأضطرابات ، تميز عصر يسوع . وكان أدعياء الحق المسياوى ، يظهرون بين الحين ، والحين ، ويجتذبون الجماهير ، ويثيرون المتاعب ، وينتهون إلى لاشىء . لذلك كان من الطبيعى أن يتجه اليهود إلى المعمدان متسائلين : هل أنت المسيا بالحق ؟ ولقد رفض يوحنا هذا الإدعاء ، ونبذه من أساسه . والكلمة فى الأصل اليونانى تتحدث بأكثر قوة مما تبدو فى الترجمة المنقولة .

(ب) ولقد سألوه ان كان هو إيليا ، أى أن لم يكن هو المسيا ، فهو على الأقل سابقه . . الياور الذى يتقدمه . . ولقد كان الأعتقاد السائد بين اليهود ، أن إيليا لابد وأن يظهر قبل مجىء المسيح ، ليمهد الطريق للملك العظيم . فهو

سيرد القلوب المتخاصمة ، ويلين النفوس العاصية ، ويميز بين مَن هو يهودى ، ومن هو غير يهودى ، ويلم شتات الأمة المتفرقة ، إلى حظيرة إسرائيل . ولقد تأصل هذا الاعتقاد فى نفوس اليهود ، حتى أن الناموس التقليدى جاء فيه أن الأموال ، والممتلكات ، التى طال النزاع عليها بلا جدوى ، أو التى لا يُعرف أصحابها ، ينبغى أن تبقى كذلك حتى يأتى إيليا . ويرجع الاعتقاد ، بأن مجىء إيليا يسبق مجىء المسيا ، إلى ما ورد فى سفر ملاخى (٤ : ٥) : « هانذا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجىء يوم الرب ، اليوم العظيم والمخوف » . بل لقد وصل بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن إيليا سيقوم بمسح الملك المعظم على عرشه ، فى حفل تتويجه ، وأن الأموات سوف يقومون ليشاركوا فى أمجاد الملكوت الجديد ، ولكن يوحنا أنكر أمام الجميع أن له مثل هذا الشرف .

(ح) وسألوه ان كان هو النبى الموعود الذى تنبأ عنه موسى فى سفر التثنية (١٨ : ١٥) « يقيم لك الرب الهك نبياً من وسطك من أخوتك مثلى له تسمعون » . وهذا الوعد كان محفوراً بحروف من نار فى مخيلة كل يهودى . كانوا ينتظرون ظهور ذلك النبى ، الذى هو سيد الأنبياء ، وأعظمهم . وكانوا يشتاقون ليوم ظهوره . ومرة أخرى يعود المعمدان للقول « لست أنا » .

وهكذا عادوا يسألونه من هو . فكان جوابه بأنه ليس سوى صوت صارخ فى البرية ، أعدوا طريق الملك . والاقتباس هنا من نبوات أشعياء (٤٠ : ٣) . وقد أوردته كافة البشائر (مرقس ١ : ٣ ، متى ٣:٣ ، لوقا ٣ : ٤) والفكرة الأساسية المستترة وراء هذا الاقتباس ، هى هذه : أن معظم الطرق الجبلية وخاصة فى فلسطين ، طرق غير ممهدة ، فهى مجرد ممرات ممتلئة بالحفر ، والصخور . فحينما يريد الملك أن يزور منطقة من مناطق البلاد ، أو حينما يتقدم قائد مظفر ، ليفحص مناطق سلطانه ، تُسوّى هذه الطرق ، وتزال الحفر

والصخور ، ويُقوم الطريق ، ويُسوّى . وكأنى بالمعمدان يقول : « إننى لست شيئاً. ما أنا إلا صوت صارخ فى البرية ، استعدوا للملك القادم » . . أعدوا قلوبكم ونفوسكم ، لأن الملك فى الطريق » .

لقد كان المعمدان المثال السامى ، لما ينبغى أن يكون عليه المعلم ، والمبشر الحقيقى المخلص — فهو ليس سوى صوت صارخ . . . أصبع يُشير إلى الملك . وأن آخر ما ينبغى أن يكون ، أن يتطلع الناس إلى صاحب الصوت ، وأن تتركز أبصارهم على اليد التى تشير . . لقد كانت أرادته أن ينساه الناس ، ولا يبصروا أمامهم سوى الملك العظيم .

على أن الأمر الذى حيرّ الفريسيين: بأى حق كان المعمدان يقوم بالمعمودية ؟ فلو كان المسياء ، أو حتى أيليا ، أو النبى ، لجاز له ذلك . وضمن نبوات أشعيا ، وردت النبوة عن المسيا « هكذا ينضح أمماً كثيرين » (أشعيا ٥٢:١٥) وفى نبوات حزقيال « وأرش عليكم ماء طاهراً ، فتطهرون من كل نجاساتكم » (حزقيال ٣٦ : ٣٥ :) . وورد أيضاً فى سفر نبوات زكريا « فى ذلك اليوم يكون ينبوعٌ مفتوحاً لبيت داود ، ولسكان أورشليم ، للخطية ، والنجاسة » (زكريا ١٣ : ١) . فلماذا يعمد يوحنا إذاً ؟

ومما زاد فى حيرة اليهود ، أن المعمودية على أيدى الناس ، لم تكن لليهود على الإطلاق . لقد كانت طقساً مرتباً لليهود الدخلاء ، القادمين من ديانات أخرى . أما الإسرائيلى أصلاً ، وفرعاً ، فهو ملك لله بطبيعته . والذى يفد على الحظيرة الموسوية من حظائر أخرى كان عليه أن يغتسل بالمعمودية من وساخات العقائد والممارسات الصنمية . وهاهو يوحنا المعمدان ، يفعل باليهود ما ينبغى أن يُعمل للامم الوثنية فقط : انه يتقدم إلى الشعب المختار . . . نسل إبراهيم ، بفريضة الغسل ، وكأنى بهم بحاجة إلى التطهير .

ولـكن المعمدان لم يجبهم على سؤالهم إجابة صريحة . بل قال لهم « أنا أعمد بماء . ولـكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه . هو الذى يأتى بعدى ، الذى صار قدامى . الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه ». وما كان ممكنا أن يصل إنسان إلى مثل هذه الدرجة من الضعة : أن يقوم بعمل العبد ، وينحنى ويحل سيور حذاء سيده . لقد ورد ضمن أقوال أحبار اليهود أن التلميذ يستطيع أن يقوم لسيده بكل ما يقوم به الخادم ، عدا الإنحناء وحل سيور الحذاء . فقد كان ذلك العمل ، أكثر ضعة ، ومهانة ، من أن يقوم به تلميذ . وكأنى بيوحنا يقول : فى وسطكم قائم مَن أنا لست بمستحق أن أصبح عبداً له » . ونحن نفهم أنه نحو هذا الزمان ، تمت معمودية يسوع . هكذا يقول المعمدان : « إن الملك قادم . لأجل قدومه عليكم أن تتطهروا ، وشأنكم شأن الأمم سواء بسواء . أعدوا أنفسكم لدخول العهد الجديد » . لقد كانت وظيفة يوحنا المعمدان أن يعد الطريق أمام العظيم القـــادم . . فإذا أحاطت به هالة من العظمة ، فما هى إلا عظمة اكتسابية ، اكتسبها من قيامه بهذا العمل المبارك . ان يوحنا مثال للانسان الذى هو على استعداد ، أن يجعل من نفسه لاشىء ، حتى يتعظم يسوع المسيح فى ضعفه وصغاره . ياليت الإله القدير يهبنا النعمة الكاملة لنسير فى إثر خطواته .

حمل الله

« وَفِى الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِى يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ . هٰذَا هُوَ الَّذِى قُلْتُ عَنْهُ يَأْتِى بَعْدِى رَجُلٌ صَارَ قُدَّامِي لِأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي. وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ .

لَكِنْ لِيُظْهَرَ لِإِسْرَائِيلَ لِذَلِكَ جِئْتُ أُعَمِّدُ بِالْمَاءِ »

(يوحنا ١ : ٢٩ – ٣١)

هنا نأتى إلى اليوم الثانى ، من هـذا الأسبوع الفاصل فى حياة يسوع . فى هذا الحين ، كان يسوع قد انتهى من المعمودية ، وانتهى أيضاً من تجارب البرية ، وكان على عتبة خدمته الجهارية التى من أجلها جاء إلى العـالم . وهنا نرى المعمدان يتقدم ، مرة أخرى ، ليقدم الاكرام اللائق لشخص المسيح . فهو يدعو السيد بهذا اللقب ، الذى أصبح مركزاً لـكل تأمل روحى : حمل الله . ترى ماذا كان يدور فى خلد يوحنا ، وما هى الأفـكار التى كانت تجول فى صدره ، وهو ينطق بهذا اللقب ؟ هناك صور أربع ، يحتمل انها كانت مرتسمة فى خيال المعمدان وهو يتقدم بهذا القول . . .

١ — أولى هذه الصور ، حمل الفصح . وعيد الفصح فى تلك الحادثة كان على الأبواب . (يوحنا ٢ : ١٣) . وقصة الفصح القديمة تدور حول الحمل الذى ذبح ، ليحمى بدمه بيوت الاسرائيليين فى الليلة التى غادروا فيها أرض مصر . (خروج ، ١٢ : ١١ – ١٣) . فى تلك الليلة جال الملاك المهلك ليضرب كل بكر من أبكار المصريين عدا أولئك الذين لطخوا القـــائمة العليا للباب ، والعتبتين بدم الحمل . ويرجح البعض إن ذلك الوقت كان قريباً من الفصح . وأنه فى تلك الساعة ، كانت تساق الحملان من الضياع القريبة ، لتقدم فى الهيكل فى أورشليم . وفى نفس الوقت مرّ يسوع بالمـكان . فإذا بالمعمدان يشير إليه ، وكأنه يقول « هذا هو حمل الله . . هذا هو الذبيح الحق الأوحد الذى يخلّص من الموت . ويرفع خطية العالم » . ونفس النغمة نستمع إليها فى رسائل بولس فهو يتحدث فى رسالة كورنثوس الأولى (٥ : ٧) عن المسيح كحمل الفصح الذى لاخلاص بسواه .

٢ — ولقد كان يوحنا المعمدان، ابنا لزكريا الكاهن . وكان يعرف تماماً كل تقاليد الهيكل وذبائحه . وكان من ضمن تقاليد الهيكل تقديم الذبيحة المسائية ، والذبيحة الصباحية : حملا بلا عيب ، يقدم كفارة عن خطايا الشعب (خروج ٢٩ : ٣٨ ـ ٤٢) . وقد ظلت هذه التقدمة قائمة طيلة الوقت الذى كان فيه الهيكل قائماً . حتى فى الظروف القاسية فى أثناء الحرب ، والحصار ، وأوقات المجاعة ، ظل اليهود يتمسكون بهذا التقليد ، إلى أن تم خراب الهيكل عام ٧٠ للميلاد . ولعل يوحنا كان يقصد بقوله هذا « إن كنتم تحرصون على تقديم الحمل المسائى ، والصباحى ، ليرفع خطية الشعب ، فها أمامكم الحمل الوحيد ، الذى لا تحتاجون إلى تكرار تقديمه » .

٣ — وفى كتابات الأنبياء ، نرى صورتين للحمل . فى نبوات أرميا (١١:١٩) يتحدث النبى قائلا « وأنا كخروف داجن يساق إلى الذبح » . أما إشعياء فهو يتقدم لنا بصورة حية عن ذاك الذى سوف يصبح « كشاة تساق إلى الذبح » (٥٣ : ٧). لقد تكشفت لهذين النبيين رؤيا واضحة عن الذبيح الأعظم الذى فى آلامه ، وذبيحته ، وتضحيته التطوعية ، الاختيارية ، سوف يكون فداء البشرية. ولعل المعمدان يقصد أن يقول « لقد كان أنبياؤكم يحلمون بمجئ ذاك الذى فى محبته للشعب ، سوف يضحى بدمه ، وحياته . وها هو قد جاء وتحقق الحلم » . ولقد كان الأصحاح الثالث والخمسين من نبوات أشعياء ، من أقوى الكتابات التنبؤية التى تمسكت بها الكنيسة، والتى رأت فيها أضواء ساطعة تشرق فى مجاهل العهد القديم لتعلن صفات المسيح . ولعل يوحنا كان أول من ركز أنظاره على هذا الأصحاح .

٤ — بقيت أمامنا صورة رابعة لعلها كانت عادية ومعروفة لليهود فى القديم ولو أنها غريبة عن مفهومنا . ففى الفترة ما بين العهد القديم ، والعهد الجديد ،

عاصر اليهود أيام الصراع المرير ، التى انتهت باستقلال البلاد ، واعتلاء المكابيين عرش الحكم . ولقد اتخذ أولئك رأس الحمل ذى القرنين ، شعاراً لانتصارهم . بل إن الشعب وصل إلى حد وضع يهوذا المكابى ، على قدم المساواة مع صموئيل ، وداود ، وسليمان . وهكذا ، كما أشرنا ، أصبح الحمل رمزاً لبطل الله المنتصر . وصورة الحمل هنا ليست صورة الضعف ، بل رمز القوة وجلال النصر . ويسوع هنا هو حمل الله المنتصر الذى حارب الشيطان وانتصر عليه ، وسحق الخطية فى معركة واحدة . هذا اللقب المبارك ، حمل الله ، يبدو وكأن سحراً مجيداً يحيط به ، فهو يتكرر وروده فى سفر الرؤيا تسعاً وعشرين مرة . لقد أصبح من أمجد الألقاب التى لقّب بها المسيح . وفيه تتجمع محبة المسيح ، وتضحيته ، وآلامه ، ممتزجة بانتصاراته ، وأمجاده . .

والمعمدان يقول بأنه لم يكن يعرف يسوع ، مع أنه بحسب الجسد ، من أقرباء يسوع ، (لوقا ١ : ٣٦) . ولا بد أنه عاشره فى طفولته وصباه . ولكن لا ينبغى أن يفوتنا ، بأن المعرفة التى يشير إليها هنا ليست معرفة من هو يسوع بل إدراك حقيقته ، وكنهه ، وأصله الإلهى ، ورسالته المباركة . وها قد آن الأوان ليشرق عليه الحق ، بأن يسوع ليس أقل من ابن الله الحى .

وبعد ذلك نستمع إلى المعمدان ، وهو يكرر القول ، مؤكداً لسامعيه ، بأن وظيفته ليست سوى أن يشير إلى المسيح . . . أن يرشد الناس إليه ، فالمسيح هو كل شىء . أما هو ، فهو ليس شيئاً على الإطلاق ، فلا مكانة له ، ولا عظمة ولا جلال . ان كل وظيفته أن يرفع الستار ، ويخلى المسرح بالكلية ، ليحتله شخص المسيح . .

حلول الروح

« وشَهِدَ يُوحَنَّا قَائِلاً إِنِّى قَدْ رَأَيْتُ الرُّوحَ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ . وأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ . ولَـكِنَّ الَّذِى أَرْسَلَنِى لِأُعَمِّدَ بِالْمَاءِ ذَاكَ قَالَ لِى الَّذِى تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً ومُسْتَقِرًّا عَلَيْهِ فَهَذَا هُوَ الَّذِى يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ . وأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وشَهِدْتُ أَنَّ هذَا هُوَ ابْنُ اللهِ ».

(يوحنا ١ : ٣٢ ــ ٣٤)

لقد حدث أمر غريب ، عند معمودية يسوع . لقد حدثت ظاهرة غريبة ، اقنعت المعمدان بما لا يقبل الشك ، أن الذى أخضع نفسه لمراسيم العماد على يديه ليس سوى ابن الله . ومع أن روح الله لا يُرى ولا يُلمس ، شأنه شأن أى أقنوم إلهى مجرد ، إلا أن الله سمح بأن يرافق حلول الروح على المسيح هـذه المعجزة المنظورة حتى يكون فى ذلك أصدق دليل على ارسالية المسيح ، وأصله المبارك ، يراه المعمدان ويؤمن به .

ولقد كان من المناسب أن تـكون هذه المعجزة المرئية فى مظهر حمامة . ولقد كانت الحمامة طائراً مقدساً بين اليهود ، لاتصاد ولا تؤكل . وكتب « فيلو » أنه شاهد الجماعات العديدة من هذا الطائر الأليف ، تحط ، وتحوم فى مدينة عسقلون لأنه لم يكن مسموحاً أن تذبح ، أو تؤكل . . وفى الاصحاح الأول من سفر التـكوين نقرأ عن روح الله ، أنه كان يرف مثل حمامة على سطح المياه الجبارة . ولقد فسر الأحبار هذا القول ، بأن روح الله كان يرف على وجه المياه ، والخراب ، والدمار ـ باعثا الحياة ، والنظام ، والجمال ،

فى كل شىء ، وممهدا لعمل الـكلمة الخالق . ان صورة الحمامة كانت عزيزة على قلب كل يهودى . . .

ولقد حلّ روح الله على يسوع، بكل قوة وسلطان ، عند معموديـه . لاحظ أنه فى ذلك الحين لم تـكن العقيدة المسيحية عن الروح القدس، قد تبلورت بعد ، كما فى صورتها الحاضرة ، لأن يوم الخمسين لم يكن قد أتى بعد فى اختبار المجتمع الأول ، ولم يكن انسكاب الروح قد تم بصورته العـامة ، مميزاً تدبير العهد الجـديد . وكان على المجتمع أن ينتظر حتى حلول يوم الخمسين . ولذلك فان المعمدان ، حينما تحدث عن الروح القدس ، وحلوله على يسوع ، فإنما كان يتحدث بلغة اليهود ، وتفـكيرهم . فما هو الفـكر اليهودى عن الروح القدس ؟ إن كلمة « روح » أو « رواس » فى العبرية ، مأخوذة من كلمة ريح . ولقـد كان لليهود ثلاثة أفـكار رئيسية عن الروح : الفـكر الأول أن الروح قوة ، قوة جبارة كقوة الريح العاصفة . الفـكر الثانى أن الروح حياة . . . . فهى مركز ، وجوهر الحيـاة ، والقوة المحركة الدافعة لوجود الأنسان . والفـكر الثالث أن الروح ليس أقل من ذات الجلال الإلهى ، فجوهره ، ومصدره ، وكيانه ، فوق مستوى البشر وكيانهم . وحلول الروح على إنسان ما ، معناه حلول الله ، بقوته ومجده وجلاله ، على هذا الإنسان . فهو الذى يوحى للأنبياء بكلمة الوحى ، وهو الذى يمسك بأقلامهم . عند كتابة السفر المقدس يقول النبى ميخا « . . لـكننى أنا ملآن قوة روح الرب وحقاً وبأساً لأخبر يعقوب بذنبه، وإسرائيل بخطيته» (ميخا ٣ : ٨) . وفى نبوات أشعياء نستمع إلى الله يتحدث إليه قائلا « روحى الذى عليك ، وكلامى الذى وضعته فى فمك لا يزول من فمك، ولا من فم نسلك » (أشعياء ٥٩ : ٢١) . فإذا وصلنا إلى الأصحاح الحادى والستين ، استمعنا إلى القول النبوى « روح السيد الرب على ، لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين » (أشعيا ٦١ : ١) . وفى نبوات

حزقيال « وأعطيكم قلبا جديداً ، واجعل روحاً جديدة فى داخلكم ، وأنزع قلب الحجر من لحمكم ، وأعطيكم قلب لحم . وأجعل روحى فى داخلكم وأجعلكم تسلكون فى فرائضى» (حزقيال ٣٦ : ٢٦ ، ٢٧) .

وهكذا نقول ان روح الله ، فى حلوله على إنسان ما ، يقوم بعملية مثلثة الأركان : فهو أولا،يأتى بحق الله للانسان ، وهو ثانياً ، يهب الإنسان المقدرة لمعرفة هذا الحق وقبوله ، وهو ثالثا ، يعطى الانسان القوة والشجاعة للمناداة بهذا الحق للآخرين . وهذا مايفعله حلول روح الله فى الانسان .

فإذا جئنا لمعمودية يسوع ، رأينا روح الله يحل عليه بصورة فريدة لم يسبق لها مثيل . لقد كان روح الله يحل على الأنبياء فى القديم ، حلولا مؤقتا لأداء مهمة ما ، أو شهادة ما . فاذا انتهت هذه المهمة أو هذه الشهادة ، انتهت معها الساعة الملهمة ، وانطفأ الأشراق المبارك ، تماماً كما يحدث تفريغ لشحنة كهربية فى جسم موصل . فإذا انقطع سريان الكهرباء ، عاد الجسم إلى ما كان عليه . ولكننا نقرأ ، فى عددين متتاليين ، (٣٢ ، ٣٣) ، تأكيد المعمدان ، ان الروح القدس استقر عليه ، حلّ حلولا دائما فعليا على يسوع ، واتخذه مسكناً له . فحلوله هنا لم يكن حلولا مؤقتا . لقد كان يسوع مؤيدا ، فى خدمته ، بروح الله ، روح الحكمة والنصح والارشاد . هنا نرى صورة مباركة لعمل الأقانيم الثلاثة متحدة معا، الآب المرسل ، والابن المكرس ، والروح الحال . والفعل « يعمد » فى الأصل اليونانى ، يستحق منا وقفة تأمل . فهو يعنى حرفيا يغمس أو يغطس . ويمكننا أن نطلقه على عملية صباغة الثياب ، حينما تنقع فى دن الصباغة ، كما يمكن أن يطلق على السفينة الغاطسة التى تطغى عليها الأمواج ، ويمكن أن يطلق مجازيا على السكير الغارق فى الكأس ، حتى أصبح منقوعاً فى الخمر . . فحينما نقول عن يسوع انه معمّد بالروح القدس ، أو عن إنسان

ما أنه معمد بالروح القدس ، فنحن نعنى بذلك أنه مشبع بقوة الله . . بحكمة الله . . . إن روح الله يتخلل كيانه ، ويسيطر عليه ، ويفيض فيه . هذا مايفعله يسوع حينما يهب الروح القدس للمؤمنين باسمه .. وهذا هو الفارق بين معمودية يوحنا ، ومعمودية المسيح .

ولقد كانت معمودية يوحنا تعنى أمرين : فهى تعنى أولا الغسل والتنقية. وهذا الغسل الفرضى الناموسى ، هو رمز للغسل الروحى . للتنقيــة من كل عيب . وهى تعنى أيضاً التــكريس والتخصيص ، لحياة جديدة ، وهدف جديد وغاية أسمى . لقد كانت معمودية يوحنا رمزية فرضية . أما معمودية يسوع فــكانت روحية . . لأنها معمودية الروح القدس . وفى ضوء ماسبق من أفكار عن معمودية الروح ، نستطيع تقول ان الإنسان المعمد بالروح ، الذى سيطر روح الله على كيانه يتمتع بهذه الأمور الثلاثة التى تميزه عن سواه . .

١ — فهو يتمتع باستنارة الحياة ، لأن نور حكمة الله يشرق فى حياته ، وأرادة الله تصبح واضحة أمامه ، وقصد الله يتضح أمام ناظريه . . وهــكذا يرى طريق الواجب ، وطريق الحيــــاة ، كأن نور الله قد أشرق أمامه وفى أعماقه . .

٢ — وهو يتمتع أيضاً بقوة الحيــاة . فالمعرفة المجردة من القوة خيــال مثالى مضن يعذب صاحبه . لأنه لا يمتلك المقدرة للوصول إلى هذا المثال الذى يلح عليه . ولــكن روح الله لا يهبنا معرفة ما هو صواب وحق فحسب ، بل يعطينا القوة لاتباع هذا الصواب ، والعمل بما هو حق . ان الروح يعطينــا مقدرة الانتصار لمجابهة مشكلات الحياة والانتصار عليها . .

٣— وهو يتمتع بالتالى بنقاوة الحياة . ان معمودية الروح التى يقوم بها المسيح ، هى كما أشار متى ، ولوقا ، معمودية النار (متى ٣ : ١١ ، لوقا ٣:١٦)

انها معمودية تحرق كل زغل الخطية ، وكل غش الجسدانية ، حتى يصبح كيان الإنسان الروحى مصفى ، طاهرا ، من كل معصية . لو عرفنا أن عمل الروح فى حياتنا هو بهذا القدر من الأهمية ، لأصبحت صلاتنا لطلب الروح ، وسكنى الروح ، ومعمودية الروح، هى صلاة القلب الملتهب ، والنفس المتضرعة المحتاجة ، المتذللة .

التلاميذ الأولون

« وفى الْغَدِ أَيْضًا كانَ يُوحَنَّا واقِفاً هُوَ واثْنَانِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ فَنظَرَ إِلَى يَسُوعَ مَاشِياً فَقَالَ هُوَذَا حَمَلُ اللهِ . فَسَمِعَهُ التِّلْمِيذَانِ يَتَكَلَّمُ فَتَبِعَا يَسُوعَ . فَالْتَفَتَ يَسُوعُ ونَظَرَهُمَا يَتْبَعَانِ فَقَالَ لَهُمَا مَاذَا تَطْلُبَانِ . فَقَالاَ رَبِّي الَّذِي تَفْسِيرُهُ يَا مُعَلِّمُ أَيْنَ تَمْكُثُ فَقَالَ لَهُمَا تَعَالَيَا وانْظُرَا . فَأَتَيَا ونَظَرَا أَيْنَ كانَ يَمْكُثُ ومَكَثَا عِنْدَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ . وكانَ نَحْوَ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ .

(يوحنا ١ : ٣٥ ـ ٣٩)

لا توجد فقرة فى الكتاب زاخرة باللمسات الفياضة قدر هذه الفقرة .

وهنا نشاهد المعمدان، مرة أخرى، يشير بعيداً عن شخصه إلى شخص المسيح ، ولقد كان يدرك جيداً أن توجيه تلاميذه للمسيح ، معناه حثهم على تركه ، واتباع المعلم الجديد ، ومع ذلك لم يتراجع أمام هذه التضحية ، فلم يكن للحسد مكان فى قلبه . لقد جاء ليدعو الناس ، لا ليكونوا أتباعاً له . . لا ليلتصقوا بشخصه ، بل ليكونوا اتباعا للمسيح — لا يوجد أقسى على نفس الإنسان من

أن يأخذ الموضع الثانى ، بعد أن كان يحتل المركز الأول . ولـكننا نرى هنا ، أنه ما أن ظهر يسوع على مسرح الخدمة ، حتى أخلى المعمدان له المكان ، وقام بواجبه فى دعوة الناس للالتفاف حوله .

وهكذا أسرع التلميذان خلف يسوع. ويبدو انهما فى خجلهما لم يتجها إليه مباشرة ، بل تبعاه من بعيد بروح الأحترام . وهنا نرى يسوع يقوم بلفتة مباركة هى الطابع المميز لشخصة ، ولمعاملاته مع الأفراد .

لقد استدار وتحدث إليهما ، أو بمعنى آخر ، لقد التقى بهمـا فى نصف الطريق ، وسهل لهما المهمة العسيرة ، وفتح أمامهما الباب المغلق . هنا نرى الله يبدأ الخطوة الأولى فى حياة الإنسان . فحينما يبدأ عقل الإنســان فى البحث ، ويلتهب بالشوق ، يتقدم الله ليلتقى به . إن الله لايترك الإنســان يتخبط هنا وهناك فى بحثه عن الحق ، بل يتقدم ليلتقى بالإنسان . . ليعينه . . ليمـد له يد المساعدة. وكما قال أوغسطين، « ما كان مقدراً لنا أن نبدأ البحث عن الله مالم يبدأ هو من جانبه ويكتشفنا » . إننا حينما نتجه إلى الله ، لا نتجه إلى إله يبتعد عنا ، ويلتحف بالسحاب ، ويتركنا فى مجاهل الحيرة . إننا نتجه إلى إله يفتح ذراعى المحبة لاستقبالنا . . . يمهد الطريق أمامنا . . بل يسرع ليلتقى بنا فى نصف الطريق ، فاتحاً ذراعى المحبة ..

ولقد بدأ يسوع بسؤال هذين الباحثين السؤال الجوهرى الرئيسى فى الحياة : ماذا تطلبان ؟ ولقد كان هذا السؤال لائقاً ومناسباً غاية المناسبة ، وخاصة فى فلسطين ، فى تلك الأوقات التى امتلأت بالحيرة ، والاضطراب . ترى ماذا تطلبان ؟ هل أنتما من طائفة الناموسيين الذين يبحثون عن المماحكات فى كل دقائق الناموس ، وتلذ لهم المباحثات نظير الكتبة والفريسيين ؟ أم انتما من الانتهازيين الطامعين ، الذين يبحثون عن المركز والجاه ، كما يفعل

الصدوقيون ؟ هل انما طائفة من الغيورين الوطنيين الذين يبحثون عن زعامة سياسية ، وقيادة عسكرية ، تلاقى القوة بالقوة والسيف بالسيف ، وتطيح بسلطان المستعمر البغيض؟أم انما من الأعداء القانعين المستريحين فى صهيون الذين يطلبون إرادة الله فى حياتهم ويسعون لإتمامها فى التعبد ، واتباع فروض الناموس ؟ أم لعلكما من الذين تعذبهم ضمائرهم ، ولا يجدون الراحة فى ممارسات الهيكل ، وطقوس موسى ، فيبحثون عن السلام وراحة القلب فى غير هذا الطريق ؟

جميل أن يكون هذا شعارنا فى الحياة ، وأن نسأل أنفسنا بين الحين ،والحين: « ماذا أطلب ؟ إلى أى اتجاه أسعى ؟ ما الذى ابتغيه من الحياة ؟ ماهو هدفى وغايتى من الوجود ؟ » .

(ا) إن البعض يبحث عن الإيمان بطرق متعددة .فهو يحاول الوصول إلى مركز مالى يصدُّ عنه غوائل الحدثان، ويضمن له الرصيد الكافى لحياة مستقرة — منطق مادى يتحدث بالأرقام وقد ينجح إلى حد ما فى حل بعض المشكلات المادية . وهو ليس على العموم اتجاهاً خاطئاً ، ولكنه اتجاه يقصر عن الهدف الأسمى للحياة ، ولا يوفى كل مطاليبها ، لأن الحساب الختامى سوف يثبت لنا أن غير يقينية المادة لا تعطى الضمان الكافى لمواجهة كل تقلبات الحياة .

(ب) والبعض يحاول أن يصل للامان عن طريق المركز الاجتماعى الذى يتناسب مع مواهبه وإمكانياته ، والذى يضمن له السيطرة على الظروف، وكل شىء.هذا الهدف قد يكون رديئاً،إذا كانت تسيره الأنانية والنفعية،أما إذا كان يتجه إلى خدمة الإنسانية ولو اتى لصاحبه عرضاً بالمركز والجاه — فهو هدف لا بأس به .

(ح) وهناك فئة ثالثة تبحث عن الأمان والاطمئنان فى راحة القلب ، وسلام النفس — السلام مع الله ، ومع الناس ، والسلام مع ذات الإنسان .

هذا الهدف الأخير ، هو الهدف الأسمى . ولن نستطيع أن نصل إليه إلا عن طريق يسوع المسيح .

وأجاب تلميذا يوحنا بأنهما يريدان أن يعرفا أين يمكث يسوع . وانفسا نستمع إليهما يناديانه بلقب ربى، وهى كلمة عبرية معناها الحرفى :سيدى العظيم . ولقد كان هذا هو اللقب الذى ينادى به الطلبة ، والباحثون عن المعرفة ، أساتذتهم ومعلميهم . وبما أن البشير يوحنا ، كان يكتب انجيله لليونانيين ، لذلك فقد أورد ترجمة تلك الكلمة العبرية إلى اللغة اليونانية (ديداسكالوس) ومعناها معلم . . . ولم يكن الدافع لسؤال التلميذين ، مجرد حب الاستطلاع . لقد كانا يرغبان فى الانفراد مع يسوع فى مكان منعزل لأن الفرصة لاتسنح بالحديث فى الطريق ولأن الموضوع يتطلب أكثر من الكلام العابر . لقد كانا يرغبان بالاختلاء طويلا مع يسوع والتحدث عن متاعبهما ومشاكلهما . إن الذى يريد أن يكون تلميذاً ليسوع لا يكتفى بأن يتحدث معه بكلمة عابرة. إنه لايشبع إلا بجلسة الصديق فى قلب منزله .

وأجابهما يسوع : « تعاليا وانظرا ». ولقد كانت هذه طريقة أحبار اليهود فى تعاليمهم . « هل تريد أن تعرف جواب هذا السؤال ؟ هل تريد حلا لهذه المشكله ؟ إذا تعال وانظر ، وسنناقش هذه المشكلة على انفراد » . لقد كان السيد يدعو التلميذين ، لاليصطحباه ويتحدثا معه فحسب ، بل ليكتشفا كل الأمور المغلقة التى سيعلنها لهما . وينهى البشير حديثه بتحديد نفس الساعة التى تم فيها هذا اللقاء الرائع : نحو الساعة العاشرة (حوالى الرابعة بعد الظهر) . ولعله كان واحداً من الاثنين . فهو يستطيع أن يخبرنا عن كل حدث يحدث بيقاته ، كما يستطيع أن يخبرنا عن الأحجار التى كانت فى الطريق . لقدأصبحت الساعة الرابعة فى فصل الربيع الرائع فى الجليل ، بداية فصل ربيع جديد فى حياة

يوحنا البشير . فحينما يلتقى الإنسان بيســوع لأول مرة ، فإنه لا ينسى ذلك اليوم ، ولا تلك الساعة ، كما لا ينسى تاريخ ميــلاده . فهذا هو يوم الميــلاد الجديد بالنسبة له . . . اليوم الذى يفصل بين حياة قديمة لم يعرف فيها يسوع ، وبين حياته الجديدة التى بدأت باللقاء مع المخلص .

شركة المجد

كَانَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَاحِدًا مِنَ الاِثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ سَمِعَا يُوحَنَّا وَتَبِعَاهُ . هَذَا وَجَدَ أَوَّلاً أَخَاهُ سِمْعَانَ فَقَالَ لَهُ قَدْ وَجَدْنَا مَسِيَّا . الَّذِى تَفْسِيرُهُ الْمَسِيحُ . فَجَاءَ بِهِ إِلَى يَسُوعَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَقَالَ أَنتَ سِمْعَانُ بْنُ يُونَا . أَنْتَ تُدْعَى صَفَا الَّذِى تَفْسِيرُهُ بُطْرُسُ .

(يوحنا ١ : ٤٠ ـ ٤٢)

« هذا وجد أولا أخاه » . وفى بعض الأصول ، فى الصباح الباكر . ان البشير يبدأ من هنا قصة اللحظات الأولى لذلك الأسبوع الفاصل فى حياة المسيح ، فلم تنقضِ ساعات على لقاء اندراوس بالمسيح ، حتى أسرع بدعوة صفا فى صباح اليوم التالى .

وهنا نرى البشير أيضاً يفسر كلمة عبرانية بنظيرتها فى اليونانية ليساعد أولئك الذين يوجه إليهم بشــارته . ان كلمة « مسيًّا » فى العبرية ، توازى « المسيح » فى اليونانية . وكلاهما معناه الممسوح . فقد جرت العادة فى القديم ، على أن يمسح الملوك بالدهن فى حفلات تتويجهم . وكلمة « مسيا » العبرية ،

و « خرستوس » اليونانية كلاهما يعنى ، مليك الله الممسوح .

ونحن لا نعرف الكثير من المعلومات عن اندراوس، ولكن القليل الذى لدينا يكفى لأن يقدم لنا صورة كاملة عنه . فهو ، كما يبدو ، واحد من أصدق الشخصيات بين جماعة التلاميذ .

ومن الأحداث البارزة فى قصة البشائر ، التى تردد فيها اسمه ، نستطيع أن نرى صفتين رئيسيتين فى حياته . .

١ — الأولى أن اندراوس هو التلميذ الذى كان على استعداد أن يأخذ الوضع الثانى . فمن مكان لآخر فى الأنجيل المقدس ، نرى لقب التعريف الذى يلازم اندراوس : اندراوس أخا سمعان بطرس . لقد كان يعيش فى ظل أخيه وبسمعة أخيه ، وباسم أخيه . فالناس لايعرفونه شخصيا . . لا يعرفون من هو اندراوس ، ولكنهم يعرفون بطرس . فإذا تحدثوا عن اندراوس كانت كل الميزة التى يتفرد بها أنه : أخو سمعان بطرس . ولم يكن أندراوس من الدائرة الضيقة المقربة إلى شخص المسيح ، التى كانت تضم بطرس ، ويعقوب ، ويوحنا فحينما أقام السيد ابنة يايرس ، وحينما صعد مدارج جبل التجلى ، وحينما تقدم إلى بستان الألم ، بستان جثسيمانى ،لم يصطحب معه إلا هؤلاء الثلاثة . ولقد كان ممكنا أن يعترض اندراوس على ذلك ، لماذا يفضله بطرس ؟ أليس هو الواسطة التى أتت به إلى المسيح؟ أليس هو من الرعيل الأول الذى قبل الدعوة ؟فلماذا لا يكون له المركز الأول بين جماعة التلاميذ ؟ ولكن هذه الأفكار كلها لم تخطر على بال اندراوس . لقد كان كريم النفس حتى أنه قبل عن طيب خاطر ، أن يتراجع ليغمره النسيان ويترك أخاه تسطع عليه الأضواء . لقد رضى أن يقوم يدور الوديع المتضع بين الاثنى عشر. فلم تسكن للكرامة ، والأولوية وحب الظهور ، الأمور التى تسبى قلوب الكثيرين ، وتدفعهم إلى كافة السبل

للوصول إليها ، لم تكن لهذه كلها قيمة تذكر عند اندراوس التلميذ السمح ، الطيب ، الكريم .

٢ ـ والثانية حبه لتقديم الآخرين للمسيح ، فنحن نشاهده على الدوام يتقدم السائلين ، ويجتذبهم للمسيح ، حتى أن البعض لقب اندراوس برائد العمل الفردى . فمن خلال سطور القصص الثلاث التى ورد فيها ذكره ، نشاهده مقدماً أناساً للمسيح . هنا نراه يأتى بأخيه بطرس . وفى الأصحاح السادس حيث وردت قصة معجزة إشباع الجماهير، نرى اندراوس يأتى بالصبى الذى معه الخمسة أرغفة ، والسمكتين إلى السيد (يوحنا ٦ : ٨ ، ٩) . فاذا وصلنا إلى الاصحاح الثانى عشر (١٢ : ٢٣) ، نرى اندراوس هو الذى يأتى باليونانيين إلى حضرة المسيح . لقد كانت لذته الكبرى أن يأتى بالغير إلى المسيح . . ان يدعو الآخرين ليذوقوا الطعام الحلو الذى تمتع به وأن يشتركوا فى الأمجاد التى اشرقت عليه . ان اندراوس هو صاحب القلب المرسلى . . . القلب الذى عرف يسوع واختبره ، وتمتع بعشرته ، فأصبح كل همه أن ينادى الآخرين هاتفا : « ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » . وحينما أتى اندراوس بأخيه إلى يسوع : « نظر إليه يسوع » والكلمة « إمبليبين » المستخدمة هنا تعنى نظر إليه نظرة قوية ، مركزة ، فاحصة . انهـا نظرة لا ترى ظاهر الأشياء فحسب ، بل تقرأ أعماق قلب الإنسان . . . ونظر السيد إليه وقال « أنت سمعان بن يونا ؟ أنت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس (أى صخرة)». ولقد جرت العادة ، فى العالم القديم ، أن يكون لكل واحد اسمان أو لقبان . فاليونانية كانت لغة التجارة السائدة فى أرجاء الامبراطورية . وكل إنسان كان له اسمه المعروف به بين مواطنيه ، واسمه التجارى الذى يُعرف به بين التجار فى الدائرة الأكثر إتساعا .

وأحيانا يكون الإسم الواحد ترجمة للاسم الآخر . فبطرس هو الإسم اليونانى ، وصفا هو الإسم الأرامى ، والكلمتان تعنيان شيئا واحداً : صخرة. لقد غيّر السيد لقب سمعان ، كثير السماع والأندفاع ، إلى إسم بطرس الصخرة الثابت الايمان .وتوما هو الإسم الأرامى ، وديدموس اليونانى ، والمعنى التوأم. وطابيثا الاسم الأرامى ، ودوركاس اليونانى ، والمعنى غزالة . وأحيانا يطغى اسم واحد ويعرف به الانسان ، وعلى الأخص الاسم اليونانى الأكثر ذيوعاً وانتشاراً ، وذلك إذا كان الأسمان متشابهين فى اللفظ والجرس . فقد يعرف واحد باسمه اليونانى ابلوس، ويكون اسمه اليهودى هابيل — هنا نرى بطرس، وصفا اسمين فى لغتين مختلفتين لمعنى واحد . .

وفى العهد القديم ، نستطيع أن نرى أن تغيير اللقب غالبا ما يقترن بتغيير فى الصلة بين الإنسان وإلهه . فيعقوب يُصبح اسمه إسرائيل . (تكوين ٣٢ : ٢٨) . وابرام يتحول إلى إبراهيم (تكوين (١٧ : ٥) . فحينما يدخل الانسان فى عهد جديد مع الله ، بتكريس جديد ، يبدو وكأنه قد وُلد من جديد ، ويحتاج إلى الإسم الجديد .

ولكن اللمسة المباركة فى القصة هى للمعانى التى تنطوى على نظرة المسيح للانسان . فيسوع حينما ينظر إلى الانسان ، لا يرى فقط أعماق ماضيه . . . لا يرى ماهو عليه ، بل يرى أيضاً ما يمكن أن يصير إليه . وإنه لا يرى حقيقة كيانه فحسب ، بل يرى إمكانياته الخفية الكامنة . فحينما نظر إلى بطرس ، رأى فيه أكثر من الصياد الجليلى البسيط . . . رأى فيه صياد الانسانية الكبير الذى سيكون صيده ، لا السمك ، بل نفوس البشر . ان يسوع يخترق بنظرته الثاقبة أعماقنا ، ليرى ، لا ما نحن عليه ، بل ما يمكن أن نكون

عليه . . وهو يقول لــكل منا « يابنى أعطنى قلبك ، وسترى ما يمكن أن أعمله معك » .

يقال ان واحداً رأى « ما يكل انجلو » وهو يشذب بمطرقته وأزميله ، قطعة ضخمة من الحجر . فسأل الفنان الـكبير عما يعمل . فكان جوابه « انى أطلق سراح الملاك السجين فى قلب الحجر » . ويسوع على استعداد أن يحطم القيود عنا ، ويخلق الإمكانيات العظمى فينا ، ويخرجها إلى مجال العمل .

إستسلام نثنائيل

« وفِى الْغَدِ أَرَادَ يَسُوعُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجَلِيلِ . فَوَجَدَ فِيلُبُّسَ فَقَالَ لَهُ اتْبَعْنِى . وكَانَ فِيلُبُّسُ مِنْ بَيْتِ صَيْدَا مِنْ مَدِينَةِ أَنْدَرَاوُسَ وبُطْرُسَ . فِيلُبُّسُ وجَدَ نَثَنَائِيلَ وقَالَ لَهُ وجَدْنَا الَّذِى كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِى النَّامُوسِ والْأَنْبِيَاءُ يَسُوعَ ابْنَ يُوسُفَ الَّذِى مِنَ النَّاصِرَةِ . فَقَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ أَمِنَ النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَىْءٌ صَالِحٌ . قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ تَعَالَ وانْظُرْ .

ورَأَى يَسُوعُ نَثَنَائِيلَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ عَنْهُ هُوَذَا إِسْرَائِيلِىٌّ حَقًّا لاَغِشَّ فِيهِ . قَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُنِى . أَجَابَ يَسُوعُ وقَالَ لَهُ . قَبْلَ أَنْ دَعَاكَ فِيلُبُّسُ وأَنْتَ تَحْتَ التِّينَةِ رَأَيْتُكَ . أَجَابَ نَثَنَائِيلُ وقَالَ لَهُ يَا مُعَلِّمُ أَنْتَ ابْنُ اللهِ . أَنْتَ مَلِكُ

إِسْرَائِيلَ . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ هَلْ آمَنْتَ لِأَنِّى قُلْتُ لَكَ إِنِّى رَأَيْتُكَ تَحْتَ التِّينَةِ . سَوْفَ تَرَى أَعْظَمَ مِنْ هٰذَا . وَقَالَ لَهُ الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ مِنَ الْآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَمَلَائِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الْإِنْسَانِ » .

(يوحنا ١ : ٤٣ ـ ٥١)

فى وصولنا إلى هذه النقطة من قصة حياة المسيح ، نرى يسوع يترك الجنوب ويتجه إلى الشمال ، إلى منطقة الجليل .

ولعل لقاءه مع نثنائيل كان هناك فى قانا نفسها . فكما فعل أندراوس ، لم يستطع فيلبس أن يحتفظ ، فى حنايا قلبه ، باختبـــاره المبارك ، فأسرع يدعو نثنائيل . وكما يقول البروفسور « جوديه » : « لقد عمل المشعل الواحد المشتعل، فى إنارة المشعل الثانى » .

وهكذا التقى فيلبس بنثنائيل ، وقال له : «لقد اكتشفنا المسيا الموعود به منذ القديم ، فى يسوع رجل الناصرة » . وامتعض نثنائيل . فلم ترد إشارة واحدة فى العهد القديم، تنبىء بأن مسيح الله سوف يأتى من الناصرة فالناصرة مدينة مغمورة ، من إقليم الجليل . شأنها شأن قريته قانا . فلماذا يقدَّر لها أن تسمو وترتفع على شقيقتها ؟ ولماذا لا تكون قانا ، صاحبة هذا المجد الرفيع ؟ لقد وصل الحسد والتنافس ، حتى إلى القرى ، وهكذا فى حقد عنصرى هتف :« أمن الناصرة يمكن أن يخرج شىء صالح ؟ ». وكان فيلبس حكيما ، فلم يجادل معه ، بل فى هدوء أجاب : « تعال وانظر » . .

ان حقيقة الاختبـــار تؤكد لنا أن حق المسيحية لا يحتاج إلى الجدل والمناقشة ، فكثيرا ما نفسد بنقاشنا تأثيرات روح الله فى القلب . ان الطريق الوحيد لإقناع إنسان ما بسمو المسيح على غيره ، هو أن نواجهه رأسا بالمسيح ، فالوعظ الفلسفى الجدلى ، لا يأتى بالنتيجة المرجوة بقدر ما تأتى بها قصة المسيح البسيطة ، وموته على الصليب . . . . هناك قصة تعود بنا إلى نهاية القرن الماضى ، وتدور حول الفيلسوف اللا أدرى الكبير ، هكسلى . فلقد قيل انه دُعى يوما ليكون ضيفا على أسرة عادية فى الريف . وحل يوم الأحد . واستعد الجميع للذهاب إلى الكنيسة ، عدا ذلك الانسان ، بطبيعة الحال . واقترب هكسلى من واحد من أفراد الأســـرة ، وقال له : « ما رأيك لو أجلت الذهاب إلى الكنيسة اليوم ، وبقيت معى بالمنزل ، لتخبرنى عن إيمانك وعن الأسباب التى دعتك لأن تكون مسيحيا » . وأجاب الرجل : « ولكننى قروى بسيط ولا أستطيع أن أجادل فيلسوفا كبيرا نظيرك . إنك تستطيع أن تنتصر على كل حججى بكلمات قلائل » . وقال هكسلى متلطفا « ولكننى أعدك بأنى لن أجادلك . كل ما أطلبه منك أن تروى لى قصـــة إيمانك ، وماذا يعنيه هذا المسيح بالنسبة لك » . وقبل الرجل وجلس أمام الفيلسوف ، الذى ينكر سلطان العقل ، بلغته البسيطة المكسرة قصة إيمانه . وبعد أن انتهى من حديثه ، أغرورقت عينا هكسلى بالدموع ، وقال « انى على استعداد أن أفقد ذراعى اليمين ، لو أتيح لى مثل هذا الإيمان البسيط » . ان المناقشات لم تلمس قلبه القاسى ، فقد كان فى إمكانه أن يقرع الحجة بالحجة ، بحسب فكره . ولكن قصة خلاص المسيح ، وأثره فى حياة ذلك القروى البسيط ، استطاعت أن تصل إلى أعماقه . .

ان أعظم رسالة تقدم للانسانية هى التى تنادى البعيدين بالقول « تعالوا وانظروا » — فقط علينا قبل كل شىء أن نكون قد اختبرنا المسيح وعرفناه عمليا فى حياتنا حتى نستطيع أن ندعو الآخرين إليه .

وهكذا أتى نثنائيل للمسيح . ونظر السيد إليه ، واستطاع أن يصل إلى أعماق سريرته . وقرأ كل ماضيه . ورأى أمامه نفساً ممتازة ، تحفظ كل وصايا الناموس وتسير بحسب فرائضه . . . روحاً نقية لازغل فيها ، فقال : « هوذا إسرائيلى حقا ، لاغش فى قلبه » . يقول المرنم : « طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية ، ولا فى روحه غش » (مزمور ٣٢ : ٢) . وذهل نثنائيل حينما رأى إنسانا ، لم تسبق له معرفته ، فاذا به ينفذ إلى دخيلة نفسه ، فقال مندهشا: « من أين لك أن تعرفنى ؟ » وأجاب يسوع « لم يخبرنى عنك أحد . لكننى رأيتك تحت التينة قبل أن يدعوك فيلبس » . ترى ما معنى هذا ؟ لقد كانت شجرة التين ، نظير الكرمة تشير إلى السلام . فالسلام ، فى أكثر من موضع من كتابات العهد القديم ، يقترن بجلوس كل واحد تحت كرمته وتحت تينته . (ملوك الأول ٤ : ٢٥ ، ميخا ٤ : ٤) . زد على هذا أن الاتقياء كان يلذ لهم الجلوس فى ظل هذه الشجرة الوارفة الظلال ، للتأمل ، والتعبد ، والصلاة . ومما لا شك فيه أن هذا ما كان يفعله نثنائيل ، ولعل ذلك كان فى مكان منعزل ، متعبدا تحت ظل هذه الشجرة ، ومتأملا حتى يسرع القدير بمجىء مختار الله الوحيد ، الذى على اسمه رجاء اليهود والأمم على السواء . لقد كانت وعود الله موضوع صلاته وتأملاته ، فحينما قال له يسوع إنه رآه هناك ، فهذا معناه انه عرف مناجاته وتأملاته وصلواته ولم تخف عليه خبيئاته ، حتى فى هذا المكان المنعزل ، تحت ظل التينة . وكانت المفاجأة تصعق نثنائيل ، فقال فى نفسه : « لابد وأن هذا الذى يتحدث إليه أكثر من إنسان عادى ، فهو يخترق

الضمائر والسرائر ، ويعرف نيات القلب وخبيثاته . لقد قرأ اعماقى ، وعرف أشواقى ، ولم تختف عنه آلامى وضيقاتى . لابد إذاً ان يكون هذا ابن الله . . مسيح الله . . مختاره الوحيد وليس سواه . وهكذا هتف مقراً بإيمانه ، قائلا « يا معلم أنت إبن الله . . . أنت ملك إسرائيل » .

ويختم يسوع حديثه مع نثنائيل باستعارة من قصة حلم يعقوب والسلم السماوى الذى ظهر له فى بيت إيل . فيقول : « هل ادهشك يا نثنائيل اننى استطعت أن أقرأ أعماق قلبك؟ سوف ترى فيما بعد ، معجزات أعظم وأعظم . سوف ترى اننى استطيع أن أقدم للانسانية بركات اسمى . فأنا السلم السماوى الذى ينزل ببركات السماء إلى الأرض ، بل يرفع أبناء الأرض إلى السماء » . فعن طريق يسوع ، يسوع وحده وليس سواه ، تستطيع بركات السماء أن تصل إلى الأرض ، ويستطيع ابناء التراب أن يرتفعوا إلى مرتبة ابناء الله الحى . .

بقيت أمامنا مشكلة أخيرة فى دراستنا لهـــــذه القصة . ترى من يكون نثنائيل هذا ؟

فى البشارة الرابعة ، يبدو نثنائيل أمامنا كواحد من التلاميذ الأوائل ، الذين آمنوا بالمسيح ، ولـكن اسمه لايرد فى البشائر الثلاث الأخرى . ترى ما هو الحل لهذا المشكل ؟

١ — يعتقد البعض أن نثنائيل ليس إنسانا فعليا على الاطلاق ، وأنه لا يعدو أن يكون صورة مثالية لـكل إسرائيلى غيور القلب ، نقى النفس ، يستطيع فى إيمانه المتضع أن يحطم قيود العنصرية الـكاذبة ، ويتقدم را كعا عند أقدام المسيح . فهو رمز لـكل اسرائيلى يؤمن بالمسيح فى كافة العصور والأجيال [illegible]

وعلى هذا الأساس يخلط البعض بين شخصية هذا الانسان ، وبين صورة بولس ، أو التلميذ الذى كان يسوع يحبه . والذى تردد ذكره فى بشارة يوحنا دون أن يذكر صراحة اسمه ولقبه . وقال البعض ان بولس هو أصدق مثال تنطبق عليه صورة الرجل الغيور نقى القلب ، الذى سقطت عن عينيه قشور الكبرياء ، والعمى المتعصرى، فأبصر حقيقة المسيح ، واتخذه ربا ومخلصا. وقد كان من الممكن قبول هذا التفسير ، لولا أن اسم نثنائيل يتكرر مرة ثانية فى انجيل يوحنا (٢١ : ٢) ، ونحن لا نرى فيه هناك صورة أو مثالا .

٣ — وظن بعض المفسرين أن نثنائيل هو متى . لأن الأسمين معناهما هبة الله . . . ولقد عرفنا أن العادة جرت ، فى تلك الأزمنة ، أن يكون لكل إنسان اسمين .

ولكننا قلنا ان واحداً من الأسمين لابد وأن يكون اسما يونانيا ، والآخر اسما يهوديا . وهنا متى و نثنائيل اسمان يهوديان .

٤ — هناك حل أخير نعتقد انه هو الصواب . ان اسم نثنائيل يقترن دائما باسم فيلبس ،فهو الواسطة التى أتت به للمسيح . واسم نثنائيل تنفرد به البشارة الرابعة ، ولا يرد فى البشائر الأخرى . ولكننا نجد اسما آخر يقترن باسم فيلبس فى البشائر الثلاث ، هو اسم برثولماوس . وهذا الاسم يختفى من بشارة يوحنا .

وفى قائمة اسماء التلاميذ التى وردت فى (متى ١٠ : ٣ ، مرقس ٣ : ١٨) نجد اسمى فيلبس ، وبرثولماوس ، يأتيان معاً ، وكأنه أمر طبيعى أن يقترن الاثنان .

الشىء الثانى أن كلمة برثولماوس ، ليس اسما أصيلا بل اسم ثان وهو معناه

ابن ثولماوس . فلا بد أن يكون له اسم أصيل ، ولذلك فمن المحتمل جداً أن نثنائيل ، وبرثولماوس ، هما اسمان لشخص واحد .

ان نثنائيل ، برثولماوس ، يبدو أمامنا فى صورة الأسرائيل التقى ، والذى كانت تطغى عليه فى البداية ، الروح العنصرية ، المتزمتة ، فاذا بعينيه تنفتحان على الحق ، فيقبله بكل بساطة وحماس ، ويرى فى يسوع مسيح الله الحى .

الاصحاح الثاني :

النشوة الجديدة

« وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا ٱلْجَلِيلِ وكَانَتْ أُمُّ يسُوعَ هُنَاكَ . وَدُعِيَ أَيْضًا يَسُوعُ وَتَلَامِيذُهُ إِلَى ٱلْعُرْسِ . ولَمَّا فَرَغَتِ ٱلْخَمْرُ قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ مَا لِي وَلَكِ يَا ٱمْرَأَةُ . لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ . قَالَتْ أُمهُ لِلْخُدَّامِ مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ . وكَانَتْ سِتَّةُ أَجْرَانٍ مِنْ حِجَارَةٍ مَوْضُوعَةً هُنَاكَ حَسَبَ تَطْهِيرِ ٱلْيَهُودِ يَسَعُ كُلُّ واحِدٍ مِطْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَة . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ ٱمْلَأُوا ٱلْأَجْرَانَ مَاءً فَمَلَأُوهَا إِلَى فَوْقُ . ثُمَّ قَالَ لَهُمُ ٱسْتَقُوا ٱلآنَ وقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ ٱلْمُتَّكَإِ . فَقَدَّمُوا . فَلَمَّا ذَاقَ رَئِيسُ ٱلْمُتَّكَإِ ٱلْمَاءَ ٱلْمُتَحَوِّلَ خَمْراً وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ . لَكِنَّ ٱلْخُدَّامَ ٱلَّذِينَ كَانُوا قَدِ ٱسْتَقَوُا ٱلْمَاءَ عَلِمُوا . دَعَا رَئِيسُ ٱلْمُتَّكَإِ ٱلْعَرِيسَ . وقَالَ لَهُ . كُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ ٱلْخَمْرَ ٱلْجَيِّدَةَ أَوَّلاً وَمَتَى سَكِرُوا فَحِينَئِذٍ ٱلدُّونَ . أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ ٱلْخَمْرَ ٱلْجَيِّدَةَ إِلَى ٱلآنَ . هٰذِهِ بِدَايَةُ ٱلْآيَاتِ فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا ٱلْجَلِيلِ وأَظْهَرَ مَجْدَهُ فَآمَنَ بِهِ تَلَامِيذُهُ . »

(يوحنا ٢ : ١ ــ ١١)

إن غنى البشارة الرابعة وعمقها ، يسببان مشاكل عدة لمن يحاول دراستها ، وتحليلها . فحينما يورد البشير قصة من القصص التى تدور حول حياة للسيح ، فان صورتين ينبغى أن نتمثلهما أمامنا على الدوام : الأولى الصورة الظاهرية ، التى يستوعبها كل إنسان ، ويستطيع أن يكررها أبسط البسطاء ، والثانية الصورة الخفية المستترة العميقة التى تحتاج فى ادراكها إلى العقل المتفتح ، والبصيرة المستنيرة . والقصة التى أمامنا تنطبق عليها هذه القاعدة ، وهى لذلك تحتاج منا إلى أكثر من تأمل ، حتى نصل إلى استجلاء كل نواحيها . فى التأمل الأول ، سنعرض بصفة عامة للقصة كلها من الناحية التاريخية حتى تبدو واضحة جلية . وفى الثانى سنعرض للنقاط البارزة التى تتحدث عن يسوع ، وعن عمله ، وتبرز من خلالها شخصيته . وأخيراً سوف يدور تأملنا حول الحق الخالد الذى يحاول البشير أن يقدمه لنا من خلال سطور القصة . .

أما قانا الجليل ، فقد لقبت هكذا لتمييزها عن قانا التى فى فينيقية سورية . ولقد كانت قرية صغيرة قريبة من مدينة الناصرة ، ويخبرنا الآب « ايرونيموس » الذى عاش فى فلسطين أنه كان يراها من الناصرة . وفى قانا أقيم حفل عرس . وإليه دعيت العذراء مريم مع يسوع . والقصة كلها تخبرنا كيف كانت للعذراء مكانتها هناك ، وكيف كانت تشرف على مستلزمات الحفل ، حتى أن الخمر حينما نقصت أظهرت مريم اهتماماً كبيراً بالأمر ، دفعها إلى الالتجاء ليسوع . كما تظهر ذلك تفاصيل القصة . وهناك أناجيل أبوكريفية غير قانونية تحاول أن تضيف لمسات خاصة تسد بها بعض الثغرات التى تبدو فى الصورة . فى أحدها ، وقد اكتشف أخيراً فى مصر ، يقال ان العذراء كانت خالة العريس . وفى كتاب آخر قيل ان العريس كان يوحنا الحبيب نفسه ، وان أمه سالومه أخت مريم العذراء . هذه تفاصيل سطحية لا قيمة لها على الإطلاق ، ونحن لا نعرف ما هو

جانب الصدق فيها ، ولـكن من المؤكد ، من سياق القصة ، أنه كانت هناك قرابة مابين العذراء ،وبين أصحاب العرس. يظهر هذا من اهتمامها بشئون الحفل ومن سلطانها على الخدم . والقصة كما تبدو لنا ، تشير إلى أن البشير الذى كتبها كان شاهد عيان لكل وقائعها .

وفى القصة نرى اسم مريم بتردد ، ولا نسمع ذكراً ليوسف . ومن المحتمل جدا ، أنه فى ذلك الحين كان يوسف قد مات ، وربما منذ زمن بعيد ، وهـذا هو السبب الذى جعل يسوع يقضى ثمانية عشر عاما كاملة من عمره فى مدينـة الناصرة ، ولعله أخذ على عاتقه خلالها ، عبء اعالة الأم الأرملة ، ومَن معها من أبناء خئولته الصغار ، الذين عرفوا فيما بعد بإخوة الرب . . . . والمنظر يعود بنا ألفى عام إلى الوراء ، إلى ذلك الحفل القروى وحفل العرس فى الشرق أمر هام له قيمته .

ولقد حتَّم الناموس اليهودى على أن يكون زواج العذراء يوم الأربعاء . وهذا التاريخ له أهميته فى معرفة تسلسل الأحداث التى سبقت ذلك . فإذا كان عرس قانا قد تم يوم الأربعاء ، فلا بد أن لقاء المسيح مع أندراوس ويوحنـا ، ومكوثهما معه طيلة اليوم ،قد تم فى يوم السبت .

ولقد كانت حفلات العرس تستمر أكثر من يوم واحد ، وبعد أن يقام عشاء العرس ، ويتم الزواج فى ساعة متأخرة من الليل ، يسير العروسـان فى موكب حافل تضيئه المشاعل، خلال طرقات المدينة ، إلى البيت الجديد ، وكان الموكب يختار أطول الطرق حتى يلتقى بأكبر عدد ممكن من الناس، وينـال أكبر عدد من التحيات والتهانى . ولم يكن العروسان يغادران البلدة إلى مكان بعيد ، بل كانا يقضيان شهر العسل فى قلب المنزل ، وكان المنزل الجديد

يظل مفتوحاً أسبوعاً كاملا لاستقبال المهنئين . وبطيلة ذلك الوقت يظل العروسان فى أبهى ثياب العرس ، تكلل الأكاليل رأسيهما ، ويعاملان كملك وكملكة — كلمتهما هى الأمر والنهى ولا رادّ لأوامرها . وفى مثل أزمنة المسيح التى كان يسودها الضيق ، والمتاعب ، كانت فرصة حفل عرس من أسعد فرص العمر .

وفى أسبوع سعيد نظير هذا ، ظهر يسوع ، ولكن شيئاً لم يكن متوقعاً حدث . لقد ظهر أن الخمر لاتكفى الجميع . ومن المحتمل جداً أن السبب فى تلك الأزمة التى لم يحسب حسابها ، وصول يسوع إلى العرس . فهو لم يكن بمفرده بل كان يرافقه خمسة من تلاميذه. ومع أن الدعوة قد وجِّهت إليه مع تلاميذه إلا أنه لم يكن فى الحسبان ، أنه سيحضر معه خمسة أشخاص . وهكذا ظهر أن الخمر لن تكفى المدعوين ، وأن حلا سريعاً عاجلا لابدوأن يتم حتى لايكتشف الأمر ، وتكون فضيحة تلوكها الألسنة .

ولقد كانت الخمر شيئا جوهريا فى حفل العرس اليهودى . يقول الأحبار « لاسرور بغير الخمر » . ولا ينبغى أن يتطرق إلى ذهن القارىء أن تناول الخمر معناه الوصول إلى حد السكر والعربدة . فالسكر كان عاراً كبيراً عند اليهود . والخمر التى كانت تقدم فى تلك المناسبات لم تكن من الأنواع القوية المسكرة ، بل كانت من النبيذ ، أو عصير العنب المختمر ، يخلطونه بالماء بنسبة جزئين من الخمر ، إلى ثلاثة أجزاء من الماء . هذه حقائق نستند فيها على ماجاء فى يوسيفوس والتلمود . بل أن كلمة خمر ، قد تطلق حتى على بعض الأشربة غير المختمرة ، فالذى يبيع نقيع العرقسوس فى مصر ، ينادى عليه بلقب « خمير » . على كل حال حدوث نقص فى أحد مستلزمات العرس الجوهرية ، كان أمراً

مهيناً لـكرم الضيافة الشرقى ، ولكرامة العريس ، والعروس . ولذلك استلزم الأمر إجراء سريعاً . .

وهكذا أتت العذراء إلى يسوع ، وأسرّت إليه بحقيقة الأمر . والجواب الذى رد به يسوع ، قد يلمس البعض فى ظاهره شيئاً من الجفاء . صحيح أن الجملة المترجمة « مالى ولك يا إمرأة » هى ترجمة حرفية للأصل . ولـكن ألفا عام قد باعدت بيننا وبين تقاليد كانت سائدة فى الماضى . فقد كانت هذه جملة عادية تقال فى أكثر من مناسبة ، والفارق فيها بين مناسبة وأخرى ، هو فى الطريقة التى يتقدم بها الإنسان بهذه الجملة ، فإذا تقدم بها بصوت غاضب دلّت على التوبيخ ، وإذا تقدم بها بطريقة هادئة لطيفة كانت تدل على عدم فهم المطلوب. وهكذا نعتقد أن السيد كان يعنى بقوله هذا : « لا تقلقى ، إنك لا تدركين معنى مايجرى ، دعى الـكل لى ، وأنا سأرتب كل شىء بطريقتى الخاصـة » . أما كلمة امرأة التى تبدو أيضاً كلمة جافة فهى نفس الـكلمة التى استخدمها يسوع وهو على الصليب ، حينما استودع العذراء لعناية التلميذ الحبيب (يوحنا١٩ :٢٦) وإننا نجد نظائر لهذه الـكلمة فى الأدب القديم .

ففى أوديسة هوميروس نرى « أودسيوس » يخاطب زوجته المحبـوبة « بنلوب » مناديا إياها بلقب « يا إمرأة » ، و « أوغسطوس قيصر » يخاطب « كليوباترة » ملـكة مصر بنفس اللقب أيضا .

وهكذا لم يكن هذا اللقب لقب خشونة وفظاظة ، بل كان عنوانا للاحترام. لعله كان من الأفضل ، أن تترجم كلمة امرأة إلى كلمة « سيدة » ، وهو لقب الاحترام الحالى .

ولقد كانت ثقة مريم بيسوع عظيمة بهذا المقدار ، حتى أنها أوصت الخدم

بالقول : « مهما قال لكم فافعلوه ». وهناك فى مدخل البيت كانت ستة أجران ضخمة من الحجر المنحوت تملأ بالماء للتطهير ، أو الاغتسال حسب عادة اليهود. وكانت هذه الأجران ضخمة جداً ، يسع الواحد منها مطرين ، أو ثلاثة. والمطر هو مكيال يسع مابين ثمانية إلى تسعة جالونات ، وهكذا يتسع الجرن الواحد إلى مايقرب من عشرين جالوناً دفعة واحدة .

ولقد كتب يوحنا بشارته لليونانيين ، لذلك نراه يفسر لهم كل شيء . فهذه الأجران للتطهير . ولقد كان الماء يُستخدم لغرضين بالنسبة للقادمين . فكان يستخدم أولا لتطهير القدمين ، عند الدخول إلى المنزل ، لأن طرق فلسطين وعرة غير معبدة ، والأحذية التى كانت مستخدمة فى ذلك الحين ، كانت أشبه « بالشبشب » الذى يربط من أعلى بسيور . ولذلك كانت الأتربة تغطى الأقدام فى الصيف ، وأوحال تلطخها فى الشتاء . وهكذا يلزم غسلها . ثم كان الماء لازما أيضاً لغسل الأيدى .

فلقد حتم التقليد اليهودى على أن تغسل الأيدى قبل الأكل وفى أثناء تناوله ، وبعد الانتهاء منه . فكانت ترفع اليدان إلى أعلى ، ويصب الماء حتى يسيل على المعصم ، ثم تخفض اليدان إلى أسفل ، ويصب الماء على المعصم حتى يسيل على الأصابع . هكذا كانت تعامل كل يد على حدة، ثم تنظف باطن اليد بحكها بقبضة اليد الأخرى . وكان هذا التقليد المعقد يتكرر ليس فى بداية الوجبات فقط ، بل بين تقديم صنف ، وآخر . فإذا لم يتم هذا كانت الأيدى غير طاهرة. لأجل هذا الغرض المزدوج ، من غسل الأقدام، والأيدى، كانت تعد هذه الأجران الحجرية الممتلئة بالماء فى كل بيت يهودى .

وأمر يسوع الخدم بأن يملأوا الأجران إلى حافتها . ولقد ذكر يوحنا هذا ليؤكد لنا أنه لم يكن هناك مجال لإضافة قطرة واحدة من أى سائل آخر . ثم

أمرهم بأن يستقوا ويقدموا أولاً لرئيس المتكأ ، أو المشرف على الحفل . ولقد كان الرومان على عادة ، بأن يُشرف على الشراب مَن يلقبونه برئيس السقاة . وفى المآدب اليهودية، كان يتطوع أى واحد من الأصدقاء ، ليكون مشرفا على الحفل . وكان المشرف مسئولاً عن المدعوين ، وتنظيمهم ، وإمدادهم بالطعام والشراب فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول إلى خمر ، دعا إليه العريس — وربما المقصود والد العريس المسئول عن امدادات الحفل — وقال ساخرا : « كل إنسان أنما يقدم الخمر الجيدة أولا ، ومتى لعبت الخمر بالهواجس ، وتبلدت الأحاسيس، ولم يُصبح للواحد المقدرة على التمييز بين الجيد ، والردىء، قُدمت ارداً الأنواع . أما أنت فقد خالفت المنطق ، وأبقيت الخمر الجيدة إلى النهاية » .

وكما قال أحدهم، يبدو أن هذه الخمر كانت من نوع شاذ لأنها استطاعت أن تعيد لذلك الإنسان ، أحاسيسه المتبلدة ، وتجعله ينطق بكلمات الصحو ، أى أنها لم تكن خمراً مسكرة على الاطلاق .

وهكذا فى حفل متواضع ، فى قرية مغمورة من قرى الجليل ، تقدم يسوع بأولى معجزاته، وأظهر لتلاميذه المذهولين أول لمحة من أشعة لاهوته المقتدر المجيد..

النشوة الجديدة (تابع)

(يوحنا ٢ : ١ — ١١)

وهذه المعجزة زاخرة بالأضواء التى تنير لنا جوانب كثيرة من شخصية يسوع . دعنا نتأمل فى ثلاثة منها . .

١ — ينبغى أن نلاحظ متى حدثت هذه المعجزة . لقد حدثت فى حفلة عرس . ولقد كان يسوع فى وسط مظاهر الفرح ، وكأنه فى بيته . ان مسيحنا

لا يكتسى بمسوح الحزن ، وتعلو جبينه عبوسة دائمة ، شأن بعض المتزمتين من أدعياء الدين . اننا نراه هنا يشارك الفرحين المهللين ، أفراحهم ، وتهليلهم . هناك فئة من البشر تنظر بعين الريبة ، لكل سرور إنسانى. فما الديانة الحقيقية عندهم إلا المسوح السوداء ، والصوت الخفيض ، والعزلة عن كل الصلات الإنسانية ، وهم بهذا يلقون ظلا كئيبا على كل مكان يحلُّون به .

قال أحدهم عن سيدة وقور « ان محضرها يجعل الإنسان يشعر وكأنه يستحم بنور الشمس » . هكذا كان يسوع .

وما أصدق قول «سبرجن» فى محاضراته لتلاميذه : « ان عويل المآتم قد يصلح للندابة ، ولكن لعازر الخطية لن يستيقظُ من موته بالتأوهات الجوفاء» وفى موضوع آخر يقول « انى أعرف أخوة يلبسون مسوح الرهبان السوداء ، يغطون رؤوسهم بالاسكيم . . . لا تظهر أصابعهم من الأكام السوداء . . . كل قطعة فى كيانهم قد توارت خلف مظاهر الحزن والتزمت . . . نفوسهم يبدو وكأنها قد أرتدت الرداء المظلم . هذه النفوس لن تنجح فى التأثير فى الأحياء» .

فإن أردنا أن ننال غاية إيماننا فى ربح النفوس ، ينبغى أن يكون لنا الوجه الصبوح ، والنفس المشرقة ، والروح السعيدة على الدوام . اننا لا نقصد الخفة ولكننا نتحدث عن السعادة الحقيقية .

ان الخل الحامض لن يجتذب الحشرات نظير العسل الحلو . . . وربوات النفوس التى خلصت ، ستشهد فى اليوم الأخير ، على أنها وصلت للمجد عن طريق إنسان يشع نور السماء من وجهه ، أكثر من إنسان ترتسم على جبينه عبوسة الجحيم . . . وهكذا لم ير السيد عيباً فى حضور حفل عرس ، والأشتراك مع الفرحين فى أفراحهم ، فلماذا يرى البعض من اتباعه فى السرور خطية ، وفى الفرح جريمة لا تغتفر ؟ !

٢ — ولنتأمل أيضاً أين حدثت المعجزة . لقد حدثت فى بيت متواضع ، فى قرية من قرى الجليل . هذه المعجزة لم تملها ظروف كبرى ، تمس جمهرة من الجموع الحاشدة ، بل ألمتها ظروف محدودة ، فى دائرة ضيقة . . ظروف منزل واحد ، وأسرة واحدة . لقد قام السيد بأولى معجزاته فى دائرة البيت .

وكا يقول أحد مشاهير الكتاب فى دراسة للبشير لوقا ، ان ذلك البشير قد وجّه كل همه إلى أظهار صورة يسوع فى إطار عائلى منزلى ، تحيط به الأشياء العادية والصور البسيطة ، والأشخاص البسطاء ، وفى تعبير رائع يقول « ان بشارة لوقا قد استطاعت أن تترجم الله إلى مستوى الإنسان » .

لقد أتت بالله إلى دائرة المنزل . . . إلى دائرة الأمور العادية البسيطة . ان أول معجزة قام بها السيد كانت فى عرس قانا الجليل ، وهى ترينا مشاعر الرب من نحو دائرة البيت . لقد أظهر هناك مجده . . فى قلب البيت .

هناك مناقضات غريبة فى حياة كثيرين ، حتى من المؤمنين . وبالنسبة لما يلقبونه بالبيت أنهم ينادون بأنه لايوجد أثمن منه فى الوجود . . ولكن تصرفاتهم فى قلب البيت هى أبعد ما تكون عن الذوق ، والمجاملة ، والصبر ، والروح الكريمة . ان العالم يشهد بروحهم الطيبة المطوفة فى الشارع ، وفى مكان العمل ، وفى احتكاكهم بالآخرين . فإذا وصلوا إلى المنزل تغيرت الآية ، وأشعلوا ناراً هناك . أليس من الغريب أن يلاقى أقرب المقربين إلينا ، أقسى المعاملة ؟ وأن نرتدى أفضل ملابسنا فى الخارج ، فإذا ولجنا عتبة البيت خلعناها وارتدينا رداء العنف والقسوة ؟

ان يسوع قد بدأ من دائرة البيت ، وهناك شع بأمجاده ، وعطفه ، وحنانه .

٣ — ولنذكر لماذا حدثت هذه المعجزة . ان الذين يعيشون فى الشرق

يدركون معنى كرم الضيافة ، ويعرفون الظروف الملزمة التى اقتضت حدوثها.
فلو أن أزمة مثل هذه حدثت دون أن يكون يسوع هناك ، أى عار كان يلحق
بهذا المنزل إلى نهاية العمر . لقد أظهر يسوع هناك مجده ، لينقذ أسرة قروية
جليلية ، من الإذلال ، والعار . لقد قام بهذا العمل ، بروح العطف ، والمحبة ،
والفهم الحقيقى لمشاكل ومشاعر أولئك القوم البسطاء . اننا كثيرا
ما نحتفظ بالجهد العظيم ، للمناسبة العظيمة ، ولكن يسوع لم يضن على قوم
بسطاء ، فى مناسبة بسيطة ، أن يظهر أمجاده هناك . إن البعض بروح الحسد ،
يلذ له أن يتناول سيرة الآخرين ، وما اعترضهم من مشاكل ، وما وقعوا فيه
من مآزق ، ولكن يسوع رب الحياة ، ملك المجد ، عزّ عليه أن يقع شاب
وشابة ، فى مستهل حياتهما فى مثل هذا الموقف ، فأسرع لنجدتهما فى اللحظة
المناسبة . إن مثل هذه الأعمال البسيطة التى نقوم بها ، تظهر إن كنا حقا من أتباع
المسيح . . ولنتأمل أيضاً فى موقف العذراء ، وثقتها الرائعة فى يسوع .

(١) فكأنما بطبيعة غريزية اتجهت إليه حينما تأزمت الأمور . لقد كانت
تعرف ابنها حق المعرفة ، فهى أقرب الكل إليه .

وكانت تحفظ جميع ما أحاط بولادته وحياته من ملابسات متفكرة
بها فى قلبها . لقد اختبرته ثلاثين عاماً كاملة . وخلال هذه الفترة الطويلة كان
مثال البنوة الكاملة والمشاركة العطوفة لمتاعب الآخرين وآلامهم .

هناك تقليد خيالى ، يروى عن الطفل يسوع ، حينما كان فى المهد صبيا ،
فى البيت المتواضع فى الناصرة ، هذا التقليد يروى كيف كان المتعبون ،
والمكروبون ، والمتضايقون ، والثقيلو الأحمال ، والذين تعثروا فى الطريق ،
يقولون فيما بينهم : « هلموا بنا لنتطلع إلى الطفل ، ابن مريم » . فإذا جاءوا إليه
ولثموا راحتيه ، وتملوا من مرأى عينيه ، ذابت فى الحال همومهم ، واندملت

جراحهم و كلومهم. هذه خرافة خيالية ، ولـكنها تنطوى على أ كثر من حق. أليس يسوع هو القائل : تعالوا إلى يا جميع المتعبين ، والثقيلى الأحمال ، وأنا اريحكم . هل أتى إليه أحد ، ووجد الباب موصدا ؟

(ب) وبالرغم من أن مريم العذراء لم تدرك تماما ما عساه سيفعل يسوع ، وبالرغم من أنه ظهر لها أنه قد رفض رجاءها ، فإنها استمرت فى الإيمان به حتى انها اتجهت إلى الخدم ، وأوصتهم أن يطيعوا كل ما يصدره لهم من أوامر . لقد كان للعذراء الإيمان الذى يثق ، ويتمسك ، ولا يتخلى ، حتى ولو لم يدرك كل شيء فى البداية . فهى لم تـكن تعرف الطريق الذى سيسلـكه ، ولا العمل الذى سيقوم به ،ولـكنها كانت واثقة أنه لن يتخلى عن طريق الواجب ،وعن عمل الصواب. كثيراً ما تتلبد سماء الـكثيرين بالغيوم ، وتسود الظلمة على حياتهم ، حتى أنهم لا يستطيعون أن يميزوا الطريق . . . كثيراً ما تعترضنا نحن أمور لاندرى لماذا حدثت ، ولا ندرك لها معنى ، ولـكن طوبى للانسان الذى يظل متمسكا بإيمانه حتى ولو لم يفهم كل شيء . .

وهناك لمحة أخرى تتحدث بها القصة عن يسوع . انه يجيب العذراء بالقول « لم تأت ساعتى بعد » . وخلال فصول قصة الإنجيل ، نستمع إليه يتحدث ، بين الحين والحين عن ساعته . فى الاصحاح السابع من يوحنا (٦ — ٨) ، نرى الساعة تشير إلى ظهوره كالمسيا . وفى نفس البشارة (١٢ : ٢٣ ، ١٧ : ١) كما فى بشارة متى (٢٦ : ١٨ ، ٤٥) وكذلك فى بشارة مرقس (١٤ : ٤١) تشير إلى ساعة صلبيه وموته . لقد كان يسوع يعرف خلال كل دقيقة من دقائق وجوده على الأرض ، أن لحياته برنامجاً خاصاً ، وأنه قـد أتى لغرض خاص وهدف محدد . لقد رأى حياته ،ليس بمنظار رغباته ، بل من خلال إرادة الآب ومشيئته . . ليس فى إطار أحداث الزمن الطارئة ، بل فى إطار الأزل السحيق

وبطيلة حياته اتجه فى ثبات ، إلى تلك الساعة التى عرف أنه من أجلها قد أتى إلى هذا العالم . وإن كان سيدنا قد أتى إلى هذا العالم لإتمام قصد الله الأزلى ، فإننا نقول بكل احترام أن لله قصده فى حياة كل واحد منا . وكما قال أحدهم « إن كل واحد منا هو حلم الله الذى ينبغى أن يتحقق على الأرض ». ولذلك ينبغى أن تتركز أفكارنا لا حول رغائبنا، أو مشتهياتنا . بل ينبغى أن تتركز فى قصد الله الأزلى الذى أرسلنا من أجله إلى هذا العالم .

النشوة الجديدة (تابع)

يوحنا ٢ : ١ — ١١)

والآن دعنا نتأمل فى الحق الخالد ، الذى يريد يوحنا أن يلقيه لنا من خلال هذه القصة .

ينبغى أن نلاحظ ، قبل كل شىء ، أن يوحنا كتب بشارته لقصد مزدوج . فهو يهودى ، وهكذا كتب بشارته لليهود . ولكن هدفه الأكبر كان توصيل البشارة لليونانيين . وهكذا بذل جهده فى أن يضع القصة فى قالب يدركه اليونانيون . . وسوف نتناول هذه المعجزة من وجهة النظر اليهودية ، ثم نتطلع إليها من الجانب اليونانى . .

أولا دعنا نتناول معجزة الاستحالة من الناحية اليهودية . لنتذكر أن الأحداث التى يتناولها البشير يوحنا بالتحليل سواء كانت معجزة أم مثلا ، أم محاورة مع اليهود ، تحوى جانبين : الجانب الظاهرى الذى لا يزيد عن سرد الأحداث والتى يبدو بعضها ، وكأنه لا لزوم لورودها ، ولا معنى لها . والجانب العميق الذى لا يدركه إلا أصحاب البصيرة المتفتحة المستنيرة . فلم يورد يوحنا أية تفاصيل لا لزوم لها . كل شىء سطره ، كان له معناه وهدفه .

مثال ذلك ما أورده عن الستة أجران التى كانت تملأ بالمياه للتطهير ، والتى تحول الماء فيها الى خمر . ان العدد سبعة ، بحسب الفكر اليهودى ، هو عدد الكمال والسمو ، أما العدد ستة فهو يشير إلى العمل الناقص الذى لم يكمل بعد . فالستة أجران هذه ترمز إلى عدم كمال الناموس اليهودى ، وقصوره عن الوصول بالأنسان إلى الكمال الحقيقى ، وإلى إرضاء الله . ولكن يسوع أتى ليكمل الناموس ، ويزيل ضعفاته ، ويضع فيه خمر النعمة الجديد ، بانجيل الحياة والخلاص إن يسوع بمجيئه قد كمل كل قصور العهد القديم ، بنعمته . هناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر . لقد كان كل جرن يسع ما بين عشرين إلى ثلاثين جالونا من المياه . وكانت هناك ستة أجران أى أن يسوع قدم للمدعوين ما يقرب من مائة وثمانين جالونا من الخمر . ومع أنه لا يبدو هناك أى داع لا يراد مثل هذه التفاصيل ،إلا أنه يبدو أن يوحنا قد قصد من وراء هذا أن يشير إلى أن نعمة يسوع تستطيع أن تغمر كل إنسان ، وتفيض . فلاحاجة بشرية مهما عظمت ، وزادت ، تستطيع أن تستهلك نعمة يسوع . ان أى حفل عرس ،مهما كان عدد المدعوين فيه ، لن يستطيع أن يستهلك مائة وثمانين جالونا من الخمر . فنعمة يسوع فيها الكفاية والزيادة .

هكذا فى هاتين اللمستين الصغيرتين ، نستطيع أن نرى رمزاً وأشارة إلى كمال المسيح الذى يكمل كل قصور ، ونعمته التى لا حدود لها ، التى تفيض فتغمر البشر أجمعين بكل حاجاتهم ، ومطاليبهم ، مهما زادت وتنوعت . . .

والآن دعنا ننظر إلى الجانب اليونانى . وليس بخاف على دارسى الأدب اليونانى ، ان الميثولوجيا الأغريقية كانت تحتوى قصصاً ملفقة خيالية ، لها نفس الصورة . وهناك قصة تدور حول ديونسيوس إله الخمر ، « إنه فى حفلات الأعياد التى تقام لذكرى هذا الإله ، يحضر الكهنة ثلاث أوانى فارغة ،

ويضعونها فى قلب المعبد فى حضور العيدين ، وكل غريب يتصادف وجوده هنا . ثم تغلق الأبواب وتختم بخاتم الكهنة ، وعلية القوم . وفى صباح اليوم التالى ، يحضرون إلى المعبد ، ليقوموا أولا بفحص الأختام والتأكد من سلامتها ثم يقومون بأنفسهم بفتح الأبواب ، ويسرعون إلى الداخل ، فإذا بالأوانى الثلاث الفارغة ، قد امتلأت لحافتها بالخمر » .

هذه خرافة مكذوبة . ولكن فى الأمكان دخول الخداع فيها حتى ولو كانت صحيحة. فهناك فرصة ليلة كاملة يمكن أن يتسلل فيها إنسان بأى طريق من الطرق . وهناك التماثيل التى يمكن أن تتسع لأختباء أى مخلوق . ولقد كان معظم العقلاء ، والمفكرين ، يرفضون هذه الترهات ، وينبذونها ، ويعرفون أنها من اختراع الكهنة للسيطرة على عقول العامة . وكأنى بيوحنا البشير يقول لهم . . « إنى اعرف أن لكم قصصكم الخيالية التى تدور حول آلهتكم ، والتى تنكرونها ، وترفضونها . هنا استطاع يسوع أن يقوم بما كان يحلم به كهنتكم ، وما حاولوا أن يلصقوه بآلهتكم العاجزة . لقد أتى ليحقق لكم احلامكم ولكن بصورة أشرف وأمجد » .

وهكذا نرى البشير فى هذه القصة الواحدة ، يتحدث إلى اليهود قائلا : بأن فى « يسوع تكميل الناموس ، والوصول به إلى كمال عهد النعمة » . ويتحدث إلى اليونانيين قائلا : « بأن يسوع قد أتى ليحقق لكم احلامكم الخيالية عن الآلهة ومقدرتها المعجزية . . . »

ترى ما هو الدرس الذى يريد البشير أن يقدمه لنا نحن ؟ هل سطر ضمن بشارته أحداث هذه المعجزة لتقدم رسالتها إلى اليهود ، واليونانيين ، الذين عاشوا منذ ألفى عام ؟

إن كل قصة يخبرنا بها يوحنا لا تتحدث عن عمل مضى وقته ، وأنتهت

رسالته . ان معجزات يسوع خالدة فى عمــلها وفى رسالتها ، تتحدى الزمن ، وتصلح لــكل جيل. إن عجائبه التى قام بها ، لم تتم يوماً ما فى فلسطين وحسب، انه يكررها معنا كل يوم . وما يريد أن يعلمه يوحنا لنا من خلال هذه المعجزة ليس أن السيد استطاع أن يحول ، فى يوم من الأيام ، بضعة أجران من الماء إلى خمر ، فى حفلة عرس ، فى قرية من قرى الجليل ، بل إن فى استطاعته إذا دخل إلى قلب الإنسان ، أن يضيف حياة جديدة إلى كيانه ، ويخلقه من جديد، كما استطاع أن يحول الماء إلى شىء آخر . فبدون يسوع لا قوة فى الحياة ، ولا جدة للحياة ، ولــكنه إذا دخل إليها يحولها إلى قوة ، فياضة ، زاخرة ، منتعشة ، ممتلئة بالمعجزات . بدون يسوع لا طعم للحياة ، ومعه يصبح للحياة طعمها ، ومعناها — حينما تقــدم سير « ونفرد جرنفيل » بندائه طالباً متطوعين للعمل معه فى لبرادور ، قال لمن حوله « اننى لا أعدكم بالمال الوفير، ولــكننى أقول لــكم انها فرصة العمر » . هذا ما يعدنا به يسوع . لاحظوا أن يوحنا كتب بشارته بعد صلب المسيح بسبعين عاماً ، أى أنه قضى سبعين عاماً كاملة يفــكر فى تلك الأحداث التى مرت به ، ويتأمل فيها حتى وصل إلى هــذا العمق . فحينما كتب هذه المعجزة كان يذكر تماماً بركات الحياة الملتصقة بالمسيح . وكأنى به يقول لنا من خلال سطورها « ان يسوع حينما يأتى إلى نفس الانسان . . . حينما يتربع على عرش القلب . . . حينما تخضع له الحياة ، وتستسلم الإرادة ، يستطيع أن يحول ينابيع الإنسان إلى شىء مبارك خالد ، كما حول الماء إلى خمر . . فإذا أردتم البركة الجديدة ، والنعمة الجديدة ، والخليقة الجديدة ، والنشوة الجديدة ، تعالوا إلى يسوع ، فيسكب فى قلوبكم خمر النعمة المباركة... »

غضب يسوع

« وَبَعْدَ هٰذَا انْحَدَرَ إِلَى كَفْرَ نَاحُومَ هُوَ وَأُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ وَتَلاَمِيذُهُ وَأَقَامُوا هُنَاكَ أَيَّاماً لَيْسَتْ كَثِيرَةً . وَكَانَ فِصْحُ الْيَهُودِ قَرِيباً فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ . وَوَجَدَ فِي الْهَيْكَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ بَقَراً وَغَنَماً وَحَمَاماً وَالصَّيَارِفَ جُلُوساً . فَصَنَعَ سَوْطاً مِنْ حِبَالٍ وَطَرَدَ الْجَمِيعَ مِنَ الْهَيْكَلِ . الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ وَكَبَّ دَرَاهِمَ الصَّيَارِفَ وَقَلَّبَ مَوَائِدَهُمْ . وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ ارْفَعُوا هٰذِهِ مِنْ هٰهُنَا . لاَتَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ . فتذكر تلاميذه أنه مكتوب غيرة بيتك أكلتنى . . » .

(يوحنا ٢ : ١٢ — ١٦)

بعد حفلة عرس قانا الجليل ، قام يسوع مع تلاميذه بزيارة خاطفة لكفر ناحوم . ومن العجيب أنه حتى هذا اليوم لا يستطيع علماء الآثار ، تحديدمكان كفر ناحوم . على أن هناك احتمالاً كبيراً على أنها كانت تقع مكان « تل حوم » أو « خان منية » . وهما تقعان على الشاطىء الشمالى لبحر الجليل. أما « قانا » فانها تبعد عشرين ميلا عن تلك الأماكن . فهى تقع فى مرتفعات الجليل ، أما كفر ناحوم فهى مدينة ساحلية تقع على شاطىء البحر .

بعد هذه الأحداث بوقت قصير ، قام يسوع بزيارته لأورشليم فى فرصة عيد الفصح . وكان اليهود يعيّدون الفصح فى الخامس عشر من نيسان ، الذى

يقرب من منتصف شهر ابريل . وكان الناموس يلزم كل يهودى ذكر يعيش فى دائرة عشرين ميلا من العاصمة ، أن يحضر حفلات العيد . .

هنا نلاحظ أمراً جديراً بالذكر . فبشارة يوحنا هى الوحيـدة ، وسط البشائر الأربع ، التى تنفرد بذكر عديد من الرحلات التى قام بها السيد إلى أورشليم ، فى أكثر من فرصة من أعياد الفصح ـــ البشائر الثلاث الأولى ، تقتصر على ذكر تفاصيل زيارته الأخيرة إلى أورشليم ، فى الفصح الأخير الذى تم فيه القبض عليه ، وبشارة لوقا تتحدث عدا ذلك عن زيارته لأورشليم فى الفصح حينما كان صبياً ، تقرب سنه من الأثنى عشر عاماً . ولـكن بشـارة يوحنا هى الوحيدة التى تذكر لنا أكثر من فصح واحد ، قام فيه السيد بزيارته لأورشليم على الأقل ثلاث فرص : الفرصة الأولى ورد ذكرها هنا فى (يوحنا ٢ : ١٢ ـ ١٦) والثانية فى (يوحنا ٦ : ٤) ، والثالثة فى (يوحنا ١١ : ٥٥). وبالأضافة إلى ذلك نرى يسوع فى زيارة لأورشليم فى عيـد لم يذكر اسمـه (٥ : ١) ، وفى عيد المظال (٧ : ٢ ـ ١٠) ، وفى عيد التجديد (١٠ : ٢٢) ويبدو أنه لم يغادر المدينة بعد هذا العيد الأخير ، الذى كان يقع فى فصل الشتاء ، (يوحنا ١٠ : ٢٢) ، وعلى وجه التحديد فى شهر ديسمبر . وهكذا يرينا البشير يوحنا أن يسوع قد استمر فى المدينة لا أياما ، ولا أسابيع ، بل شهوراً كاملة ، حتى حل منتصف نيسان ، وجاء موعد الفصح الذى صلب فيه . البشائر الثلاث ترينا مسرح خدمة يسوع دائرة الجليل ، وتركز الأضواء عليها ، والبشارة الرابعة تظهر لنا أن خدمة السيد فى الجليل كانت قصيرة محـدودة ، (٢ : ١ — ١٢ ، ٤ : ٤٣ — ٥ : ١ ، ٦ : ١ — ٧ : ١٤)، أما مجال خدمته الرئيسى ، فكان فى أورشليم . فهل هناك تعارض بين البشائر ؟ نعتقد أن الدارس المتعمق لن يجد أدنى تعارض ، فالبشائر لا تناقض أحدهـا الآخر ،

ولكنها تكمل الواحدة الأخرى ، وكل بشارة تتقدم بالحق من جانب من الجوانب . البشيرون ، متى ، ومرقس ، ولوقا ، يركزون دراستهم على خدمة المسيح فى الجليل ، ويوحنا يركز دراسته على خدمته فى أورشليم . ومع أن البشائر الثلاث الأولى ، لا تعرض لزيارات السيد المتكررة إلى أورشليم ، إلا أننا نجد فيما أوردته إشارات ضمنية إلى ذلك . مثال ذلك مرثية المسيح الشهيرة على أورشليم ، حين خاطبها بالقول « يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين إليها ، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا هوذا بيتكم يترك لكم خرابا .. » (متى ٢٣ :٣٧) هذا القول يشير إلى أن السيد قد حاول نصحها المرة بعد المرة ، فما كان ممكنا أن يخاطبها بهذه الصورة ، لو لم يكن قد قام بزيارتها مراراً ، واتجه بخدماته الروحية ، والمادية ، إليها فى فرص متعددة . ان كل بشير من البشيرين ينظر إلى يسوع من زاويته الخاصة ، ليرسم الصورة التى يتمثلها ، وهذه الصور الأربع التى بين أيدينا تتكامل معاً لتقدم صورة المسيح الخالد . .

ولكن هناك مشكلة أخرى ، تحتاج إلى شىء من الدراسة . فهذا الجزء من الأصحاح يتحدث عن حادثة تطهير السيد للهيكل . هنا نرى يوحنا يضع حادثة التطهير فى بداية خدمة يسوع الجهارية ، بينما البشائر الأخرى تضع الحادثة قبيل صلبه (متى ٢١ : ١٢ ـ ١٣ ، مرقس ١١ : ١٥ ـ ١٧ ، لوقا ١٩ : ٤٥ ـ ٤٦) . ولقد تقدم بعض المفسرين بحلول لهذا المشكل ، نوردها فيما يلى . . .

١ — قال البعض ممن شط بهم التفكير ، ان يوحنا كتب انجيله — الذى لم ينشر فى حياته ـ على قطع من ورق البردى ، جمعت ورتبت بعد وفاته ، وانه اتفق أن ذاك الذى قام بجمعها وترتيبها ، اختلط عليه الأمر فقام بوضع إحدى الصفحات الأخيرة التى تحوى حادثة تطهير الهيكل ، فى بداية الإنجيل !!

ولكن كيف يكون هذا ، ولا بد أن ذلك الذى قام بهذا العمل ، كانت له بعض الدراية بما ورد فى البشائر الأولى ، وبالترتيب التاريخى الذى سار عليه البشيرون الأول .

٢ — وقال آخرون ممن يتحررون أيضاً فى تفكيرهم من التمسك بعصمة الوحى ، أن يوحنا على صواب فى وضع هذا العمل فى بداية خدمة يسوع ، وأن البشائر الأولى قد خانها التوفيق . ولكننا نرى — إذا جازت لنا المفاضلة بين ما ورد فى بشارة ، وما ورد فى نظيرتها — أن حادثة تطهير الهيكل ، تتفق مع الترتيب المنطقى ،لو جاءت فى نهاية خدمة يسوع .فهى تمثل الحلقة المناسبة التى تربط دخول المسيح الإنتصارى إلى أورشليم،بحادثة الصلب. ان التتابع الطبيعى التاريخى يقتضى هذا الدخول الانتصارى،ثم تطهير الهيكل ، ثم النتيجة الحتمية الصليب .

٣ — وقال آخرون ان يوحنا يهتم بالحق ، أكثر من تقصيه للحقيقة . فهو لم يوجه إهتمامه إلى كتابة تاريخ مسلسل لحياة المسيح فى تتابع منطقى ، بقدر ما وجه إهتمامه لحوادث معينة يستخلص منها دروساً خالدة . وهو فى هذه المعجزة يريد أن يصور لنا يسوع، فى صورة ابن الله الأزلى،ومسيح الله المختار. ولعله ـ حينما اختار هذه الواقعة فى بداية خدمة يسوع ـ لعله كانت تتمثل فى ذاكرته النبوة العظيمة التى نطق بها النبى ملاخى ، وأشار فيها إلى المسيا . . «ويأتى بغتة إلى هيكله السيد الذى تطلبونه ، وملاك العهد الذى تسرون به، هوذا يأتى قال رب الجنود . ومن يحتمل يوم مجيئه ، ومن يثبت عند ظهوره لأنه مثل نار الممحص ، ومثل اشنان القصار . فيجلس ممحصاً ، ومنقيا للفضة . فينقى بنى لاوى ، ويصفيهم كالذهب والفضة ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر فتكون تقدمة يهوذا ، وأورشليم ، مرضية للرب ، كما فى أيام القدم» .

(ملاخى ٣ : ١ ـ ٤) . فيوحنا ، هكذا يقولون ، لم يهتم بأن يخبر الناس ، متى قام يسوع بتطهير الهيكل، بقدر ما اهتم بحقيقة تطهير الهيكل . ورأى فى هذه المعجزة علامة صادقة على أنه المسيا المرسل من الآب ، الذى بدأ خدمته بتنظيف بيت أبيه . ومع كل هذا يبقى المشكل قائما أمامنا أن البشير الرابع أهمل الترتيب المنطقى للأحداث، وأن هناك تعارضاً بينه ، وبين كافة البشائر الأخرى .

٤ ـ على أن الحل الأخير الذى نعتقد أنه الحل المنطقى ، هو أن السيد قام بتطهير الهيكل مرتين ، مرة فى بداية خدمته ، ومرة فى نهايتها . والفترة مابين هذه وتلك هى فترة خدمة المسيح بأكلها . فى الأولى ، قال « لا تجعلوا بيت أبى بيت تجارة » (يوحنا ٢ : ١٦). وفى الثانية ، قال « مكتوب بيتى بيت الصلاة يدعى ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » (متى ٢١ : ١٣) . ولعله فى رحلاته المتكررة ، فى أعياد الفصح السابقة ، قد رأى كيف يهان اسم يهوه العظيم ، على أيدى كهنته ، بحجة التعبد له . لقد بدأ خدمته بتطهير بيت أبيه ، وختمها بمثل هذا العمل .

ولقد اعترض البعض على مثل هذا الحل ، بأنه ان كان يسوع قد قام فى البداية بمثل هذا العمل الحازم الذى تحدى به سلطة الكهنوت فى عقر دارهم، فلماذا لا يتخذ الكهنة كافة الأحتياطات للمكفة لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل المهين لهم فى قلب دارهم ، وخاصة فى أيام العيد ، التى تكون فيها أورشليم مكتظة بالحجاج الوافدين من كل مكان ، والتى يخشى فيها من إثارة الفتن والمتاعب ؟ ألم يكن هناك حرس الهيكل الذين هم رهن إشارتهم ؟

ونحن نجيب بأن هنا تكمن قوة يسوع المعجزية ، وسلطانه على الآخرين. فلم تمتد إليه يد بسوء ، لا فى هذه المرة ، ولا فى المرة التى تلتها ، لأن ساعته لم

تكن قد جاءت بعد . لقد قام بكل هذا بمفرده ، لا بمساعدة إنسان ، وقد كان في إمكانه إثارة الجماهير المحتشدة . ولكنه لم يفعل ذلك . كما أن يداً واحدة لم ترتفع ضده ، لا من الكهنة ، ولا من الحرس ، ولا من التجار ، دلالة صادقة على سلطان لاهوته ، وطهارة حياته . وكما قال أحدهم ان حادثة تطهير الهيكل هي أعظم المعجزات التي تؤكد سلطان المسيح وسموه . . فالظلام لا يستطيع ، مهما كانت قوته ، أن يقف في وجه النور . .

غضب يسوع (تابع)

(يوحنا ٢ : ١٢ ـ ١٦)

والآن دعنا نرى لماذا أقتضى الأمر ، أن يتصرف يسوع في الهيكل بهذه الصورة . ان منظر يسوع وقد أمسك بالسوط ، منظر رهيب يثير الرعب . دعنا نتأمل الدوافع التي دفعت يسوع لأن يلتهب غضباً وحماساً .

قبل كل شيء لنعرف أن عيد الفصح هو أعظم الأعياد التي يقدسها اليهود . ولقد كان الناموس يحتم ، كما أسلفنا ، أن كل ذكر بالغ يعيش في دائرة عشرين ميلا ، حول أورشليم ، ملزم بحضور عيد الفصح . ولقد كان اليهود في هذه الفترة من تاريخهم ، مشتتين في كل بقعة من بقاع العالم ، ولكنهم ، رغم هذا ، ما كانوا يتخلون عن إيمان آبائهم ، أو تقاليد أجدادهم . وكان الحلم الذي يراود كل يهودي ، مهما بعدت الشقة بينه وبين أورشليم ، أن يقوم بحضور أعياد الفصح التي تقام في العاصمة كل عام ، ولو مرة واحدة في حياته . وقد يبدو غريباً للقارئ أن مدينة صغيرة مثل أورشليم ، كان يتكدس فيها ، خلال ذكرى الفصح ، أكثر من مليونين وربع مليون من الأنفس ، من مختلف بقاع العالم ، قدموا جميعاً لإحياء العيد . ولقد كانت هناك ضريبة تجبى عن كل ذكر يهودي يخطى

التاسعة عشرة من العمر ، اسمها ضريبة الهيكل . وكان التقليد يلزم كل يهودى بأن يدفع هـذه الضريبة ، حتى تستمر خدمة الهيكل ، وعبادته ، وتقاليده ، وذبائحه يوماً بعد يوم . وكانت الضريبة باهظة تصل إلى نصف الشاقل . فإذا عرفنا أن أجر العامل العادى كان يتراوح ما بين ثلاثة قروش ، وثلاثة قروش ونصف ، فى اليوم الواحد ، وأن نصف الشاقل كان يصل إلى ما يوازى خمسة قروش ونصف ، رأينا أن ضريبة الهيكل كانت تصل إلى ما يقرب من أجر يومين كاملين . ولقد كانت العملات الأجنبية ، قانونية ، ومتداولة ، للاغراض العادية ، فى كل مكان فى فلسطين ، عدا ضريبة الهيكل . فقد كان يلزم اداؤها بعملة الشاقل الجليلى ، أو شاقل القدس . فى كل مكان كان الناس يتداولون العملة الفضية السائدة فى روما ، واليونان ، ومصر ، وصور ، وصيداء ، فإذا وصلوا إلى ضريبة الهيكل وجب إبدال هذه العملات « بالشاقل المقدس » . كل العملات الأخرى كانت ملوثة ، ومنجسة ، يمكن استخدامها فى أية أغراض أخرى، عدا تقديمها الهيكل، ووضعها فى خزانته. وكان الحجاج يصلون إلى أورشليم محملين بكل أنواع العملات . ولذلك اقتضى الأمر تيسيراً على العابدين أن تضم أروقة الهيكل جماعـــة من الصيارفة ، لاستبدال النقود الأممية ، بأخرى يهودية . ولقد كانت العملية فى فكرتها الأساسية سليمة ، لاغبار عليها . ولو كان أولئك الصيارفة أمناء فى مهنتهم ، قانعين بانصبتهم ، لـكانوا يخدمون غرضاً مقدساً ولازماً . ولـكن الذى يحدث كان هكذا : لقد كانوا يتقاضون عملة تقرب من ثمـــانية مليمات عن كل نصف شاقل يبدلونه . فإذا اقتضى الأمر استبدال مبلغ أكبر ، تقاضوا ثمانية مليمات أخرى ، علاوة على الأولى ، عن كل نصف شاقل إضافى . ولنفرض أن يهوديا من الشتات أراد استبدال عملة تصل قيمتها إلى الشاقلين ، فإنه كان ملزماً بدفع عمولة النصف الشاقل الأول ويدفع عمولات ثلاث إضافية عن الأنصاف الثلاثة الأخرى . أى إنه كان ملزماً

بأن يدفع للصيارفة عمولة استبدال تصل إلى ثلاثة قروش ونصف ، أى أجر اليوم الـكامل .

وقد كانت الضريبة التى تجبى للهيكل عن هذا الطريق عظيمة بهذا القدر ، حتى إنها كانت تصل إلى ما يقرب من خمسة وسبعين ألفاً من الجنيهات بالعملة الاسترلينية ، وكانت عمولة الصيارفة تصل إلى تسعة آلاف من الجنيهات . ويقال ان « كراسوس » حينما استولى على أورشليم عام ٥٤ قبل الميلاد ، نهب من خزانة الهيكل ما يقرب من مليونين ونصف مليون من الجنيهات ، دون أن تتأثر الخزانة بشىء . . أما عمولة الصيارفة فقد كانت واجبة الأداء ، لو كانت معتدلة رحيمة . ولـكن العيب فيها أنها كانت باهظة . وهذا كان أحد الأسباب التى أثارت غضب يسوع . لقد كان يرى العامل المسكين ، الذى لا يكاد يكفى دخله مستلزمات الحياة ، يُجرد بلا رحمة ، ولا شفقة ، من آخر مليم فى جيبه ، باسم الدين ، وباسم عبادة يهوه العظيم .

علاوة على الصيارفة ، كان هناك التجار . . باعة الثيران والخراف والحمام . وكانت زيارة الهيكل فى العيد ، تقترن فى الغالب ، بتقديم ذبيحة شكر لله على سلامة الوصول إلى المدينة ، أو لأية مناسبة أخرى . ولذلك كان من الطبيعى ، أن تباع الذبائح بالقرب من مكان تقديمها ، حتى لا يتكلف السائح مشقة نقلها . كما أن الناموس كان يقتضى أيضاً أن الذبيحة التى تقدم تـكون بلا عيب . ولذلك عينت سلطات الهيكل مفتشين مهمتهم الكشف على الذبائح ، للتأكد من مطابقتها لمطاليب الناموس . وكان هناك شبه إتفاق بينهم وبين أولئك ، انه ان تقدم يهودى بذبيحة مشتراة من الخارج ، ينبغى أن يكون نصيبها الرفض ، لأن مصالح الـكهنة كانت ترتبط بتجارة الهيكل . وكان هناك أجر يحصل عن التفتيش ، يصل إلى عملة توازى ثمانية مليمات . هذا لا يهم كثيراً ، ولـكن الأمر الذى يثير حقاً ، أن أولئك التجار ، إستناداً على تشجيع الـكهنة لهم ،

رفعوا أسعار الذبائح إلى حد جنونى . مثال ذلك أن زوج الحمام الذى كان يساوى خارج أسوار الهيكل ثلاثة قروش ونصف كان يباع داخل ساحة الهيكل بما يوازى خمسة وسبعين قرشاً كاملة! لقد كانت هذه عملية نهب، ولصوصية ، باسم الدين ، وتحت ستار الدين . . وهذا ما أثار غضب يسوع ، فصنع سوطاً من الحبال. وكما يقول الآب ايرونيموس ان منظر المسيح الغاضب ، كان يغنى عن السوط ، والحبال . « فنظرة نارية ملتهبة من عينيه ، وجلال الألوهية الذى يكلل جبينه ، فيه الكفاية » .

لقد نظر يسوع إلى أخوته ورآهم يُهانون ، ويُعتدى عليهم ، باسم الله ، وفى سبيل محبتهم له · وهكذا لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين أمام هذه المهازل الصارخة بل غضب غضبته الصادقة العادلة . . .

غضب يسوع (تابع)

(يوحنا ٢ : ١٢ ـ ١٦)

رأينا أن أحد أسباب غضب يسوع ، كان الاحتيال على الشعب ، وسرقته باسم الدين . ولكن كانت هناك أسباب أكثر عمقا . دعنا نحاول استجلاء غوامض هذا العمل المعجزى الذى قام به يسوع .

ولنأخذ كلمات يسوع التى قالها فى المناسبة الثانية التى سبقت صلبه ، كما وردت فى البشائر الثلاث الأولى ، ونضمها إلى ما قاله فى هذه المرة . فى بشارة متى ورد قول السيد « بيتى بيت الصلاة يُدعى ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » (متى ٢١ : ١٣) · وفى بشارة مرقس « بيتى بيت صلاة يُدعى لجميع الأمم ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » (مرقس ١١ : ١٧). وفى بشارة لوقا « بيتى بيت الصلاة . وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (لوقا ١٩ : ٤٦) . وهنا

فى بشارة يوحنا : « أرفعوا هذه من هنا . لاتجعلوا بيت أبى بيت تجارة » (يوحنا ٢ : ١٦) .

وفى نور هذه الآيات ، دعنا نستشف الأسباب العميقة التى دفعت يسوع إلى تطهير بيت الآب . واننا نعتقد أن هناك أسباباً رئيسية ثلاثة . .

١ — السبب الأول ، لأن بيت الله قد دُنس بعبادة باطلة . لقد كانت هناك تمارس فى الهيكل ، ولكنها كانت عبادة بغير خشوع . الأحترام والخشوع، أمر غريزى فى الإنسان . فإذا أنتزعت منه هذه الغريزة ، فما أقسى حالته . يحدثنا أحدهم أنه أصطحب معه يوما أثنين من أبناء الغجر ، فى زيارة لاحدى الكاتدرائيات الكبرى فى انجلترا ، ولم يكن أحدهما قد دخل كنيسة طيلة عمره . وكانا بطبيعتهما الفطرية التى لم تهذب ، غاية فى العنف والمشاكسة . ولكنهما منذ اللحظة التى دخلا فيها باب الكتدرائية ، جلسا فى أدب وأحترام . وفى أثناء عودتهما للبيت ، بطول الطريق ، بدا فى تصرفاتهما الأدب والهدوء ، كما استمرا كذلك طول النهار . ولم يعودا إلى الضجيج والشغب إلا مع حلول المساء . لقد سيطر عليهما الخشوع الغريزى . ان العبادة بلاخشوع شىء رهيب . انها عبادة شكلية ، طقسية ، تقليدية ، لا تمس القلب المتجمد ، ولا تثير العاطفة المتحجرة ، التى تبلدت . فى الأمكان أن يصل الإنسان إلى قراءة أقدس صلاة ، وأعمق تأمل ، وكأنه يقرأ إعلانا تافها فى جريدة سيارة . ان العبادة المجردة من عنصر الخشوع عبادة تافلة لاتحس بقداسة الله ، وسموه . . عبادة لايتهيأ فيها القلب لمقابلة الله ، والأصغاء لصوته . . . عبادة ينفتح فيها الباب على مصراعيه ، لتمتزج فيها النزعة الدينية ، بدوافع أخرى ، وينتفى فيها القصد الرئيسى من التعبد . وهكذا كانت عبادة الهيكل فى أيام المسيح . لقد ضاعت أصوات الترانيم والصلوات ، وسط أصوات الشجار ، والأقسام ، واللعنات ، والمساومات . وفى الوقت الذى كانت ترتفع فيه من داخل الهيكل ، صلوات

العابدين والمصلين ، كانت تتعالى فى أروقة الهيكل أقسام البائعين ، والمشترين. وقد لا تكون هذه الحالة قائمة اليوم فى كنائسنا ، ولكن كم من عبادة نستطيع أن نقول عنها انها عبادة بالجسد ، لا تمس القلب .

٢ — السبب الثانى ، ان يسوع قام بتلك المعجزة ليثبت بطلان العبادة المبنية على الذبائح الحيوانية . فقبل ذلك التاريخ بأجيال ، تعالت صرخات الأنبياء ، هاتفة بهذا الحق : « لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب . اتخمت من محرقات كباش ، وشحم مسمنات . وبدم عجول ، وخرفان ، وتيوس ما أسر . . . حينما تأتون لتظهروا أمامى من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دورى. لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة » إشعيا (١ : ١١ — ١٣) . . ضموا محرقاتكم إلى ذبائحكم ، وكلوا لحما . لأنى لم أكلم أباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر ، من جهة محرقة ، أو ذبيحة » . (أرميا ٧ : ٢٢) . « يذهبون بغنمهم وبقرهم ليطلبوا الرب ولا يجدونه . قد تنحى عنهم » (هو شع ٥ : ٦). أما ذبائح تقدماتى فيذبحون لحماً ويأكلون . الرب لا يرتضيها » (هو شع ٨ : ١٣) . « هل آكل لحم ثيران ، أو اشرب دم تيوس » (مزمور ٥٠ : ١٣) لأنك لا تسر بذبيحة وإلا فكنت أقدمها . بمحرقة لا ترضى » (مزمور ٥١ : ١٦) . « بم أتقدم إلى الرب ، وانحنى للإله العلى . هل أتقدم بمحرقات بعجول أبناء سنة . هل يسر الرب بألوف الكباش ؟ بربوات أنهار زيت ؟ » (ميخا ٦ : ٦ ، ٧) . ان أصوات الأنبياء القدامى ، خلال كل الأجيال والعصور ، تتحد معاً فى نغمة واحدة ، منادية ببطلان العبادة القائمة على الذبائح والمحرقات التى يتصاعد دخانها ، كل يوم على مذبح الهيكل فى أورشليم . ولعل يسوع أراد أن يظهر بعمله هذا قصور الذبائح الحيوانية ، عن إعادة العلاقات الطيبة ، بين الإنسان الخاطىء ، وإله القداسة . واليوم انتهى عهد الذبائح الحيوانية ، وابتلعت فى الذبيح الأعظم ، حمل الله الذى يرفع خطيئة العالم . ولكن هل

نحن فى خطر الانحراف فى عباداتنا ، نظير أولئك الإسرائيليين القدامى ؟ هل يوجد ضمن تقاليدنا ، وممارساتنا ، ما يشبه الذبائح ؟ قد يكون . فهناك البنايات الفاخرة ، والزجاج الملون ،والشموع المتألقة ، والصور الفنية ،والذبائح التى تقدم باسم القديسين فى بعض الطوائف ، وهناك الأرغن الثمين،والموسيقى الحلوة، والجوقة المدربة، والأصوات المتوافقة، وغير هذه ، فى طوائف أخرى ، بينما العبادة الحقيقية لامكان لها فى القلب . ليس أن هذه التقاليد لا لزوم لها . فالتقاليد إذا كانت سليمة كثيرا ماتدفع القلب إلى الخشوع ، والنفس إلى التسليم ، والقرابين والنذور ، يتقبلها الله ، كتعبير القلب المحب . ان هذه كلها وسائط مباركة إذا كانت تدفعنا إلى الله، وترفعنا إلى الشركة الوثيقةمعه. ولكن موطن الداء، أننا نتمسك بها كل التمسك ، وننسى والأمور الجوهرية، فتحل القشور محل اللباب . وتنأى بالإنسان عن خالقه ، بدلا من أن تقربه إليه . وهذا ما يحزن قلب الله ويثير غضبه علينا .

٣ — والسبب الثالث، نستشفه من خلال كلمة أوردها البشير مرقس فى بشارته « يبقى بيت صلاة يُدعى لجميع الأمم » (مرقس ١١ : ١٧). ولقد كان الهيكل يحيط به عديد من الأروقة ، تُؤدى إلى القدس ، وقدس الأقداس . . . فهناك رواق الأمم ، ثم رواق النساء ، ثم رواق الإسرائيليين ، ثم رواق الكهنة . ولقد كانت تجارة الهيكل قائمة فى الرواق الأول ، رواق الأمم ، حيث كان محرما على أى أممى ، تحت عقاب الموت ، أن يتخطى الحاجز الفاصل بين هذا الرواق ، وبين بقية الهيكل . هناك ، فى رواق الأمم، كانت تجرى المساومات ، والمشاحنات ، والأخذ ، والعطاء ، وتعالى الأصوات ، من كل مكان ، فإذا جاء أممى للتعبد ، والتأمل ، والصلاة ، فى ذلك المكان الوحيد الذى كان يُسمح له بدخوله ، فإنه ما كان يجد فرصته للتأمل الهادىء ، وسط هذا الضجيج الصاخب . لقد حوّل الكهنة رواق الأمم إلى سوق الباعة ، وحظيرة للمواشى،

يختلط فيها صوت التجار، بهديل الحمام، ونعير الثيران، وثغاء الغنم، ونداءات السماسرة، ورنين العملة، وعشرات الأصوات الأخرى. لقد كان ذلك المكان أبعد ما يكون عن مكان للتعبد والصلاة، وكم من أعمى قطع مئات الأميال من بلده وانفق النفس والنفيس، لتكتحل عيناه بمرأى المدينة المقدسة، والهيكل العظيم المفدى فى أيام العيد، فإذا به يرجع إلى بلده بعد ذلك مريض النفس، لم ينل من رحلته إلا تعب الجسد، وتعب القلب، وهو لا يرى فارقاً كبيرا فى التصرف بين كهنة يهوه وكهنة الأصنام. ولعل هذا كان فى فكر يسوع، حينما طرد أولئك الباعة مع بضاعتهم من رواق الأمم. لقد امتلأ قلبه بالعطف على تلك النفوس التى أتت من سحيق البُعْد، باحثة عن الحق، متلهفة للوصول إليه، فإذا بها تجد الأبواب موصدة أمامها.

ترى هل كنائسنا، فى هذه الأيام، ما يشبه هذه الحالة؟ ألا نقف بانتقاداتنا، وجمودنا، وتعالينا، وكبريائنا، وتصرفاتنا، ومطامعنا، حجر عثرة فى طريق الباحثين عن الحق؟ ألا نُهلك إخوتنا، بعثراتنا؟ ألا ننفرّ الذين أجتذبتهم نعمة الله، بحياتنا؟ لنعرف أننا إذا كنا كذلك سوف نكون موضوع غضب الله، وهدفاً لسهام القدير...

الهيكل الجديد

« فَتَذَكَّرَ تَلَامِيذُهُ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ غَيْرَةُ بَيْتِكَ أَكَلَتْنِي. فَأَجَابَ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ أَيَّةَ آيَةٍ تُرِينَا حَتَّى تَفعَلُ هذَا. أَجَابَ يَسُوعُ وقَالَ لَهُمُ انقُضُوا هٰذَا الْهَيْكَلَ وَفِى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ. فَقَالَ الْيَهُودُ فِى سِتٍّ وأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هٰذَا الْهَيْكَلُ أَفَأَنتَ

فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ». وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ. فَلَمَّا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ تَذَكَّرَ تَلاَمِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هَذَا فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلاَمِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ ».

(يوحنا ٢ : ١٧ — ٢٢)

لقد كان من المنطقى أن عملا حازماً كتطهير الهيكل ، لابد وأن يكون له رد فعل عنا من شاهديه. فمثل ذلك العمل،لا يمكن أن يقابل بعدم الإكتراث. ولقد كان له رد فعل من جانب التلاميذ ، كما كان له رد فعله من جانب اليهود.

١ — أما من جهة التلاميذ فقد تذكروا النبوة التى وردت فى سفر المزامير « غيرة بيتك أكلتنى . وتعييرات معيريك وقعت على » (مزمور ٦٩ : ٩) .وبيت القصيد أن هذا المزمور مزمور تنبؤى يشير إلى المسيا . فمن العلامات المميزة للمسيا،غيرته المتقدة على كرامة بيت الآب . وهكذا حينما شاهدوا يسوع يتصرف على هذا النحو ، قفزت إلى أذهانهم تلك النبوة القديمة وزادت فى يقينهم الثابت بالأضافة إلى ما شاهدوه ،بأن يسوع هو المسيا وليس سواه — مسيح الله الذى مسحه الآب وأرسله إلى العالم .

٢ — ولكن اليهود كان لهم أيضا تفكيرهم الخاص ، وكان تفكيراً منطقيا يتمشى مع طبيعتهم . وهكذا طلبوا من السيد أن يثبت أهليته لمثل هذا العمل الحازم ، بالقيام بآية أو معجزة . ويمكننا القول بأن تفكيرهم كان يدور على النحو التالى : لقد اعترف اليهود بأن العمل الذى قام به يسوع عمل لازم ومبارك . لكن الذى يقوم بمثل هذا العمل هو المسيا وحده حق شرعى من حقوقه المباركة . ولقد كان المعتقد السائد أن المسيا حينما يأتى ، لابد وأن يثبت حقيقة ارساليته ، بالقيام بآيات عجيبة خارقة . وبالفعل قام أدعياء

كثيرون ،وحاولوا أن يخدعوا العامة بالأدعاء بالقيام بعجائب معجزية مثل شق مياه الأردن إلى نصفين ، أو هدم جدران المدينة بكلمة . لقد كانت عقيدة المسِّيا ترتبط بجانب معجزى فى أذهان اليهود. ولذلك لا غرابة أن يتساءلوا : « اننا نرى فى قيامك بتطهير الهيكل ادعاء صريحاً بأنك المسيا . أية آية ترينا حتى تثبت صدق هذا الإدعاء؟ ». وجاء جواب يسوع ليزيد المشكلة فى أذهانهم تعقيداً. ترى ماذا يعنى يسوع بالجواب الذى تقدم به إليهم ؟ ينبغى أن ندرك أن يوحنا كتب بشارته بقلم الروحانى الناضج الذى أنضجته اختبارات سبعين عاماً كاملة بعد هذه الأحداث. لقد رأى فى هذا الجواب اشــارة إلى موت المسيح ، وقيامته من القبر . وكما يقول إرانيوس « لا توجد نبوة يمكن أن تدركها الأذهان، إلا بعد إتمامها بوقت طويل». ترى هل كان هذا كل مايعنيه يسوع حينما قال لليهود : « أنقضوا هذا الهيكل ، وفى ثلاثة أيام أقيمه » .

قبل كل شىء لنذكر أن هذا الجواب انطبع فى ذاكرة اليهود ، كأنما بحروف من نار . فحينما قدم يسوع للمحاكمة بعد ذلك القول بسنين ، نرى التهمة الموجهة إليه تتلخص فى الآتى : « هذا قال انى أقدر أن انقض هيكل الله ، وفى ثلاثة أيام أبنيه » (متى ٢٦ : ٦١) ، وحتى التهمة التى وجهت إلى اسطفانوس شهيد المسيحية الأول هى : « اننا سمعناه يقول ان يسوع الناصرى سينقض هذا الموضع،ويغير العوائد التى سلمنا إياها موسى » (أعمال٦:١٤) .

ولكن علينا أيضاً أن نضع فى ذاكرتنا أمرين جنباً إلى جنب . الأول أن يسوع لم يقل على الإطلاق ، انه سينقض الهيكل المادى ، ثم يعيد بناءه . لقد كان يتوقع النهاية الحتمية التى سوف ينتهى إليها الهيكل ،ولقد تنبأ بالفعل بنهايته ، ورأى النتيجة المنطقية التى لابد وأن تنتهى إليها عبادة سرى فيها الفساد والأضمحلال . فهذه لابد وأن تنتهى ، وتقوم على أنقاضها عبادة حيَّة

روحية ، كما قال المسيح المرأة السامرية « تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ، ولا فى أورشليم يسجدون للآب . الله روح ، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا» (يوحنا ٤ : ٢١) . والأمر الثانى أن حادثة تطهير الهيكل لا يمكن أن تدع مجالا للقول بأن يسوع سوف « يقيم » الهيكل المادى بعبادته ، وتقاليده ، وطقوسه ، بعد زوال عهده ، واندثاره .لقد كان عمله هذا دليلا قاطعاً على أن عبادة الهيكل قد أصبحت عبادة عاجزة تقصر عن أن تقود الإنسان إلى الله ، وأن الذبائح الحيوانية ليست الواسطة لإرضاء الله . فهذه الممارسات ، لابد وأن تمضى ، وتنتهى ، لتفسح المجال لعبادة روحية اسمى وأعظم . . عبادة هو محورها ، وأساسها ، ودعامتها ، والكل فى الكل فيها.

والآن دعنا نتطلع إلى اللمحات الخاطفة التى تفرد بها البشير الثانى ، والتى تلقى ضوءاً جديداً على جواب يسوع لليهود . اننا نراه يسجل ، أثناء محاكمة يسوع ، شهادة تقدم بها أحد شهود الزور ، يقول فيها :

« نحن سمعناه يقول انى أنقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادى وفى ثلاثة أيام أبنى آخر غير مصنوع بأياد » . (مرقس ١٤ : ٢٨). ومن الواضح أن يسوع قصد بهذا القول بأن مجيئه قد وضع حدا ، لعبادة البشر ، وترتيبات البشر ، وأحل مكانها عبادة تقوم بالروح والحق . فهو بمجيئه قد أنهى تقاليد الهيكل ، وكفارة الذبائح ، وممارسات البخور ،وغيرها من هذه الأمور ،وجاء بعبادة جديدة روحية ، تقوم على أساس الاقتراب إلى الله ، الذى هو روح ، بعبادة الروح ، والقلب . وكأنى بيسوع يحذرهم بالقول : « لقد انتهى العهد القديم ، بذبائحه ، ومحرقاته الكثيرة ، وتقاليده، وممارساته العديدة ، وأشرق نور العهد الجديد ، لأننى أتيت » . وكأنى به يتقدم إليهم بالوعد : « ابشروا فمن طريقى تستطيعون أن تقتربوا لله ، بغير الذبائح ، والتقاليد ، والممارسات

الموضوعة . فان كان عهد ذلك الهيكل المصنوع بايدى البشر ، قد انتهى ، ومضى ، فإنى أقول لكم اننى سأقيم بديلا عنه هيكلا عظيما ، لا فى أورشليم ، ولا فى اليهودية ، بل فى العالم أجمع . بناؤه يحتل دائرة الوجود ، وارتفاعه يصل إلى عرش السماء ، ودائرته تضم لا أبناء إسرائيل فحسب ، بل أبناء الله الحى ، فى كل أمة وقبيلة وشعب ولسان .

ولقد صُدم اليهود بهذه الحقيقة ، مع أنهم كانوا يدركون حقا مدى الانحلال الذى وصل إليه الهيكل ، والحالة المرة التى تنذر بتزعزع أركانه . ولقد بدأ هيرودس الكبير بناء الهيكل قبل ولادة المسيح بتسعة عشر عاما ، واستمرت الأعمال الانشائية فيه ، حتى عام ٦٤ للميلاد . واستغرق بناؤه الفعلى ستا وأربعين سنة كاملة . وكان أحدى عجائب الدنيا بأروقته ، وأعمدته الرخامية المغشاة بالذهب . وها هو يسوع يعلن لهم ، أن كل هذه العظمة والفخامة ، لاقيمة لها فى نظر الله ، ولن تقرب الأنسان إلى خالقه ، وأنه قد جاء من السماء ليعد لهم طريقاً أفضل ، للوصول إلى قلب الله ، بهيكل « غير مصنوع بأياد » .

على أن هناك معنى آخر ، قد أشرق فى ذهن البشير ، مع أشراق نور القيامة ، ذلك أنه رأى فى هذا القول إشارة إلى موت يسوع وقيامته من الأموات . والمعنيان يرتبطان معاً كل الإرتباط . فلا يمكن أن يصبح الوجود كله هيكلا حيا لله ، ما لم يجتز يسوع فى اختبار الصلب ، ذبيحة عظمى عن البشر أجمعين ، ويقوم من الموت محطماً سلطان الخطية ، مقربا الجميع فى شخصه وعمله ، إلى الله الحى ، حاضراً بروحه الأقدس فى قلب كل مؤمن باسمه . ان يسوع المصلوب ، والحى القام من الأموات ، هو حجر الزاوية فى هذا الهيكل الحى المبارك .

وهكذا حينما قام يسوع من الموت ، أدرك يوحنا ، وأدرك معه التلاميذ ،

معنى الجواب الذى تقدم به لليهود . فاختبار المسيح الحى ، هو الذى أعلن لهم بعد ذلك ، عمق أعماق ما قاله يسوع حينذاك . .

وأخيراً يقول البشير ،انهم « آمنوا بالكتاب » . أى كتاب يشير إليه يوحنا ؟ انه يشير إلى الكتاب الذى كان النور الملهم للكنيسة الأولى ، — النبوة المقتبسة من المزمور السادس عشر ، والعدد العاشر « لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيك يرى فساداً » . ولقد اقتبس بطرس كلمات هذه الآية فى يوم الخمسين (أعمال ١٣ : ٣٥) . وها هو يوحنا يقتبسها هنا : « لن تدع قدوسك يرى فساداً » . وهذا يصور لنا إيمان الكنيسة الوطيد ، بقوة الله ، وقيامة يسوع المسيح من الأموات .

ونحن — من خلال هذه السطور — نستطيع أن نرى حقاً عظيما تشرق علينا أنواره ، وهو أن اقترابنا من الله ، وشركتنا معه ، لايتوقفان على بنايات البشر ، أو ممارسات البشر ، أو ترتيبات البشر ، فلا مكان أكثر قداسة من سواه فى نظر الله — فى الطريق . فى البيت .. فى مكان العمل . .فى الوادى ، على قمة تل ، تماما كما فى الكنيسة ، لنا هيكل الله ، فى أعماقنا ، وحضور المسيح الحى معنا ، إلى أبد الآبدين .

فاحص قلوب البشر

« ولَمَّا كَانَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ آمَنَ كَثِيرُونَ بِاسْمِهِ إِذْ رَأَوُا الآيَاتِ الَّتِي صَنَعَ . لَكِنَّ يَسُوعَ لَمْ يَأْتَمِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْجَمِيعَ . ولِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً أَنْ يَشْهَدَ أَحَدٌ عَنِ الإِنْسَانِ لِأَنَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ فِي الإِنْسَانِ » .

(يوحنا ٢ : ٢٣ ـ ٢٥)

إن يوحنا هنا ، لا يخبرنا عن تفاصيل أية معجزة ، قام بها يسوع فى أورشليم فى عيد الفصح ، ولكن يسوع قام بمعجزاته هناك . وكثيرون ممن شاهدوا هذه المعجزات ، آمنوا به . وها هو يوحنا يحلل لنا الأسباب التى من أجلها ، لم يعلن يسوع نفسه كالمسيا ، جهاراً ، فى قلب العاصمة . فإذا كان كثيرون قد آمنوا به ، وتحمسوا له ، وصدقوا حقيقة ارساليته منذ البداية ، أما كان الأجدر بيسوع أن يجعل من أورشليم مركز اشعاع عظيم لرسالته ، ويرفع أعلام انتصاره هناك ، ويعلن أنه المسيا المنتظر ؟ فلماذا لم يفعل ذلك ، والجواب أن يسوع كان يعرف جيداً الطبيعة البشرية المتقلبة . لقد كان يعرف أنه بالنسبة للبعض ، ليس سوى صانع معجـــــزات ، يتسلون برؤيته ، ورأى البعض الآخر نفعيين لا تهمهم سوى الماديات ، تجتذبهم أعماله لينالوا المنفعة منها . ولا يوجد بينهم واحد يفهم الهدف الذى يهدف إليه ، والطريق الروحى الذى يسير فيه ، طريق الخدمة ، والتضحية . إنهم على استعداد أن يهتفوا ، ويصفقوا له ، طالما كان على القمة ، أما إذا سار فى الوادى . . . أما إذا شاهدوه يحمل صليبه ، ويسير فى طريق الآلام ، والتضحية . . أما إذا طلب منهم قائلا ان أراد أحد أن يأتى ورائى ، فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ، ويتبعنى ، . . . أما إذا قال لواحد منهم : « إذهب بع كل مالك ، وأعط الفقراء ، ليكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى حاملا الصليب » ، فإنهم سينفضون عنه ، ويتركونه لحال سبيله . إن أعظم ميزة يتفرد بها يسوع هى أنه لا يريد أن يكثر أتباعه على حساب مبادئه . لا يريد الكم ، بقدر ما يريد الكيف . . . لا يريد اتباعا إلا إذا عرف أولئك الأتباع ما ينتظرهم فى الطريق ، وقبلوا عن طيب خاطر ، التضحيات التى تطلب منهم . فلو كان قد أعلن ذاته لجمهور أورشليم ، فانهم كانوا فى الحال ، كما حدث فى فرصة لاحقة ، سينادون به المسيا الملك ، وينتظرون منه العمل الحاسم ، الذى يتوقعونه من المسيا . ولكن يسوع كان ذلك القائد

الذى يرفض أن يطلب من البشر أن يقبلوه ، ويخضعوا لقيادته ، ما لم يدركوا معنى ذلك القبول ، ومستلزمات ذلك الخضوع .

لقد كان يعرف طبيعة البشر . كان يعرف تقلبات العواطف . . كان يعرف أن البشر ، فى لحظة من لحظات الحماس المتقد ، قد يتخذون قراراً ، لا يلبثون أن يتخلوا عنه ، حينما تبرد عواطفهم ، وتفتر مشاعرهم ، ويصدمهم ما يتطلبه ذلك القرار من بذل ، أو تضحية . كان يعرف جوع الإنسان المادى إلى كل ماهو ملموس ، ومحسوس ، الأمر الذى يتفق مع منطقه ، وحواسه .

لقد كان يريد ، لا جمعاً غفيراً يهتف دون أن يعى شيئاً ، بل جماعة ، ولو ضئيلة ، تدرك كل شىء ، وتضع أكتافها تحت نيره ، وتسير معه إلى النهاية .

بقيت لنا ملاحظة هامة ، فى ختام هذا الأصحاح ، سوف نحتاج إليها بين الحين والحين ، فى دراستنا للبشارة . فحينما يتحدث يوحنا عن المعجزات ، فانه يدعوها آيات . واننا نلتقى ، فى دراستنا للعهد الجديد ، بمرادفات ثلاث ، كلها تدور حول هذه الكلمة الواحدة .

١ — فهناك كلمة « تيراس » . والكلمة تعنى ، عملا ، مدهشاً ، خارقاً ، جباراً ، قد لا يحوى أى معنى أخلاقى ، أو دلالة معنوية . فالحيلة البارعة التى يلجأ إليها الساحر ، للتأثير على جمهوره ، قد تنطوى تحت هذه الكلمة . إن كلمة «تيراس» تعنى عملاخارقاً يترك الناس فاغرى الأفواه، ولا شىء غير ذلك. والعهد الجديد ، يطلق هـــذه الكلمة بمفردها على أعمال الله ، أو معجزات المسيح . . .

٢ — وهناك كلمة « دوناميس » ، وهى حرفيا تعنى « قوة » الكلمة التى أخذت منها كلمة ديناميت . ويمكن استخدامها للدلالة على أية قوة جبارة غير عادية ، تسمو على التفسير الطبيعى ، فهناك قوة النمو ، وهناك فاعلية الدواء ،

وهناك مقدرة الذكاء الخارقة فى الإنسان . فالكلمة هنا تعنى قوة جبارة ، لها فاعليتها ، التى يلمسها كل فرد ، وتراها كل عين .

٣ — وهناك كلمة «سيميون» . ولعل منها كلمة سيمياء . وهى تعنى آية . انها الكلمة المحبوبة لدى يوحنا . فالمعجزة عنده ليست مجرد حدث مدهش ولا مجرد فعل خارق للعادة . إنها آية . أى انها تُعلن للناس شيئاً عن طبيعة صانعها انها تكشف شيئا من صفاته ، وهى تظهر للناس شخصيته . فهى عمل نستطيع من خلاله ، أن ندرك بوضوح طبيعة من قام به ، وصفاته ، وذاتيته . . .

ولذلك ، فإن يوحنا يرى ، أن أعظم جانب فى معجزات يسوع هى أنها تعلن للناس شيئا عن طبيعة الله ، وصفات الله . فحينما يقوم يسوع بشفاء المريض وإطعام الجائع ، وتعزية الحزين ، ويستخدم قوته الخارقة فى هذا الطريق المبارك فهذا معناه أن الله يهتم بتخفيف آلام المتألمين ، وسد حاجات المعوزين ، وتعزية قلوب المحزونين . إن المعجزات بالنسبة ليوحنا ، هى آيات بينات على محبة الله للانسان .

بهذا المعنى المثلث الأركان ، نستطيع أن نفهم مدلول المعجزة . ففيها الجانب العجيب غير العادى ، الذى يترك البشر مشدوهين ، مبهوتين . وفيها القوة الخارقة ، العظيمة ، التى تشفى الجسد المحطم ، والقلب المنكسر ، والنفس الذاوية الذابلة ، وفيها المدلول الروحى العميق الذى يُعلن قلب الله ، وعواطف الله ، وأحشاء الله . .

الأصحاح الثالث :

الرجل الذى جاء ليلا . .

« كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسُ رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ هَذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً وَقَالَ لَهُ يَا مُعَلِّمُ نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللهِ مُعَلِّماً لِأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللهُ مَعَهُ . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ . قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ كَيْفَ يُمْكِنُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ . أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ . أَجَابَ يَسُوعُ الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ . الْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ » .

(يوحنا ٣ : ١ ـ ٦)

فى معظم حياة يسوع، نراه وقد أحاطت به الجماهير ، ولكننا هنا نراه فى خلوة مع واحد . وهذه هى احدى الفرص القليلة النادرة ، التى يلتقى فيها وجها لوجه ، مع واحد من أفراد الطبقة الارستقراطية فى أورشليم ، من طبقة الفريسيين . وهناك بعض المعلومات القليلة التى تكشف لنا عن شخصية نيقوديموس .

١ — فلابد وأنه كان ثريا . فبعد حادثة الصلب ، نراه يأتى بمزيج « من المر والعود ، نحو مئة منا » (يوحنا ١٩ : ٣٩) ولا يمكن أن يقوم بهذ العمل إلا إنسان ثرى . .

٢ — وكان من الفريسيين . ولقد كان الفريسيون برغم الصورة التى ترتسم فى مخيلتنا عنهم ، أفضل من الكل من نواح متعددة . فلم يكن تعدادهم كبيراً ، بل على النقيض من ذلك ، كانوا لا يزيدون ، فى عصر المسيح عن ستة آلاف نفس . وكانوا يكوّنون فيما بينهم ، مايعرف بالأخوية . وما كان واحد يُقبل ضمن عضوية هذه الأخوية ، إلا إذا أخذ على نفسه عهدا ، أمام ثلاثة من الشهود ، بأن يقضى طيلة العمر ، مدققاً فى حفظ كل وصية من وصايا الناموس .

ماذا يعنى هذا ؟ لنعرف قبل كل شىء مقام الناموس فى حياة كل يهودى . انه وصايا الله المستقيمة المتضمنة فى كتب موسى الخمسة ، وهو الوحى المنزه عن الخطأ ، الذى كل من يزيد عليه ، أو يحذف منه ، يقع تحت عقاب الموت . فإذا كان الناموس كاملا بهذه الصورة ، فهذا معناه أنه لابد وأن يحوى كل البنود اللازمة ، لحياة الإنسان الروحية والجسدية . فإن كان هناك شىء لم يتناوله صراحة ، فلابد وأنه يحتويه ضمنا ، وفى الإمكان إدراكه عن طريق التخمين ، وإعمال الفكر . والناموس حسبما أوصى به ، يحوى مبادىء سامية ، بصورة عامة لم تعرض للتفاصيل ، فقد ترك هذه ليستنبطها الإنسان ، بوحى من ظروفه ، واختباراته الخاصة . ولكن اليهود المتأخرين قالوا ان هذا لا يكفى ، فالناموس كامل لاشك فى ذلك . ويحوى كل بنود الحياة الطيبة . لذلك فهو لابد وأن يحتوى على كل ما يحتاجه الإنسان لحل مشاكله الصغيرة قبل الكبيرة . وهكذا كرسوا وقتهم ، وجهودهم ، لاستنباط عدد لا يحصى من

الشرائع ، والقوانين التى تنظم كل شئون الحياة . أى أنهم ترجموا بنود المبادىء الإلهية الشاملة ، إلى ناموسية الفرائض ، والوصايا الفرعية ، والتقاليد العديدة . . . وأصدق مثال على ذلك ناموس السبت ، أو القوانين المتعلقة بيوم السبت. إننا نقرأ الوصية فى سفر الخروج : «أذكر يوم السبت لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ، أما اليوم السابع ففيه سبت الرب إلهك . لا تصنع فيه عملاً ما ، أنت ، وابنك ، وابنتك ، وعبدك ، وأمتك ، وبهيمتك ، ونزيلك الذى فى بيتك». هذا هو منطق الوصية التى وردت بخصوص السبت فى الناموس الإلهى . والآن تعال معى لنرى ، ماصنع اليهود المتأخرون بها . انهم قضوا عاما بعد عام ، وجيلا بعد جيل ، يصنفون ويرتبون الأعمال الجائزة فى يوم السبت ، والأعمال غير الجائزة . ولقد جمعت هذه ضمن ما يعرف « بالمِشْنَه » أو ناموس الكتبة المفهرس. فلقد قام الكتبة باستنباط هذه النواميس ، وتنظيمها ، وتبويبها ، وانفقوا العمر فى ذلك العمل . أما الجزء الخاص بالسبت فى المشنه ، فهو يمتد إلى أربعة وعشرين فصلاً . ثم أتى أحبار اليهود بعد ذلك ، فقاموا بوضع تفسير للمشنه يُعرف بالتلمود الاورشليمى،وقديصل التعليق على ناموس السبت إلى مايقرب من خمسين عاموداً. وفى التلمود البابلى يمتد إلى مائة وخمس وستين صحيفة كبيرة ، من الوجهين . ويقال عن أحد الأحبار انه قضى عامين ، ونصف عام ، فى دراسة فصل واحد من الفصول الأربعة والعشرين ، التى تدور حول ناموس السبت فى المشنه .

دعنا نأخذ مثلا من أمثلة الوصايا الفرعية التى يذخربها التلمود : عمل عقدة حبل فى يوم السبت . هذا عمل واضح ، ونظير أى عمل ينبغى أن يكون محرماً. لكن الأحبار اتجهوا إلى تحليل هذا العمل . قالوا علينا ان نحدد ماهى العقدة. « فهناك عُقد مَن يعملها يقع تحت مذنوبية كسر الوصية ، منها عُقدة الجمَّال ، وعُقدة البحاَّر محرمٌ عملها ، ومحرم أيضاً حلها ». أما العقدة التى يعملهاالإنسان

بيد واحدة ، ويحلها بيد واحدة ، فهى قانونية غير محرمة ! زيادة على ذلك « تستطيع المرأة أن تربط فتحة ثوبها ، ورُبطغطاء رأسها ، وسيور حذائها ، وقربة النبيذ ، أو الزيت » ولا حرمة فى ذلك . والآن دعنــا نلاحظ تحايل اليهود على الناموس للوصول إلى أغراضهم . لنفرض أن رجلاً أراد أن يستقى ماء بئر فى يوم السبت . ان عمل عقدة حبل ، فى الإناء فى يوم السبت ، أمر محرم . ولــكنه يستطيع أن يربط الإناء فى مئزر سيدة لأن عمل عقدة فى مئزر سيدة ، لا غبار عليه ! هــذه عينة من الأمور التى أنفق فيها الـكتبة والفريسيون عمرهم ، ورأوا فيها مسألة حياة أو موت . هذه هى « الديانة » بحسب فـكرهم . . . الديانة التى تسرُّ قلب الله !

لنأخذ مثلاً آخر: السفر فى يوم السبت. فى سفر الخروج (١٦ : ٢٩) نقرأ الوصية «أجلسوا كل واحد فى مكانه لايخرج أحدمن مكانه فى اليوم السابع» . وهكذا جعل الأحبار الحد الأقصى للرحيل فى يوم السبت ، بما لا يزيد عن الفى فرسخ ، أو ألف ياردة . والمسافة تبدأ من مكان سكنى الإنسان . ولـكن ، إذا جاء الإنسان فى نهاية الشارع ، واعترضه بحبل واحد ، ففى الامكان اعتبار الشارع كله بيتاً واحداً ! ! وهــكذا يستطيع الذى تقتضيه الحاجة ، أن يبدأ الألفى فرسخ ، من نهاية الشارع ، أو إذا أقام الإنسان بوضع طعام يكفى عشاءه فى ليلة الجمعة ، فى أى مكان من الأمكنة ، فإن هذا المـكان يُصبح بالنسبة له بيتاً ! حتى ولو كان العراء ، تحت شجرة من الأشجار ، ومن هناك يستطيع أن يبدأ رحلة الحد السبتى ! ديانة رخيصة فجّة ، ما أبعدها عن روح ، موسى ، وناموس موسى . . وهذه هى النواميس التى أنفق المئات بل الألوف حياتهم ، فى استنباطها ، وترتيبها ، وتبويبها . خذ مثلاً ثالثاً : حمل الأحمال . فى سفر نبوات أرميا (١٧ : ١ — ٢٤) نقرأ الوصية : « لا تحملوا حملا يوم السبت... لا تخرجوا من بيوتـكم حملا يوم السبت . . . » . ولـكن ينبغى أن نعرّف

ما هو الحمل . . قالوا : هو ما يعادل ثمرة من التين الجاف ، ومن النبيذ ما يملأ كأساً واحدة ، ومن اللبن مايكفى لجرعة واحدة ، ومن العسل ما يضمد جرحا ، ومن الزيت ما يلزم لمسحة صغيرة ، وهكذا ، وهكذا . . ثم اتجهوا إلى البحث فيما إذا كان يحق للمرأة أن تلبس إسورة أم لا ، فى يوم السبت . وإذا وجد إنسان مقطوع الساق ، هل يحق له أن يلبس ساقه الخشبية ، أو رجل عجوز هل يحرم عليه أن يضع طاقم أسنانه الصناعية فى فمه !! وهل تعتبر هذه من قبيل حمل الأحمال أم لا! والمرأة المرضع ، هل يجوز لها حمل طفلها وارضاعه ، وهكذا فى أمور لا نهاية لها . .

ولقد كرّس الكتبة حياتهم فى استنباط هذه النواميس . وأما الفريسيون ، فقد كرسوّا أنفسهم لحفظها . وحتى لو اكتشف الواحد مدى الطريق المضلل الذى يسير فيه ، فإنه ما كان يتراجع عن أن يأخذ كل واحدة من هذه الآلاف المؤلفة من البنود ، مأخذ الجد ، ويتمسك بطاعتها بكل حرص . إن لقب فريسى ، معناه مفرز ، مكرس . فالفريسيون هم الذين افرزوا أنفسهم من كل عمل عادى ، وكرسوا ذواتهم لحفظ كل كبيرة ، وصغيرة ، من ناموس الكتبة .

ولقد كان نيقوديموس فريسياً ، وكبيراً بين الفريسيين . ولذلك فقد كان غريبا أن يأتى إنسان مثل هذا ، ينتمى إلى طبقة تشعر بالاكتفاء الذاتى ، فى نواميسها، وممارساتها ، وكل شيء ، وترى معنى الصلاح فى هذا النور ، تؤمن بأرضاء الله عن هذا الطريق . . كان غريباً أن يأتى مثل هذا الإنسان إلى يسوع . .

٣ — وكان نيقوديموس من الطبقة الحاكمة بين اليهود . كان عضوا فى مجمع السنهدريم . والكلمة فى الأصل « أرْخُنْ » . وكان السنهدريم ، أو

مجمع السبعين عضوا ، هو أعلى سلطة تشريعية تنفيذية بين اليهود . صحيح لم تكن لهذه الهيئة سلطتها القوية فى عصر المسيح ، فقد حددت السلطات الرومانية نفوذها ، وبالأخص سلطة تنفيذ الأحكام . ولكن سلطانها ، بالرغم من هذا ، كان عظيما ، وعلى الأخص الحكم فى المسائل الناموسية المتعلقة بالدين . وكان من واجبها فحص ادعاءات أى معلم يُشكُّ فى رسالته . ومرة أخرى نعود فنقول ، كان غريبا أن يأتى إنسان مثل هذا إلى يسوع .

٤ — ولعله كان أيضاً من عائلة يهودية كبيرة . وهناك أكثر من دليل على ذلك . فقبل ميلاد المسيح بثلاثة وستين عاما ، حينما كانت الحرب دائرة بين الرومان ، واليهود ، نقرأ أن « أرستوبولس » ، الزعيم اليهودى ، أرسل واحدا يُدعى « نيقوديموس » سفيرا من قبله ، إلى الأمبراطور الرومانى ، « بومبى » . وفى مأساة أورشليم الأخيرة ، عام ٧٠ للميلاد ، يبرز فى وسط الأحداث العاصفة ، اسم رجل يدعى « جوريون بن نيقوميدس » أو نيقوديموس . ولعل الأسمين ينتميان إلى أسرة نيقوديموس ، وهذا يدل على مقام هذه الأسرة فى أورشليم . فإذا كان هذا صحيحا يكون من الغريب أن يأتى إنسانٌ مثل هذا ، من الطبقة الارستقراطية اليهودية ، إلى معلم فقير ، بلا مؤهل مدرسى كان يعمل نجاراً فى مدينة الناصرية ليتحدث إليه فى أمور روحية . ولقد جاء نيقوديموس إلى يسوع ليلا . وهناك دافعان لهذا التصرف .

أولا : فقد يكون هذا من قبيل الحرص . ولعله ما أراد أن يعرّض بنفسه ، أو بزملائه من أعضاء المجمع المقدس ، بمجيئه إلى نبى ، يشك الكثيرون فى حقيقة رسالته . ونحن لا نلوم نيقوديموس على هذا . فموطن العجب أن يأتى نيقوديموس بالمرة إلى يسوع . فهو إذا كان قد أتى ليلا ، فهذا أفضل من ألاّ يأتى إليه بالمرة . انها معجزة النعمة أن يأتى إنسان مثل هذا ، إلى المعلم الجليلى ،

ويدوس على تقاليده ، واحقاده ، وكبريائه ، ونظرته للحياة .

ثانيا : ولكن قد يكون السبب غير هذا ، فلقد كان من رأى أحبار اليهود ، أن أنسب الأوقات لدراسة الناموس ، هى ساعات الليل ، حينما لا يكون هناك ما يعطل الأنسان عن هذا الواجب المقدس. ولعل الأصوب أن نيقوديموس قد أتى إلى يسوع فى هدأة الليل ، ليقضى معه ساعات هادئة فى تأمل هادىء ، بعيداً عن أوقات النهار الصاخبة التى كانت تتكدس فيها الجموع حول يسوع .

ان مجىء نيقوديموس إلى يسوع ، أن دلّ على شىء فإنما يدل على حيرته وعدم استقراره ، برغم مركزه ومقامه ، . . . انه يدل على أن هناك شيئا ينقصه وهو يفتقر إليه أشد الافتقار . لقد جاء بقلب مثقل إلى يسوع ، فى قلب الظلام ، حتى يشرق عليه النهار ، فى اشراق وجه المسيح .

الرجل الذى جاء ليلا (تابع)

(يوحنا ٣ : ١ — ٦)

حينما يسجل البشير يوحنا حديثاً يدور بين يسوع ، وبين إنسان يأتى إليه مستفسراً عن أمر من الأمور ، نرى السيد يتبع نظاماً خاصا . وهذا النظام نلمسه بوضوح ، فى حديثه مع نيقوديموس . فى البداية نرى الفريسى يتقدم متسائلا عن شىء (عدد ٢) فاذا بيسوع يجيبه جواباً غامضاً يعسر فهمه (عدد ٣) ويعلن ذلك الإنسان بأنه لا يستطيع أن يفهم شيئاً (عدد ٤) . ثم يتبع هذا حديث من السيد يؤيده شرح . انها الطريقة التى يتقدم بها يسوع لاجتذاب اهتمام الإنسان ، ودفعه للتفكير ، والاكتشاف والاستنباط .

وحينما التقى معلم اليهود بيسوع ، ابتدره بالقول ، بأن المعجزات والآيات، التى تقدم بها ، قد تركت أثرها البالغ عليه ، وجعلته يوقن برسالته الإلهيـة . وجاء جواب يسوع بأن الأمور الأكثر أهمية ، ليست المعجـــزات ، ولا الآيات . بل تغيير حياة الإنسان الباطنية : وهو مايعبَّر عنه بالميـلاد الجديد .

وحينما قال يسوع ، ينبغى أن تولدوا من فوق ، أبدى نيقوديموس دهشته ولم يفهم شيئا . ويبدو أن عدم فهمه لجواب المسيح ، مصدره الكلمة اليونانية « أنوثن » التى ترجمت فى النص العربى « من فوق » والتى وردت فى الترجمة الإنـكليزية « ثانية » . وهذه الـكلمة تتضمن معانى ثلاثاً فى الأصلى اليونانى « ا » فهى يمكن أن تعنى ، جذريا . . من الأصـل . . بالـكلية . «ب» وهى قد تعنى ثانية ، أو للمرة الثانية . « ج » وهى تعنى أيضاً من فوق، أى من السماء من الله . هذه المعانى كلها متضمنة فى الـكلمة اليونانيـة الواحدة ، ولـكننا لا نستطيع أن نجد كلمة واحدة فى لغتنا العربية، تشمل كل هذه المعانى. إن الولادة الثانية هى حدوث تغيير جذرى فى أعماق الإنسان ، يبدو وكأنه الولادة من جديد . انه اختبار تجتازه نفس الإنسان ، فيه يوقن تماماً بأن كل شىء قد أصبح جديداً ، وأنه ولد ثانية . وعملية الخلق الجديد ، أو الولادة الجديدة ، لا تأتى عن طريق مجهود بشرى ، لأنها وليدة نعمة الله ، وقوة الله . ومن سياق القصة نرى أن نيقوديموس لم يفهم من الـكلمة التى أجابه بهـا السيد ، إلا معنى الولادة ثانية ، فى حرفيتها الفجة . فـكيف يمكن أن يدخل الإنسان بطن أمه ثانية ويولد وهو قد بلغ من الـكبر عتياً ؟ لـكن هذا الاعتراض ، كان يحوى فى جوهره معانى أكثر من ظاهره . ويبدو كأن نيقوديموس قد كشف بهـذه الـكلمات ، عن جوعه القلبى ، وأشواقه الملتهبة ، التى يحسُّ فى يأســه ، أنه لا سبيل لأشباعها . وكأنى به يقول ليسوع : « إنك تتحدث إلى عن الولادة

الجديدة . إنك تتحدث عن ذلك التغيير الأصلى الأساسى الذى ينبغى أن يتم فى حياة الإنسان . وأنا أومن بأن هذا أمر ضرورى للغاية ، ولـكنى أرى بالنسبة لى أنه يستحيل حدوثه. إنى أرغب أن أولد من جديد ، وأشتاق إلى هذا الاختبار ، ولـكن كيف يمكن أن يتغير إنسان شيخ ، قد تأصلت حياته ، ونمت ، على نمط خاص ، وبأسلوب خاص ؟ كيف يمكن لمثل هذا الشيخ أن يتغير بالـكلية ؟ لـكأنك تقول لى ينبغى أن تدخل بطن أمك ثانية وتولد ! لقد كانت لنيقوديموس الرغبة فى التجديد ، ولـكنه كان يشك فى امكانية حدوث هذا الأمر . انه بكلامه هذا يعبر عن المشكلة الأزلية التى تعترض الإنسان : رغبته فى تغيير حياته ، وعدم مقدرته على الوصول إلى هذا الاختبار .

وعقيدة الولادة الجديدة ، نستطيع أن نلمسها كخيط واحد ، ينظم كل أسفار العهد الجديد، فنرى الرسول بطرس يتحدث عن الله الذى ولدنا لرجاء حى (١ بطرس ١ : ٣) .

وفى موضع آخر يتحدث عن الولادة ثانيـة ، ليس من زرع يفنى ، بل مما لا يفنى (١ بطرس ١ : ٢٢ — ٢٣) . والرسول يعقوب ، يتحدث عن الله الذى ولدنا بكلمة الحق (يعقوب ١ : ٨) . أما الرسول بولس ، فيتحدث فى رسالته إلى تيطس ، عن غسل الميـلاد الثانى ، وتجديد الروح القـدس (تيطس ٣ : ٥) . وأحيانا يعبر الرسول عن الولادة الجديدة بالموت تتبعـه القيامة أو البعث من جديد . فهو فى رسالته إلى أهل رومية يتحدث عن المسيحى المؤمن ، مائتاً مع المسيح ، ومقاماً معه فى جدة الحياة (رومية ٦ : ١ — ١١) وفى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (٣ : ١ — ٢) يتحدث عن أولئك الذين أتوا حديثاً لحظيرة الإيمان كأطفال فى المسيح « إذاً أن كان أحـد فى المسيح ، فهو خليقة جديدة » (٢ كورنثوس ٥ : ١٧) « لأنه فى المسيح ، ليس

الختان ينفع شيئا، ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة » (غلاطية ٦ : ١٢). فالإنسان الجديد مولود من الله فى البر (أفسس ٤ : ٢٢ — ٢٤).

ومع ذلك فان لم تكن له اختباراته الناضجة ، فهو يحتاج إلى من يعلمه أركان بداءة أقوال الله ، لأنه طفل (عبرانيين ٥ : ١٢ — ١٤) . إن عقيدة الولادة الجديدة تتمشى بين سطور العهد الجديد .

وينبغى ألا يفوتنا أن نعرف ، بأن فكرة الولادة الجديدة لم تكن غريبة على اليهود ، فى زمن المسيح . فلقد كان اليهودى يعرف ماذا تعنيه الولادة الثانية . فحينما كان يأتى دخيل على اليهودية ، ليصبح ضمن حظيرة الإيمان ، كانت مراسيم قبوله تتم بالصلاة ، والكفارة ، والمعمودية . وكانوا يعتبرونه ، كأنما ولد من جديد . يقول الأحبار « إن الدخيل الذى يعتنق اليهودية كالطفل حديث الولادة » . ولقد كان التغيير الذى يحدث فى حياته عظيما بهذا القدر ، حتى أن « خطاياه التى ارتكبها قبل قبوله ، قد أصبحت فى حكم العدم » . أليس هو الآن إنساناً جديداً ؟ بل لقد وصل بهم الخيال إلى حد اعتبار أن الربط الجسدية قد زالت أيضاً ، فهو يستطيع أن يقترن بأمه أو بأخته ، لأن كافة العلاقات الإنسانية قد زالت وانمحت فى هذا الاختبار الجديد . لقد كانت لليهود الفكرة البدائية عن الميلاد الجديد .

واليونان أيضا كانوا على علم بها . فلقد كانت تسود بين المثقفين وخلاصة القوم ، عقائد وممارسات تدور حول ما يعرف بديانات الأسرار ، وكانت أساس هذه الديانات تدور حول آلام إله ، وموته ، وبعثه من الأموات . وعند قبول عضو جديد ضمن جماعات الأسرار ، كانت تمثل رواية آلام الإله وموته ، وكان يعدون الإنسان الذى يريدون تثبيته فى هذه الأسرار ، بالصوم وقهر الجسد ، وغيرهذه من الممارسات . فإذا أتى الوقت المعين — وكان ذاك يتم

فى ساعات الليل الأخيرة ، رمزاً إلى ظلام الماضى ، واشراق النور الحق ، مع نور النهار – كانوا يقومون بتمثيل مسرحية الآلام تصاحبها الموسيقى الصاخبة والبخور العبق ، وكل ما من شأنه التأثير فى عواطف الإنسان . وبينما كانت تدور فصول المسرحية ، فصلا بعد آخر ، كان الشغل الشاغل ، للشخص المراد تثبيته أن يركز أفكاره فى الأحداث التى تدور أمامه ، حتى يبتلع فى ذات الإله ، ويبتلع الإله فيه ، ويرى نفسه وكأنى به يشارك ذلك الإله، آماله وآلامه وموته وانتصاره ، وحياته الروحية الخالدة . لقد كانت هذه وسائط تتيح ، بحسب معتقدهم،الاتحادالسرى بالإله . ومتى تم ذلك الاتحاد يصبح العضو المكرس فى لغتهم ، مولوداً ثانية .

ولقد كانت إحدى العقائد الأساسية ضمن أسرار هرمس : « لا خلاص بلا تجديد ». ويحدثنا المدعو « أبوليوس » عن اختباره فى ممارسات التثبيت ، أنه « اجتاز الموت الأختيارى». وعن هذا الطريق وصل «إلى الولادة الروحية» فأصبح «وكأنما ولد من جديد». أما ممارسات فريجية فقد كان المكرس فيها يطعم باللبن ، وكأنى به طفل وليد . لقد كان العالم القديم يعرف الكثير عن الميلاد الثانى ، ويتخيله فى ممارساته ، ويتوق أن يصل إليه . وهناك إحدى الممارسات ، كان المكرس فيها ، يقف فى حفرة ، لها طاقة من أعلى ، ويذبح فوقه عجل ، فينفجر الدم الساخن سائلا على رأسه ويستحم بالدم . وبعد أن يغتسل بالدم يصبح مولوداً لطول الأبدية .

لقد كان العالم القديم يحلم بالولادة الجديدة . فحينما أتت المسيحية بهـذا الحق ، ومارسه الكثيرون اختباريا فى حياتهم ، كان هذا ما يشتهيه العـالم ، وما يبحث عنه .

وبالنسبة لنا نحن ، ماذا تعنى الولادة الجديدة ؟ العهد الجديد ، وعلى وجه

التحديد ، فى البشارة الرابعة نرى أربعة أفكار عقائدية متقاربة ، يتصل أحدها بالآخر . فهناك عقيدة الميلاد الثانى ، وهناك ملكوت الله. الذى لا يمكن أن يصل إليه إنسان ، أو يحسب ضمن رعويته ، إن لم يولد ثانية . وهناك البنوة لله ، وهناك الحياة الأبدية . والميلاد من جديد هو الطريق الوحيد للوصول لملكوت الله ، وللبنوة لله ، وللحياة الأبديه .

هذه العقيدة ليست وقفاً على البشارة الرابعة فحسب، فإننا نرى ، فى بشارة متى ، نفس الحق العظيم ، بصورة أكثر بساطة : « ما لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد ، لن تدخلوا ملكوت الله (متى ١٨ : ٣) .

الولادة الجديدة (تابع)

(يوحنا ٣ : ١ — ٦)

والآن دعنا نبدأ بفكرة ملكوت الله . تُرى ماذا تعنى ؟

إننا نستطيع أن نجد أفضل تعريف عن ملكوت الله ، فى الصلاة الربانية هناك طلبتان تتصلان إتصالا وثيقاً . . .

ليأت ملكوتك . . .

لتكن مشيئتك . . كما فى السماء ، كذلك على الأرض . .

ولعلّه من خصائص الأسلوب اليهودى ، بصفة عامة، تكرار المعانى مرتين بصيغتين مختلفتين . والصيغة الثانية تكرر ، وتؤكد ، وتوضح ، وتبسط ، الصيغة الأولى . ونظرة عابرة إلى بعض فصول المزامير ، ترينا هذا النظام فى الكتابة الذى يعرف علميا بنظام الموازيات . خذ ما ورد فى المزمور السادس والأربعين ، والعدد السابع :

« رب الجنود معنا . . .

ملجأنا إله يعقوب » .

أو المزمور الحادى والخمسين ، والعدد الثالث .

« لأنى عارفٌ بمعاصى

وخطيتى أمامى دائماً » .

أو المزمور الثالث والعشرين ، والعدد الثانى .

« فى مراعٍ خضر يُربضنى

إلى مياه الراحة يوردنى » .

والآن دعنا نطبقّ هذا المبدأ على هاتين الطلبتين اللتين وردتا ضمن الصلاة الربانية . ان الطلبة الثانية توضح ، وتبسط الطلبة الأولى . على هذا الأساس نستطيع أن نصل إلى تعريف ملكوت الله بالقول : انه مجتمع تتم فيه مشيئة الله على الأرض ، تماماً كما تتم فى السماء ، وكون الإنسان يصبح ضمن دائرة الملكوت ، معناه أن يحيا الحياة التى يُخضع فيها كل شىء ، لإرادة الله ويتقبل تلك الإرادة السامية فى حياته ، بكل خضوع وثقة وتسليم .

ولنأخذ فكرة البنوة لله . والبنوة ، من الجانب الواحد ، أمتياز لا يدانيه أمتياز آخر . فاولئك الذين آمنوا بالله ، قد وهبوا السلطان أن يصيروا أبناء الله . (يوحنا ١ : ١٨) . ولكن جوهر هذه البنوة يكمن فى الطاعة للآب . « فالذى عنده وصاياى ، ويحفظها ، هو الذى يحبنى » (١٤ : ٢١) . ان جوهر البنوة المحبة ، ومحك المحبة الحقيقية الطاعة ، ونحن لا يمكن أن ننادى باننا نحب إنساناً ، ونرتكب الأمور التى تؤلم هذا الحبيب ، وتكسر قلبه . البنوة لله إمتياز عظيم ، ولكننا لن ندخل إليه ، إلا عن طريق الطاعة الكاملة . وهكذا

نصل الآن إلى النتيجة أن البنوة لله ، والدخول فى دائرة ملكوت الله، هما أمر واحد . فالذى يصبح ابنا لله ، أو مواطناً فى ملكوت الله ، هو إنسان سلَّم حياته بالكلية لله ، وتقبل إرادته بكل رضى وخضوع . . .

وماذا عن الحياة الأبدية ؟ ان الحياة الأبدية لاتعنى الحياة التى بلا نهاية وكفى ، انها تعنى ما هو أكثر من الطول . فالحياة التى بلا نهاية ، يمكن أن تكون جحيما بالنسبة لصاحبها . ان فكرة الحيـــاة الأبدية تعنى النوع ، والكيف ، قبل أن تعنى المظهر والكم . ترى ما هو نوع هذه الحياة ؟ ان كان هناك وصف يليق بها ، فهو ليس أصدق من الوصف الذى ارتبط بها : انها حياة الأبد ، أو حياة الأبدى . ولا يمكن أن يوصف بهـذا الوصف . . أيونيوس — إلا واحد وهو الله. فالحياة الأبدية هى من نوع الحياة التى يحياها الواحد الأبدى انها حياة الله عينه . والدخول إلى هذه الحيـاة الأبدية ، هو الدخول إلى ملكية هذا النوع من الحياة ، الذى هو حياة الله . . هو السمو فوق مستوى أباطيل هذه الحياة ، وخيالاتها ، وسرابها ، إلى ذلك الفرح المجيد وذلك السلام المبارك ، اللذين يحيا فيهما الجلال الإلهى . ومن البـديهى أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى هذه الشركة العجيبة ، المتحدة مع الله ، إلا إذا تقدم لله ، بتقدمة القلب المحب ، والنفس الخاشعة المتعبدة ، والإرادة المستسلمة الطيِّعة . . .

هنا نرى مفاهيم ثلاثاً ، متقاربة ، متشابكة ، متفاعلة أحدها مع الآخر . المفهوم الأول ، الدخول فى ملكوت الله، والثانى البنوة لله ، والثالث الحيـاة الأبدية فى الله . وهذه كلها تتوقف على الطاعة الكاملة والإرادة المسلمة له. هنا نأتى إلى فكرة الميلاد الجديد . . فهى الرابط الذى يربط هـذه المفاهيم الثلاث معاً . فمن الواضح أننا من ذواتنا ، وبقدرتنا الشخصية لا نستطيع أن

نقدم لله ، هذه الطاعة الكاملة . ولكن حينما تعمل نعمة الله فينا ، وتمتلك كياننا ، وتغير قلوبنا ، فحينئذ نستطيع أن نقدم لله ، الخشوع ، والتعبد الواجب لجلاله . ان نعمة الله ، فى المسيح يسوع ، هى التى تستطيع أن تحدث هذا التغيير العجيب فى كياننا . فبواسطته نولد ثانية ، وبنعمته نستطيع أن نصل إلى هذا التغيير العجيب المبارك حينما يتربع على عرش قلوبنا وحياتنا . . .

وحينما نصل إلى هذا الأختبار ، يتم فينا القول ، اننا ولدنا من الماء والروح.

أما الماء ، فهو رمز للتطهير والأغتسال . فحينما يمتلك يسوع حياتنا ، ويتسلط على قلوبنا ، فإنه يستطيع أن يغسل بنعمته ، خطايانا القديمة ، ويمحو عنا جرمها ، وعقابها . أما الروح ، فهو مصدر القوة. فحينما نسلم الكل ليسوع ليكون السيد المتربع على العرش ، فإنه لا يغفر إساءات الماضى فحسب ، لأنه لو قام بهذا ، ولا شيء سواه ، لكان خلاصه سلبيا ، ولتعرضنا بين الحين والحين ، للنكسة والسقوط ، ولكنه يدخل إلينا بقوة جديدة تعيننا على الأنتصار على نفوسنا ، وضعفاتنا ، بصورة ما كنا نستطيعها من ذواتنا . ان الماء ، والروح ، هما إشارة للتطهير من الخطية ، والقوة للأنتصار عليها . انهما يرمزان لعمل المسيح المزدوج فى تجديدنا فهو بدم صليبه يمحو الماضى ، وبروحه القدوس يهبنا القوة للأنتصار فى الحاضر ، والمستقبل .

وأخيراً يضع يوحنا فى نهاية هذا الفصل ، ناموساً عظيما ! وهو أن المولود من الجسد جسد هو ، والمولود من الروح هو روح . فالإنسان من ذاته جسدى وقوته تحدها إمكانيات الجسد . . بقوته لا رجاء له إلا الهزيمة ، والانكسار . هذا حق نعرفه اختباريا فى حياتنا ، وهى حقيقة شاملة لاينكرها إنسان ، ولكن جوهر القوة يكمن فى روح الله ، وفى الحياة الجديدة التى يهبنا اياها ، وحينما يسيطر علينا الروح تكون لنا أكثر من الحياة العادية . . . تكون لنا حياة الله فينا . . حياته الرفيعة ، السامية ، الغالية .

ان الولادة الجديدة ، عملية خفية تتم فى الأعماق ، بها نصبح مولودين من فوق . فتتغير حياتنا ، وعاداتنا ، واتجاهاتنا . وكلما إزددنا محبة ليسوع ، وتسليما له ، انضحت فاعلية هذه العملية المباركة ، وأثرها الواضح فى حياتنا . وهكذا نصبح ضمن مواطنى ملكوت الله ، ونصير أولاداً لله ،ونبدأ ، ونحن على الأرض ، فى الحياة الأبدية ، التى هى بعينها حياة الله . .

واجب المعرفة وحق الكلام

« لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّى قُلْتُ لَكَ يَنْبَغِى أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ . الرِّيحُ تَهِبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا ، لٰكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِى ، ولاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ . هٰكَذَا كلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ .

أَجَابَ نِيقُودِيمُوسُ وقَالَ لَهُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا . أَجَابَ يَسُوعُ وقَالَ لَهُ أَنْتَ مُعَلِّمُ إِسْرَائِيلَ ولَسْتَ تَعْلَمُ هَذَا . اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ إِنَّنَا إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ بِمَا نَعْلَمُ وَنَشْهَدُ بِمَا رَأَيْنَا وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَنَا . إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمُ ٱلْأَرْضِيَّاتِ ولَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمُ السَّمَوِيَّاتِ . ولَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ ٱلَّذِى نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ ٱلَّذِى هُوَ فِى السَّمَاءِ » .

(يوحنا ٣ : ٧ ـ ١٣)

هناك نوعان لسوء الفهم ، فهناك سوء الفهم الذى ينجم عن عدم مقدرة الانسان للوصول إلى مستوى فى الفكر ، والأختبار ، يؤهله لتفهم الحق . هنا يقف العجز الطبيعى ، والجهل ، عقبة كأداً فى طريق المعرفة . وحينما نلتقى بإنسان من هذا الطراز ، من واجبنا بذل أقصى الجهد ، لنشرح كل شىء له ، حتى يستطيع أن يستوعب ما نتقدم به إليه ، ولكن هناك نوعاً ثانياً من بنى البشر أصحابه لا يفهمون لأنهم لا يريدون أن يفهموا . انهم لا يبصرون لأنهم يغلقون عيونهم ، ويرفضون أن يبصروا . إنهم يغلقون اذهانهم فى عناد أمام الحق إذا كان ذلك الحق لا يوافق أمزجتهم . . ولقد كان نيقوديموس من هذا النوع . فما كان ينبغى أن يكون تعليم يسوع عن الولادة الجديدة ، غريباً على تفكيره ، فلم يكن هذا التعليم غريباً على كتابات الأنبياء . وهناك على سبيل المثال ، النبى حزقيال ، الذى تحدث مراراً عن القلب الجديد ، الذى ينبغى أن يخلق فى الانسان . « اطرحوا عنكم كل معاصيكم التى عصيتم بها ، وأعملوا لأنفسكم قلبا جديداً ، وروحاً جـــديدة ، فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل ؟ » (١٨ : ٣١) . وفى الاصحاح السادس والثلاثين من نفس السفر : « وأعطيكم قلباً جديداً واجعل روحاً جديدة فى داخلكم ، وانزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيكم قلب لحم » (حزقيال ٣٦ : ٢٦) . وما كان معلم كبير بين اليهود نظير نيقوديموس ، ما كان ممكنا أن تفوته أمثال هذه الأقوال ، التى يكررها يسوع الآن على مسامعه . ولكن ، كما قلنا ، هناك أناس لا يفهمون ، لأنهم لا يريدون أن يفهموا . ان كان واحد يرفض مبدأ الولادة الجديدة ، فهو ولاشك لا يستطيع أن يتقبلها ، وان لم تكن له الرغبة فى نوال هذا التغيير العجيب ، فهو باختياره سيغلق عينيه ، وعقله وقلبه ، أمام القوة المغيرة التى تطرق باب حياته . ان الكثيرين ، حينما يهمس روح الله لقلوبهم بأن الوقت وقت مقبول ، يراوغون ، ويتماحكون بالكلام الباطل . ما أجدرهم أن يقولوا بصراحة لروح

الحق : « اشكرك جداً . انني فى اكتفاء بما أنا فيه ، ولست بحاجة إلى تغيير حياتى ». ولكن لعل نيقوديموس كان صادقا فى ادعائه ، بأنه لا يفهم كيف يتم هذا التغيير . لعله كان يسلم بصحته ، ولكنه لا يعرف كيف يتم فى القلب . ولقد أجابه يسوع جواباً محوره يدور حول كلمة الروح ، وهذه الكلمة فى اليونانية « نوما » تحتمل معنيين : فهى تعنى الروح ، وتعنى أيضا الريح ، تماماً كما فى اللغة العبرية —رواش— فانها تعنى الروح أو الريح . وهكذا جاءجواب يسوع على النحو التالى : « انك ولا شك تسمع الريح ، وتنظر آثارها ، وتلمسها ، ولكنك لا تعلم من أين تأتى ، ولا إلى أين يمتد بها المسير . . . انك لا تعرف كيف تهب الريح ،ولا لأى دافع تندفع ، ولكنك ترى آثارها وتلمس أعمالها . . . انك لا تعرف من أين تأتى العاصفة ، ولا لأى هدف تتجه ولكنك ترى الآثار التى تتركها فى الحقول الجرداء ، والأشجار التى تقتلعها — هناك أمور كثيرة عن الريح لا تفهمها، ولكن أثرها واضح لكل ذى عينين » . ثم يستمر السيد فى القول « هكذا كل من ولد من الروح — إنك لا تعلم كيف يعمل فى داخل الإنسان . ولكنك ترى آثار عمله واضحة فى حياة ذلك الانسان » . ثم يقول : هذه ليست أفكار نظرية ننادى بها ، لأننا نتكلم عن أمور نعرفها حق المعرفة ، أمور نراها بوضوح فى حياة الكثيرين واختبارهم . وكم من كثيرين يستطيعون أن يشهدوا بعمل الروح المغيِّر لكيانهم ، المجدد لقلوبهم ، الذى استطاع أن يخلقهم من جديد . اعتاد أحد المبشرين أن يذكر قصة إنسان سكير تغيرت حياته . ولقد بذل زملاؤه قصارى جهودهم ، ليوضحوا له غباوته فى الإيمان بأمور الدين . قالوا له يوماً ، « إنك ولا شك لا يمكن أن تصدق بأن هناك ما يلقب بالمعجزات .لا يمكن أن تصدق أن المسيح استطاع أن يحول الماء إلى خمر . فكان جوابه لهم ، انني لا أعرف إن كان يسوع قد حول الماء إلى خمر فى يوم من الأيام، أو أنه لم يعمل ذلك . ولكننى

أعرف أنه إستطاع أن يعمل معجزة أعظم فى بيتى . لقد حول الخمر إلى أثاث، وملابس ، وطعام . هذه هى معجزة عمل الروح فى الحياة الجديدة . . .

وهناك أمور كثيرة فى الوجود،لا نعرف أسرارها ولكننا نلمس آثارها. فما أقل عدد الذين يعرفون شيئاً عن أسرار الكهرباء ، أو الراديو، ولكن هل ننكر الفوائد الجليلة التى نجنيها من إستغلال الطاقة الكهربية ، أو الإرسال والأستقبال ، على أمواج الأثير ؟ وهل عـدم معرفة الكثيرين بميكانيكا المحركات ، يمنعهم من إستخدام السيارات ، والانتفاع بفوائدها ؟ على هـذا القياس نحن لا نستطيع أن ندرك كيف يعمل الروح القدس فى تغيير النفس الإنسانية ، ولكن آثار عمل الروح فى حياة الكثيرين لا يمكن أن تنكر . وهذا هو جواب المسيحية الذى لا يمكن أن يدحض،على أولئك الذين يوجهون إليها سهام النقد . فلا يمكن أن ينظر العالم بإستخفاف إلى ديانة وإيمان ،لها مثل هذه القوة لتغيير ابناء بليعال ، إلى أولاد الله الحىّ ..

وهكذا يقول يسوع للزائر المستفسر الذى جاء إليه تحت جنح الظلام : « لقد سهلت لك الطريق ، وقدمت لك كل شىء بطريقة مبسطة ، مستخدماً صوراً من الحياة اليومية التى تحياها ، ومع ذلك لم تفهم هذه الإمور البسيطة. كيف تتوقع أن تدرك الأمور العميقة التى تسمو عن مداركك لو تقدمت بها إليك ، فى عمقها ، وسموها ؟ . . هنا يقدم السيد تحذيراً لكل واحد منا : من السهل علينا أن نجلس فى مجالات البحث ، لنتناول بالنقاش أمراً من الأمور ، ومن اليسير أن نسترخى ونقرأ كتابا دينيا يشرح الحق المسيحى ، بل قد تصل بنا المعرفة إلى الحد أننا نستطيع ، فى سهولة ، أن نناقش عقائد المسيحية الأساسية ، ونؤيدها بالبراهين العقلية ، ولكن ما لم نصل إلى إختبار قوة المسيح فى تغيير حياتنا ،ما لم نرتفع إلى هذا المستوى المبارك،فكل هذه المظاهر باطلة ، لاجدوى

منها . ومن السهل علينا أن نبدأ فى الطريق الخطأ ، لكن نهايته الموت لنا. من السهل أن نتخيل الحق المسيحى ، فى صورة بنود نناقشها، وليس كاختبار حى نختبره . من السهل أن ندور حول الحق المسيحى ، بدلا من أن ندخل إلى مركز الدائرة ، إلى جوهر ذلك الحق . هذه الأمور قد تكون نافعة فى تثقيف أذهاننا ، وصقل مداركنا. لكن الخطر فيها يكمن فى أنها تشبعنا شبعاً كاذبا ، يلهينا عن الطعام الحقيقى . . . انها تبهر عيوننا بالسراب الخادع ، الذى يخدعنا ، ويمنعنا من الإتجاه إلى راحة الأمان . هناك أمور هامة ، ولكن هناك ما هو أهم . المعرفة قد تكون أمراً هاماً ، ولكن الاختبار هدف جوهرى . حينما يحتاج الإنسان إلى اجراء عملية سريعة ... حينما يستلزم الأمر نقله إلى المستشفى، حينما يلزم أن يبدأ الجراح عمله ، فالمريض ليس بحاجة إلى دراسة مستفيضة فى علم تشريح الأنسجة ،أو أثر الكلوروفورم على مركز جهازه العصبى ،أو دورة الأدوية فى جسده حتى يتم له الشفاء ! ان تسعة وتسعين من كل مئة مريض يقبلون بلا جدال ، الأدوية المقدمة لهم ، ويستسلمون فى خضوع لمبضع الجراح . فالمسيح لا يجافى المنطق ، حينما يطلب منا الخضوع بالإيمان ، وقبول عمل النعمة فينا . هناك سر عميق يكمن فى قلب المسيحية ، ولا تستطيع عقولنا القاصرة أن تصل إلى مداه ، أو تستوعبه . وهذا السر هو سر الفداء . بقيت لنا كلمة عن الآية الأخيرة التى وردت فى نهاية هذا الفصل .

ولقد اعتاد البشير يوحنا ، فى نهاية أى حديث يرد على لسان يسوع ، أن يختم ذلك الحديث بتعليق خاص منه . وهنا نراه يتبع هذه القاعدة . على انه من الصعوبة بمكان أن نعرف متى ينتهى كلام يسوع ، ومتى يبدأ تعليق البشير . ولكن يبدو لنا، أن الآية الأخيرة هنا،هى كلمات يوحنا نفسه . ولعل سؤالا كان يتردد فى خاطره تقدم به أحدهم حين كتب هذه الكلمات، :«ماهو الضمان الذى لنا ، على صدق كلمات يسوع ؟ كيف بنا أن نصدق كل ما يقوله

لنا ؟» .. وهنا يجيب البشير على هذا السؤال بالقول : « ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذى نزل من السماء ، ابن الإنسان الذى هو فى السماء ». لقد أتى يسوع من السماء ليخبرنا بالحق الإلهى . وبعد أن نزل من عليــاء سمائه ليعيش فى مستوى البشر ، ويموت من أجل البشر ، ارتفع عن يمين العظمة فى الأعالى . ان حجة يوحنا هنا ، أن يسوع له الحق بأن ينادى بحق الله ، لأنه واحد مع الله الآب ، فهو الذى أتى من السماء ، ليعلن أسرار السماء للأرض. لذلك فإن كل مايقوله يسوع هو الحق الإلهى بعينه . ان حق يسوع فى الحديث ينبع من كينونة الإبن الأزلى ، ومن ذاتيته . فهو واحد مع الآب، سواء أ كان الأقنوم العلوى المجرد فى المجد ، أم الأقنوم المتجسد على الأرض .

المسيح المرفوع

« وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى ٱلْحَيَّةَ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ هَـكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ . لِـكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَـكُونُ لَهُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلْأَبَدِيَّةُ » .

(يوحنا ٣ : ١٤ ـ ١٥)

هنا يعود البشير إلى كلمات يسوع نفسه. وفيه نرى السيد ينتقل من الحديث النظرى ، إلى تطبيق هذا الحديث على نفسه ، متخذا مثالا رمزيا من حادثة عجيبة حدثت فى القديم ، وسطرت فى سفر العدد (٢١ : ٤ — ٩) . فحينما تذمر بنو إسرائيل على الله ، فى أثناء رحيلهم فى البرية ، وأظهروا ندمهم على مغادرة أرض مصر ، أرسل الله عليهم الحيات المحرقة ، فاهلـكت الـكثيرين . وعندها صرخوا إلى الله ، معترفين بخطيتهم ، طالبين الرحمة منه . ودبّر الله

لهم طريقة عجيبة للخلاص ، فأمر موسى بأن يصنع تمثالاً لحيـــة ، من نحاس ، ويرفعه على سارية ، فوق أكمة مرتفعة ، فى وسط المحلة ، فكل من تطلع إلى هذا الرمز ، بنظرة الإيمان ، نال الشفاء من السم الرهيب . وهذه الحادثة كان لها أثرها الكبير فى نفسية الشعب ، وتفكيرهم ، مما دفعهم فى فرصة لاحقة ، إلى إقامة الحية النحاسية ، كصنم معبود ، وتقديم السجود والعبادة لها ، وذلك فى أيام حزقيا ، الأمر الذى دفع للملك إلى احراقها (٢ ملوك١٨ : ٤) ولقد حيرت الحية النحاسية ألباب المفكرين من أحبار اليهود ، وعلى الأخص بسبب الوصية الثانية « لاتصنع لك تمثالا منحوتا ، ولاصورة ما مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض » (خروج ٢٠ : ٤) . ولكنهم فسروا الأمر على هذا النحو قالوا : « ان الحية النحاسية لا قوة فيها لتهب الشفاء ، أو تمنع الضرر . لقد نظر الشعب إليها ، حينما رفعها موسى على السارية . وآمنوا بذاك الذى أصدر أمره إلى عبده بأن يقوم بمثل هذا العمل ، لأن الله هو مصدر الشفاء ، وهو مصدر كل عطية صالحة . لقد كانت الحية رمزاً ، وعلامة ، وأصبعاً يشيرُ إلى الإسرائيليين ، بأن يوجهـــوا أفـكارهم لله . وحين اتجهت أفـكارهم بالإيمان إلى مصدر الشفاء ، تنازل الرب ، وأبعد عنهم كل بلاء .

وهنا نرى السيد يتخذ من هذه الحادثة مثالاً لعمله العجيب فى شفاء سموم الخطية ، حينما يُرفع على سارية الصليب . انه يقول لنيقوديموس : « لقد رُفعت الحية فى القديم ، أمام عيون المحتضرين ، الذين سرى فيهم السم القاتل . وكل من تطلع إليها بنظرة الإيمان نال الشفاء . وهكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان على خشبة الصليب ، وكل من يتطلع إليه بنظرة الإيمان ، واضعاً ثقته الكاملة فيه ، سينال الشفاء من ضربة الخطية ، والخلاص من لعنتها ، وأبديتها » . والفعل « رفع » ، « يرفع » هنا ، فياض ، قوى ، يستدعى منا لحظة للتأمل .

فهو بالنسبة ليسوع يحتمل معنيين: إنه يشير إلى رفعه على خشبة الصليب، وهو يُستخدم أيضاً للدلالة على إرتفاعه للمجد، عند صعوده إلى السماء من قمة جبل الزيتون . وكلا من المعنيين نجد له أمثلة فى العهد الجديد ، فى الأصحاح الثامن ، والثانى عشر من نفس البشارة ، ونراه يشير إلى الصليب . (يوحنا ٨ : ٢٨ ، ١٢ : ٣٢) ، وفى سفر الأعمال (٢ : ٣٣) ، كما فى رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبى (٢ : ٩) ، يشير إلى إرتفاع يسوع فى المجد . لقد كان هناك إرتفاعان فى حياة المسيح : إرتفاع الصليب ، وإرتفاع المجد . وكل من الإرتفاعين ، مرتبط الواحد بالآخر تمام الإرتباط ، ومتوقف عليه . فما كان ممكنا أن يحدث الواحد ، إلا عن طريق الآخر . . ما كان ممكناأن يصل يسوع إلى رفعة المجد إلا عن طريق رفعه على الصليب . . فلو رفض يسوع صليبه ، لو تجنبه ولم يقبله . . . لو رفض الكأس المرة التى قدمها الآب له ، وما كان أيسر ذلك بالنسبة لسلطانه الإلهى المعجزى ، ماوصل — نقولها جسديا — إلى المجد العظيم الذى ارتفع إليه ، وما استطاع أن يجذب الجماهير الغفيرة ، خلال العصور والأجيال ، التى جذبها صليبه ، وخلاصه الذى أكمله على خشبة العار .

ونحن نقول بكل اتضاع ، لا سبيل لنا للوصول إلى التاج ، إلاّ عن طريق الصليب ، فلو اخترنا الطريق السهل ، ورفضنا الصليب المقدم لنـا . . . لو رفضنا طريق الألم ، ولم نقبل أن نحنى أكتافنا لحمل الصليب ، فإننا، كنتيجة حتمية ، لابد وأن نخسر أكليل المجد . . .

فى هذه الآية تجابهنا إثنتان من الـكلمات العظيمة التى تذخر بها هذه البشارة الفريدة . . ومع اننا لا نستطيع أن نصل إلى عمق أعماق هاتين الـكلمتين، لأن كلا منهما تعنى أكثر مما نفتكر، إلا إننا سنحاول أن نعى شيئا من معانيهما العميقة . . . الـكلمة الأولى ، « يُؤمن به » ، والثانية « الحياة الأبدية » .

أولا : الإيمان بالمسيح ، ماذا يعنى ؟ إنه يعنى على الأقل أموراً ثلاثة . .

١ — فهو يعنى أن نؤمن من عمق القلب ، بذات الله ، وأعماله ، وصفاته كما أعلن لنا فى شخص المسيح ، وأعماله ، وصفاته . . . أن نؤمن بأن الله يحب البشر ، وأنه يقدم غفرانه للبشر ، وأنه لا يشاء أن يهلك البشر ، لأنه قدم أبنه الوحيد لفداء البشر ، أن نؤمن بأن الله هو المحبة المجسّمة . لقد كان اليهود يرون فى الله قبل كل شيء إله الناموس ، الذى قدّم ناموسه للبشرية . فإذا زاغ الناس بعيداً ، وكسروا بنود هذا الناموس ، وتعدوا على شريعة الله ، كان نصيبهم العقاب الشديد . لذلك لم يكن من السهل عليهم أن يبصروا الله فى هذا النور الجديد الذى أشرقت به المسيحية . لقد كان اليهودى ينظر إلى الله فى صورة القاضى ، الديان العادل ، ويرى الإنسان مجرماً ، زنيماً ، فى قفص الاتهام . كان اليهودى يرى الله إلهاً يأمر ، ويأخذ ... يأمر بالطاعة العمياء ، ويتطلب من الإنسان الذبائح ، والمحرقات . فإذا شاء الإنسان أن يتراءى فى محضر الله ، فعليه أن يدفع ثمن المثول لديه . هذه هى النظرة العامة الشاملة ، بالرغم من لمحات خاطفة عن محبة الله تغنّى بها بعض الأنبياء القدامى . لذلك فقد كان من العسير على اليهودى ، أن يتصور الله أباً مُحباً ، يتوقع رجوع أبنائه إليه ، بدلاً من ديان عادل ، أو مسخرٍ قاسٍ . ولقد استلزم الأمر ، حياة المسيح وموته ، ليُظهر للانسانية محبة الله . وما لم نصل إلى هذا الحق ، ونؤمن به من عمق القلب ، فلن يكون لنا نصيب مع أتباع المسيح . .

٢ — هذه هى صورة الله ، كما قدمها إلينا يسوع ، فى ذاته ، وصفاته ، وأعماله ، وكلماته . ولكن ما هو الضمان الذى يؤكد لنا أن الصورة التى تقدم بها المسيح إلينا ، هى صورة حقيقية صادقة ؟ كيف نوقن بأن يسوع كان يعنى ما يقوله ؟ هنا نأتى الى البند الثانى من بنود هذا الإيمان العظيم ، وهو أن يسوع

المسيح ، هو ابن الله الحي • ينبغي أن نوقن أن في يسوع قد حلّ كل ملء اللاهوت جسديا • • فيه حلّ فكر الله الأزلي • • وعنده وحده معرفة الله ، لأنه أقرب الكل إلى الله ، فهو الواحد مع الله ، لذلك ليس مثله يستطيع أن يخبرنا بحق الله ، وحقيقته • ينبغي أن نؤمن بكل ما قاله يسوع ، لأنه الابن الأزلي ، الواحد مع الله • •

٣ — وينبغي أن نؤمن أيضاً بأن الله هو الآب المحب. ونحن نؤمن ، بأن يسوع هو ابن الله ، لذلك فكل مايقوله الابن الأزلي عن الآب ، هو حق وصدق .

٤ — ولكن هناك بنداً ثالثاً من بنود الإيمان . اننا نؤمن بأن الله هو أب محب . ونؤمن بأن هذا حق ، لأننا نثق بأن يسوع ليس سوى ابن الله الوحيد ، لذلك فكل ما يقوله عن الله حق وصدق . هنا يأتي العنصر الثالث من عناصر الإيمان . فإن كنا نؤمن بكل هذا ، علينا أن نجسم إيماننا في طاعة عملية . حينما يتحدث علينا أن نفعل ، وحينما يأمر علينا أن نطيع ، وحالما يوصينا بأن نلقي أنفسنا ، بلا تحفظ ، على رحمته ، وعنايته ، ينبغي ألاّ نتردد . ينبغي أن نقوم بكل واجب في الحياة ، في طاعة مسلِّمة لإرادة الله .

هذا هو معنى الإيمان بالله ، انه يتضمن عناصر ثلاثة : إيمان بأن الله هو الآب المحب ، وثقة كاملة بأنه يسوع هو ابن الله الوحيد ، وهو لذلك يستطيع بأن يخبرنا بحقيقة الله ، وحقيقة الحياة ، ثم طاعة كاملة لوصايا يسوع ... في حياة عملية تؤكد ثقتنا الكاملة في أن كل ما ينادي به يسوع حق وصدق .

ثانيا : أما الكلمة الثانية التي توحي لنا معاني عظيمة فهي « الحياة الأبدية » . ولقد أشرنا إلى أن الحياة الأبدية ، هي حياة الله نفسه ، لأن الله هو الوحيد الذي يُمكن أن نطلق على جلاله بأنه الأبدي . ولكن لعل الواحد منا يتساءل

ماذا تعنى هذه الحياة ؟ وماهى مظاهرها ؟ وإذا حصلنا عليها ، ماذا نحصل عليه؟
انالحياة الأبدية ، تغيّر كل مظاهر الحياة ، لأنها تغيّر جوهرها وينابيعها . انها
تصبغ كل شيء بصبغة جديدة رائعة ، وتسيطر على كل علاقاتنا بروح السلام .

١ — فهى تهبنا سلاماً مع الله . انه يُصبح بالنسبة لنا الآب المحب
وليس الجبار المسيطر ، المستعبد ، أو الديان الرهيب القاضى . ومادمنا قدتصالحنا
مع الله فى صليب المسيح ، فى نظرتنا الواثقة إلى ذاك الذى رفع على خشبة العار ،
فلا حاجز يفصل بيننا ، وبين الله ، ولاغيمة غضب تُسوِّد سماءنا . .

٢ — وهى تهبنا روح المسالمة للآخرين . فإذا كنا قد نلنا الغفران عن كل
ذنوبنا ، ينبغى بالتالى أن نغفر للآخرين أخطاءهم وزلاتهم من نحونا . ان كان
الرب قد سامحنا بالكثير ، ما أحرانا أن نُسامح بالقليل . ان كوننا نؤمن بأننا
قد أصبحنا أولاداً لله ، أعضاء فى الأسرة الإلهية المباركة ، يهبنا نظرة جديدة
لأخوتنا ، ويعيننا على تحمل أخطاءهم ويربطنا جميعاً برباط الحب المبارك .

٣ — بل انها تهبنا سلاماً مع الحياة بكل ما يعتريها من أحداث وتقلبات . فإن
كان الله هو الآب المحب ، فهو يعمل كل شيء لخير أبنائه . نحن نثق بأبوته
الرحيمة ، فانه حتى لو تقدم إلينا بكأس المر ، فإننا نتناولها من يده بالشكر .
فلا يمكن أن يسمح الآب بأن تسقط دمعة من عيون أبنائه ، بلا هدف ، أو
قصد . وقدلا نفهم كل شيء فى البداية ، ولكن هذه الصلة الفريدة بالله ،
ستجعلنا نُقبل على الحياة بصدر رحب .

٤ — بل انها تهبنا سلاماً مع أنفسنا . ان أخشى ما يخشاه الإنسان ، قبل
كل شيء ، ذاته . فهو يعرف ضعفه ، وهو يعرف قوة التجربة ، وهو يعرف
ما تتطلبه الحياة من جهد ، وإمكانيات . ولكنه أصبح الآن يرى أنه لا يسير
بمفرده ولا يجابه المتاعب بقوته الذاتية ، لأن الله معه . فليس هو الذى يحيا هذه

الحياة ، لأن المسيح يحيا فيه. إن هذا السلام العميق ، أساسه القوة الإلهية لمجابهة الذات ، ومجابهة مطاليب الحياة . .

٥ ـ بل ان هذه الحياة الأبدية ، تعطينا جرعة من الينبوع الحلو الذى سنتمتع به فى الأمجاد . . . ثمرة من الثمار المباركة التى سنتمتع بها فى عدن السماوية . فما هذا السلام الذى نتمتع به هنا ، إلا عربون السلام الأعظم هناك ، وما لحظات شركة التى تشرق علينا هنا ، إلا شعاعات من النور المشرق هناك . ان الحياة الأبدية ، تعطينا رجاء فى المسير . . . هدفا فى رحلة الحياة . . . غاية فى طريق السفر . انها تبدأ معنا حياة أمجاد هنا، تكمل فى أمجاد أعظم هناك .

محبـــة الله

« لِأَنَّهُ هَـكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِـكَيْ لاَيَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَـكُونُ لَهُ الْحَيوةُ الْأَبَدِيَّةُ » .

(يوحنا ٣ : ١٦)

هناك آيات عظيمة ، فى حياة كثيرين من العظماء ، لـكن هذه الآية هى آية كل إنسان . هذا أعظم آيات الـكتاب ، بل هنا خلاصة الأنجيل كله .

١ ـ فهى تخبرنا قبل كل شىء ، ان مصدر الخلاص هو الله الآب . إن كثيرين يخطئون فى تصورهم النعمة للسيحية ، وكأنى بها محاولة لرشوة الله ، وتخفيف حدة غضبه علينا . . . كثيرون يتصورون الله الآب ، إلهاً منتقماً ، وساخطاً، ديانا ، والابن يتقدم إليه بروح المحبة واللطف ،شفيعاً عن الإنسانية المجرمة ، محاولاً أن يخفف من غضبه . كثيرون من الوعاظ يجملون السامعين

يعتقدون بأن يسوع بصليبه ، وكفارته ، قد أطفأ نار غضب الله، وحوّل اتجاهه من الديئونة إلى العفو ، والسماح — ولكن الآية تخبرنا ، ان الله هو الذى بدأ الخطوة الأولى فى طريق المحبة . فهو الذى أرسل الابن الحبيب ، وأرسله لأنه يحب البشر . فوراء كل شىء ، تستتر محبة الله .

٢ — وهى تخبرنا أيضاً بأن جوهر ذات الله هو المحبة . ومن السهل أن نتصور الله ، وهو ينظر إلى خطية الإنسان ، وتمرده ، وعصيانه ، ويقول : « سأذلّه . . سأحطمه . . سأسلط ضرباتى عليه ، حتى يفيق من غفلته ، ويعود إلىّ » . من اليسير أن نتصور الله ، وهو يتطلب خضوع الإنسان وطاعته ، وخشوعه ، حتى يُرضى فى كيانه صفة التسلط . ولكن الحقيقة العظمى المثيرة ، التى تهزنا فى هذه الآية ، هى أن الله يعمل، لا لإثبات سيطرته ، بل لخدمتنا . . . لا لمجده ، بل لخلاصنا . ان الله لا يسعى لإذلال العالم . . ليجعله يسجد له فى تذلل ، بل يعمل لخدمة العالم ، ليشبع رغبات قلبه المحب . ان الله ليس دكتاتوراً قاسياً يتطلب من عبيده الطاعة العمياء ، بل أنه الآب الطيب ، كبير القلب ، الذى لا يهدأ له بال ، حتى يعود إليه الابن الضالّ . إن الله لا يحطم كبرياء الإنسان، ليدفعه للخضوع ، بل انه يتقدم إليه بعواطف الأبوة ، وتملقات المحبة ، حتى يعود إلى نفسه ، وإلى إلهه .

٣ — وهى تعلن لنا بالتالى ، أبعاد محبة الله . فالعالم كله هو دائرة محبته . ليس أمة واحدة، وبقية الأمم لا . . ليس الناس الطيبون، والأشرار لا . . . ليس الذين يحبونه ، والذين يبغضونه لا . إن الله يحب الجميع ، الذين لا صورة لهم ، ولا جمال فى حياتهم ، ولا شىء فيهم يحب نظير أولئك الذين سموا فى حياتهم ، وآدابهم . . الذين لا يذكرون اسمه على الاطلاق ، نظير الذين يبادلونه حباً بحب . . . الذين يهربون من محبته ، والذين يستريحون على صدره — كل هؤلاء ،

وأولئك، تضمهم الدائرة الواسعة ،دائرة محبة الله. كما يقول القديس أوغسطينوس: إن الله يحب كل واحد منا ، وكأنه لا يوجد فى الوجود كله سوى هذا الإنسان الواحد . . .

المحبة ، والدينونة

« لِأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ . الَّذِى يُؤْمِنُ بِهِ لَا يُدَانُ وَالَّذِى لَا يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ . وَهٰذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً . لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّآتِ يُبْغِضُ النُّورَ وَلَا يَأْتِى إِلَى النُّورِ لِئَلَّا تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ . وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبِلُ إِلَى النُّورِ لِكَىْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللهِ مَعْمُولَةٌ » .

(يوحنا ٣ : ١٧ ـ ٢١)

نأتى هنا إلى إحدى المناقضات الظاهرية التى تذخر بها البشارة الرابعة : المحبة والدينونة . لقد كنا نتأمل فى محبة الله ، وها نحن الآن نواجه عدالته ، ودينونته . ولقد سمعنا البشير يخبرنا بأن الله أحب العالم ، بهذا القدر، حتى أرسل إبنه لفداء العالم . وفى فرصة لاحقة سوف نستمع إلى قول السيد : « لدينونة أتيت إلى هذا العالم » (يوحنـــا ٩ : ٣٩). ترى كيف نستطيع أن نوفق بين الفكرين ؟

نقول : اننا نستطيع أن نتقدم إلى إنسان ما ، بروح المحبة ، ونعرض عليه

أن يجتاز معنا اختباراً ، نعتقد أنه سيجلب لنفسه السرور والسعادة ، فإذا بهذا الاختبار عينه الذى كان مصدر سعادتنا ، وهنائنا ، يصبح ديّـانا له ، ويحكم عليه. لنفرض أن واحداً منا يهوى الاستماع إلى السمفونيات الخالدة ، وان لذلك الواحد صديقاً عزيزاً ، لـكنه لا يعرف شيئا عن الموسيقى . ولنفرض أيضا أن ذلك الإنسان ، اكراماً لصديقه ، دعا ذلك الصديق لقضاء سهرة معه ، للاستماع إلى قطعة موسيقية رائعة تهتز لها المشاعر والقلوب . إن الهدف كله ،هو إسعاد ذلك الصديق ، واشتراكه مع الذى قام بدعوته ، فى الاستماع ، والاستمتاع . فى البداية يحاول ذلك الصديق ، أن يجلس فى هدوء فى مـكانه ، فى قاعة الاحتفالات ، متظاهرا بالشغف واللذة . شيئا فشيئا تبدو عليه مظاهر الضجر فيتململ فى مكانه ، حتى إذا وصل الأمر إلى منتهاه ، هب واقفاً ،ملتمساً أى عذر ، وغادر المـكان على عجل . إن الاختبار الذى اجتازه ، الذى كان من المفروض أن يجلب له السعادة ، قد أصبح دائنا له ، وحكماً عليه وهذا يحدث على الدوام حينما يجابه الإنسان بأمر عظيم ، أو فن رفيع . فقد تأخذ إنسانا لمتحف كبير من متاحف الفن ، ليرى بعض الأعمال الخالدة التى تبهر عيون الناظرين ،أو قد نصطحب إنسانا إلى أحد أمكنة العبادة ، ليستمع إلى واعظ ، تتـكدس الجماهير لسماعه ، أو قد نقدم له كتابا يسمو بالنفس ،أعيد طبعه عشرات المرات ، أو قد نصحبه فى نزهة خلوية ليستمتع بمنظر رائع من المناظر الطبيعية . ان تصرف ذلك الإنسان ، تجاه هذه الأمور اما أن يكون حكماً له ، أو حكماً عليه .فإن لم يكتشف روعة ، ولم يتأثر بجمال ، ولم تهتز مشاعره إزاء هذه ، فهناك غيمة سوداء ، تسود سماء نفسه . ولقّبْ هذه الغيمة بأى لقب تشاء ، سمها جهلاً ، أو جموداً ، او حزناً دفينا . المهم أن اجتيازه هذا الاختبار ، قد حكم عليه ، وكشف حقيقة نفسه . يقال ان زائراً قام بزيارة معرض كبير من معارض الفن، يضم نخبات من روائع الرسامين . وكانت تعرض هنـاك قطع خالدة ، آية فى

الإبداع ، ولا تقدر بثمن . وأمام كل واحدة منها ، كان يقف الدليل ، شارحا للزائر تاريخها ، ونقاط الروعة فيها . حتى ما إذا انتهى الزائر من جولته، التفت إلى محدثه ، وقال : « إنني لا أهتم بواحدة من هذه الصور البالية التي تعرضونها » وجاء جواب الرجل في هدوء : « أحب أن أذكر يا سيدى أن هذه التحف قد اجتازت الامتحان منذ أمد طويل . وها هي تمثل هنا ليحكم عليها ، بل لتحكم هي على من يتأملها » . إن تصرف هـذا الإنسان ، يحكم عليه ويظهر جهله وعماه .

وهكذا الأمر مع يسوع . فحينما يجابه المسيح إنسانا ما ، فإن واحداً من أمرين لابد وأن يحدث في حياة ذلك الإنسان ، فإما أن يستجيب لعمل النعمة في حياته ، ويهتز قلبه أمام عظمة المسيح ، وهو في هذه الحالة لن يكون بعيداً عن ملكوت الله ، وأما أن يتقسى قلبه ، وتتحجر إرادته ، فيدينه عناده ، ورفضه ، ويحكم عليه تصرفه . لقد أرسل الله ابنه إلى العالم بروح المحبة ، ليخلص به العالم ولكن مصدر الخلاص ، يصبح مصـدر دينونة ، وحجر الزاوية في بناء الحياة ، قد يتحول إلى صخرة صدمة وعثرة . إن الله في هذه الحالة ، لم يتقدم لدينونة الإنسان ، لقد اتجه إليه بروح الحب . ولكن ذلك الانسان هو الذى حكم على نفسه بنفسه . هو الذى دان نفسه بتصرفه .

فالإنسان الذى يتصرف بعداوة تجاه يسوع ، قد حكم على نفسه بأنه أحب الظلمة أكثر من النور . ان هناك عنصراً رهيبـا ، في كيان النور المشرق ، هو أنه يدين ، عن غير قصد جحافل الظلام ، وحينما يشع النور على الإنسان ، فإنه يكشف خبيثات النفس . لقد كان ألسبيادس ، الشاب الأثيني المدلل ، صديقا لسقراط ، ولكنه اعتاد في كل مرة يلتقى فيها بأستاذه ، أن يصرخ في وجهه قائلا : « سقراط ، إنى أبغضك ، لأننى في كل مرة ألتقى فيها

بك ، تجعلنى أرى نفسى على حقيقتها » . إن الذى يسعى فى الظلام ، يكره اشراق النور عليه ، ولـكن الذى يسعى فى طريق الـكرامة ، لن يخاف النور . يقال ان مهندساً تقدم إلى المفـكر أفلاطون ، وعرض عليه أن يبنى له بيتا ، تتـكاثف الظلمة فيه ، بحيث لا يُرى أى شىء بداخل حجراته . وكان رد افلاطون عليه : « بل دعنى أضاعف لك المبلـغ ، لتبنى لى بيتا ، يستطيع كل إنسان أن يُبصر ما يحوى بداخله » . ان صانع الاثم ، هو الذى لا يريد أن يبصر حقيقة نفسه ، ولا يريد أن يبصره إنسان . مثل هذا الإنسان لا بد وأن يكره المسيح ، لأن المسيح يكشف له بنوره ، عن حقيقة ظلام قلبه ، وهذا آخر مايتمنى رؤيته . فهو يحب الظلمة الدفينة أكثر من النور المُعلنْ . .

إن تفاعل الانسان ، تجاه يسوع المسيح ، هو الذى يكشف حقيقته ... هو الذى يعرى كيانه ويظهره كما هو . فإن كان يتأثر بمحبة يسوع ، حتى ولو كان تأثره وقتيا ، فهناك رجاء له . ولـكن إن لم يشاهد فى المسيح أى جمال ، ولم يتأثر بما عمل له ، فقد دان نفسه . إن ذاك الذى أتى إليه برسالة الحب ، قد أصبح له سبب دينونة رهيبة . . .

إنسان لا يعرف الحسد

« وَبَعْدَ هذَا جَاءَ يَسُوعُ وَتَلَامِيذُهُ إِلَى أَرْضِ ٱلْيَهُودِيَّةِ وَمَكَثَ مَعَهُمْ هُنَاكَ وَكَانَ يُعَمِّدُ . وَكَانَ يُوحَنَّا أَيْضًا يُعَمِّدُ فِي عَيْنِ نُونٍ بِقُرْبِ سَالِيمَ لِأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ وَكَانُوا يَأْتُونَ وَيَعْتَمِدُونَ . لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُوحَنَّا قَدْ أُلْقِيَ بَعْدُ فِي السِّجْنِ .

وحَدَثَتْ مُبَاحَثَةٌ مِنْ تلاَمِيذِ يُوحَنَّا مَعَ يَهُودٍ مِنْ جِهَةِ التَّطْهِيرِ فَجَاءُوا إِلَى يُوحَنَّا وقَالُوا لَهُ يَا مُعَلِّمُ هُوذَا الَّذِى كَانَ مَعَكَ فِى عَبْرِ الأُرْدُنِّ الَّذِى أَنْتَ قَدْ شَهِدْتَ لَهُ هُوَ يُعَمِّدُ والجَمِيعُ يَأْتُونَ إِلَيْهِ . أَجَابَ يوحَنَّا وقالَ لاَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ السَّمَاءِ . أَنْتُمْ أَنفُسُكُمْ تَشْهَدُونَ لِي أَنِّى قُلْتُ لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ بَلْ إِنِّى مُرْسَلٌ أَمَامَهُ . مَنْ لَهُ الْعَرُوسُ فَهُوَ الْعَرِيسُ . وأَمَّا صَدِيقُ الْعَرِيسِ الَّذِى يَقِفُ ويَسْمَعُهُ فَيَفْرَحُ فَرَحًا مِنْ أَجْلِ صَوْتِ الْعَرِيسِ . إِذًا فَرَحِي هَذَا قَدْ كَمَلَ . يَنْبَغِي أَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ وأَنِّى أَنَا أَنْقُصُ »

(يوحنا ٣ : ٢٢ — ٣٠)

سبق وعرفنا ، أن أحد أهداف يوحنا من كتابة البشارة الرابعة ، هو تأكيد مقام المعمدان ، كسابق للمسيح ، وليس أكثر من ذلك . فلقد كانت هناك فئات فى فجر المسيحية لا تعرف غير معمودية يوحنا للتوبة ، ولا ترى فيه إلا السيد ، والمعلم . ولذلك كتب البشير الرابع بشارته ليؤكد أنه مهما سما مقام المعمدان — وقد كان له مركزه الرفيع — فإنه لن يتطاول إلى مقام رب المجد هناك مكان أعلى يسمو فوق الكل، وهذا المكان هو ليسوع وحده بل أن المعمدان نفسه نادى ، بأن مركزه لايزيد عن مركز ياور الملك ، الذى يصرخ فى البرية ، مناديا باعداد الطريق أمامه أو « الأشبنين » الذى يقف بجوار العريس ويفيض قلبه فرحاً ، حينما يستمع إلى صوته .

وفى هذه الفقرة التى ستكون محور تأملنا، نستطيع أن نرى اتضاع المعمدان

ونفسه السمحة التى لا تعرف الحسد . فلقد بدأ الناس ينفضون عنه ، متجهين إلى يسوع ، ولعل تلاميذه قد شعروا بالضيق ، فلشد ما كان يؤلمهم أن يروا معلمهم يأخذ الموضع الثانى ، ويختفى فى ظلام النسيان . بينما تسلط الأضواء على معلم جديد ، فتتكدس الجموع زاحفة لاستقباله ، والالتفاف حوله .

ولقد كان ممكنا ، لو كان المعمدان من معدن آخر ، أن تثير أحاديث تلاميذه عوامل الألم والأسى فى نفسه . وكم من موآساة صديق ، يتقدم بها إلينا ، فى وقت الحزن ، والضيق ، تأتى بعكس المقصود ، وتزيد النار اشتعالا ، وتجعلنا نمتلىء بالأسى ، وتزداد سخطا على حظنا العاثر . ولكن المعمدان كان أسمى من ذلك . وهكذا تقدم بالجواب لتلاميذه . وكان جوابه يدور حول نقاط ثلاث .

١ — فلقد أخبرهم أنه شخصيا ما كان يتوقع سوى هذا الأمر . وسبق أن أكد لهم مراراً أن مركزه ليس مركز القائد ، وأنه لا يزيد عن الياور الذى يتقدم الملك . . السابق الذى يعلن قدومه . . البوق الذى يهتف ليعد الناس الطريق — وما أكثر المتاعب الناجمة عن محاولة الكثيرين احتلال المقام الأول . ولكم تختفى متاعب الناس وتتضاءل همومهم ، لو قنع كلٌ منهم ، بالمركز الثانى فى الحياة ، إن الذى يرضى بالنصيب الذى قسمه الله له ، ويقبل من عمق القلب أن يقوم بالدور الذى يريده الله منه بكل رضى وتسليم ، يوفر على نفسه المتاعب والضيقات . وحتى لو كان دورنا ثانويا ، فإن روح الرضى سوف تجلله بالمجد ، وترفعنا إلى مقام الدور الأول فى نظر الله . كما تقول مسز براوننج «جميع الخدمات سواء بسواء ، فى نظر الله » . وكل عمل نقوم به لمجد الله ، هو ولا شك عمل عظيم . .

٢ — ثم قال لهم ان الإنسان لا يمكن أن يأخذ شيئا ، أكثر مما يعطى الله

فإن كان المعلم الجديد يربح اتباعا جداً كل يوم ، وتتكاثر الجموع عليه ، فذلك لأن الله أعطاه هذه النفوس . هناك قصة تروى عن راع أميركي يدعى الدكتور « سبنس » وقد كان راعيا لكنيسة كبيرة . ولكن حدث أن كانت هناك كنيسة أخرى مقابلة ، تقع في الجانب المقابل من الشارع . وقد تولَّى رعاية هذه الكنيسة شاب موهوب . وبمرور الزمن بدأ الأعضاء ينفضون عن الراعي الأول ويتسللون الواحد بعد الآخر ، إلى الكنيسة الجديدة . وفي يوم من أيام الآحاد كان الاجتماع منكمشا جداً بصورة تدعو إلى الدهشة . والتفت الراعي إلى الجماعة الضئيلة وسألهم « أين ذهبت البقية ؟ » . وساد الصمت على الجميع . ولكن أحد الشمامسة قال في خجل : « أعتقد أنهم ذهبوا إلى الكنيسة الثانية للاستماع إلى الراعي الجديد » . وصمت الراعي قليلا ، ثم خطا نازلا من المنبر ، وهو يبتسم ، وقال « حسناً . أعتقد أننا ينبغي أن نتبعهم » . ثم اصطحب جماعته ، وسار في الطريق متجها إلى الكنيسة الثانية . ترى كم من الأحقاد والتحزبات والشقاقات تختفي من حياتنا ، لو عرفنا أن نجاح آخر شيء مرتب من الله ، ولو قبلنا قرار الله في طاعة وتسليم .

٣ — ثم تقدم لهم بصورة حية رمزية ، يعرفها كل يهودي لأنها جزء لا ينفصل من تراثه التاريخي . فتحدث عن يسوع كالعريس ، وعن نفسه كصديق العريس ، متخذا من حفلة العرس صورة حية يرمز بها للحقائق الخالدة . وضمن كتابات الأنبياء كانت إحدى الصور المحبوبة لديهم ، تصوير يهوه كالعريس ، والأمة اليهودية كالعروس . أما ذلك الرباط الذي يربط جلال الله ، بالأمة اليهودية ، فهو قوي ، مقدس ، ملزم ، كالرباط الذي يربط العريس بعروسه . فالله لن يتنكر لعهوده التي قطعها على نفسه في هذا الاتحاد المبارك . وعلى العروس أيضاً ، على الأمة اليهودية ، ألا تتنكر لتعهداتها ، وتسير وراء

آلهة غريبة . فإذا ظهر انحراف فى اتجاهها ، وتعلق قلبها بآلهة الأمم ، فهذا ليس أقل من خيانة الزوجة لرجلها ، وعقابه ليس أقل من عقابها (خروج ٣٤ : ١٥) تثنية ٣١ : ١٦ مزامير ٧٣ : ٢٧ أشعياء ٥٤ : ٥) .

ولقد استلهم العهد الجديد هذه الصورة ، ورأى فى صلة العريس بعروسه صلة المسيح بكنيسته ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى رسائل بولس (٢ كورنثوس ١١ : ٢٢ ،أفسس ٥ :٢٢ — ٣٢) .وهكذا ارتسمت هذه الصورة، قبل ذلك فى ذهن المعمدان.ان يسوع هو ابن الله ، الله الذى ظهر فى الجسد،واسرائيل عروسه الشرعى،وهو عريس اسرائيل ولكن المعمدان يحتفظ لنفسه بمركز واحد ، مركز صديق العريس . وصديق العريس،الشُوشْبينْ فى العبرية، أو الأشبين، كان له مقامه الفريد فى حفلات العرس اليهودى. فلقد كان همزة الوصل بين العريس، والعروس . فهو الذى يرتب شئون الزفاف ؛ وهو الذى يقوم بدعوة المدعوين، وهو الذى يشرف على حفل العرس ، وهو الذى يربط العريس بعروسه، بل الأكثر من ذلك لقد كانت له وظيفة خاصة فى تلك الأوقات . فكان يسهر على حراسة حجرة العروس . ولا يدع واحدا من المتطفلين يدخل إليها . حتى إذا جنّ الليل ، وتفرّق المدعوّون وجاءت ساعة اختلاء العريس بعروسه ، وسمع صوته قادماً ، وميزه من عديد الأصوات ، يفتح الباب له وقلبه يدق دقات الفرح ، ويقبل العريس ، ثم يمضى لحال سبيله ، ويترك الحبيبين معاً ، لأن مهمته قد كملت ، فما كان الحسد يتطرق إلى قلبه . لقد كانت كل وظيفته أن يقرن الأثنين معاً ، فإذا انتهى إلى هذا الهدف ، لم يبق له إلا أن يتوارى بعيداً فى ظلال النسيان ويخلى السبيل . وهكذا كانت مهمة المعمدان ، أن يأتى بإسرائيل إلى يسوع ، ويمهد الطريق للزواج الخالد ، بين المسيح العريس، وعروسه إسرائيل . ومادام هذا القصد قد تم ، ومادام واجبه قد كمل ، فليس أمامه إلا أن يتوارى ،

ويسدل عليه الستار . فلم يكن للحسد مكان فى قلبه . و بينما قال ينبغى ان هذا يزيد، وانى انقص ، ما كان يقولها بتنهد وضيق . لقد هتف بها وقلبه فائض بالفرح . هنا كلمة للعاملين فى كرم الرب . إن كثيرين يريدون أن يأخذوا المجد لأنفسهم . ليكن هدفنا ، لا أن نجتذب النفوس إلينا ، بل نجتذبهم ليسوع ، لا أن نسعى لتمجيد أنفسنا ، بل أن نرفع يسوع أمام الآخرين ، لا لنتوج ذواتنا بل لنتوّجه هو بأكاليل المجد ..

الواحد من السماء

« الَّذِي يَأْتِي مِنْ فَوْقُ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ . وَالَّذِي مِنَ الْأَرْضِ هُوَ أَرْضِيٌّ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتَكَلَّمُ . الَّذِي يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ . وَمَا رَآهُ وَسَمِعَهُ بِهِ يَشْهَدُ وَشَهَادَتُهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْبَلُهَا . وَمَنْ قَبِلَ شَهَادَتَهُ فَقَدْ خَتَمَ أَنَّ اللهَ صَادِقٌ . لِأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ اللهِ . لِأَنَّهُ لَيْسَ بِكَيْلٍ يُعْطِي اللهُ الرُّوحَ . الْآبُ يُحِبُّ الِابْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ . الَّذِي يُؤْمِنُ بِالِابْنِ لَهُ حَيوةٌ أَبَدِيَّةٌ . وَالَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالِابْنِ لَنْ يَرَى حَيوةً بَلْ يَمْكُثُ عَلَيْهِ غَضَبُ اللهِ » .

(يوحنا ٣ : ٣١ ـ ٣٦)

كما أشرنا سابقا ، نعود فنقول ، إنه من بين الصعوبات التى نلتقى بها فى دراستنا للبشارة الرابعة ، كيف نميز بين حديث المتكلم، وبين تعليق الكاتب. فمن الأمور التى اهتم بها البشير ، أن يضيف بقلمه تعليقا على حديث، أومناظرة

أو حادثة يسجلها . وقد تكون هذه الفقرة من كلمات المعمدان نفسه ، لكن أغلب الظن أنها من تعليق كاتب الأنجيل .

ويبدأ البشير حديثه ، بتأكيد أفضلية يسوع . وتفرده على سواه . في دائرة الحياة المادية نلجأ لمن لهم الخبرة والدراية ، إذا أردنا أن نستفسر عن أمر من الأمور . فإذا أردنا أن نعرف شيئا عن إحدى العائلات ، فإننا نلجأ إلى رب تلك العائلة ، أو إلى أى عضو من أعضائها . وإذا أردنا أن نعرف أخبار بلد بعيد ، فإننا نصل إلى ما نريد ، عن طريق إنسان أتى على الفور من هناك . وهكذا إذا اشتقنا أن نعرف شيئا عن الله ، فلا طريق أمامنا إلا أن نلجأ إلى الإبن الوحيد الذى هو فى حضن الآب ، إلى ذاك الذى يستطيع أن يكشف لنا أعماق الله . فمنه نستطيع أن ندرك صفات الله ، وهو وحده الذى يستطيع أن يخبرنا عن سماء الله ، وأمجادها ، لأنها بيته الأزلى .

وهكذا يقول يوحنا ، ان يسوع ، حينما يحدثنا عن الآب ، وعن الأمور السماوية ، فإنه لا يتحدث عن تقليد متواتر ، ولا قصة متناقلة استقاها من مصدر آخر ، انه يخبرنا عما رآه وسمعه فى بيته . وقصارى القول ان يسوع هو الوحيد الذى يستطيع أن يخبرنا عن حق الله ، وحقيقته ، لأنه الوحيد الكائن منذ الأزل ، والذى يعرف كل شيء عن الله . . . وهذا الحق الذى يقدمه الينا ، هو الأنجيل الحى .

ومن الأمور التى تحز فى القلب أن القلائل هم الذين يقبلون رسالة يسوع ، ولكن من يقبل رسالته فقد ختم بإيمانه على أن الله صادق وأمين . فى العالم القديم كان الإنسان ، إذا أراد أن يؤكد موافقته على وثيقة ، أو اتفاق ، فإنه يبرز خاتمه ، ويختم فى نهاية الوثيقة . وقد كان الختم علامة موافقته على بنود هذا الاتفاق ، وكان ذلك الختم قانونيا ، وملزماً لصاحبه .

وهكذا حينما يقبل الواحد رسالة يسوع ، فهو يؤكد سلامتها ، ويختم بحقها ، ويعلن أن الله صادق وأمين . ثم يتقدم البشير خطوة أخرى فيقول إننا نؤمن بما يقوله يسوع ، لأن روح الله ، قد انسكب عليه في تمام قوته ، وحل فيه في ملء كماله . ولقد حل روح الله على أنبياء العهد القديم ، ولكن حتى اليهود أنفسهم ، كانوا يقرون بأن الله يسكب روحه عليهم ، بحكمة وبمقدار . أما ملء الروح في تمام كماله ، وقوته ، فقد احتفظ به الآب ، للابن الحبيب ، وما تقدم به لإنسان سواه ، لا قبل المسيح ، ولا بعده . ولقد كان اليهود يؤمنون بأن لروح الله وظيفتين : فهو قبل كل شي يعلن حق الله للانسان ، وهو في نفس الوقت ، يفتح بصيرة الإنسان ليدرك ذلك الحق . فحينما نقول ان روح الله حلَّ على يسوع في ملء القوة ، فهذا معناه أن يسوع يدرك حق الله في أعمق أعماقه ، ويستطيع أن يعلنه لنا ، أو بمعنى آخر ، حينما نستمع إلى حديث يسوع فإننا نصغى إلى حديث الله نفسه . .

وأخيراً يجابه يوحنا البشر بحقيقة الاختيار الخالد . . الاختيار الذى عليه تتوقف حياة الإنسان أو موته . وهذا الاختيار يقدمه الله لشعبه خلال الأجيال على أفواه عبيده، وأنبيائه . في سفر التثنية الأصحاح الثلاثين من العدد الخامس عشر إلى العدد العشرين نقرأ القول « أنظر قد جعلت اليوم قدامك الحيوة والخير ، والموت والشر . بما أنى أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه ، وفرائضه وأحكامه ، لكى تحيا وتنمو ويباركك الرب إلهك . . فإن انصرف قلبك ولم تسمع ، بل غويت وسجدت لآلهة أخرى . . . فإني أنبئكم اليوم أنكم لامحالة تهلكون . . أشهد عليكم اليوم السماء والأرض . قد جعلت قدامك الحيوة والموت . البركة واللعنة . فاختر الحيوة لكى تحيا أنت ونسلك » . وفي سفر يشوع نستمع إلى نفس التحدى : « إن ساء في أعينكم أن تعبدوا الرب ، فاختاروا لأنفسكم اليوم مَن تعبدون . . أما أنا وبيتى فنعبد الرب »

(يشوع ٢٤ : ١٥). ان من الأمور الواضحة المسلم بها ، ان حياة الإنسان ، وأبديته ، يتوقفان على موقفه فى مفترق الطرق . وحينما يلتقى الإنسان بيسوع يبدأ أعظم تحد فى حياته . فإذا تجاوب قلبه بنبضات المحبة ، مع عواطف المسيح ومحبته ، فهو قد اختار طريق الحياة. وإذا قابل المحبة بالعداء، وعدم الاكتراث فقد اختار طريق الموت والهلاك . إن الله يتقدم إليـه بالحب ، فحينما يرفض تقدمة المحبة فقد حكم على نفسه بنفسه بالدينونة ، وجلب على نفسه غضب الله . ولـكنه حينما يفتح قلبه لمحبة الله . . لحنانه ، لعواطفه الفياضة، حينما يتوج المسيح ملكا على عرش الحياة ، فإن له الحياة الأبدية .. حياة الأبد .. حياة الأبد فى ملء فيضها ، وقوتها ، وسعادتها .

تحطيم الحواجز

« فَلَمَّا عَلِمَ الرَّبُّ أن الْفَرِّيسِيِّينَ سَمِعُوا أَنَّ يَسُوعَ يُصَيِّرُ وَيُعَمِّدُ تلاميذ أكْثَرَ مِنْ يُوحَنَّا. مع أَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ لم يكن يُعَمِّدُ بلْ تَلَامِيذُهُ. تَرَكَ الْيَهُودِيَّةَ وَمَضى أَيْضًا إِلَى الْجَلِيلِ. وكان لاَ بُدَّ لَهُ أَنْ يَجْتَازَ السَّامِرَةَ. فَأَتَى إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ السَّامِرَةِ يُقَالُ لهَا سُوخَارُ بِقُرْبِ الضَّيْعَةِ الَّتِي وهَبَهَا يَعقُوبُ لِيُوسُفَ ابْنِهِ. وكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعقوبَ. فإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ جَلَسَ هـكَذَا عَلَى الْبِئْرِ. وكانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ السَّامِرَةِ لِتَسْتَقِيَ مَاءً. فَقَالَ لهَا يسُوعُ أَعْطِينِي لِأَشْرَبَ. لِأَنَّ تَلَامِيذَهُ كَانُوا قَدْ مَضَوْا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَبْتَاعُوا طَعَامًا. فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ السَّامِرِيَّةُ كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ وأَنْتَ يَهُودِيٌّ وأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ. لِأَنَّ الْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ » .

(يوحنا ٤ : ١ ــ ٩)

قبل كل شيء دعنا نتصور المنظر كله . فمن الناحية الجغرافية نقول ، ان رقعة فلسطين لا تزيد فى الطول عن مائة وعشرين ميلا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب . ولـكن هذه المساحة الضيقة كانت تنقسم فى زمن المسيح ، إلى

ثلاثة أقسام إدارية : فالى الشمال كانت دائرة الجليـــل ، وإلى الجنوب دائرة اليهودية ، وبين الاثنتين تقع السامرة .

ولقد استمر يسوع فى خدمته فى اليهودية ، إلى أن بدأت خيوط الأزمة تتجمع حول معمودية الجماهير التى كان يقوم بها تلاميذ المسيح. ولقد فضَّل السيد أن يتحاشى حدوث أزمة كهذه ، خاصة وأن ساعته لم تـكن قد جاءت بعد ، فآثر أن ينقل دائرة خدمته إلى الجليل .

أما اليهود والسامريون فقد كانت بينهم عداوة أجيال طويلة ، الأمر الذى سنعرض له فى السطور القادمة .

ولـكن بالرغم من هذا، كان أقصر طريق يوصل بين اليهودية ، والجليل، لابد وأن يمر بالسامرة . فعن هذا الطريق ، يستطيع المسافر أن يقطع المسافة كلها. فى ثلاثة أيام . أما الطريق الثانى ، فقد كان يمر بمخاضة الأردن ، ويسير بمحاذاة الجانب الشرقى من النهر ، حتى يتحاشى المرور بالسامرة ، ثم يعود إلى عبور الأردن مرة ثانية فى شمال السامرة ، ومن هناك ينفذ إلى الجليل . وكان يستغرق ضعف الوقت الأول . لذلك كان من الحتم أن يمر يسوع بالسامرة إذا أراد أن يأخذ الطريق الأقصر إلى الجليل .

وفى رحلته إلى الجليل ، أتى السيد إلى مدينة من مدن السامرة تدعى مدينة سوخار . وعلى بُعد قليل عن تلك المدينة يتفرع الطريق إلى فرعين . الواحد يتجـــه إلى الجانب الشمالى الشرقى ، إلى مدينة « سكيثوبوليس » ، أو مدينة السكيثيين ، ويقرن اسمها حاليا بمدينة « بيت شان » ، وقد كانت أكبر مدينة ضمن دائرة المدن العشر « الديكابوليس » ، والثـانى يتجه غرباً إلى « نابلس » ، ثم شمالا إلى « عين غانم » .

وفى مفترق الطريقين ، تقع البئر المعرفة ببئر يعقوب ، والتى ما زالت قائمة حتى يومنا هذا . وهذه البقعة تختلط بالذكريات العزيزة على قلب كل يهودى . فبالقرب منها ضيعةٌ صغيرة اشتراها يعقوب أبو الأسباط (تكوين ٣٣ :١٨ـ ١٩) . وعلى سرير الموت ، وهب يعقوب هذه الضيعة لابنه يوسف (تكوين ٤٨ : ٥٢) . وهناك فى أرض مصر ، حينما أتت ساعة يوسف ،أوصى بأن يدفن جسده فى فلسطين ، فنُقل ودُفن فى ذلك المكان ، (يشوع ٢٤ : ٣٢) . وهكذا حول ذلك المكان تتكاثر الذكريات . أما البئر نفسها فلم تكن تزيد فى عمقها على مائة قدم . ولم تكن بها عينٌ طبيعية ، بل كانت تربتها الهشة تسمح بمرور الماء من الطبقات المجاورة فتتجمع فيها ، ولكنها على كل حال ، كانت من العمق بحيث لا يصل إليها مُرتوٍ ، إلا إذا أدلى فيها بدلوه ليصل إلى مستوى المياه .

وحينما وصل السيد وجماعته الصغيرة ، إلى مفترق الطرق ، كان مُتعبا من الرحيل ، فجلس على البئر ، وكان الوقت ظهراً . أما نظام التوقيت اليهودى فكان يبدأ ست ساعات قبل حلول منتصف النهار، وست ساعات بعدذلك . أى أن الساعة السادسة من النهار كانت توافق الثانية عشرة ظهراً ، بحسب توقيتنا الحاضر .

ونحن نعرف قسوة الشمس فى بلادنا الشرقية ، لذلك لا غرابة أن يشعر يسوع بالتعب ، والظمأ من طول الطريق ، أما تلاميذه فكانوا قد ذهبوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاما . . . ويا له من تصرف غريب بالنسبة لليهودى العادى .

لا بد وأن يذهب يهودى ليبتاع طعاما من قرية سامرية ! !

شىء جديد قد غير تفكيرهم وتقاليدهم ، بل غيرّ كيانهم بالكلية .

فكيف يمكن ليهودى أن يدخل قرية سامرية ، ويبتاع طعاما لوثته أيدى أولئك الكلاب ؟ وكيف به يزدرد هذا الطعام؟ لقد بدأت الحواجز العنصرية، تمحى وتتلاشى ، ولو عن غير قصد .

وهكذا جلس يسوع على البئر . وجاءت امرأة سامرية من المدينة لتستقى ماء . أما لماذا جاءت إلى هذه البئر بالذات ، وهى تبعد أكثر من نصف ميل بعيداً عن المدينة ، مع أنه كان فى امكانها أن تستقى ماء من البئر التى فى المدينة، فهذا مشكل نلجأ فى حله إلى الخيال والتخمين . ولعلها كانت فى مكانة من الانحطاط الخلقى ،حتى إن نساء المدينة تألبنَ عليها وحرّمن عليها الاستقاء من البئر ، فكانت مضطرة إلى اللجوء إلى تلك البئر البعيدة . وسألها يسوع جرعة ماء . وتطلعت إليه فى دهشة بالغة ، وقالت « كيف تطلب منى أن تشرب ، وأنت يهودى ، وأنا امرأة سامرية ؟ ...

ويتلو ذلك تعليق من البشير يوحنا ، يتقدم به إلى اليونانيين الذين ليست لهم الدراية بتقاليد اليهود ، فيقول :

« لأن اليهود لا يعاملون السامريين » . ومما لا شك فيه أن الحديث طال بينَ تلك السامرية ، وبين يسوع ، ولو أن البشير لا يسجل لنا إلا خلاصته. ولا بد أن المرأة السامرية ، قد انهارت أمام نظرات المسيح الفاحصة ، ومعرفته المعجزية بأسرار حياتها ، واعترفت أمامه بكل شيء ، وقبلت منه كلمة الغفران، وأصبحت أول مبشر نادى ببشارة الخلاص ، فى دائرة السامرة . .

وقليلة هى القصص التى أوردها البشيرون ، والتى تظهر لنا شخصية يسوع وصفاته ، كما تظهرها لنا هذه القصة .

١ — فهى تظهر لنا أولا ، حقيقة إنسانيته ، اننا نراه متعبا ، يرهقه طول السفر ، ظامئا لجرعة ماء ، بسبب حرارة الشمس ، يجلس على البئر ، فى

غاية التعب . ولعل من الأمور الفريدة التى تتميز بها البشارة الرابعة، أنه فى الوقت الذى تؤكد فيه لاهوت الرب يسوع ، فإنها لا تغفل الجانب الإنسانى فى حياته. ان يوحنا ، بالرغم من تمسكه بحقيقة لا هوت المسيح ، واتجاهه إلى إظهار الجانب المعجزى فى حياته ، أكثر من أى بشير آخر ، فإنه يؤكد إنسانيته إلى أقصى الحدود انه لا يصور لنا شخصية خيالية مجردة من كل ضعفات البشرية، بل يقدم لنا ابن الانسان فى جهاده ، وتعبه ، وظمأه ، و كل الملابسات التى تحيط بجسم بشريته . انه يرينا حياته ، حيـــاة صراع وجهاد ، تماما نظيرنا ، ولـكنها مع ذلك حياة تنسى نفسها ، وتضحى براحتهـا ، فى سبيل خدمة الآخرين وراحتهم .

٢ ـ وهى ترسم لنا صورة ، حية ناطقة ، لعواطفه الفائضة ، وقلبه الرقيق . لنتصور إنسانا آخر فى مكان يسوع ، وليـكن رئيس أية طائفة من طوائفنا المسيحية ، ترى ماذا يكون موقفه من سيدة هذه حياتها ، وسمعتهـا ؟ هل كان يفيض بعطفه عليها ، أو يتنازل حتى وينظر إليها ؟ أما كانت تخشاه ، وتهرب منه ؟ ولـكن ها هى تلتقى برب المجد ، وهاهو ينفذ إلى أعماقهـــا ويعرف خبيئاتها ، ولـكنه بالرغم من هذا يظهر لها من العطف والحب ، مايجعلها تطمئن إليه ، وتعترف بخطيتها ، وتطلب منـــه الغفران ، وترى فيه الصديق الصدوق .

٣ ـ بل انها تعلن لنا يسوع فى صورة الحر المستنير ، الذى يقوم بتحطيم الحواجز العنصرية . واننا نراه هنا يدوس على العداوة التقليدية بين اليهود والسامريين .

ولا ضير علينا أن نعرض فى سطور إلى تاريخ ذلك العداء .

ترجع تلك العداوة إلى عام ٧٢٠ قبل الميلاد ، حينما غزا الأشوريون

مملكة الشمال ، أو مملكة السامرة ، وأخضعوها لسلطانهم . ولقد فعل الغزاة بسكانها ، ما كان سائداً فى ذلك الحين ، فنقلوا جميع السكان سبايا إلى ميديا (الملوك الثانى ١٧ : ٦) . وأتوا بخليط من الأشوريين ، والبابليين، والعويين ، وسكان حماة ، وكوث ، وسفراويم (الملوك الثانى ١٧ : ٢٤) ليحلوا محلهم . على أنه من المستحيل عمليا نقل أمة بأ كملها . وهكذا بقى جانب كبير من السكان الأصليين. ثم حدث بالطبع ما كان محظورا على أبناء إبراهيم : اختلطوا بالغزاة المستوطنين ، بالزواج والمصاهرة ، ففقدوا نقاوة الدم السامى . ولقد كانت هذه ، ومازالت ، جريمة لا تغتفر فى نظر اليهود . وحتى أيامنا الحاضرة ، لو تجاسر يهودى أو يهودية ، واقترن بواحدة ، أو واحد من أبناء الأمم ، فإنه يعتبر ميتا فى نظر أهله ، وعشيرته ، وتقام له ليالى المأتم ، ويتقبل أقرباؤه التعزيات . وهكذا انتهت مملكة إسرائيل القديمة ، ولم يعد لها وجود. فمعظم سكانها أصبحوا سبايا فى بلد غريبة ، وأبتلعوا وسط الأمم ، والبقية الباقية فقدت نقاوتها العنصرية وأصبحت غريبة عن حظيرة أبناء يعقوب ، فلا يحق لهم بأن يُدعَوا يهوداً فيما بعد .

وبمرور الزمن ، مرت مملكة الجنوب ، مملكة يهوذا ، فى نفس المحنة ، فأحاط ملك بابل بأورشليم وأخضعها ، وسُبى الشعب إلى بابل ، ومع ذلك بقى أولئك السبايا الآخرون أمناء لعنصريتهم ، وتقاليدهم ، ولم يختلطوا بالأمم شأن مملكة إسرائيل . ثم جاءت أيام عزرا ، ونحميا ، وعاد المسبيون إلى أورشليم بفضل ملك فارس ، الذى سمح لهم بالعودة . وكان أول ما قاموا به من عمل بعد رجوعهم من أرض السبى بناء الهيكل . ولقد حاول السامريون أن يمدوا يد المساعدة لأخوتهم ، ولكن العائدين صدوهم ، وأخبروهم أنه لم تعد لهم صلة بهم على الاطلاق . فلقد فقدوا تراثهم اليهودى، ولا حق لهم فى الأشتراك فى بناء بيت الرب . ولقد أثار هذا حقدهم ، وأجج ضغائنهم ، حتى كانت العداوة

بينهم وبين اليهود على أشدها ، أكثر مما كانت فى أيام المسيح . حدث هذا حوالى عام ٤٥٠ قبل الميلاد ، وزاد أيضاً فى هذه العداوة ، ما قام به الملك اليهودى المرتد ، منسى ، من مصاهرة سنبلط الحورونى ، والزواج بابنته ، (نحميا ١٣ : ٢٨). ثم قام بانشاء هيكل على قمة جبل جرزيم ، الذى يقع فى وسط مملكة السامرة ، والذى أشارت إليه المرأة السامرية . وذلك لكى يمنع السامريين من العبادة فى هيكل أورشليم ، حتى لا تكون هناك الفرصة لبلبلة الأفكار ، وبث روح التمرد فيهم . وفى عام ١٢٩ قبل الميلاد ، فى أيام المكابيين ، قام القائد اليهودى ، يوحنا هيركانوس ، بقيادة حملة عسكرية ضد السامرة ، وتم له ما أراد ، وخرّب هيكل السامريين لقد كانت العداوة قوية ، ومستمرة ، بين اليهود والسامريين . وكان اليهود يلقبونهم بالكوثيين ، إشارة إلى جنس من الأجناس التى وطّنها الأشوريون هناك أبّان السبى .

يقول الربيّون : « لا تمس خبز الكوثيين ، لأن من يأكل خبزهم كمن يأكل لحم الخنزير » . وضمن الكتابات الأبوكريفية ورد القول : « بمملكتين تضطرب روحى ، والثالثة ليست بمملكة على الاطلاق : القاطنون سفوح جبل السامرة والفلسطينيون ، وشعبٌ غبى يسكن فى شكيم » .

فلقد كانت شكيم أو سكيم ، أشهر المدن السامرة . . . ولقد قابل السامريون عداوة اليهود بمثلها . فكان يلذلهم تعطيل اليهود الحجاج المسافرين إلى أورشليم ، من العبادة . ويروى التاريخ عن أحد الأحبار المعروفين ، ويُدعى « ربى يوحنان » أنه مرّ بالسامرة فى طريقه إلى أورشليم ، فرآه أحد السامريين ، وابتدره بالسؤال : « إلى أين أنت ذاهب ؟ » فأجابه «أنى فى طريقى إلى أورشليم للعبادة فى الهيكل » . فأجاب السامرى « أما كان الأجدر بك أن تصلى فى هذا الجبل المقدس (جبل جرزيم) بدلا من الصلاة فى ذلك البيت اللعين ؟ » لقد كان الحجاج يضطرون إلى المرور بالسامرة ، أن

أرادوا الطريق المختصر إلى أورشليم ؛ وكان يلذ للسامريين تعطيلهم ،والوقوف في وجوههم ، بشتى السبل .

ولقد كان عمر العداوة بين الشعبين، يصل إلى مايقرب من خمسمائة عام حتى عهد المسيح .لذلك فقد كان شيئاً يدعو للغرابة أن يتنازل يسوع «المعلم اليهودى» إلى الحديث مع إمرأة سامرية .

٤ — على أن هنالك حاجزاً آخر قام يسوع بتحطيمه ، ذلك الفروق بين الرجل والمرأة . فلقد كان التقليد اليهودى يحرم على أى واحد من الأحبار ، أن يحيى سيدة فى الطريق ، أو يتحدث إليها ، حتى لو كانت تلك السيدة زوجته أو ابنته ، أو شقيقته ، ما كان مباحاً له أن يتحدث إليها . بل لقد وصل التزمت بطائفة من الفريسيين إلى أنهم كانوا يغلقون عيونهم بالكلية، فى أثناء سيرهم فى الطريق حتى لا تقع أنظارهم على سيدة ، فكانوا يصدمون بالجدران والحواجز فتدمى جباههم ؛ ولذلك فقد لقبوهم بالفريسيين أصحاب الوجوه المحطمة الدامية . فإذا اكتشف واحد من الأحبار متحدثا إلى سيدة ، كانت فى هذه نهاية سمعته الطيبة . ومع ذلك تخطى يسوع هذا الحاجز .زد على ذلك أن هذه المرأة كانت ساقطة ملوثة وسمعتها مشينة .

ان قصة يسوع مع المرأة السامرية زاخرة ، فياضة بالمعانى تثير الدهشة والعجب ، وخاصة بالنسبة ليهود العصور السحيقة . هنا ان الله ، رب السماء ، نراه متعبا ، مرهقا ظامئا ، يفتقر لجرعة ماء ؛ هنا أيدرس جيـــاة فى الوجود ، لا نستكنف أن تلتقى بإمرأة محطمة ، خاطئة ، وتنفـــذ إلى أعماق مشكلتها بروح الحب ، والعطف ؛ هنا يسوع اليهودى أيدوس على كبرياء اليهود ، وعنصريتهم ، وتقاليدهم ، هنا بداية الإنجيل الجامع ، الشامل ، الذى يتخطى الحدود ، والقيود ، والسدود ، ويشمل النبوذ البعيد؛ هنا نرى الله نتجه

بمحبته إلى العالم أجمع ، ليس بالـكلام ، بل بالفعل . قاطعا براري الخطية ، وقفار الإثم والعار سعيا وراء الشارد ، والضال ، والمنبوذ .

الينبوع الحي

« أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ ٱللهِ وَمَنْ هُوَ ٱلَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لِأَشْرَبَ لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيًّا. قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ يَا سَيِّدُ لاَ دَلْوَ لَكَ وَالْبِئْرُ عَمِيقَةٌ . فَمِنْ أَيْنَ لَكَ الْمَاءُ الْحَيُّ . أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا يَعْقُوبَ ٱلَّذِي أَعْطَانَا الْبِئْرَ وَشَرِبَ مِنْهَا هُوَ وَبَنُوهُ وَمَوَاشِيهِ . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا . كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هٰذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضًا . وَلَكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ ٱلَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى ٱلْأَبَدِ . بَلِ الْمَاءُ ٱلَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيوةٍ أَبَدِيَّةٍ . قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هَذَا الْمَاءَ لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ وَلاَ آتِيَ إِلَى هُنَا لِأَسْتَقِيَ » .

(يوحنا ٤ : ١٠ — ١٥)

نلاحظ أن يسوع في حديثه مع السامرية ، يتبع نفس النمط الذي أتبعه في حديثه مع نيقوديموس . في أول الأمر نراه يقرر حقيقة ؛ فإذا بهذه الحقيقة تبدو غامضة ، يُساء فهمها ؛ فيتقدم السيد إلى سامعه بنفس الحق ، ولكن بصورة أوضح ؛ ويستمر عدم فهم للقصود . وعندها يدفع السيد من يستمع إليه إلى مجابهة الحق واكتشافه بنفسه . هذه هي طريقة يسوع في التعليم ؛

وهى طريقة خالدة فعّالة . كما قال أحدهم : « هناك الحق الذى لا يستطيع الإنسان أن يقبله ، إلا إذا اكتشفه بنفسه » .

١ — وكما فعل نيقوديموس ، هكذا ظنت السامرية أن يسوع يقصد حرفية القول ، بدلا من مدلوله الروحى ـ لقد كان يسوع يتحدث عن الماء الحى . والماء الحى عندالبهود هو ، فى لغتهم العادية ، والماء الجارى بالمقابلة مع الماء الآسنْ المتغير المجتمع فى حفرة ، أو بركة ، أو المختزن فى الأجران . ولقد كانت بئر سوخار من النوع الأخير ، فهى ليست بها عينٌ حية ، بل ترشح المياه إلى قاعها من طبقات التربة المحيطة . ولذلك فالماء الحى الجارى من الينبوع هو أفضل ألف مرة . وهكذا تساءلت المرأة : « أنك تقول بإنك على استعداد أن تقدم لى ماء حياً جاريا ، من أين ستأتى بهذا الماء الحى ؟ » . ثم إدارت دفة الحديث ، إلى « أبينا يعقوب » . وبالطبع ، كان اليهود ينكرون بكل إباء ، صلة أبى الأسباط بالسامريين ، ولـكن جانبا قويا من تقاليد السامريين ، كان إدعاؤهم انهم من سلالة يوسـف ، ابن يعقوب ؛ من ولديه أفرايم ، ومنسى . وكأنى بالمرأة السامرية تقول ليسوع : « هل تعترض على كرامة هذه البئر ، ومياهها ، التى تختلط بأقدم تقاليدنا ؟ ترى من تـكون ؟ ، هل أنت أعظم من أبينا يعقوب ، الذى لم يجد وسيلة لقضاء حاجاته ، وحاجات أسرته إلا عن طريق هذه البئر ؟ هل تدّعى بأن لك السلطان أن تجعل مياهاجارية تتفجّر من الصخر ؟ هل أنت أكثر حكمة وقوة ، وإعجاز ، من يعقوب ؟ أن هذا إدعاء لا يجوز لإنسان عادى أن يدّعيه . »

٢ ـ أما عن قولها « لا دَلْو لك » ، فاننا نجد تفسيراً له فى العادات السائدة فى فلسطين ، حيث يندر وجود المياه الجارية ، والأنهار . فحينما يخرج البعض فى رحلة فإنهم يحملون ضمن عتادهم ، دلاء تـكون فى العادة من جلد الدواب

حتى يسهل طيها ، وحملها . فإذا مرت القافلة ببئر ، كان من السهل استقاء الماء من جوفها العميق . يروى أحد الرحالة فى كتاب عنوانه [1] : « العادات الشرقية فى أراضى الإنجيل » مارآه أثناء جلوسه بجوار بئر قريبة من فندق السامرى الصالح ، يقول : »

« رأيت أعرابية نازلة من سفوح التلال القريبة متجهة إلى البئر . ولما اقتربت منها رأيتها تحمل فى يسراها قربة ماء ، وفى اليمنى دلواً من الجلد قد ارتبط به حبلٌ طويل . سرعان مادلّته فى البئر مرة بعد أخرى ، حتى ملأت قربتها . ثم ربطتها وحملتها على ظهرها ، وصعدت من حيث أتت . وبعد قليل رأيت أعرابياً يبدو عليه التعب والظمأ من طول الطريق ، تقدم من البئر ، ثم ركع على الأحجار ، وبدأ وكأنه يقيسّ بنظره عمقها . ولما رأى أنه لا جدوى من ذلك ، وأن البئر عميقة ، لاسبيل للوصول إلى مياهها ، هب واقفا ، وغادر المكان بنظرة أسيفة : » هذه صورة من الحياة العادية التى تتكرر هناك . وهى تريبنا ما تقصده السامرية بالقول : ياسيد لا دلو لك وكأنى بها تقول له : « وما جدوى الحديث عن المياه الحية التى تريد أن تهبها لى ، وأنت كما أرى ، لا دلو فى يديك لتستقى به من البئر ؟ »

٣ ـ ولكن الظمأ بالنسبة للفكر اليهودى كان له من مدلوله الرمزى المعنوى فكان يُقصد به العطش الروحى ، أو ظمأ النفس لله وكانوا يتحدثون عن إطفاء الظمأ بالمياه الحية . لذلك فلم يستخدم يسوع فى حديثه تعبيرات غريبة عن العقلية اليهودية . لقد كان أقل إنسان له ذرة من البصيرة الروحية ، يستطيع أن يدرك ما يرى إليه يسوع . وهذه المعانى تتكرر فى الكتاب بعهديه .

---

(١) H. B. Tristiam

القديم، والجديد. فى سفر الرؤيا . نقرأ القول : أنا أعطى العطشان من ينبوع ماء الحياة مجانا» (رؤيا ٢١:٦) والخروف الذى فى وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية » (رؤيا ٧ : ١٧) . وفى سفر النبوءة اشعياء نقرأ وعد الله لشعبه المختار : « وتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص » (اشعيا ١٣ : ٣) . أما المرنم فهو يتحدث عن ظمأه قائلاً « عطشت نفسى إلى الله إلى الإله الحى » (مزمور ٤٢ : ١) . وفى اشعياء أيضاً نقرأ وعد الله « اسكب ماء على العطشان ، وسيولا على اليابسة » (اشعيا ٤٤ : ٣) . ثم توجه الدعوة السخية إلى الظامئين : « أيها العطاش جميعا هلموا إلى المياه » (اشعيا ٥٥ : ١) أما شكوى الله على لسان النبى أرميا فهى : « تركونى أنا ينبوع المياه الحية وحفروا لأنفسهم آبارا ... آبارا مشققة لا تضبط ماء » (أرميا ٢ : ١٣) والنبى حزقيال يسجل لنا رؤياه الرائعة عن نهر الحياة الذى ينبع من الهيكل (حزقيال ٤٧ : ١ — ١٢) . ثم النبى زكريا يتنبأ عن الينبوع المطهر الذى يفتح فى بيت داود للتطهير من كل نجاسة . (زكريا ١٣ : ١) . ومياه الحياة يكون خروجها من أورشليم (زكريا ١٤ : ٨) . ولقد كان الأحبار يفسرون المياه الحية فى بعض المواضع بحكمة الناموس ، ويفسرونها فى مواضع أخرى بعمل روح الله القدوس فى قلوب البشر .

ان كل كتابات اليهود الدينية الرمزية ، كانت لا تخلو من فكرة ظمأ الروح الذى لا يمكن أن يرويه إلا المياه الحية التى هى هبة من الله . ولكن يبدو أن هذه المرأة السامرية كانت كفيفة البصيرة ، فلم تستطع أن تدرك شيئاً من كلام يسوع ، إلا الصيغة الحرفية الفجة التى ما كان يرمى إليها على الأطلاق.

٤ — ولكن يسوع استمر فى حديثه ليعلن لها حقيقة أكثر غرابة . فلقد أعلن لها بأنه هو لا سواه ، يستطيع أن يهبها الماء الحى الذى كل من يشربه

لا يعطش إلى الأبد . هنا نرى جلال اللاهوت المعجزى . فى اتحاده مع أسمى أهداف المسيا المنتظر .

فهذا ليس أقل من الحق الميسياوى العظيم ، الذى لايمكن أن يتم إلا على يدى مسيح الأجيال . يقول المرنم عن الله « لأن معك ينبوع الحياة » (مز٣٦: ٩) ومن قلب عرش الله ينظر الرائى يوحنا فإذا به يرى نهر الحيـاة ينبع من هناك . (رؤيا ٢٢ : ١) . أما أرميا فهو لا يرى سوى « الرب ينبوع المياه الحية » (إرميا ١٧ :١٣) .

وفى العصر المسياوى الذهبى ، الذى يملك فيه المسيح ملـكه الشامل نقرأ فى أشعيا بأنهم « لايجوعون ، ولا يعطشون . . لأن الذى يرحمهم يهديهم ، وإلى ينابيع المياه يوردهم » (أشعيا٤٩ : ١٠) . فى ذلك العصر « يصير السراب أجما . والمعطشة ينابيع ماء » (أشعيا ٣٥ : ٧) فحينما تحدث يسوع عن المياه الحية التى يستطيع أن يعطيها ، والتى كل من يشربها ، يرتوى ، ولايعطش إلى الأبد ، ما كان يشير إلى شيء أقل من كونه مسيح الله الحى ، وابن الله الأزلى الذى سيعجل بنعمته ، وعمل إنجيله ، مجيء العصر الذهبى المبارك .

٥ ـ ومع ذلك يبدو أن السامرية لم تستطع أن تدرك هدف يسوع من من الحديث . ونحن نستمع إليها تتحدى السيد فى سخرية قائلة له « أعطنى من هذا الماء حتى لا أعطش ، ولا يرغمنى الظمأ على سلوك هذا الطريق الطويل ، حر النهار ، لكى استقى من هذا البئر » . لقد كانت فى هذا الحديث تسخر من يسوع ، وتتخيله إنسانا لايدرك تماماً ما يقول . أم لعلها كانت تسخر من المعانى الروحية التى يرمى إليها . . ولـكن مهما كان الأمر فإن هذا أن دل على شيء ، فإنما يدل على أن فى أعماق كل نفس ظمأ قاسياً لا يمـكن أن ترويه مياه هذا

الوجود ، ولا يمكن أن يطفؤه إلا الماء الحى الذى يقدمه الرب يسوع المسيح . . .

يصور لنا الكاتب « سنكليرلويس » فى أحد كتبه ، صورة رجل أعمال تحطمت فى حياته معايير السلوك الأخلاق . وهو فى إحدى الفرص يتحدث إلى عشيقته ، فتقول له : « إننا على السطح قد نختلف فى المظهر ، ولكننا جميعاً سواسية فى العمق السحيق . فنحن جميعاً يجمعنا شعور التعاسة ، والحاجة الملحة إلى شىء ما . . شىء لانستطيع أن نصل إلى إدراكه » نعم . فى أعماق كل إنسان يثور هذا الشوق الذى لا يشبع . . . هذه الرغبة الغامضة المبهمة . . . هذه الحيرة النفسية القلقة . . هذا الهدف البعيد الذى قد يخفى عليه ، ولكن تصرفاته ، وحركاته ، وسكناته ، كلهـا تظهر مشوقة إليه . وفى قصة أخرى للـكاتب « واويك ديبنج » نستمع إلى صبى يتحدث عن الحياة فيقول : أنها تشبه تخبط إنسان فى ضباب سحرى . أحيانا قد ينجاب ستار الضباب إلى الحيظة فيرى الإنسان وجه القمر ، أو وجه فتاة . ثم يمد يده ليمسك بوجه الفتاة ،أووجه القمر ؛ فلا يلبث ستار الضباب أن يعود مرة أخرى ، ويتركه يتخبط كما كان. إلى أى هدف ؟ لايدرى !

أو دعنا نتجه إلى أغسطنيوس : إننا نستمع إليه يناجى الله فى «اعترافاته» هاتفا « يانبع جمال كل جميل لقد خلقتنا منك ، ولن تجد قلوبنا راحتها إلا فيك أن اعمق حقيقة يؤكدها اختبارنا ، هى أن ظروف الحياة التى نحياها ، لايمكن أن تشبع جوع القلب ،أو تطفىء ظمأه ، مهما كانت حلوة . مواتية،وكما يقول الشاعر براوننج :

حينما نظن أننا فى أقصى حالات الأمان .

فإن لمسة من ريشة الغروب .

تحيطنا باطار حزين . .

وقد تكون هذه اللمسة مصدرها ظروف الحياة المحيطة بنا ، أوقد تكون نابعة من أعماق قلوبنا التى لا تشبعها أمور الحياة الحاضرة ، والتى تحتاج إلى الرى الكامل من ينبوع الحياة العظيم . .

مواجهة الحق

« قَالَت لَهُ الْمَرْأَةُ يَاسَيِّدُ أَعْطِنِي هٰذَا الْمَاءَ لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ وَلاَ آتِيَ إِلَى هُنَا لِأَسْتَقِيَ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ اذْهَبِي وَادْعِي زَوْجَكِ وَتَعَالَيْ إِلَى هٰهُنَا . أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَتْ لَيْسَ لِي زَوْجٌ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ حَسَنًا قُلْتِ لَيْسَ زَوْجٌ . لِأَنَّهُ كَانَ لَكِ خَمْسَةُ أَزْوَاجٍ وَالَّذِي لَكِ الْآنَ لَيْسَ هُوَ زَوْجَكِ . هٰذَا قُلْتِ بِالصِّدْقِ . قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ يَاسَيِّدُ أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ . آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هٰذَا الْجَبَلِ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ يَا امْرَأَةُ صَدِّقِينِي إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لاَ فِي هٰذَا الْجَبَلِ وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلْآبِ » .

(يوحنا ٤ : ١٥–٢١)

رأينا كيف أن السامرية ، بروح السخرية ، طلبت من يسوع أن يهبها هذا الماء الحى ، حتى لاتعطش ، ويضطرها الظمأ إلى الحضور إلى البئر

مرة بعد مرة ، وتحمل مشاق الطريق الطويل فاذا بالمسيح يوجه إليها لطمة تجعلها تفيق من هزلها وسخريتها . لقد انتهى وقت العبث ، ولم يعد له مكان . قال يسوع : « إذهبي وادعي زوجك » . وتسمرت المرأة في مكانها ، كأن ألما فجائيا قد جمد عضلاتها ، وتراجعت أمام نظراته النارية ، وكأنها سرت في أعماقها مسرى الكهرباء ؛ وشحب لونها وكأنها ترى رؤيا رهيبة أمامها وبالفعل كان هذا . لقد رأت رؤيا نفسها على حقيقتها . لقد كشف السيد لها النقاب عن ذاتها ، وأرغمها أن تجابه حياتها وجه لوجه . لقد أظهر لها حقيقة خطئها . انحلالها تعاسة حالها . إن أعظم معجزة تتقدم بها المسيحية ، هي أن تقدم للانسان إعلانا مزدوجا : فهي تعلن له أمجاد الله . . قداسته . . عدالته . . وهي تكشف له حقيقة نفسه . . ذاته . . صفاته . ولا يوجد إنسان ، مهما سمت حاسيته ، يستطيع أن يرى نفسه ، إلا في نور المسيح الفاحص ؛ وعندها تروعه حقيقة نفسه ، ويرى مرارة حياته ، وتعاستها . . . أو دعنا نستخدم تعبيرا آخر . أن تأثير المسيحية يبدأ في الإنسان باحساس عميق بالخطيئة . . أنه يبدأ بيقين ثابت بأن الحياة التي نحياها لاجدوى منها . وهذا يجعلنا نستيقظ لأنفسنا ونستيقظ إلى حاجتنا لله .

ولقد اتجه البعض إلى تفسير رمزي لقصة الخمسة أزواج التي ذكرها السيد للمرأة السامرية ، والسادس الذي ليس زوجها بالمرة . قالوا إن هذا تصوير استعاري مجازي ، يصور لنا تاريخ السامرة كأمة انحرفت عن عبادة يهوه العظيم وليس كتقرير لواقع حياة سيدة بالذات . ونحن نعلم أنه حينما سبي شعب السامرة إلى المنفى ، أتى الأشوريون بخمسة أجناس ليحلوا محله . وأننا نقرأ في سفر الملوك الثاني في الاصحاح السابع عشر ، كيف أن كل جنس من هذه الأجناس قد أتى بآلهته الغريبة إلى هناك لعبادتها . « فكانت كل أمة تعمل

آلهتها ، ووضعوها فى بيوت المرتفعات التى عملها السامريون ... فعمل أهل بابل سكوث بنوث . وأهل كوث عملوا نرجل . وأهل حماة عملوا أشيما . والعويون عملوا نبحز . والسفروا ييون كانوا يحرقون بنيهم بالنار لأدرملك » (٢ ملوك ١٧ : ٢٩ ، ٣٠) . وهكذا قالوا أن المرأة السامرية ترمز لأمة السامرة ؛ وأن الأزواج الخمسة ترمز إلى الآلهة الخمسة ، الذين ارتبط بهم تاريخ السامرة ، وشعبها بعد السبى . أما الزوج السادس ، فهو يرمز إلى الله الحى ، الذى تدعى السامرة ارتباطها به ، وعبادته ، ولكن ليس هو زوجها ، وليست هى امرأته على الإطلاق . أنها ترتبط به فى حالة الجهل والغباوة : ولكنه لم يصبح بعلا لها ؛ ولن يصبح على الإطلاق . وأن تفسيرا كهذا قد يفسر خيانة أمة ، وارتدادها عن إلهها . ولكن القصة كلها تبدو اكثر واقعية من أن تكون استعارة أو مثلا رمزيا ..

وقال البعض أن هذه نبوة بناءة . وإن النبوة نقد بناء يدفع للرجاء . فالنبى يشير إلى انسان . أو إلى أمة ، يخطأ فى حياته ، أو حياتها . ولكنه يفعل ذلك ، لا ليدفع هذا الإنسان ، أو هذه الأمة إلى حالة اليأس ، بل ليشير إليها بطريق الشفاء ، والإصلاح ، والنجاح . وهكذا بدأ يسوع باظهار حقيقة حالة هذه المرأة ، وقساوة قلبها ، ولكنه استمر فى حديثه معها ، ليعلن لها طريق العبادة الحقيقية ، التى توصل الإنسان إلى الله ، وإلى رضاه ..

أما سؤال المرأة للسيد ، فإنه يبدو غريباً على إفهامنا . أنها تقول وتبدو عليها الجد فيما تقول ؛ « آباؤنا حتموا علينا السجود فى هذا الجبل ، جبل جرزيم . واليهود يقولون أن العبادة الحقيقية لن تكون خارج حدود أورشليم ؛ فماذا ترى ؟ » .

ولقد زيف السامريون التاريخ ، ليوافق عقائدهم . قالوا أن ابراهيم أبا

المؤمنين ، حينما جاء إليه الأمر الالهى ، بأن يأخذ اسحق ، ويصعده محرقة ، كان الجبل الذى صعد مدارجه ، لينفذ بنود طاعة الإيمان ، ليس جبل الموريا ، بل جبل جرزيم ! وقالوا أيضاً أن هناك التقى « ملكى صادق » بابراهيم ، وباركه ، فقدّم له ابراهيم عُشراً من كل ممتلكاته . وقالوا أيضاً أنّ على سفح جرزيم ، قام موسى بتقديم أول ذبيحة لله ، حينما دخل الشعب أرض الموعد ، وهناك أقام أول مذبح ، مع أن الحقيقة أن ذلك تم على جبل عيبال (سفر التثنية ٢٧ : ٤) . لقد حرّفوا نصوص التوراة ، وزيفوا التاريخ ، ليمجدوا جبلهم القومى . أما جبل جرزيم ، فإن كل صلته بتاريخ دخول العبرانيين ، إلى أرض الموعد ، هى أن ستة من آباء الأسباط الاثنى عشر ، وقفوا على سفحة ليباركوا الشعب أثناء دخولهم هناك ، بينما وقف الستة الآخرون ، على جبل عيبال يرددون اللعنات على من يعصى وصايا الناموس — نقول إن هذه المرأة السامرية ، قد تشبعت منذ طفولتها ، باعتقادها بأن أقدس بقعة فى الوجود هى جبل جرزيم ، وأن أحقر مكان هو أورشليم ، والهيكل القائم على سفح الموريا . ولعل الخيال لا يشطح بنا بعيداً ، إذا تصورنا أن المرأة قالت فى نفسها : « إننى أشعر بخطيتى أمام الله ؛ وأريد أن أقدم ذبيحة خطية ؛ ينبغى أن أصفى حسابى مع الله ، وأتقدم بذبيحة فى هيكله . ترى فى أى مكان ينبغى أن أتقدم بهذه الذبيحة ؟ . » لقد كان الطريق الوحيد للتكفير عن ذنوبها ، بالنسبة لشعبها ، كما بالنسبه لليهود تقديم الذبائح والمحرقات .

ولم يكن القصد من سؤالها ، مناقشة أفضلية جرزيم على الموريا ، أو الهيكل القائم فى السامرة ، على الهيكل المقام على جبل صهيون ؛ ان كل مشكلتها كانت تتركز : فى أى المكانين أستطيع أن أجد الله ؟ !

كان جواب يسوع لها ، بأن عهد الهيا كل المصنوعة بأيدى ، والمنافسات

القائمة على الأماكن العنصرية ، قد بدأ يضمحل وقارب النهاية . وإن الساعة قد أتت ، حيث لا يتقيد العابدون بأمكنة مصنوعة ، لأنهم سيكتشفون الله فى كل مكان . . ولقد تنبأ صفنيا قبل ذلك بمئات السنين بهذا الحق المبارك حيث « يسجد له كل الناس ، كل واحد من مكانه . كل جزائر الأمم » (صفنيا ٢ : ١١) . وفى نبوات ملاخى ، نستمع إلى صوت الله يهتف عبد لسانه « اسمى عظيم بين الأمم . وفى كل مكان يقرب لاسمى بخور وتقدمة طاهرة » (ملاخى ١ : ١١) . لقد كان جواب المسيح للسامرية : بأنه لا حاجة بها أن تغير مكانها . . . لا حاجة بها أن تذهب إلى هنا ، أو هناك ، لتجد الله . . . لا حاجة بها أن تكتشفه فى هيكل جرزيم ، أو هيكل أورشليم ؛ لأنه كلى الوجود ، فى كل مكان . فعبادة الله ، لا يعتمد على مكان معين ، ولا قبلة معينة ، نتجه إليها .

العبادة الحقيقية

« أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُم تعلَمُونَ . أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نعلَمُ لِأَنَّ ٱلْخلَاصَ هُومِنَ ٱلْيَهُودِ . وَلَـكِنْ تَأْتِى ساعَةٌ وهِىَ ٱلْآنَ حِينَ السَّاجِدون ٱلْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلْآبِ بِالرُّوحِ وٱلْحَقِّ . لِأَنَّ ٱلْآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُ . ٱللهُ رُوحٌ . وٱلَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وٱلْحَقِّ يَنبَغِى أَنْ يَسْجُدُوا . قَالَتْ لَهُ المَرْأَةُ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مَسِيَّا ٱلَّذِى يُقَالُ لَهُ ٱلْمَسِيحُ يَأْتِى . فَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُخْبِرُنا بِكُلِّ شَىْءٍ قَالَ لَهَا يَسُوعُ أَنَا ٱلَّذِى أُكَلِّمُكِ هُوَ » . (يوحنا ٤ : ٢٢ — ٢٦)

فى السطوز السابقة انتهينا إلى قول المسيح للمرأة السامرية أن المنافسة القديمة القائمة بين اليهود والسامريين هى فى طريقها إلى الزوال ، وأن اليوم آت حيث تصبح استحقاقات جبل جرزيم ، وجبل صهيون ، شيئا نافلا مضى أوانه ، لأن الذى يريد أن يتجه الى الله ، سيجده فى كل مكان، ولكن بالرغم من هذا فإننا نستمع إلى السيد يؤكد أفضلية الأمة اليهودية ، فى إعلانات الله ، ومخططه السرمدى للخلاص ٠

فالسامريون يعبدون الله فى جهل ، وهكذا يقول معلم الأجيال ونحن نلمس صدق هذه الحقيقة من واقع تاريخهم ٠ فهم لايسلمون إلا بأسفار موسى الخمسة ، ويعتبرون كل ما عداها ، باطل من صنع البشر . فكتابات داود ، والأنبياء لاقيمة لها فى نظرهم ٠ الصلوات والتأملات الحلوة ، لاتسبى قلوبهم والمواعيد المشجعة ، والنبوات الصادقة ، لن تلهب حماسهم ، ولن تمس قلوبهم إن ديانتهم ديانة مبتورة ، لأنهم يؤمنون بكتاب مبتور ٠ لقد رفضوا الحكمة التى قدمها الله لهم ، لتكون نبراسا لهم فى الطريق ٠ ويزيد الأحبار اليهود على ذلك قولهم بأن عبادة السامريين كانت مبنية على الخوف والوسوسة والخزعبلات فهى لاتقوم على المعرفة البناءة ، التى تؤدى بهم إلى عبادة المحبة ؛ بل أساسها الجهل المطبق ، الذى يدفع بالإنسان إلى عبادة الخوف ، والرهبة ، بغية اتقاء غضب الله ٠ وكما أسلفنا ، نعود فنقول ، أن الشعوب التى استوطنت مملكة الشمال فى السبى ، جلبت معها آلهتها لتتعبد لها (٢ ملوك ١٧ : ٣٩) ٠ ولكن الوحى يخبرنا أن هذه الشعوب أغاظت الرب بأفعالها فأرسل عليهم السباع ؛ ففتكت بالكثيرين منهم مما اضطرهم إلى الصراخ لملك أشور ، وجعلهم يقرنون الكوارث التى نزلت بهم ، باغاظتهم لإله الأرض التى حلوا بها . وهكذا أرسل لهم ملك أشور أحد الكهنة المسبيين ليعلمهم حق يهوه فسكن فى بيت

ايل وعلمهم كيف يتقون الرب . (٢ ملوك ١٧ : ٢٨) . ولكن يبدو أن هذه الشعوب احتفظت بعباداتها كما هى ، وأضافت إليها عبادة يهوه ، استرضاء له ، ورهبة منه ، فهو قبل كل شيء إله تلك الأرض التى يعيشون فيها ، ويأكلون من خيراتها ، ومن الخطر عدم إرضائه ، أو إهمال عبادته . لقد أصبح يهوه بالنسبة إليهم واحداً ضمن قائمة آلهتهم .

وإننا نلاحظ فى العبادة الباطلة ، أخطاء ثلاث :

١ — الخطأ الأول أن العبادة الباطلة تختار ما تشاء أن تدركه ، وتقبله عن الله ، وعن صفاته ، وترفض مالا تريد أن تقبله . لقد مزق السامريون مايقرب من ثلثى أسفار الكتاب ، وأبقوا على أسفار موسى الخمسة فقط ، أن الديانة التى تأخذ من الحق ، جانباً واحداً منه ، وترفض الباقى ، هى ديانة مبتورة خطيرة . من السهل اليسير على الإنسان أن يقبل ويتمسك بالجزء الذى يعجبه ويوافقه ، من حق الله ، ويهمل الباقى . وهذا يكون وبالا على صاحبه ، وعلى المجتمع .

مثال ذلك ما نلمسه فى بعض المفكرين ، والسياسيين ، وحتى رجال الكنيسة ، الذين يبيحون الاستعباد والتفرقة العنصرية استناداً على بعض أجزاء من الكتاب المقدس ، حيث كانت العبودية ، فى وقت من الأوقات ، شرعاً . والتفرقة بين الطبقات ناموساً ، وقانوناً ، ويهملون الجزء الأكبر من الكتاب الذى يرينا جميع طبقات البشر سواسية فى الحقوق والواجبات فلا تفرقة بين أمة وأمة ، أو بين طبقة وطبقة لأنه « صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض » .

لنأخذ مثلا من أمثلة التمسك بالحق الخاطىء ، ماحدث لأحد الرعاة فى إحدى الكنائس فى مدينة كبرى ؛ حينما دبر حملة تنادى بالعفو عن أحد

المذنبين الذين أدانهم القانون فى جريمة من الجرائم ، أو على الأقل تخفيف الحكم الصادر عليه . فهذا ، فى نظره أقل بند من بنود الرحمة المسيحية . وفى يوم دق جرس التليفون ، وسمع الراعى صوت إحدى السيدات يهتف له : « إننى فى غاية الدهشة ، إنك تتزعم حركة مثل هذه وتناصر قضية خاسرة، وأنت الذى تنادى من المنبر بحق الكتاب » « ولماذا تندهشين ياسيدتى ؟ » « أظن أنك تعرف كتابك جيداً » « اعتقد ذلك . « ألا تعرف المبدأ الذى ينادى به الكتاب : عينٌ بعين ، وسنٌ بسن ؟ ! » . هنا نجد سيدة ، تختار من التوارة الموسوية ، المبدأ الذى يتفق مع مزاجها ، وتغفل كل تعاليم المسيح الرحيمة ، التى نادى بها فى موعظته على الجبل . ينبغى أن نتذكر أنه ، بالرغم من قصورنا كبشر ، فى إدراك الحق فى أدق دقائقه ، علينا أن نقبله فى جملته ، ولا نقتطف منه الأجزاء التى تروقنا أو توافق أمزجتنا ، وتصرفاتنا .

٢ — الخطأ الثانى أن العبادة الباطلة ، عبادة مبنية على الجهل . إن العبادة ينبغى أن تكون اقتراب الإنسان بكلياته إلى الله . فالإنسان كائن عاقل ؛ ومن واجبه أن يستخدم امكانيات تفكيره . إن الديانة قد تبدأ باستجابة عاطفية ، لكن هذه الاستجابة العاطفية ينبغى أن يأتى عليها الوقت لتدخل إلى معمل الفكر ، وتخرج إلى حيز العمل أكثر نضوجا وقوة وتفاعلا . قال أحد اللاهوتيين [١] . إن الديانة الحقيقية آفاقها أكثر اتساعاً من دائرة الفكر ، ولكن بالرغم من هذا ، فإن الكثير من مجهودنا الدينى ، مآله إلى الفشل لأنه لايستند على أساس من المنطق السليم . إن عجز الفكر ، عن أن يساند الحق ، هو فى حد ذاته خطية . وديانة الإنسان لن تتوطد على أساس راسخ ، إلا إذا عرف ، ليس ما الذى يؤمن به فحسب ، بل لماذا يؤمن به . الديانة

---

(١) E. F. Scott

الحقيقية أساسها الرجاء ، ولكنه الرجاء الذى يسنده العقل ، ويؤازره ، ويحميه أو كما يقول الرسول بطرس بنبغى أن تكونوا « مستعدين دائما لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذى فيكم » (١ بطرس٣ : ١٥)

٣ — الخطأ الثالث ، الديانة الباطلة هى ديانة مبنيـــة على الخرافات ، والأوهام ، والأباطيل • انها ديانة لاتنبع من حاجة الإنسان ورغبته الصادقة بل إن أساسها هو شعور الإنسان بأنه من الخطر الجسيم ، ألايتمسك ببنودها ويخضع لمطاليبها • وكثيرة هى الوساوس التى تتحكم فى مشاعر الناس وتكيف حياتهم وتدفعهم فى تصرفات خاطئة ، بعيدة عن الاتزان • فكم من إنسان مصاب بداء التطير ، إذا خرج فى الصباح • وكان أول من يلتقى به إنساناً الشوهاً ، فقد أحد أعضائه ، فانه يتشاءم من اليوم كله . أو إذا تصـــادف واضطرته الظروف إلى الانتقال لبلد غريب ، لم يجد سكناً إلا البيت رقم ١٣ أو الغرفة التى تحمل هذا الرقم فى فندق ، فإنه يفضل المبيت فى العراء ، أو إذا دعى لحفل ، وكان عدد المدعويين يصل إلى نفس الرقم ، رفض الدعوة ، أو إذا بقطة سوداء . اعتقد أن الحظ ابتسم له .

على هذا القياس تقوم الديانة الباطلة . أنها وليد مشاعر خاطئة دفينـــة فى أعماق الإنسان . . . مشاعر قد يصل به الاعتقاد إلى أنه من الخطأ الانسياق فى تيارها ، والخضوع لمستلزماتها ، وهكذا يحاول العقل الواعى كبتها ، والسيطرة عليها ، ولكنها مع كل هذا تظل راسبة فى العقـل الباطن ، ويظل شعور الإنسان يدفعـــه إلى تجنب مالا ترتضية أو العمـــل بما تقتضيه ، خوفاً من أن يقع به الضر ، أوجلبا للخـير الأوفر . وهكذا الديانة الباطلة ، تقوم على أساس من المخاوف الغامضة التى ترعب الإنسان ، وتدفعـه إلى اتقاء الله ، خوفاً من أن يصاب بكارثة واهمة . ولـكن الديانة الحقيقيـة

لا تقوم على الخوف ، بل على محبة الله . على عرفان بالجميل لما صنعه معنا . . على رغبة صادقة بأن يجلس على عرش القلب ، ويتوّج الحياة ، ويبـارك كل صغيرة ، وكبيرة فيها . إن العبادات التقليـدية غالباً ما تدخل فى مراسيمها ، الـكثير من الخيالات والأوهام المبهمة . فالبخور استرضاء لله ، والشـموع الموقدة تـكريم للقديسين ، والصلوات المرفوعة لفتح باب الفردوس للموتى وافلاتهم من عقاب الله ، ورضـــى الـكاهن من رضى الله ، وغضبه من غضب الله . فإذا بارك فالبركة لنا ، وإذا نطق باللعنة ، فاللعنة علينا . وقس على هـــذا الـكثير ، من بركات الصور ، والصلبان وغيرها . وهكذا أشار يسوع إلى الديانة الحقيقية . . إلى العبادة الصادقة . فالله روح ، والتعبد له ينبغى أن يكون بالروح والحق . وحالما يشرق هـذا الحق على الإنسان ، فإنه يرى بطلان الـكثير من التقاليد التى يتمسك بها . فإن كان لله روح ، فهو لا تصفه الماديات . لذلك تكريم الصور ، والتماثيل ، اعتقادا بأنهـا تتمتع بحلول خاص للروح الكلى ، أو برعاية خاصة للذى لا تحده السموات ، هو شرك بالله ، وعبادة صنمية تهين أمجاده وصفاته المقدسة . وإن كان الله روح ، فهو لا تحدّه الأبعاد والأمكنة ، لذلك فإن تـكريم أورشليم كمكان حلول الله ، أو الاتجاه لقبلة معينة فى الصلاة ، يحدّ من ذاك الذى يسمو على كل قيود وحدود . وإن كان الله روح فالذبيحة التى تقدم له ، ينبغى ألا تـكون ذبيحة مادية ، ينبغى أن نقدم له ذبيحة النفس الحية . فالتقدمات المادية ، والذبائح الحيوانية ، والتقاليد الحسّية ، كلها تقصر عن إرضاء الله . إن التقدمات التى تسرّ قلب الله ، دون سواها ، هى ثمـار الروح التى عملت فيها نعمـة الله ، واستجابت لفاعليته الحية . . . ثمار المحبة ، والطاعة ، والخدمة المضحية ، والتعبد القلبي لجلاله . فروح الإنسان هى أسمى ما فى كيانه . هى الجـوهر الذى يبقى

بعد أن يفنى العرض الزائل . هى المرآة التى تعكس رؤى الله ، وأحلام الأبدية ، لولا الضباب الذى تُسدله رغبات الجسد ، وأشواقه ، واتجاهاته ، والتى تعطل حساسية النفس ، واستجابتها لإعلانات السماء . فالعبادة الحقيقية هى العبادة تحت قيادة الروح . وهى العبادة التى توصّل الإنسان إلى الشركة المباركة مع الله . ان العبادة الحقيقية لا تعتمد كلية على الإتيان إلى مكان معين ، ولا تهتم بالتمسك بتقليد من التقاليد ، أو ممارسة من الممارسات ، ولا تظن أن إرضاء الله فى تقديم الهدايا والتقدمات. إن العبادة الحقيقية تعتمد على لقاء روح الإنسان ، الجوهر الخفى فى أعماقه ، بالله الذى هو الروح الأسمى غير المنظور ، والذى يتطلب منا عبادة الروح والحق .

ثم تُختتم هذه الفقرة الرائعة ، بتصريح عظيم من فم السيد . لقد فتح السيد ، بحديثه وإعلاناته ، آفاقاً عظيمة أمام هذه المرأة السامرية ، آفاقاً لم يكن من السهل عليها ، فى جهلها ، وجسدانيتها ، وخطيتها ، أن تتفتح مداركها لتفهمها ، وتستوعبها ، وتصل إلى إرتفاعها . وهكذا اكتفت بالقول : « أنا أعلم أنه حينما يأتى المسيا ، المسيح الممسوح منذ الأزل ، فهو سيكشف لنا كل شىء ، ويعلن لنا أسرار الحق » . ويجيبها السيد : « أنا الذى أكلمك هو » ومادام الذى يُعلن لها هذا الحق هو المسيا ، الممسوح منذ الأزل فى وظيفته ، وهو « هُوَ » يهوه الإبن الأزلى فى أمجاد لاهوته ، فكل ما ينطق با حق وصدق .

المشاركة فى الدهشة

« وعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَلَامِيذُهُ وكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّه يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ . ولَـكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مَاذَا تَطْلُبُ أَوْ لِمَاذَا تَتَكَلَّمُ مَعَهَا

فَتَرَكَتِ الْمَرْأَةُ جَرَّتَهَا ومَضَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وقَالَتْ لِلنَّاسِ . هَلُمُّوا أُنظُرُوا إِنْسَانًا قالَ لِي كلَّ مَا فَعَلْتُ . أَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ . فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وأَتَوْا إِلَيْهِ ».

(يوحنا ٤ : ٢٧ ـ ٣٠)

وليس بالكثير على التلاميذ، أن تستولى عليهم الدهشة ، عندعودتهم من مهمتهم فى سوخار ، فإذا بهم يشاهدون معلمهم جالسا على البئر ، يتحدث مع امرأة سامرية . ولقد أشرنا بين السطور ، إلى مقام المرأة عند اليهود . يقول الأحبار فى تقاليدهم : « لا ينبغى أن يتحدث الإنسان إلى إمرأة فى الطريق، حتى ولو كانت زوجته ». والمرأة ، فى نظرهم، أحقر من أن تستوعب الشريعة، وتُلَقَّن أسرار الناموس «وخير لكلمات الناموس أن تُحرق بالنار، من أن تلقن لامرأة» ومن تعاليمهم أيضا: «فى كل مرة يُطيل المرء حديثه مع امرأة، يجلب الشر على نفسه، وينحرف عن وصايا الناموس ، وفى النهاية يرث جهنم » . ان يسوع ، كان فى نظر التقليد اليهودى ، قد ارتكب أشنع وأرهب تصرف ، بحديثه مع هذه المرأة . ولكننا أسلفنا أيضا أن يسوع كان فى تصرفه هذا ، محطما لأحد الحواجز التى أقامها التزمت ، والعقلية الجامدة . . ثم تتبع ذلك لمسة مذهلة ، تعلن لنا الكثير ، ولا يمكن أن يسجلها إلا شاهد عيان لتلك الحادثة . فبالرغم من الدهشة البالغة التى استولت على التلاميذ ، لم يفكر أحدهم أن يسأل المرأة عن بغيتها فى الحضور إلى المكان ، أو يسأل يسوع عن هدفه من الحديث معها. لقد تكشفت لهم من قبل ذاتية الرب يسوع وصفاته . وكانوا على يقين من أنه مهما أتى من أعمال ، قد تبدو غريبة فى مظهرها ، فلا مجال للتساؤل ، أو مناقشة هذه الأعمال . إن الإنسان الذى يستطيع أن يقول : ليس لى أن أتساءل عن

تصرفات يسوع معى ، أو مطاليبه منى ، فأمام أعماله وأوامره ، ينبغى أن يتلاشى كل اعتراض أو فضول — هو بالحقيقة إنسان قد وصل إلى درجة رفيعة فى التلمذة الحقيقية للمعلم الأعظم .

أما المرأة ، فانها كانت قد تركت جرتها عند البئر ، وأسرعت إلى القرية . وكونها قد تركت جرتها ، يشير إلى حقيقتين : الأولى أنها فى عجلتها للسعى إلى الآخرين ، لإشراكهم معها فى اختبارها المبارك ، نسيت كل شئونها الخاصة. والثانية ، أنها كانت مصممة على العودة إلى السيد مرة ثانية ، لتقدم له خدماتها. ان تصرّف هذه المرأة يقدم لنا أروع صورة للاختبار المسيحى الصادق ، فى أطواره المتباينة .

١ — لقد بدأ هذا الاختبار معها ، باكتشاف حقيقة نفسها . . . بمواجهة حياتها التافهة ، واعوجاج سلوكها ، وسيرتها المشينة وجها لوجه . . . بالإقرار بذنوبيتها ، وبالتالى بعجزها عن أن تصلح كيانها ، أو تغيّر طريقها الشائك المرير . وهكذا حدث أيضا مع بطرس . ، حينما دخل السيد إلى سفينة الصيد الذى كان يعمل بها ، فى الوقت الذى أجهد نفسه طول الليل فى الصيد ولم يصطد شيئا ، ولكن حينما قال له المسيح « ألق إلى جانب السفينة الأيمن » ، فلما ألقى الشباك لم يعد يستطيع أن يجذبها من كثرة السمك ، حتى كادت الشباك أن تتمزق . فجاءت السفينة الثانية لمعاونته ، وامتلأت السفينتان بالسمك حتى أخذتا فى الغرق ، فاننا نقرأ أنّ الدهشة اعترت الجميع من كثرة الصيد ، حتى أن بطرس خرّ ساجدا أمام السيد ، وهتف له فى تأثر : «أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطىء » (لوقا ٥ : ٨). ففى نور لاهوت المسيح ، وجلاله المعجزى ، وسموه الفريد ، رأى بطرس حقيقة نفسه ، وأقر بعجزه . وكثيرون يستطيعون أن يختموا على صدق هذا الحق ، فى اختبارهم الشخصى . فحينما أشرق نور

المسيح على حياتهم ، استطاعوا أن يدركوا حقيقة أنفسهم ، وتولاهم شعور قوى بالمذلة ، يصل بهم إلى حد احتقار النفس ، وازدرائها . يقول الكتاب : « القلب أخدع من كل شيء ، وهو نجيس ، من يعرفه ؟ » .

وآخر شيء يصل إليه الإنسان هو معرفة حقيقة ذاته . انه يستطيع أن يبصر جيداً عيوب الآخرين ، أما عيوبه فإنهـــا تخفى عليه . ولكن أول ما يحدث للانسان عند لقائه مع المسيح ، هو أن يرغم على أن يفعل ما كان يتجنب عمله طيلة العمر : أن ينظر إلى نفسه ، ويرى حقيقتهـــا ، ويبصر ذاته فى نور الله الفاحص .

٢ — ولقد ذهلت المرأة السامرية ، حينما اكتشفت مقدرة المسيح على التغلغل إلى أعماق كيانها ، والوصول إلى أسرار حياتها . لقد أذهلها معرفته الدقيقة بأسرار النفس البشرية وبأسرار نفسها على وجه التحديد . ومن قبل استولى على المرنم فى القديم ، نفس الشعور بالدهشة الممتزجة بالخوف ، من إدراك الله لأسرار نفسه ، وكشفه لأعمق أعماقها . وهكذا هتف يقول فى المزمور المئة والتاسع والثلاثين : « يارب قد اختبرتنى وعرفتنى . أنت عرفت جلوسى وقيامى . فهمت فكرى من بعيد . مسلكى ومربضى ذريت ، وكل طرقى عرفت لأنه ليس كلمة فى لسانى . إلا وأنت يارب عرفتها كلها . من خلف ومن قدام حاصرتنى ، وجعلت علىّ يدك . . . أين أذهب من روحك ، ومن وجهك أين أهرب . إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . ان فرشت فى الهاوية فها أنت . إن أخذت جناحى الصبح ، وسكنت فى أقاصى البحر ، فهناك أيضاً تهدينى يدك ، وتمسكنى يمينك . . » (مزمور ١٣٩ : ١ — ١٠) .

ويروى عن « سبرچن » أن فتاة صغيرة كانت تجلس بجوار أمها ، تستمع إلى إحدى عظاته . وبعد أن انتهى أمير الواعظين من الخدمة ، همست لأمها :

« ماما ، من أين له معرفة ما يجرى بين جدران بيتنا ؟ ! » اننا مهما حاولنا أن نلتحف بالتستر . . بالكتمان . . . بالرياء . . . بأية وسيلة من الوسائل ، التى نحاول أن نخفى بها أعماق حياتنا ، فإنه لا يوجد ستار ، مهما كان سميكا ، يمنع المسيح من أن ينفذ بنظرته الفاحصة إلى أعماق السر ، والسريرة ،وأغوار القلب البشرى . وهو لاينظر الجانب الردىء فحسب ، بل أنه يرى أيضاً الإمكانيات الكامنة فيه، والتى يمكن بعثها ، ونفخ الحياة فيها ،لتقوم من رقدة الموت ، وتعمل عمل الابطال . ان طبيب النفوس العظيم هو الجراح الذى ينفذ ببصيرته إلى العضو التالف ، الذى يلزم بتره . ولكنه ، فى نفس الوقت،يرى إمكانيات الصحة والازدهار ، التى تعقب هذه العملية الجراحية .

٣ — ولقد رأينا أيضاً كيف أن السامرية لم تكتف بأن تتمتع بإشراق النور على نفسها ، بل سارعت لتنادى للآخرين بهذا الاكتشاف المبارك. انها حين اكتشفت المن السماوى ، لم تكتف بأن تأكل ، وتشبع ، بل أسرعت لتنادى الجياع ليأكلوا ، ويتمتعوا ، وينالوا البركة .. وهى إذ أبصرت الينبوع الحى ، لم يكفها أن تطفىء ظمأها ، بل ان قلبها أصبح ينبوعاً فياضا ،يفيض على الآخرين بالمياه العذبة . إن الحياة المسيحية تقوم على عمودين متشابهين : اكتشاف الحق وقبوله ، ثم اعلان هذا الحق للآخرين . وبناء الحياة لا يقوم على عمود واحد منهما . إن كنا نظن بأننا اكتشفنا ينبوع الحياة ، فإن عدم توصيل البشارة للآخرين معناه إن نفوسنا لم ترتو منه . فلن يكون اكتشافنا كاملا ، ما لم تملأنا الرغبة فى مشاركة الغير لنا . والبرهان الحقيقى على أننا قبلنا المسيح فى حياتنا ، وتربع على عرش قلوبنا ، هو إعلانه للآخرين. ان كنا قد نلنا الشفاء من مرض الخطية القاتل ، فلنخبر بكم صنع بنا الرب ورحمنا . ولننادى المرضى بأن يسرعوا إلى عيادة الطبيب الأعظم .

٤ ـ نلاحظ أن هذه الرغبة فى مشاركة الآخرين لما فى اختبارها، قد طغت على كل المشاعر الاخرى فى قلبها ، والتى كان ممكنا أن تقف حجر عثرة فى طريقها ، وتعطلها عن المناداة بالحق ، مثال ذلك الشعور بالخجل . لقد كانت هذه السامرية ، ولا شك ، امرأة من سقط المتاع . لقد كانت امرأة فاجر نبذها المجتمع الإنسانى ـ حتى مجتمع السامرة بكل ما فيه من عيوب . لقد كانت تتحاشى الظهور أمام الآخرين ، وهذا سر خروجها ساعة القيلولة ، وكان الناس ينبذونها ويتحاشونها ويطاردونها ، وهذا سر سيرها هذه المسافة الطويلة لتستقى من البئر البعيدة التى تقع خارج المدينة . ولكننا نراها الآن تسرع إليهم غير عابئة بشىء . . . غير عابئة بهزء المستهزئين ، وسخرية الساخرين . انها على استعداد أن تشهد الناس أجمعين على حياتها ، وتنادى لهم بقسوة حالتها ومرارة طريقها ، ما دامت قد نالت الخلاص من كل هذه . فطالما كان الإنسان تحت نير الظلمة ، فانه يحاول أن يستر عيوبه بستار الظلام . . طالما كان يحتفظ بخطية محبوبة فى أعماقه ، فإنه يحاول أن يستر هذه الخطية عن عيون الناظرين ، ونظرات المتطفلين . . . طالما كان تحت لعنة البرص الرهيب ، فانه يحاول أن يخفى قروح المرض ، وعلاماته الرهيبة عن عيون الناس . ولكنه حين ينبذ الظلام ويشرق عليه النور ، فلا مانع عنده بأن يذكر مرارة حياة الظلام . . وحالما ينال الشفاء من المرض القاسى ، فان اسمى سعادة له ، تكون فى المقارنة بين ما كان عليه ، وما وصل إليه . . بين حالته الأولى ، وبين الحياة الجديدة التى نالها على يدى طبيب النفوس . فقد يظل الإنسان كاتما خطاياه طالما كان فى خطاياه ، ولكنه إذ يكتشف الخلاص ، ويناله فى قبول يسوع المسيح ، وفى عمل نعمته ، فانه لن يتراجع من أن يهتف : « انظروا ما كنت عليه ، وما صرت إليه . وهذا كله بسبب ما عمله يسوع من أجلى ، وفى حياتى » .

الطعام المشبع

« وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين يا معلم كل . فقال لهم أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم . فقال التلاميذ بعضهم لبعض ألعل أحداً أتاه بشيء ليأكل . قال لهم يسوع طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله » .

(يوحنا ٤ : ٣١ — ٣٤)

مرة أخرى نرى هذه الفقرة ، تسير على نفس النمط الذى يسير عليه يسوع فى نقاشه مع سواه ، وهى الصورة التى تنفرد بإظهارها البشارة الرابعة . هنا نرى السيد يقول شيئاً يسيء السامعون فهمه . فهو يتحدث عن شيء له مدلوله الروحى الخفى ، وظاهره الذى يمكن أن يشير إلى غير ذلك . ولكن السامعين لا يدركون إلا المعنى الحرفى الظاهر . وشيئاً فشيئاً يكشف يسوع المعنى الذى يرمى إليه ، فيصبح ظاهراً واضحاً لمن له أقل ذرة من الإدراك . هذا ما فعله يسوع فى محاورته مع نيقوديموس عن الولادة الجديدة ، وهذا ما فعله مع السامرية حينما تحدث معها عن الماء الحى ، الذى يروى النفس إلى الأبد ، وهذا ما يفعله هنا مع تلاميذه فى حديثه عن طعام الحياة ...

وحتى تلك الساعة ، كان التلاميذ قد رجعوا من المدينة حاملين الطعام . وتقدموا من يسوع طالبين أن يشاركهم فيه . لقد كانت السفرة طويلة ، والجو مشرقاً ، وهذه العوامل لا بد وأن تفتح شهية الإنسان للطعام . ومع ذلك ، ها هو يبدو وكأنه ليست به حاجة إليه . لقد كانت ليسوع رسالته المباركة ، وهدفه الأسمى . وهذا الهدف الأسمى قد طغى على كيانه

الإنسانى ، وتغلب على مشاعره الجسدية ، حتى أبتعلت حياته كلها فى هذا الهدف الواحد .

وحتى لو ركزنا الأضواء على الجانب الناسوتى فى حياة يسوع ، فإننا لن نندهش لهذا . فالأمثلة كثيرة فى حياة المصلحين ، والعظماء — نقولها بكل احترام . لنأخذ مثلا « ولبر فورس » محرر العبيد . فقد كان إمرءاً ضعيفا هزيل البنيان ، كيانه ليس سوى مجموعة من الأوصاب . وحينما قام لأول مرة فى مجلس العموم ، ليخطب مُدافعاً عن آرائه ، نظر إليه أعضاء المجلس باستخفاف ، وابتسامة السخرية على شفاههم . ولكن ما أن مرت دقائق قليلة ، وتدفقت الكلمات الحماسية من شفتيه ، وارتفع صوته فى تأثير يملأ المكان ، حتى فغر الجميع أفواههم ، واصغوا إليه وكأن على رؤوسهم الطير . وفى كل مرة كان يخطب فيها ، كانت الجماهير تتكدس لسماعه . لقد تغلبت رسالته على ضعفه ، والهدف الذى ينادى به على أمراضه ، والغاية النبيلة التى يسعى إليها ، على عجزه الطبيعى . والمصلح المعروف « جون نوكس » يحتفظ لنا التاريخ بصورة رائعة له ، وهو يلقى عظاته فى شيخوخته المتقدمة . لقد وصلت به السن إلى الحد الذى يحتاج فيه إلى معـــــونة الآخرين لصعود درجات المنبر ، وهناك ما كان يستطيع أن يبقى منتصبا ، فكان يتكىء بمرفقيه على حامل الكتاب ، ولكن ما أن تمضى فترة غير طويلة على بداية الخدمة ، حتى يستعيد صوته رنينه القديم ويلتهب كيانه بحماسة الشباب ويبدو ، على حـــد قول المؤرخ ، وكأنه « سيحطم المنبر الخشبى إلى شظايا متناثرة ، ويقفز منه وسط الجمهور » . لقد كان روح الله، يملأ كيانه ، بقوة إلهية غير عادية تفوق قوة البشر .

ولقد أجاب يسوع تلاميذه ، بأن له طعاماً ليأكل لا يعرفونه هم . وفى سذاجتهم ظنوا أنه يشير إلى طعام مادى . وتهامسوا فيما بينهم ، إن كان أحدهم

قد أتاه بطعام . ولعلهم كانوا يقصدون المرأة السامرية ، الراجعة فى طريقها إلى المدينة . ولكن يسوع كفاهم مئونة الفكر والتخمين ، حين قال لهم « طعامى أن أفعل مشيئة الذى أرسلنى ، وأتمم عمله » .

ان مفتاح حياة يسوع هو خضوعه لإرادة الآب . وتفرُّد شخصية يسوع تكمن فى هذه الحقيقة : انه الوحيد الذى استطاع ، فى طاعته المطلقة للاب ، أن يهتف قائلا : ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت . أو بمعنى آخر نستطيع أن نقول ان يسوع هو الوحيد بين الأجيال ، منذ بدء التاريخ ، إلى نهاية الوجود، الذى لم يقم بعمل إرادته، بل كان يتمم فى حياته ،خطوة بخطوة، مشيئة الآب ، لقد كان رسول الآب ، وعلى الرسول أن يفعل إرادة الذى أرسله . وهذه الحقيقة تؤكدها البشارة الرابعة فى أكثر من مكان .

هناك كلمتان فى اللغة اليونانية ، وردتا فى بشارة يوحنا ، للدلالة على كون يسوع مُرسل من الله . الكلمة الأولى « أبو ستولين » التى تكرر ورودها سبع عشرة مرة ، والثانية « بمبين » التى وردت سبعاً وعشرين مرة . نقصد من هذا أن البشارة الرابعة تشير إلى يسوع كمرسل من الله ، لا أقل من أربع وأربعين مرة ، وذلك بشهادته الذاتية . وهو كمرسل من الله ، عليه أن يتمم إرادة الآب، والعمل الذى كلِّف به . فى يوحنا (٥ : ٣٦) نستمع إليه يتحدث عن العمل الذى أعطاه الآب إياه ليتممه . وفى (١٧:٤) نراه يتقدم إلى الآب فى صلاته ، وتوسلاته ، عن المؤمنين به ، متخذا من إتمامه لرسالته حجة قوية أمام الآب قائلا : « العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته» . وحينما يأتى مجال الحديث عن وضع حياته ، أو أخذها ، أو عن موته لأجل شعبه ، أو إمكانية نجاته من الموت ، نراه يقول « لى سلطان أن أضعها ، ولى سلطان أن آخذها أيضاً . هذه الوصية قبلتها من أبى » (١٠ : ١٨) . وفى الأصحاح السادس

يتحدث عن إرادة الله فى حياته فيقول : « نزلت من السماء لا لأعمل مشيئتى ، بل مشيئة الذى أرسلنى (٦ : ٣٨) « وإن كنت أنا أدين فدينونتى حق لأنى لست وحدى . بل أنا والآب الذى أرسلنى » (١٨ : ١٦) « الذى أرسلنى هو معى ولم يتركنى الآب وحدى ، لأنى فى كل حين أفعل ما يرضيه » . أما كونه يطلب من سامعيه حفظ وصاياه ، فذلك « لأن الكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى » يوحنا (١٤ : ٢٤) . وهذا هو محك المحبة الصادقة .. وطاعة يسوع لم تكن يوماً ملتهبة ، وفى يوم آخر فاترة ... لم تكن طاعة تشنجية ، نظير طاعتنا نحن ، ولكنها كانت جوهر حياته ، وينبوع كيانه ، والقوة المحركة الدافعة لكل برنامجه الحى . .

لقد كانت رغبته العظمى أن نتمثل بطاعته ، ونسير فى أثر خطواته . .

١ — لأنه فى عمل إرادة الله ، سلامنا الحقيقى . فلا سلام لنا فى تعارض إرادتنا مع إرادته أو تصلب قلوبنا أمام ملك الوجود .

٢ — وفى عمل إرادة الله سعادتنا الكاملة . فلا سعادة لنا حينما يتحدى جهلنا البشرى ، حكمة الله السامية .

٣ — وفى عمل إرادة الله قوتنا وانتصارنا . فحينما نختار طريق أنفسنا فلا سبيل لنا لطلب معونة القدير . . . وهكذا تكون النتيجة هزيمتنا ، واندحارنا . ولكن إن أخضعنا نفوسنا لله ، واخترنا طريق الله ، فاننا نذهب فى قوة الله ، واثقين بأن النصر لابد وأن يكون لنا فى النهاية .

لزارع ، والحصاد ، والحاصدون

« أَمَا تَقُولُونَ إِنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ثُمَّ يَأْتِي الْحَصَادُ . هَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ اُرْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وانْظُرُوا الْحُقُولَ إِنَّهَا قَدِ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ

وَٱلْحَاصِدُ يَأْخُذُ أُجْرَةً ، وَيَجْمَعُ ثَمَراً لِلْحَيوةِ ٱلْأَبَدِيَّةِ . لِكَىْ يَفْرَحَ ٱلزَّارِعُ وَٱلْحَاصِدُ مَعاً . لِأَنَّهُ فِى هَذَا يَصْدُقُ ٱلْقَوْلُ إِنَّ وَاحِداً يَزْرَعُ، وَآخَرَ يَحْصُدُ . أَنَا أَرْسَلْتُكُمْ لِتَحْصِدُوا مَا لَمْ تَتْعَبُوا فِيهِ . آخَرُونَ تَعِبُوا وَأَنْتُمْ قَدْ دَخَلْتُمْ عَلَى تَعَبِهِمْ » .

(يوحنا ٤ : ٣٥ — ٣٨)

ان ما حدث فى السامرة ، كان بمثابة رؤيا عظيمـــة أشرقت أمام عينى يسوع ، كاشفة له أسرار الحقل العظيم المتسع الذى ينتظر الحصاد الإلهى . فحينما قال ان بعد أربعة شهور يأتى الحصاد ، لم يكن يقصد على الإطلاق ، أن ميقات الحصاد الزمنى سيأتى بعد شهور أربعة، فى دائرة السامرة. فإن كان الأمر كذلك ، فإن هذا يعنى أن الرحلة قد تمت فى أوائل السنة ، أى فى فصل الشتاء ، حيث لاحرارة مرهقة. وهذا يتنافى مع وقائع القصة . فى ذلك الفصل تسقط الأمطار ولا يكون هناك حاجة بإنسان أن يسعى إلى بئر قريبة أو بعيدة ليستقى المياه ، لأن المياه تكون متوفرة فى كل مكان . ويبدو أن يسوع فى حديثه كان يستخدم مثلا سائرا ولقد كان اليهود يقسمون السنة الزراعية إلى فصول ستة . وكل فصل من هذه الفصول يستمر شهرين كاملين . فهناك فصل البذار ،والشتاء،والربيع ، والحصاد،والصيف ، وفصل الحرارة القائظة. فحينما تحدث يسوع بمثله كان يقصد القول :« انكم تقولون فى مثلكم انكم إن بذرتم البذار اليوم، فعليكم أن تنظروا أربعة شهور على الأقل ، قبل أن تبدأوا فى جمع الحصاد ». ثم رفع عينيه ، إلى المدينة القريبة ، والمنطقة التى تحيط بها . ولقد كانت سوخار واقعة فى وسط منطقة زراعية ، مازالت مشهورة بغلاتها ، وقمحها . والأراضى الزراعية فى فلسطين من الندرة بمكان . وبالفعل لا يمكن للانسان أن يتطلع ويرى حقول

الحنطة المتماوجة بالسنابل الذهبية ، فى غير هذه المنطقة . وهكذا تطلع يسوع ، مشيراً بيديه إلى المكان وقال : « انظروا ، ان الحقول بيضاء للحصاد . فى أى منطقة أخرى ، يحتاج الأمر إلى شهور أربعة ، ولكن انظروا هنا حصاد فى كل حين » . هنا مقارنة بين دائرة الطبيعة ، ودائرة النعمة . . . بين ما يحدث فى الزرع المادى ، وبين ما يحدث فى الزرع الروحى ، وهذا هو الذى يقصده يسوع . فنى هذه الحادثة ، رأى البذار يلقى ، فلا يلبث أن ينمو ، وتمتلىء سنابله بالحنطة ، وتتغير السنابل إلى اللون الأبيض ، ويأتى موسم الحصاد ، كل هذا يحدث للتو ، وفى الحال .

للكاتب المعروف « هـ . ف — مورثون » لمسة طريفة فى هذا الصدد ، اثبتها فى كتابه «فى خطوات السيدالمسيح ». فلقد كان يجلس بجوار بئريعقوب ، حينما شاهد جمعا من القرويين ، خرجوا من القرية القريبة ، وقد ارتدوا ملابسهم البيضاء ، متجهين إلى صعود سفح التل . كانت ملابسهم البيضاء تتألق فى نور الشمس ، وهم يصعدون فى تؤدة ، وقد تجمعوا فى جماعات ، وكأنى بهم حقل يتماوج بأكداس السنابل الفضية ، ويبدو أن شيئا مثل هذا المنظر ، قد صافح أنظار يسوع ، وهو يتحدث إلى تلاميذه ، فى الوقت الذى أسرعت فيه المرأة السامرية لتخبر أهل القرية بما حدث لها ، فاندفعت جماعات القرويين بملابسهم البيضاء الكتانية ، قادمين من هناك ، زرافات زرافات ، وهم يتدفقون كالسيل المندفع وسط الحقول ، فاذا بالسيد يشير إليهم ، ويهتف فى ابتهاج : « انظروا وتطلعوا إلى الحقول . ألا ترونها قد أبيضت للحصاد . الحصاد الروحى المبارك ؟». لقد كانت الجموع بملابسها البيضاء هى الحصاد الذى اشتاق السيد أن يجمعه لمجد الآب.

وهكذا أشار يسوع فى كلمته هذه ، إلى أن مالا يمكن حدوثه فى دائرة

الطبيعة، قد تم فى دائرة النعمة . فقد ألقى البدار فى التربة ، فسرعان ما تأصل ، ونما سوقه ، وازدهر ، وظهرت سنابله ، وامتلأت السنابل الفضية بالقمح ، وأصبح القمح اللدن ، حنطة جافة ناضجة ، وهكذا حلّ موعد الحصاد فى التوّ واللحظة . فلذلك فقد عمّ الفرح الزارع ، والحاصد على حد سواء . وهذا أمر ما كان يتوقعه إنسان . ففصل البـذار ، بالنسبة للفلاح اليهودى ، هو فصل المتاعب ، والضيقات ، وانتزاع اللقمة من أفواه الطاعمين ، لتلقى بين طيات التراب .

ان الفلاح هناك يلقى بحبات قلبه فى الحقل ، ويرويها بدمع عينه ، حتى إذا حلّ فصل الحصاد يحق له أن يفرح ،ويبتهج ، لأن موسم الحصاد ، هو موسم الأفراح . وكما يقول مرنم إسرائيل الحلو : « الذاهب ذهابا بالبكاء حاملا مبذر الزرع ، مجيئا يجىء بالترنم حاملا حزمه » (مزمور ١٣٦ : ٥ ، ٦) .

ولـكن هناك لمسة خفية ، تختفى تحت المظهر الخارجى لهـذه الـكلمات . فلقد ترددت ضمن كتابات اليهود ، وخاصة فى أسفار الأنبياء ، اشارات تدل على إيمانهم بعصر مبارك سعيد ، هو العصر الذهبى ، أو العصر الإلهى ، فيـه تصبح كل الممالك ملـكا لله ، وتدين بالطاعة والولاء له ، ويصبح هذا العالم ، عالمًا ، مباركًا ، سعيداً ، تنتفى منه الهموم ، والأحزان ، والأوجاع ، ويربض الدب مع الحمل ، ويلعب الطفل بالأفعوان ، والدبة ترعى الحشـائش كالبقرة . وفى ذلك العصر السعيد ستتم المعجزة المباركة التى فيها يلحق الحارث بالحاصد، وزارع الـكرم بعاصر العنب:« وها أيام تأتى يقول الرب يدرك الحارث الحاصد، ودائسى العنب باذر الزرع ، وتقطر الجبال عصيرا ، وتسيل جميع التلال » (عاموس ٩ : ١٣) . وفى سفر اللاويين نقرأ وعد الله ، للذين يسلـكون فى فرائضه، ويحفظون وصاياه :« يلحق دار سكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع،

فتأكلون خبزكم للشبع ، وتسكنون فى أرضكم آمنين » (لاويين ٢٦ : ٥) .
لقد كان حلماً من أحلام العصر الذهبى القادم ، أن بذر البذار ، يليه الحصاد ، والزرع يأتى فى أعقابه جمع المحصول ، وأن خصوبة الأرض تكون بهذه الصورة ، حتى أن أيام الإنتظار المريرة التى تفصل بين موسم الزرع ، وموسم الحصاد ، لن تكون . ولذلك فإن الخيال لن يشطح بنا بعيداً إذا قلنا ان يسوع قد قصد بقوله هذا أن العصر الذهبى ، السعيد ، المبارك ، الذى ينتظره الجميع من الصغير إلى الكبير ، قد أشرق فجره بظهوره ، وبدأ بمجيئه عصر الله على الأرض ، ومضت أيام الانتظار ، حين ظهر الكلمة المتجسد ، والبذار الحى قد ألقى فى التربة ، والحصاد السعيد قد ظهرت بوادره ، وتماوجت سنابله .

ولكن هناك فى الفقرة جانباً آخر ، يوجهنا السيد إليه ، بحديثه الحلو العذب . انه يقول لتلاميذه : « دعونى أشير إلى مثل آخر ، يختص أيضاً بالزرع ، والحصاد. دعونى أشير إلى المثل القائل ان واحداً يزرع ، والآخر يحصد » . وهو قد أقتبس هذا المثل السائر ليشير إلى حقيقتين :

ا — الأولى أن تلاميذه سيحصدون حصاداً لم يتعبوا فى زرعه على الإطلاق، ولم يبذلوا مجهوداً فى بذر بذاره . أما الزارع فهو شخصه الكريم ، وأما وسيلة الزرع فهى صليبه المبارك ، وقوة نعمته ، وعمل الروح القدس ، وأما دائرة الحقل المتسع، فهى ليست أقل من دائرة الوجود كله ، وأما الحصاد المتكاثر فهو نفوس البشر . وسيأتى الوقت الذى يخرج فيه تلاميذه حاملين مناجل الحصاد ، إلى أورشليم، واليهودية ، والسامرة ، بل إلى أقصى الأرض ، ليحصدوا الحصاد الذى لم يتعبوا فى زرعه . . . الزرع الذى زرعه بصليبه ، ورواه بدمه ، وغذاه بقوة حياته . . .

ب — الحقيقة الثانية أنه أشار فى هذا القول ، إلى أنه سيأتى الوقت الذى

يقوم التلاميذ فيه أنفسهم بدور الزارع ، ليحصد غيرهم ما تعبوا فيه . ولقد أتى الوقت على الكنيسة المسيحية ، فيه أرسلت رُسُلها ، ومُبشريها ، والعاملين فيها، ليبذروا بذار الكلمة ، ويرووه بدمائهم وبحياتهم . ولا يقدَّر لهم أن يشاهدوا الثمار على الإطلاق . ومعظم هؤلاء انتهت حياتهم بالإستشهاد ، وختموا على عقيدتهم بدمهم . ولكن ، كما قيل،دماء الشهداء كانت بذار الكنيسة .وكأنى بالسيد يقول لهم فى مثله هذا : « سيأتى يوم فيه تزرعون ، وتتعبون،ولا ترون ثمراً لأتعابكم . سيأتى يوم فيه تبذرون البذار ، ثم لا يلبث أن يسدل عليكم الستار ، قبل أن تشاهدوا سويقاته تشق التربة ، وتمتلىء بالثمار ، وتتماوج مع هبات الريح، وتنتظر منجل الحصاد . لا تخافوا ! ولا تخُرْ قلوبكم فى دواخلكم. ان الزرع لن يكون بلا جدوى . واختفاؤكم من حقل الخدمة ، ليس معناه إختفاء البذار إلى الأبد فى أعماق التربة ! أن فلذين سيأتون بعدكم سيحصدون الحصاد البهيج ، الذى لم يقدر لاعينكم أن تراه » .

وهكذا نرى فى هذه الفقرة ، أمرين على قدر كبير من الأهمية :

١ — الأول نرى فيه حثاً لنا على اغتنام الفرصة . فالحصاد ينتظر أن نحصده لمجد الله . هناك فترات فى تاريخ الشعوب ، يكون فيها الجميع فى حالة حساسية روحية ، وشعور متأجج نحو الله وتكون النهضة على الأبواب . ويا لها من مأساة أن تكون الكنيسة مركز الأشعاع ، وواسطة الانتعاش ،فى حالة نوم وركود ، وتفشل من أن تقوم بدورها الكبير .

٢ — الأمر الثانى ، نستمع فيه إلى صرخة تحدى . فقد يكون من نصيب إنسان أن يزرع ، ويقدَّر لغيره أن يحصد. لا ينبغى أن يكون فى هذا دافعاً لنا على التراخى .

وإذا رأينا خدمتنا فى إزدهار ، لا ينبغى أن يدفعنا هذا إلى الكبرياء ،

والافتخار . فكم من عامل فى كرم الرب ، كان السر فى نجاح خدمته ، ليس فى قوته ، ولا فى مواهبه ، بل فى خادم قديس كان قبله ، عاش أيامه ، وجاهد جهاده، وأدى دوره على أكمل وجه ، ومع ذلك بدا له وكأن مجهوداته ذهبت أدراج الرياح. غير أن الأثر الذى تركه لم يُمسَحَ ، والبذار الذى ألقاه أزهر فى غيابه أكثر مما قُدر له أن يزدهر فى حضوره . علينا أن نقوم بواجبنا مهما كانت الظروف، ذاكرين أن ليس الزارع شيئا، ولا الساقى شيئا ، بل الله الذى يُنمى.

يقال ان مسافرا رأى شيخا مسنًا ، يقوم بزراعة بضعة أشجار من شجر الزيتون . وشجر الزيتون لا يؤتى ثماره إلا بعد أمد طويل ، فقال له مشفقا : « وهل تنتظر أيها الرجل الطيّب أن يمتد بك العمر حتى تأكل من ثمار هذه الأشجار ؟ » . فكان جواب الرجل : « آخرون تعبوا قبلنا ، وقاموا بزراعة أشجار نظير هذه الأشجار ، ولم يقدر لهم أن يشاهدوا ثمارها . ومع ذلك دخلنا نحن على تعبهم وأكلنا ثمار مجهوداتهم ألا يليق بنا أن نقوم بواجبنا للاجيال القادمة ؟ » لنثق بأن زرع الله لا بدّ وأن يثمر ، وكلمة الله لا ترجع إليه فارغة . فان لم نقم نحن بواجبنا ، فهناك آخرون سيقومون بالعمل ، وينالون المكافأة .

مخلّص العالم

« فَآمَنَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ كَثِيرُونَ مِنَ السَّامِرِيِّينَ بِسَبَبِ كَلاَمِ الْمَرْأَةِ الَّتِي كانَتْ تَشْهَدُ أَنَّهُ قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ . فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ السَّامِرِيُّونَ سَأَلُوهُ أَنْ يَمْكُثَ عِنْدَهُمْ . فَمَكَثَ هُنَاكَ يَوْمَيْنِ . فَآمَنَ بِهِ أَكْثَرُ جِدًّا بِسَبَبِ كَلاَمِهِ . وقَالُوا لِلْمَرْأَةِ إِنَّنا

لَسْنَا بَعْدُ بِسَبَبِ كَلاَمِكِ نُؤْمِنُ. لِأَنَّنَا نَحْنُ قَدْ سَمِعْنَا وَ نَعلَمُ أَنَّ هٰذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ الْمَسِيحُ مُخَلِّصُ الْعَالَمِ».

(يوحنا ٤ : ٣٩ — ٤٢)

فى الأحداث التى وقعت فى السامرة فى هـذه الحقبة ، نستطيع أن نرى أنموذجاً للطريقة التى تنتشر بها بشارة الإنجيل. لقد كانت هناك خطوات ثلاث، لإيمان أولئك السامريين .

١ — الخطوة الأولى خطوة التعريف . وهذا لابدّ وأن يتم عن طريق واسطة من الوسائط . هنا نرى المرأة السامرية تقوم بدور وسيط التعريف ؛ فهى التى تدعو السامريين ، وترشدهم إلى المسيح . وهنا يرسم الوحى بكل وضوح ، حاجة الله للواسطة البشرية ، كما يقول الرسول بولس فى رسالته إلى أهل رومية : « فـكيف يدعون بمن لم يؤمنوا به ؟ وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به ؟ وكيف يسمعون بلا كارز ؟ . . . كما هو مكتوب ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام ، المبشرين بالخيرات » . (رومية ١٠ : ١٤ ، ١٥) .إن كلمة الله ينبغى أن تصل للانسان عن طريق الإنسان . والله لا يوصل رسالته للذين لم يسمعوا بانجيل خلاصه ، إلا عن طريق إنسان مكرس ، على استعداد أن يقوم بتوصيلها . والصوت الإلهى يدوى خلال الأجيال من فم رب الجلال ، هاتفا لـكل من عرف الحق : « من أرسل ومن يذهب من أجلنا ؟ »(اشعياء ٦ : ٨) . وطوبى للنفس المستعدة التى تعرف كيف تجيب بالقول : « هانذا أرسلنى . . فعلى الأرض يداه . . .

يدا أتقياهْ ،

تعملان الخير فيهم ،

لمـدى الحيـاة .

وعلى الجبال يسعى ،
فيمن اتقاهْ .
فهو فى الوجود فينا ،
يرشد العصاهْ .
وجلال الحق يدعو ،
من عُلاَ سمـاهْ :
فى ندائى . . . فى دعائى . . .
فى هدى الخطاة .

هنا امتيازنا الأعظم ، وهنا بالتـالى مسئوليتنـا الرهيبة . ان الضرورة موضوعة علينا . والويل لنا إن كنا لا نبشر. وأولئك الذين عرفوا الحق، واشرق عليهم النور ، ينبغى أن يرشدوا المالكين إلى الحق،ويرفعوا النورأمام القاطنين فى أرض الظلمة ، وظلال الموت . . إن الخطوة الأولى فى خلاص النفوس ، ينبغى أن تتم عن طريقنا نحن ، واليد التى تُوصل خطاب الله هى أيدينا نحن. نلاحظ أيضاً أن التعريف يزداد قوة وفاعلية بشهادتنا الذاتية، واختبارنا الشخصى. وها نحن نسمع المرأة السامرية تنادى قومها هاتفة : « هلموا انظروا إنسانا قال لى كل ما فعلت » . انها لم تنادِ بآراء لاهوتية ، ولم تشرح لهم نظريات فلسفية. فهى لم تـكن حاصلة على شهادة من كلية لاهوت . ولـكن شهادتها ، كانت قوية عميقة . . جبّارة ، مؤيدة بالقوة ، لأنها شهادة القلب المختبر ، والنفس التى ذاقت حلاوة الخلاص . إن الـكنيسة تستطيع أن تمتد ، وتتسع دائرتها، حتى تشمل دائرة الوجود كله ، فتصبح كل الممالك ملـكا للرب ولمسيحه، متى وُجد الرجال والسيدات المـكرسين ، المختبرين ، الذين عرفوا الحق واختبروه ، ووضعوا أنفسهم تحت التزام المناداة بهذا الحق ، وتوصيله للآخرين . .

٢ — الخطوة الثانية : الاقتراب الأكثر ، والمعرفة المتزايدة النامية . فبعد أن يتعرف الإنسان بالمسيح ، يتقدم خطوة أخرى إلى الالتصاق الأكثر به ، والتعرف الأقرب بشخصه . وهذا ما حدث مع السامريين . لقد أعلنت المرأة لهم لمحة من جلاله ، وأمجاده ، فإذا بهم يشتاقون إلى التعرف عليه أكثر فأكثر ، فيتهافتون عليه ، طالبين رفقته . وهكذا تقدموا منه طالبين ان يمكث معهم ، ليتعرفوا عليه ويتعلموا منه ، ويمتلئوا من أمجاده . صحيح أنه من الواجب أن يخطو الإنسان الخطوة الأولى فى التعرف بشخص المسيح . ولكن الوقوف عند هذا الحد ، هو بمثابة توقف فى بداية طريق طويل . علينا بعد التعرف عليه ، أن نزداد منه قرباً ، ونلتصق به ، ونحيا فى محضره المبارك على الدوام . من الممكن أن نجتذب إنسانا ، ونواجهه بنور المسيح ، لكن على ذلك الإنسان أن يختبر اختباره ، ويسعى ليكتشف المسيح بنفسه . فليس هناك إنسان ، يجتاز اختبارا لمصلحة آخر . قد يستطيع غيرنا أن يجتذبنا إلى شاطىء المحيط البللورى لنشاهد فى مياهه الصافية ، لمحة من كنوزه الخفيــة ، لــكن الغوص إلى الأعماق ، واكتشاف اللآلىء ، والخروج بالــكنوز الغنية ، هى مهمتنا نحن . علينا أن نتمتع بأنفسنا بصداقة المسيح ، وبعشرته ، ونتلذذ بالوجود فى حضرته . .

٣ — الخطوة الثالثة : اكتشاف غنى المسيح ، وتسليم الحياة له . وهنا نرى ما هية هذا الاكتشاف ، ومغزاه . لقد اكتشف السامريون فى المسيح ، مخلصاً للعالم . ويبدو أن هذا اللقب الأخير هو لمسة ذهبية من ريشة يوحنا الحبيب نفسه ومن اختباره . علينا أن نتذكر أن البشارة الرابعة كتبت بعــد صعود المسيح بمدة طويلة . أى أن البشير فى كتاباته ، كان يغمس ريشته فى مــداد اختبارات حياته الطويلة الناضجة ، وأفــكاره الحية عن يسوع . فهو وحده بين البشيرين الذى يتفرد بهذا اللقب ، كما يكرره فى رسالته الأولى : « ونحن قد نظرنا ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلصاً للعالم » (١ يوحنا ٤ : ١٤)

هذا هو اللقب الملكى الذى يقترن ، على الدوام ، باسم المسيح ، فى ذهن كاتب البشارة الرابعة ، بل هذه هى الوظيفة الاسمى التى خصصت للمسيح منذ الأزل ، منذ كيانه الأزلى ، من قبل الآب ، والتى ظهرت فى ملء الزمان فى مجيئه ، فى أعطائه اللقب المبارك «يسوع» ،لأن كلمة يسوع معناها يهوه يخلص ، كما ظهرت فى حياته البارة القدوسة من صباحها إلى مسائها وخدماته المضحية للانسانية التى ختمها بذبيحته الكفارية لخلاص العالم . وعلى ذلك لم يكن هذا اللقب من اختراع يوحنا ، ولم يكن لقبا جديدا أضفاه من مخيلته على شخص المسيح ، بل ان هذا اللقب كان لقبا إلهيا ترددبين صفحات أسفار العهد القديم . فيهوه إله الخلاص ، وهو المخلص ، وهو الإله المخلص، نستمع إلى هـــذه النغمة تتردد بوضوح فى المزامير ، واسفار الأنبياء .

بل لقد كان هذا اللقب أيضاً ، فى عصر يوحنا ، أحد الألقاب التى كانت تطلق على الأمبراطور الرومانى . فلقد كان الأمبراطور يعرف بمخلص العالم . وكأنى بيوحنا يقول للعالم الأممى الذى وجه إليه بشارته : « ان كل ما كنتم تحلمون به ، وتنتظرونه ، وتشتاقون إليه ، فتلصقونه بأباطرتكم ، قد تحقق أخيراً فى المسيح يسوع . وحسنا نفعل إذ نذكر على الدوام هذا اللقب ، ونعرف مركز مسيحنا كمخلص . فيسوع ليس مجرد نبى جاء إلى عالمنا ، حاملا رسالة من الآب ، وليس هـــو نذير جاء بصرخة إنذار وتوبيخ ، ملتهبا بنار الغيرة الإلهية ، ولا هو محلل نفسى ، عرف اغوار النفس الإنسانية ، ودرس أسرارها ، وتغلغل فى أعماق الفكر البشرى ، وقدم علاجا جديداً لأدواء البشرية . صحيح انه أظهر هذه كلها فى لقائه مع المرأة السامرية ، ومعرفته لأسرارها ، وتوبيخه الخفى لها، ولكنه أظهر أكثر من هذا ، إن يسوع ليس مجرد أنموذج ، أو مثال كامل ، يشير إلى البشر بأن يقيسوا حياتهم عليه ،

ويرتفعوا إلى مستواه ، ثم يتركهم يتخبطون فى ضعف بشريتهم . فالمثال الجامد ، قد يزيد من حيرة الانسان ، وحسرته ، ويثبط فى همته ، حينما يكتشف المرء عجزه عن الوصـــول إليه . انه يسوع قبل أن يكون نبيا . . . قبل أن يكون موبخا ومنذراً . . . قبل أن يكون معلما عارفا بأسرار النفس . . . قبل أن يكون مثالا كاملا يدعونا إلى حياة السمو . هو مخلص العالم ، والمخلص الوحيد للانسانية . وهذا معناه أنه يخلص شعبه من ماضى الخطية ، أى من ذنبها ، وجرمها ، ومن حاضر الخطية ، أى من قوتها وسلطانها ، ومن مستقبل الخطية ، أى من عقابها ، وأبديتها . لقد حطّم عن الإنسان قيود الإثم ، وأطلق أسرى الناس ، إلى حرية الرجاء ، وأشرق أمام المائتين فى الظلمة ، وظلال الموت ، بنور الحياة والمجد . وها أمامنا مثال واقعى فى حياة المرأة السامرية ، يظهر لنا قوة خلاص يسوع . ان المدينة بأ كلها قد نبذتها ، والعالم كله وصمها بوصمة العار ، ورأى فيها حالة مستعصية ، استمرأت الخطية ، وتلذذت بالاثم وسكرت بكأس النجاسة حتى النهاية ، فما عاد لها رجاء فى الحياة الكريمة . ولـكن يسوع استطاع أن يمسك بهذه الطينة القذرة ، ويشكلها بنعمته ، ويصنع منها إناء للكرامة ، نافعاً لله ، مستعداً لـكل عمل صالح . لقد كان خلاصه لها خلاصا مزدوجاً : فقد حطّم عنها قيود الماضى ، وفتح أمامها مستقبلا مجيداً جديدا . حقاً ما أعظمك ياسيدى المسيح فى خلاصك العجيب الذى تتقدم به للانسانية الساقطة ، فأنت وحدك الخليق بأن تأخذ اللقب العظيم : مخلِّص العالم .

الحجة التى لاتقاوم

« وَبعْدَ اليَوْمَيْنِ خَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَمَضَى إِلَى الجَلِيلِ . لِأَنَّ

يَسُوعَ نَفسَهُ شَهِدَ أَنْ لَيسَ لِنَبِيٍّ كَرَامَةٌ فِي وَطَنِهِ . فَلَمَّا جَاءَ إِلَى الْجَلِيلِ قَبِلَهُ الْجَلِيلِيُّونَ إِذْ كَانُوا قَدْ عَايَنُوا كُلَّ مَا فَعَلَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي الْعِيدِ . لِأَنَّهُمْ هُمْ أَيْضًا جَاءُوا إِلَى الْعِيدِ » .

(يوحنا ٤ : ٤٣ ـ ٤٥)

هذا المثل الذى نطق به يسوع ، أثبتته البشائر الثلاث الأخرى . بشارة مرقس ورد بهذه الصيغة « ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنــه ، وبين أقربائه ، وفى بيته » (مرقس ٦ : ٤) . وفى بشارة متى « ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بيته » (متى ١٣ : ٥٧). أما لوقا الطبيب فإنه يورد المثل على هذه الصورة « ليس نبى مقبولا فى وطنه » (لوقا ٤ : ٢٤) — ولكن الجوهر واحد . فهذا المثل القديم يستوى فى المعنى مع المثل الذى يردده الناس فى الغرب : الألفة تولد الاحتقار[1] . ومع أن البشائر الثلاث الائتلافية ، أو المتفقة فى سرد الأحداث التاريخية على حد تعبير اللاهوتيين ، تضع هذا المثل فى موضعه ، إبان احداث قام فيها السيد بزيارة بلدته ، أو مواطنيه ، فكان نصيبه الرفض والاحتقار ، إلا أن البشارة الرابعة تورده فى موضع غريب ، يبدو وكأنه لا يتفق مع منطق الأحداث التى تحيط به . هنا نرى يسوع يترك اليهودية ، بسبب المناقضــة التى حدثت هناك بخصوص قيام التلاميذ بمهمة عماد الجماهير ، ويتجه صوب الجليل ، لأن ساعة الصراع لم تــكن قد جاءت بعد . (يوحنا ٤ : ١ — ٤) . فيجتاز فى السامرة ، ويلاقى النجاح الذى لاقاه ، من إيمان المرأة السامرية برسالته ، وقبول السامريين له ، الأمر الذى لا بد وأنه أثار دهشته ، وفرحه فى آن واحد ، كما يبدو من نغمة الفرح التى نستمع إليها فى حديثه عن الزرع والحصاد . وبالطبع

---

(١) Familarity breeds Contempt.

لا بد وأن تأتى المتاعب فى أعقاب النجاح كالشهرة ، فلكل مجد ثمنه . ولذلك نرى أن يسوع قال فى نفسه ان أبعد مكان عن عرفان قيمة الانسان هو بيته ، وموطنه ، وبين أهله ، وأقربائه . هناك يتجنب الانسان الشهرة ، وما تجره فى أذيالها من متاعب .

وهناك يستطيع أن ينعم بشيء من الراحة بعيداً عن مضايقة الطالبين ، والمعجبين . فهو لاينتظر من اخوته . . . اقربائه . . مواطنيه أن يستجيبوا سريعاً لرسالته . هذا هو التفسير المنطقى لوضع المثل هنا . ولكن الذى حدث كان على النقيض مما توقعه يسوع .

فقد سبقته الشهرة التى حازها فى السامرة ، إلى دوائر الجليل . وموجة الأعجاب التى طغت على سوخار ومن فيها ، قد تماوجت فوصلت إلى قانا ، وما يحيط بها من قرى ، وضياع . فقبله الجليليون بفرح .

على أنه مهما يكن من أمر ، فان هذه الفقرة ، وما يلابسها من أحداث ، بالأضافة إلى الفقرة السابقة ، هى الحجة التى لا تقاوم والتى تقف مؤيدة للمسيح ورسالته ، وحقه الخالد . لقد آمن السامريون بالمسيح ليس إستناداً على قصة إنسان آخر ، لأننا نستمع إليهم يقولون للمرأة السامرية « اننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن » ، ولكن لسماعهم تعاليمه ، التى لم ينطق بها إنسان من قبل ، ولاختبارهم لقوته العجيبة المغيّرة للخطاة . وآمن الجليليون أيضا به ، ليس بسبب شهادة إنسان غريب ، ولكن لأنهم استمعوا فى أورشليم لتعاليمه الخالدة وشاهدوا بأعينهم معجزاته التى لم يسبق أن قام بها سواه. ان التعاليم التى نادى بها ، والمعجزات التى قام بها ، هى الحجج التى لا تقاوم ، والأساس الذى لا يمكن أن تزعزعه عواصف النقد ، أو تهجمات الأعداء .

وهذا هو واحد من الحقائق العظيمة التى تؤكد صدق الديانة المسيحية ،

بل لعله أعظمها على الاطلاق . فالاختبار المسيحى ، هو الحق المسيحى الأسمى .
فقد يبدو لنا،أنه من اللازم أن نجادل مع الآخرين حتى تنهار الحصون الفكرية
التى يحتمون بها ، وتتداعى قلاع الحجج التى يلجأون إليها .وقد يخيل لنا ، أنه
ينبغى علينا أن نطوّر أنفسنا ، وطريقة تقديمنا للمسيحية ،حتى نصل إلى إقناعهم
بصحتها ، وأمجادها . ولكن أصلح طريق نتقدم به إليهم ، فى معظم الحالات ،
هو أن نقول لهم : « تعالوا ذوقوا ماذقناه ، وتمتعنا به ، وانظروا ما نظرناه ،
ووجدنا فيه الحياة . لقد عرفنا ما هو يسوع،ونظرنا من هو يسوع ، واختبرنا
خلاص يسوع ، واننا لا نقول أكثر مما قالته المرأة السامرية : هلموا أنظروا .
لقد عرفناه ، ليس بسلطان العقل ، بل باختبار القلب . وكل ما نطلبه منكم ،
أن تأتوا ، وتجربوا ، وتلمسوا النتيجة » .

وهذا هو الحق ، فلا يمكن أن يقنع إنسان ، إنساناً آخر بصحة أمر ما ،
إلا إذا اختبر ذلك الانسان هذا الأمر ، وعرفه معرفة القلب ، واجتاز فى نفس
الخطوات التى اجتاز فيها ذلك الانسان ، حتى وصل فى النهاية ، إلى ما وصل
إليه . صحيح ان الاقتناع الفكرى قد يأتى بعد ذلك . ولكن الطريق الناجح
للبشارة الانجيلية ، يبدأ حينما نقول : انى أعرف ما فعله يسوع لى،لأننى اختبرت
خلاصه . ثم نستمر قائلين : تعالوا انتم أيضا وجربوه ،واختبروا ما يستطيع أن
يعمله بكم ، وفيكم. هنا نرى المسئولية موضوعة علينا . فلن يأتى الآخرون إلى
الينبوع الحى إلا إذا عرفوا أننا اتجهنا إليه فى ظمأنا ، فوجدنا فيه الرى.والحياة
ولن يقبلوا إلى المن السماوى ، إلا إذا ايقنوا اننا نلنا فيه الشبع والاكتفاء ،
ولن يعرفوا مزايا النور ، إلا إذا رأوا ثماره فى حياتنا أولا ، واشتاقوا أن
يتمتعوا به ، فما جدوى المناداة للآخرين ، بأن المسيح يهب النفس الحرية ،
والقوة ، والفرح ، والسعادة ، ان كانت حياتنا مختنقة بالقلق ، والتذمر ،

والحزن ، والارتباك ، والفشل ، والهزيمة ؟ ان كنا نريد أن نكسب نفوساً للمسيح ، ينبغى أن تكون حياتنا شاهدا ، حيا ، مؤيدا لأقوالنا . حتى إذا قلنا : هلموا أنظروا ما عمله ابن الإنسان فى حياتنا ، فان ذلك يدفعهم إلى السعى لنوال هذا الأختبار المجيد ، والتمتع بالبركات العجيبة .

إيمان رجل البلاط

« فَجَاءَ يَسُوعُ أَيْضاً إِلَى قَانَا ٱلْجَلِيلِ حَيْثُ صَنَعَ ٱلْمَاءَ خَمْراً. وكَانَ خَادِمٌ لِلْمَلِكِ ٱبْنُهُ مَرِيضٌ فِي كَفْرِناحُومَ. هٰذَا إِذْ سَمِعَ أَنَّ يَسُوعَ قَدْ جَاءَ مِنَ ٱلْيَهُودِيَّةِ إِلَى ٱلْجَلِيلِ ٱنْطَلَقَ إِلَيْهِ وسَأَلَهُ أَنْ يَنْزِلَ وَيَشْفِيَ ٱبْنَهُ لِأَنَّهُ كَانَ مُشْرِفاً عَلَى ٱلْمَوْتِ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ لاَ تُؤْمِنُونَ إِنْ لَمْ تَرَوْا آيَاتٍ وعَجَائِبَ قَالَ لَهُ خَادِمُ ٱلْمَلِكِ يَا سَيِّدُ ٱنْزِلْ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ ٱبْنِي . قَالَ لَهُ يَسُوعُ ٱذْهَبْ . ٱبْنُكَ حَيٌّ . فَآمَنَ الرَّجُلُ بالْكَلِمَةِ ٱلَّتِي قَالَهَا لَهُ يَسُوعُ وذَهَبَ . وفِيمَا هُوَ نَازِلٌ ٱسْتَقْبَلَهُ عَبِيدُهُ وأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ إِنَّ ٱبْنَكَ حَيٌّ . فَاسْتَخْبَرَهُمْ عَنِ السَّاعَةِ ٱلَّتِي فِيهَا أَخَذَ يَتَعَافَى فَقَالُوا لَهُ أَمْسِ فِى السَّاعَةِ السَّابِعَةِ تَرَكَتْهُ ٱلْحُمَّى. فَفَهِمَ ٱلْأَبُ أَنَّهُ فِى تِلْكَ السَّاعَةِ ٱلَّتِي قَالَ لَهُ فِيهَا يَسُوعُ إِنَّ ٱبْنَكَ حَيٌّ فَآمَنَ هُوَ وَبَيْتُهُ كُلُّهُ .

هٰذِهِ أَيْضاً آيَةٌ ثَانِيَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ لَمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْيَهُودِيَّةِ إِلَى ٱلْجَلِيلِ ».

(يوحنا ٤ : ٤٦ ـ ٥٤)

أجمع معظم المفسرين ، على أن قصة شفاء خادم الملك ، كما أوردها يوحنا البشير ، هى صورة أخرى لقصة شفاء ابن قائد المئة التى أوردها كل من البشير متى ، والبشير لوقا . (متى ٨ : ٥ — ١٣) ، (لوقا ٧ : ١ — ١٠) . ولكن هناك بعض الخلافات فى التفاصيل ، التى تجعلنا نعتقد أن هذه قصة أخرى مستقلة عن الأولى .

والآن دعنا نتأمل فى بعض الأمور التى تبدو فى سلوك رجل البلاط هذا ، والتى يصح أن نرى فيها مثالا للآخرين . .

١ — قبل كل شىء هنا نرى رجل بلاط أو رجلا ملكيا ، يسعى ليطالب المعونة من يد نجار . فى الأصل اليونانى الكلمة التى ترجمت خادم الملك ، أو رجل البلاط ، هى « بازيليكوس »ومعناها قد يشير إلى رجل مغمور من العائلة الملكية ، ولكنها يمكن أن تستخدم للدلالة على موظف ملكى . وعلى ذلك يرجح أن ذلك الرجل ، كان له مقامه الكبير فى بلاط هيرودس . أما يسوع ، فبحسب الوضع الاجتماعى لم يكن سوى نجار قروى ،من الناصرة . زد على ذلك أن يسوع كان فى تلك الفرصة فى قانا الجليل ،وهذا الرجل كان فى كفرناحوم وقانا تبعد عن كفرناحوم ، مسافة تقرب من عشرين ميلا . وهذا يفسر لنا . الوقت الطويل الذى استغرقه هذا الانسان فى عودته لمنزله ، وكيف أنه وصل إلى هناك فى اليوم التالى للقائه مع المسيح .

أليس من الأمور التى تدعو للدهشة ، أن نرى رجل البلاط ، الإنسان

صاحب المقام الكبير ، يشد الرحال من مدينته ، تاركا أسرته ، متنكراً لتقاليده مسرعاً حيث لم تكن سبل المواصلات مريحة أو سهلة ، ما يقرب من عشرين ميلا كاملة ، ليلتقى بنجار فقير ؟ لا بد وأن هذا الرجل داس على كبريائه التقليدية،فلقد كان فى حاجة ملحة،وحاجته دفعته إلى السعى للمسيح ،والوصول إليه بأى ثمن . وبالرغم مما يثيره تصرفه هذا من أقاويل أو شائعات ، فان هذا كله لا قيمة له فى نظره . انه لن يهتم بكلام الناس ، مادام سينال المعونة التى هو فى حاجة إليها . إن أردنا أن ننال معونة المسيح ، علينا أن نعرف كيف نتضع أمامه ، وننحنى ، وندوس على كبريائنا ، ولا نهتم بما يردده الناس عنا . فحاجتنا الماسة ينبغى أن تطغى على كل شعور آخر . .

٢ — وهنا نرى إنساناً راسخاً لاتزعزعه المثبطات ، ولاتوهن عزيمته العثرات . لاحظ ماقاله المسيح له عند لقائه به : « لاتؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب » أى أن إيمانكم إيمان ضعيف ، عاجز كفيف البصر ، يحتاج إلى أن يتلمس كل شىء ، حتى يثق ، ويتأصل ، ويثبت فى مكانه .

وقد يكون المقصود ذلك الجمع الذى تكدس حول يسوع ، بأفواه فاغرة وقلوب واجفة ، وهو ينتظر أن يرى نتيجة هذا اللقاء ، ونهاية هذه القصة ، وهل سيقوم السيد بصنع معجزة جديدة أم لا — لعل يسوع قد قصد الجمهور بهذه الكلمات الصارمة التوبيخية . ولكن من المرجح أيضاً أنه كان يعنى ذلك الرجل ، وكان يريد أن يمتحن إيمانه ، كما فعل مع المرأة الفينيقية السورية ، حينما واجهها بصورة أكثر صرامة ، قائلا لها :

« ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ، ويطرح للكلاب » (متى ١٥ ، ٢١ — ٢٨). ولو كان الرجل من معدن آخر ، لكان قد ثار لكرامته ، وأدار ظهره للعطية ، ومضى فى طريقه حزينا ، أو ساخطا ، وفشل فى الامتحان ،

وهكذا كان يثبت زيف إيمانه . ينبغى أن نكون جادين فى طلب معونة المسيح لا توهننا المثبطات ، ولا تقف فى وجوهنا العثرات . ان كنا نثق بأن حاجتنا لديه ، لنثبت وجوهنا أمامه .

٣ ـ ومن الصفات المثالية فى هذا الرجل أيضاً ، إيمانه العجيب . فها هو قد جاء من بلده البعيد ، مجهزا كل شىء ، ولعله كان يأمل أن يصطحبه يسوع ، ويستقل المركبة معه ، ويسعى إلى منزله ، ويضع يده على الغلام المشرف على الموت ، فينال الحياة ، ولكن هاهو السيد يقول له : اذهب ابنك حى . ترى ما معنى هذا القول ؟ هل شاهد المسيح حالة المريض عن كثب؟ هل رأى خطورة المرض ومستلزمات العلاج ؟ وهل من المنطقى ، أن كلمة ينطق بها يسوع من مكانه ، تسافر عشرين ميلا كاملة ، وتعمل عملها فى مريض على سريره ، يعالج سكرات الموت ؟ كيف يمكنه أن يؤمن بأن أبنه قد غالب المرض ، وانتصر على الموت ، وقام صحيحاً معافى ، وكل هذا بسبب كلمة قيلت من ذلك المكان البعيد ؟ لكن هذا الرجل ، كان له من قوة الإيمان مايدفعه إلى أن يثق بقوة المسيح ، ومقدرته المعجزية ، وهكذا نراه يعود فى طريقه فرحاً ، واثقاً أن البركة قد وصلت قبل وصوله ، والنعمة قد طرقت باب بيته ، قبل أن يطرق هو باب البيت ، والشفاء وصل إلى فلذة كبده ، قبل أن يصل هو إلى مشارف كفر ناحوم .

وهكذا سار فى طريقه بلا سلاح فى يده غير هذا الوعد الصادق . إن إيماننا بالمسيح يستلزم منا أن نثق بأن كل مواعيده حق وصدق . كم من المرات يكون إيماننا بسيدنا غامضاً مبهما ، غير واضح ، إذا تكاثف حولنا ضباب المتاعب وسودت سماءنا غيوم الضيقات ؟ علينا أن نثق بحبيبنا يسوع ونمسك به ، ولا نتخلى عن إيماننا به ، حتى ولو لم نبصر تحقيقاً لمواعيده منذ البداية .

فكل مواعيده فيها النعم ، لمجد الله بواسطتنا .

٤ ــ وهنا نرى ذلك الرجل لا يقف عند حد نوال البركة وكفى ، بل يتقدم إلى تكريس النفس والحياة للمسيح . ان كثيرين يتقدمون ليسوع فى متاعبهم ، فإذا انتهت تلك المتاعب ، عادوا إلى حياتهم الأولى . يقصدونه إذا تلبدت سماؤهم بالغيوم ، فإذا تحنن عليهم ، ومحا الغيوم ، فإنهم سرعان ماينسونه حينما تشرق الشمس .

هذا الإنسان لم يأخذ البركة من يد من أعطى ، ويفرح قلبه بها ، ثم ينسى من أعطاها . لقد آمن هو وأهل منزله . لقد آمن بأن يسوع هو المسيح مشتهى الأجيال ، بالرغم من أن الإيمان بيسوع كالمسيا المنتظر كان شيئاً قاسيا عسيرا على نفسية اليهودى المتعلم ، فكم بالحرى رجل البلاط ، الذى يعيش مع هيرودس ولا يمكن أن يتصور ملكا سواه؟ زد على ذلك كيف يمكن أن ينادى بإيمانه فى ذلك الوسط الذى يحيا فيه ، دون أن يلاقى الهزء والعار والسخرية ، وربما انتهى الأمر به إلى أن يفقد مركزه ؟ ولكن هذا الرجل كان إنساناً راسخاً لاتزعزعه كل هذه الصعوبات . لقد سمع عن يسوع ، والتقى بيسوع ، واختبر أمجاد يسوع ، ولم يبق إلا أن يسلم له القلب ، والحياة ، وهكذا تحول من إنسان محتاج يطرق باب المعونة والسؤال ، إلى عابد خاشع ، ومؤمن مكرس ، فى محراب ربه ، ومسيحه المبارك .

الاصحاح الخامس :

عجز البشر ،وقوة المسيح

«وَبَعْدَ هٰذَا كَانَ عِيدٌ لِلْيَهُودِ فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ . وَفِي أُورُشَلِيمَ عِنْدَ بَابِ الضَّأْنِ بِرْكَةٌ يُقَالُ لَهَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ بَيْتُ حِسْدَا لَهَا خَمْسَةُ أَرْوِقَةٍ . فِي هٰذِهِ كَانَ مُضْطَجِعاً جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنْ مَرْضَى وَعُمْيٍ وَعُرْجٍ وَعُسْمٍ يَتَوَقَّعُونَ تَحْرِيكَ الْمَاءِ . لِأَنَّ مَلَاكاً كَانَ يَنْزِلُ أَحْيَاناً فِي الْبِرْكَةِ وَيُحَرِّكُ الْمَاءَ . فَمَنْ نَزَلَ أَوَّلاً بَعْدَ تَحْرِيكِ الْمَاءِ كَانَ يَبْرَأُ مِنْ أَيِّ مَرَضٍ اعْتَرَاهُ . وَكَانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ بِهِ مَرَضٌ مُنْذُ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً . هٰذَا رَآهُ يَسُوعُ مُضْطَجِعاً وَعَلِمَ أَنَّ لَهُ زَمَاناً كَثِيراً فَقَالَ لَهُ أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ . أَجَابَهُ الْمَرِيضُ يَاسَيِّدُ لَيْسَ لِي إِنْسَانٌ يُلْقِينِي فِي الْبِرْكَةِ مَتَى تَحَرَّكَ الْمَاءُ . بَلْ بَيْنَمَا أَنَا آتٍ يَنْزِلُ قُدَّامِي آخَرُ . قَالَ لَهُ يَسُوعُ قُمِ . احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ . فَحَالاً بَرِئَ الْإِنْسَانُ وَحَمَلَ سَرِيرَهُ وَمَشَى . وَكَانَ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ سَبْتٌ » .

(يوحنا ٥ : ١ ـ ٩)

ضمن سلسلة أعياد اليهود ، كانت هناك أعياد ثلاثة ضرورية ، ملزمة . وعلى كل ذكر بالغ بين اليهود ، فى دائرة عشرين ميلا من أورشليم ، أن يحضر هذه الأعياد ، ويقوم بكل مراسيمها . أما هذه الأعياد فهى عيد الفصح ، وعيد الخمسين ، وعيد المظال .

ولقد اعتاد البشير يوحنا ، أن يؤرخ معظم الأحداث التى سجلهافى بشارته بالأعياد اليهودية، فهو يتحدث عن« فصح لليهود »(٢: ١٣) و « عيدلليهود» (٥ : ١) ، و « الفصح عيد اليهود » (٦ : ٤) ، و« عيد اليهود عيد المظال» (٧ : ٢) ، و « عيد التجديد » (١٠ : ٢٢) ، و « فصح اليهود » (١١ : ٥٥) .

ولا يمكن أن يكون هذا العيد ، عيد الفصح ، أو المظال ، لأنه فى كل مرة يذكرهما البشير بالإسم . كما أن هناك أسباباً أخرى تؤيد هذا النفى . فإن كان هذا عيد الفصح يكون يوحنا قد أغفل سنة كاملة من سنوات كرازة السيد ، ولا يمكن أيضاً أن يكون هذا عيد المظال الذى يليه ، فإن الفترة التى لاتتجاوز ستة شهور هى أقصر من أن تستوعب كل الأحداث التى حدثت خلال هذه المدة .

وإذا حاولنا أن نضع ترتيباً زمنياً للاحداث التى مرت بحياة المسيح حتى نصل إلى هذه الفرصة ، وإذا أخذنا بالترتيب الذى سار عليه البشير يوحنا وقلنا ان الفصح المذكور فى يوحنا (٦ : ٤) هو الفصح الثانى فى حياة المسيح ، فإن هذا العيد الذى أغفل ذكره يقع بين انقضاء الشتاء وابتداء موسم الحصاد ، وهو على ما يرجح واحد من الأعياد الصغيرة التى هى أقل الكل أهمية بالنسبة لليهود ، ولعله عيد « الفوريم » الذى كان اليهود يحتفلون به فى الرابع عشر من آذار الموافق التاسع عشر من شهر مارس ، وأن صعود يسوع

إلى أورشليم فى هذا العيد الصغير ، يدل على سرور يسوع فى وجوده فى بيت أبيه ، وسط العابدين ، فى كل فرصة تسنح بذلك .

وفى هذه المرة ، لم يكن التلاميذ مع سيدهم ، بل صعد يسوع إلى أورشليم بمفرده ، فهنا لا يرد أى ذكر للتلاميذ . وبجوار المدينة المقدسة ، كانت هناك بركة مشهورة تعرف باسم « بركة بيت حسدا » ومعناها بيت الرحمة ، وفى قراءات أخرى « بيت ظاطا » ، ومعناها بيت الزيتون وأصح النسخ الخطّية القديمة ، تجمع على الاسم الثانى ، كما أننا نعرف من كتابات « يوسيفوس » المؤرخ اليهودى المعروف انه كان هناك حى كامل من أحياء مدينة أورشليم ، يعرف باسم « بيت ظاطا » . أما كلمة « بركة » فقد وردت فى الأصل باسم « كولمبثرون » من الفعل « كولمبان » ومعناه يغطس ، فقد كانت هذه البركة من العمق ، بحيث يستطيع الإنسان أن يسبح ، ويغوص فيها . وتحت البركة يوجد مجرى خفى تحت الأرض ، بين الحين والحين ترتد مياهه ، وتتماوج فى قلب مياه البركة فتفور ، وتزبد .

وهكذا ساد الاعتقاد بأن ملاكاً ينزل ويحرك المياه ، وأن المريض الذى يسرع قبل سواه ، ويغطس فى المياه ينال الشفاء من أى مرض ألم به . ولعل تلك المياه كانت مياها معدنية ، وكانت بها بعض الخواص الطبية .

وينبغى أن نلاحظ أن يوحنا حينما سجل هذا الاعتقاد لم يكن يسجل اعتقادا يؤمن به هو ، أو يؤكد حدوثه وصحته ، بل كان يسجل اعتقاداً ساد على عقلية اليهود فى ذلك الحين ، وما زال سائداً فى بعض المجتمعات البدائية . ونحن لا ننكر وجود الملائكة والأرواح ، ولكن القدماء وصلوا إلى حد تخيّل الجو كله مكدساً بهم ، بحيث لا يمد الإنسان يده ، يميناً أو يساراً ، إلا وترتطم بالعشرات من هذه المخلوقات غير المنظورة .

وهذه الأرواح لها أماكنها التى تلجأ إليها،وتعيش فيها، وتجد راحتها هناك. كل شجرة.. وكل نهر.. وكل مجرى .وكل جبل،له روحه الجنى الذى يسكن فيه ، ويشرف عليه ، ويثور فيوقع الضرر إذا غضب ، وإذا رضى كان فى هذا كل الخير . ومن هذه الأرواح الطيب الخير ، ومنها المشاغب الضعيف ، الذى يسر بالأذى .

أما من جهة المياه ، فقد اعتقد القدماء بقدسيتها وفاعليتها ، وخاصة مياه البحار والينابيع . فالمياه ثمينة بهذا القدر ، قوية بهذا الحـــد ، نافعة وضرورية للحياة ، حتى أننا لا نستغرب أن يكون هذا شعور القدامى بالنسبة لهـــا . تأمل النهر يجرى فى بقعة جرداء ، فيحولها إلى قطعة من جنة عدن ، ثم تأمل مياهه إذا فاضت وطغت ، فألحقت الضرر بقرية آمنـة ، فهدمت بيوتها ، وشردت أهليها ! فلا شىء أجمل ، وأنفع من المياه ، ولا شىء أقوى خطراً منها .

يقدم أحد العلماء فى كتابه « التقاليد المتواترة فى العهد القديم [1] » أمثلة عديدة على تقديس القدامى للمياه . فالشاعر اليونانى القديم « هسيود » يقول انه حينما يُقدم الإنسان على خوض مياه نهر ، عليه أن يغسل يديه فى مياهه ، ويركع على شاطئه ، ويصلى للآلهة ، لأنه إذا خاض المياه بأيد نجسة ، جلب لعنة الآلهة عليه . ولعل هذا هو الأصل فى انتشار المصّليات على شواطىء الأنهار ، فى الريف ، فى الشرق . وحينما وصل الملك الفارسى « زركس » أو أحشويرش ، على رأس جيشه إلى مياه « ستريمون » فى تراقيا ، قدّم للآلهة خيولا بيضاء ، وقام السحرة الذين يرافقونه بالـكثير من الطقوس الأخرى ،

---

(١) Sir J. Frazer "Folk loreln the Old Testament"

قبل أن يتجاسر واحد من العسكر ، ويضع قدمه فى المياه . أما القائد الرومانى « لوكولوس » ، فقد قدّم للآلهة عجلا قبل أن يعبر نهر الفرات . وحتى يومنا الحاضر ، نجد بعض قبائل « البانتو » فى أفريقية الجنوبية الغربية ، تعتقد أن الأنهار تشرف عليها الأرواح الشريرة ، أو الشياطين . وعلى من يريد أن يعبر هذه الأنهار ، أن يسترضى هذه الأرواح بالقاء حفنة من القمح أو أى تقدمة أخرى قبل عبور المياه . فإذا حدث أن إنسانا لم يحسن السباحة ، فغرق ، فالأرواح هى التى دعته إلى هنـــاك . وفى وسط أفريقية ، نجد قبائل « الباجاندا » لا يحاول أفرادها أن ينقذوا إنسانا جرفه التيار ، لأن الأرواح هى التى تسحبه ، إلى مصيره . بل مازال البعض ، فى ريفنا الشرقى ، يعتقد بحلول الأرواح ، أو إشرافها على الآبار ، والينابيع ، ومجارى الميـــاه . وهكذا كان إيمان الناس بقدسية المياه فى القديم . لقد كان أولئك المرضى المكدسين ، فى أروقة بيت حسدا ، ينتظرون الشفاء بواسطة تلك المياه ، هم أبناء عصرهم ، يسودهم نفس الاعتقاد الذى كان سائداً فى القديم .

وكما فعل السيد فى مروره بالسامرة ليلتقى بامرأة خاطئة ، ويردها إلى الحياة ، ويرد الحياة إليها ، هكذا اتجه إلى هذه البركة ليلتقى بانسان معذب فى نفسه وروحه قبل أن يكون معذباً فى جسده ، فبالرغم من آلامه ، وأوجاعه ، ومرضه القاسى ، نستمع إلى نغمة الأسى ، تنبعث منه ، وهو يقول : « ليس لى إنسان » ، فلا سبيل له للشفاء ، حتى بتلك الواسطة الضعيفة ، لأنه لم يجد قلبا يعطف ، أو نفساً تواسى ، أو يدا تمتد لتقدم العون . ويسوع على الدوام ، صديق من لاصديق له ، ومعين من تتخلى عنه معونة البشر ، وأننا نجد السيد يتبع أسلوب المحلل النفسى الخبير بأعماق نفس مريضة . فهو لا يصدمه بتفاهة معتقده ، ولا يلقى عليه محاضرة طويلة فى عدم جدوى المياه المعدنية التى ينتظر منها الشفاء

من دائه العضال ، فقد تصلح هذه المياه لشفاء مريض أثرت نفسيته فى وظائفه العضوية . أما هذا فلا فائدة ترجى له من انتظاره . انه مريض مزمن له ثمان وثلاثون سنة كاملة . والمرض قد هدّ كيانه ، واتلف أعضاءه . لقد كان يسوع ، يرى أن هذه الحالة تحتاج للعلاج السريع وبكلمة منه نال ذلك المريض الشفاء الذى انتظره طويلا ، ولم يصل إليه .

فى هذه القصة نستطيع أن نرى بوضوح الظروف التى تعمل فيها قوة المسيح . وينبغى أن نلاحظ أن السيد فى حديثه يستخدم صيغة الأمر . انه يصدر أوامره للبشر ، وبقدر طاعتهم لتلك الأوامر تأتى القوة وتحدث المعجزة .

١ — فلقد بدأ بسؤال ذلك الإنسان ، ان كان يريد أن يبرأ من مرضه . وقد يبدو هذا سؤالا لا محل له ، ولكنه ليس كذلك . فلقد مضت أعوام طويلة على ذلك الانسان ، ولعل الرجاء قد مات فى أعماقه ، وخلّف مكانه اليأس القاتل . أو لعله كان راضيا عن الحالة التى هو فيها ، لأن مرضه يدفع الكثيرين للعطف عليه .

فإذا نال الشفاء ، فإن عليه أن يحمل حمل نفسه ، ويمسك بزمام أمره ، ويهجر للأبد حياة الكسل ، والتواكل . هناك أناس يستريحون لما يصيبهم من عجز لأنه يوجد من يحمل أحمالهم ، ويقوم بأعمالهم ، ولكن ذلك الرجل لم يكن من هذا النوع . لقد استجاب استجابة سريعة لسؤال المسيح . وحرّك السيد فى نفسه أشواقه الكامنة للجسم السليم ، والحياة السوية الكريمة . ان أول خطوة رئيسية فى نوال قوة المسيح هى الرغبة الأكيدة فى نوال هذه القوة فيسوع يأتى الينا ، وكلنا مرضى بالذنوب والخطايا ويسأل الواحد منا : « هل ترغب حقا فى تغيير مجرى حياتك ؟ أم أنت مكتف بالحالة التى أنت فيها ؟ هل تريد أن تدير ظهرك للماضى وتبدأ من جديد ؟ فإن كنا فى قرارة نفوسنا ، مكتفين بما نحن فيه ، إن كنا لا نرغب فى ان نغير

ما بأنفسنا ، فلن يحدث أى تغيير لنا ، ولن يرجى أى إصلاح لحالتنا .

٢ — وحينما رأى يسوع الرغبة من جانب الرجل ، تقدم إلى الخطـوة الثانية ، فأصدر أمره للمريض بأن يقوم من مكانه . وكأنى بالسيد يقول للرجل « أيها الإنسان ابدأ معى . اثبت إيمانك بمقدرتى بصورة عملية . إن معجزتى لن تتم فيك، إلا إذا كانت لك العزيمة القوية ، والإرادة التى لاتستسلم للمرض . تعال واستخدم ماتبقى لديك من عزم ». إن قوة الله لا تتعارض مع مجهـــود الإنسان ، ومعجزة الله لا تنفى استخدام وسائط البشر .

إن الإيمان ليس أمراً سلبيا مثبطا للعزيمة ، ولـكنه قوة إيجابية ، حيَّة ، عاملة . إننا لا يمكن أن نسترخى على فراش الـكسل ، وننتظر من الله أن يعمل بمفرده . صحيح نحن لا حول لنا ، ولـكن قوة الله لن تعمل فينا إلا متعاونة مع إرادتنا ، وعزمنا ، وتصميمنا .

٣ — ولقد كان يسوع بالفعل ، يطلب من الرجل المستحيل ، لولا القوة المعجزية التى صدرت من السيد . ولعل الرجل قد قال فى نفسه ، لو كانت لى القوة لأقوم من مكانى ، وأحمل فراشى ، لفعلت ذلك منذ أمد بعيـد ، ولما بقيت فى هذا المـكان ، طيلة هذه الأعوام . إن سريرى هو الذى قام بحمـلى طيلة هذه المدة ، فـكيف أستطيع أن أحمله ؟ ولـكننا فى إطاعة وصية الله لنا ، تسرى قوته فى كياننا المائت ، وتتم مقدرته ، فى ضعفنا وعجـــزنا ، وتفيض عزيمته فى هزالنا ، ومواتنا ، وتتم فى النهاية معجزته فينا .

لاحظ أن كلمة سرير وردت فى الأصل اليونانى ، باسم « كراباتوز » وهى كلمة يونانية دارجة معناها فراش ، أى أن السيد قال له قم أحمل فراشك وامش. ولما همّ الرجل بإطاعة الأمر ، وجدت المعجزة طريقها إليه .

٤ — وهذا هو طريق الحصول على أى بركة، والانتصار على أى صعوبة، مهما كانت قاسية ، وعسيرة . هناك أمور قصيرة فى هذا العالم تضربنا ، وتهزمنا وتنتصر علينا . ولكن متى وجدت العزيمة الصادقة فينا . . . متى وضعنا فى قلوبنا ألا نستسلم لها . . . متى طرحنا عنا رداء الكسل والتراخى ، وقمنا من فراش العجز والتواكل ، فإن هذه الصعوبات ، وإن كانت فى ارتفاع الجبال ، فإنها تتزحزح من أمامنا بعيداً . وبقوة المسيح نستطيع أن ننتصر على كل مايلاقينا من ضيقات .

المعنى الرمزى (تابع)

(يوحنا ٥ : ١ — ٩)

قبل أن نترك هذه الفقرة ، ونتقدم للتأمل فى سواها ، علينا أن نعرض لبعض المعانى الخفية التى تستتر خلفها . ولقد حاول البعض من المفسرين أن يروا فيها قصة رمزية . ومع إيماننا بأن هذه المعجزة قد وقعت بالفعل ، إلا أنه لابأس علينا أن نعرض لما يقول أولئك لأن فيها بعض المعانى الجميلة .

قالوا إن الرجل المريض يرمز إلى الأمة الإسرائيلية، والأروقة الخمسة تشير إلى أسفار موسى الخمسة، أى أسفار الناموس وفى هذه الأورقة التى ترمز إلى الناموس ينطرح الشعب مرضى، معذبين، مفلوجين، عاجزين، تغطيهم القروح، وتهد كيانهم الأوصاب ، وهم لايجدون فى الناموس شفاءهم من ضربة الخطية ، ولعنة الأثم . لأن بالناموس معرفة الخطية ، ولكن لاقوة فيه على شفاء ضربة القلب . انه المرآة التى تظهر عيوب الإنسان ، ولكن لاقوة فيه على التطهير من هذه العيوب. إنه اليد التى تشير إلى الطريق السوى ، ولكنه لا يعين السائح المسافر على السير فى تلك الطريق ، إنه الصوت الصارخ الذى يختلط فيه هتاف النذير ،

بنداء التحذير ، ولـكنه لا يهب العون لتجنب المصير . إنه يكشف الغطاء عن ضعفات الإنسان، ولـكنه لا يمحو هذه الضعفات . فالناموس ، شأنه شأن أروقة بيت حسدا ، لا يفعل أكثر من أن يأوى جمهور كثير من مرضى ، وعرج ، وعمى ، وعسم . ولـكنه لا يهبهم الشفاء ، ولا يقدم لهم الدواء .

أما الثمانى والثلاثون عاماً ، فهى تشير إلى عدد السنوات التى قضاها بنو إسرائيل ، فى برية التيه ، بعد خروجهم من أرض مصر . أو لعلها تشير إلى عدد القرون التى انتظرت البشرية بطولها مجىء المسيا حتى أتى المخلص فى ملء الزمان . لقد ظلت البشرية تنتظر طوال هذه القرون اشراق النور ، وبزوغ شمس البر ، وها قد دقت ساعة الأزل ، وجاء قديم الأيام ، ومشتهى الأجيال. أما تحريك المياه ، والغوص فيها ، فيشير إلى المعمودية ، وفى الحقيقة نرى بعض الصور ، فى الفن المسيحى القديم ، تمثل لنا المعمَّد ، وهو يخرج من المياه ، حاملا فراشه على ظهره .

إن هذه الصور الرمزية ، قد تتضح لنا من خلال سطور القصة . ولـكن لا يمكن أن يعنى هذا أن القصة كلها رمزية ، وأن يوحنا كتبها كأسطورة تصويرية ، تعلن حقائق رمزية . فهى ولاشك قد حدثت بالفعل. إلا أننا نفعل حسناً إذا لم نغفل الجانب الرمزى . ان كل قصص الـكتاب وأحداثه ، تحوى وراء الوقائع التى يسردها الـكاتب ، معانى رمزية خفية ، ترفعنا إلى أجواء الحق الخالد ، وتنير عقولنا بمفاهيم روحية مباركة .

الشفاء الالهى ، واحقاد البشر

« فَقَالَ ٱلْيَهُودُ لِلَّذِى شُفِيَ إِنَّهُ سَبْتٌ . لاَ يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَحْمِلَ سَرِيرَكَ . أَجَابَهُمْ إِنَّ ٱلَّذِى أَبْرَأَنِى هُوَ قَالَ لِى ٱحْمِلْ سَرِيرَكَ وَٱمْشِ . فَسَأَلُوهُ مَنْ هُوَ ٱلإِنْسَانُ ٱلَّذِى قَالَ لَكَ ٱحْمِلْ سَرِيرَكَ وَٱمْشِ . أَمَّا ٱلَّذِى شُفِيَ فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَنْ هُوَ . لِأَنَّ يَسُوعَ ٱعْتَزَلَ . إِذْ كَانَ فِى ٱلْمَوْضِعِ جَمْعٌ . بَعْدَ ذَلِكَ وَجَدَهُ يَسُوعُ فِى ٱلْهَيْكَلِ وَقَالَ لَهُ هَا أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ . فَلاَ تُخْطِئْ أَيْضاً لِئَلاَّ يَكُونَ لَكَ أَشَرُّ . فَمَضَى ٱلإِنْسَانُ وَأَخْبَرَ ٱلْيَهُودَ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ ٱلَّذِى أَبْرَأَهُ . وَلِهَذَا كَانَ ٱلْيَهُودُ يَطْرُدُونَ يَسُوعَ وَيَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ لِأَنَّهُ عَمِلَ هَذَا فِى سَبْتٍ فَأَجَابَهُمْ يَسُوعُ أَبِى يَعْمَلُ حَتَّى ٱلآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ . فَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ ٱلْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَكْثَرَ أَنْ يَقْتُلُوهُ . لِأَنَّهُ لَمْ يَنْقُضِ ٱلسَّبْتَ فَقَطْ بَلْ قَالَ أَيْضاً إِنَّ ٱللهَ أَبُوهُ مُعَادِلاً نَفْسَهُ بِٱللهِ »

(يوحنا ٥ : ١٠ — ١٨)

ها هو مريض بداء لاشفاء له لاينال الشفاء فى لحظات على يدى الطبيب الأعظم .. معجزة مجيدة كان من المفروض أن تستنطق الصخر ، بآيات الشكر ، وتدفع أشجار الوعر إلى التصفيق بالأيادى . ولكن ظهرت بين الجموع وجوه سوداء تنظر بعيون حمراء ، تفيض بالحقد والكراهية . انهم يشاهدون الرجل

المريض ، الذى بقى ثمانية وثلاثين عاماً طريح الأرض الصخرية الباردة ، فى أروقة بيت حسدا ، وهو يحمل فراشه ، ويجوب طرقات أورشليم ، فإذا بهم يعترضون طريقه ويحولون يوم الفرح ، إلى يوم نوح ، ووليمة السعادة ، إلى جلسة مؤامرات ، وأحقاد . . أنظر إليهم تراهم يتسلحون بجمودهم التقليدى ، ويقفون فى وجهه صارخين : اليوم يوم السبت ، لايحل لك أن تحمل سريرك فى هذا اليوم المقدس انك تكسر الناموس بهذا العمل ، وتستوجب القصاص » .

ولقد أشرنا فى فصول سابقة إلى ماعمله اليهود بناموس الله . فالناموس كما نعرف ، مكون من مبادىء عريضه ، تتسع وتشمل كل مطالب الحياة ، وبنودها . ولكن أحبار اليهود ، خلال الحقب الطويلة قد فسروا هذه المبادىء وحللوها إلى قوانين ، ونواميس ، وتقاليد ، لا حصر لها .

لنأخذ مثلا وصية الناموس بخصوص يوم السبت . إن كل ما أوصى به هو أن السبت يوم مقدس ، يختلف عن بقية أيام الأسبوع ، وان علينا أن ننظر إليه نظرة احترام ، فلا نعمل فيه عملا ما ، لا نحن ولا العبيد ، ولا الحيوانات المستأنسة التى تعمل فى خدمتنا . ولكن اليهود تقدموا بفتاوى يحللون فيها ما هو نوع ذلك العمل المقصود ، وماهى حدوده ، وأبعاده ، ثم قسموا أنواع العمل إلى تسعة وثلاثين نوعاً . وواحد من هذه الأنواع حمل الأحمال ، وقد بنوا حدود السبت بهذا الشأن على فقرتين وردتا فى أسفار الأنبياء فى العهد القديم . فى نبوات أرميا نقرأ القول :

« هكذا قال الرب تحفظوا بأنفسكم ، ولاتحملوا حملا يوم السبت ، ولا تدخلوه فى أبواب أورشليم . ولاتخرجوا حملا من بيوتكم يوم السبت . ولا تعملوا شغلا ما ، بل قدسوا يوم السبت كما أمرت آباءكم ... ويكون إذا

سمعتم لى سمعاً يقول الرب ، ولم تدخلوا حملا فى أبواب هذه المدينة أنه . . . . تسكن هذه المدينة إلى الأبد . . . ولـكن إن لم تسمعوا لى لتقدسـوا يوم السبت، لـكى لاتحملوا حملا ولا تدخلوه فى أبواب أورشليم، يوم السبت،فإنى أشعل ناراً فى أبوابها فتأ كل قصور أورشليم ، ولا تنطفىء » (أرميا ١٧ : ٢١ — ٢٧) . أما النبى نحميا فقد امتلأ بالقلق والضيق ، بسبب روح الاستهتار التى سادت على الجميع ، والاستهانة بقدسيـة السبت ، واستمرار حركة البيع والشراء فى ذلك اليوم المقدس . حتى أنه أقام حراساً فى بوابات أورشليم حتى يمنع دخول أى بضاعة إلى المدينة المقدسة ، أو خروج أى تاجر ببضاعته منها . (نحميا ١٣ : ١٥ — ١٩) . أما تقرير نحميا الوارد فى العدد الخامس عشر ، فهو يشير بوضوح إلى التجارة فى يوم السبت .

« فى تلك الأيام رأيت فى يهوذا قوماً يدوسون معاصر فى السبت . ويأتون بحزم ، ويحملون حميرا، وأيضاً يدخلون أورشليم فى يوم السبت بخمر ، وعنب، وتين ، وكل ما يحمل . فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام » . ولـكن الأحبار ، فى عهد المسيح ، وصلوا ، إلى حد القول ، انه حتى حمل أبرة مشبوكة فى ثوب فى يوم السبت ، هى خطية لا تغتفر ، وكسر للوصية يستحق عقوبة الموت . بل أن التصاق الساق الخشبية بالساق المبتورة ، ووجود طاقم الأسنان الصناعى ، فى داخل الفم ، هى أحمال ينبغى أن يحاسب عليها صاحبها . وكذلك ما تتحلى به السيدة فى جيدها أو ما يحيط بمعصمها من حلى هى بالتالى أحمـال رهيبة ! وهذه القشور التافهة ، قد حلت محل الجوهر ، واحتلت مكانها فى عقول وقلوب اليهود ، وأصبحت المسألة بالنسبة لهم ، مسألة حياة أو موت . وإن كان الأمر كذلك ، فلاغرابة إذاً ، أن ينظروا إلى إنسان يحمل فراشه فى يوم السبت — نظرتهم إلى من يرتكب جرماً خطيراً ، لا سبيل إلى مغفرته .

وحاول الرجل أن يدافع عن نفسه بالقول ان الإنسان الذى قام بشفائه هو الذى أمره بأن يفعل ذلك ـ فلم يكن يعلم من الذى تمت المعجزة على يديه. وأخيراً التقى به يسوع فى الهيكل ، وتقدم إليه السيد بتحذيره من المصير الذى ينتظره لو عاد إلى خطيته ، وعرف الرجل أن يسوع هو الذى قام بشفائه . وحالما عرف بذلك أسرع إلى السلطات الكهنوتية ليخبرهم بأن الذى قام بشفائه ، كما أصدر إليه الأمر بحمل فراشه فى السبت ، هو يسوع .

ولم يكن قصده بالطبع أن يوقع يسوع فى مأزق ، أو يسبب له المتاعب ، ولكنه كان يهدف إلى انقاذ نفسه من الموت ، فقد كان القانون اليهودى يقول حرفياً : « إن قام إنسان بحمل أى شىء من مكان عام إلى بيت خاص عمدا ، وعن قصد مؤكد ، فعقوبته الرجم بالحجارة حتى الموت » . لقد كان الرجل يحاول ببساطة أن يخلص نفسه من الفخ الذى وقع فيه ، ملقياً عبء خطأه على سواه .

وهكذا اتجهت السلطات اليهودية بالاتهام إلى المسيح . لقد كسر ناموس السبت عمداً ، وعن قصد ، حين قام بشفاء هذا المريض فى اليوم المقدس ، وحين أمره بأن يحمل أيضا فراشه مخالفاً بذلك الناموس . والفعل الذى ورد فى العدد الثامن عشر « ينقض السبت » ، ورد فى الأصل فى صيغة الفعل الذى يفيد الاستمرار ، فهو لا يصف عملا وقع فى الماضى وانتهى وتوقف ، ولكنه يدل على عمل مقصود مستمر . وهذا صحيح فالقصة هنا ليست سوى عينة من تصرفات المسيح الكثيرة ، فى مواقف مشابهة .

ودافع يسوع عن نفسه ، دفاعاً صاعقاً ، أثار جنون اليهود ، فقال لهم ، ان الله لا يكف عن العمل فى يوم السبت ، كما فى أى يوم آخر ، وهو أيضاً كذلك . وهنا حجة لا يستطيع أى معلم يهودى أن يدحضها ، أو يفندها .

يقول الفيلسوف «فيلو» — «إن الله لا يكف عن العمل وكما أن النار لا تكف عن الاحتراق طالما تهيأت لها الوسائل المناسبة، وكما أن الجليد لا ينقطع عن التبريد، طالما كان جليداً، هكذا طبيعة الله أن يعمل، ولا يكف عن العمل. ان الله يعمل على الدوام» وكما قال آخر: «إن الله لا ينقطع عن العمل. فالشمس تشرق، وتغرب، ثم تعود لتشرق، والأنهار تجرى وتجرى على الدوام، ولا تكف عن الجريان، والولادة والموت يحدثان فى السبت، كما فى أى يوم آخر، وهذه كلها من أعمال الله». صحيح أنه فى قصة الخليقة، ورد القول ان الرب استراح من أعماله فى اليوم السابع. ولكن هذا لا يعنى أنه توقف عن كل عمل، بل معناه أن الخليقة فقط قد كملت، ولم يعد هناك مجال لخلق آخر. لقد استراح من عملية الخلق، أما أعماله الجيدة فى العناية، والعدالة، والمحبة، فقد استمرت كما هى.

وهكذا يقول يسوع: «حتى فى يوم السبت مازال الله يعمل أعمال محبته ورحمته، وعنايته. وهكذا أنا أيضاً». وكانت الكلمات الأخيرة هى التى أثارت ثائرة اليهود. فقد كانت تعنى لا أقل من أن أعمال يسوع، هى أعمال الله، وليست أقل منها. ان يسوع يضع نفسه على قـــدم المساواة، مع الجلال الإلهى. وسنعرض للمعنى الذى يقصـده المسيح، فى الصفحات التالية. ولـكن يكفينا فى هذا المجال أن نقول، ان يسوع يشـير بقوله إلى أننا ينبغى أن نمد يد المساعدة، لأى إنسان محتاج، طالما كان محتاجا حقاً، ويرغب فى المساعدة، فحاجات البشر لا ينبغى أن تقابل بعدم الاكتراث. وأعظم خدمـة نقوم بها للانسانية المعذبة، هى أن نخفف آلام إنسان متألم ونلمس قلب إنسان كسير، بلمسة التعزية، ونسكب بلسم الرجاء والعزاء فى كأس ممتلئة بالمرارة. وهذه الخدمة الاجتماعية ينبغى ألا يعوقنا عنها أى معوق. ينبغى ألا يقف فى وجهها أى تقليد، مهما كان ذلك التقليد قوياً. إن عواطف

المسيحى ينبغى أن تـكون صدى لعواطف قلب الله وصـورة لها ، تستمر بلا توقف ، وتفيض بلا انقطاع . فقد يمـكن أن تؤجل أى عمل آخر ، لكن عمل الرحمة ينبغى ألاّ يؤجلْ .

هناك أمر آخر ينبغى أن نعرض له قبل أن نترك هذا التأمل ، وهو الصلة بين المرض والخطية . هنا نرى السيد يربط بين الاثنين فى حياة ذلك الإنسان. ومع أنه ليس كل مرض هو نتيجة الخطية ، وقصاص لها ، فهناك أمراض قد تكون تجربة من الله لامتحان المؤمن ، إلا أنه يبدو أن مرض ذلك الإنسان ، جاء نتيجة لخطيته .

ولقد كان اليهود ينظرون إلى كل مرض كنتيجة حتمية للخطية . فاذا تألم إنسان فذلك بسبب خطاياه . يقول الأحبار :

« لا يقوم المريض من فراش مرضه ، حتى تغفر كل خطاياه » . وهانحن نستمع إلى تحذير السيد لذلك المريض الذى نال الشفاء المعجزى : « ها أنت وقد برئت فلا تخطىء أيضا ، لئلا يكون أشر » ، فمن المحتمل أن يقول المريض فى نفسه : مادمت قد وجدت من يرفع عنى عبء مرضى ويغفر كل خطاياى ويمحو نتائج معصيتى ، فمن السهل أن أخطىء ، وأن أنال السماح والغفران مرة أخرى وحتى لو سقطت صريع المرض مرة ثانية ، فإن مراحم الله الواسعة ستدبر لى الشفاء، كما دبرته لى فى الماضى. ان كثيرين،حتى بين أعضاء الـكنائس يستهينون بغنى لطف الله ، وإمهاله ، وطول أناته ، وكثرة مراحمه . وبولس يحذر أولئك من أننا وقد دعينا للحرية ، لا ينبغى ان نصيِّر الحرية فرصة للجسد (غلاطية ٥ : ١٣) وهل تبقى فى الخطية لـكى تـكثر النعمة ؟ حاشا . نحن الذين متنا عن الخطية كيف نعيش بعد فيها ؟ (رومية ٦ : ١ ـ ١٨) .

إن كثيرين يتكلمون على نعمة الله ، ويتخذون من مراحمه تكأة لاستمرارهم فى العصيان والتمرد . ينبغى أن نذكر أكم تكلف غفران الله على خشبة العار ، فى سبيل إيفاء العدالة الإلهية ، وينبغى أن نبغض الخطية كل البغض لأن كل خطية تكسر قلب الله ، وتهين محبته الفائضة القدوسة ، من نحونا ، وتطبع أثرها القاسى اللعين ، على كل صغيرة وكبيرة فى كياننا ، وفى حياتنا .

الحقوق الجبارة

« فَأَجَابَ يسوعُ وقَالَ لهمُ اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكمْ لاَ يَقْدِرُ اَلابْنُ أَنْ يَعمَلَ منْ نَفْسِهِ شَيْئاً إِلاَّ ما يَنظرُ اَلْآبَ يعمَلُ . لِأَنْ مَهْما عَمِلَ ذَاكَ فَهذَا يَعمَلهُ اَلِابْنُ كَذَلِكَ . لِأَنَّ اَلْآبَ يُحِبُّ اَلِابْنَ وَيُرِيهِ جَمِيعَ مَا هُوَ يَعْمَلُهُ . وسَيُرِيهِ أَعْمَالاً أَعْظَمَ مِنْ هذِهِ لِتَتَعَجَّبُوا أَنْتُمْ . لِأَنَّهُ كَما أَنَّ الآبَ يُقِيمُ الأَمْوَاتَ وَيُحيي كَذَلِكَ الابْنُ أَيضاً يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ . لأَنَّ الآبَ لاَيدِينُ أَحَداً بَلْ قَدْ أَعْطَى كلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلاِبْنِ . لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الابْنَ كَما يُكْرِمُونَ اَلْآبَ . مَنْ لاَ يُكْرِمُ الابْنَ لاَ يُكْرِمُ الْآبَ الَّذِى أَرْسَلَهُ .

اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقولُ لَكُمْ إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كلامِي وَيُؤْمِنْ بِالَّذِى

أرسلنى فَلَهُ حيوةٌ أَبَدِيَّةٌ ولا يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ بلْ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيوةِ . اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّه تَأْتِي ساعَةٌ وهِيَ الْآنَ حِينَ يَسْمَعُ الْأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ والسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ . لأَنَّه كَمَا أَنَّ الْآبَ لَهُ حيوةٌ فِي ذَاتِهِ كَذلكَ أَعْطَى الابْنَ أَيضاً أَن تَكُونَ لَهُ حيوةٌ فى ذَاتِهِ . وأَعْطاهُ سُلْطاناً أَنْ يَدِينَ أَيضاً لأنهُ ابْنُ الإنْسَانِ . لاَ تَتَعَجَّبُوا منْ هذَا . فإِنَّهُ تَأْتى ساعَةٌ فيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فى الْقُبُورِ صَوْتَهُ . فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيامَةِ الْحَيوةِ والَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّآتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ .

(يوحنا ٥ : ١٩ ــ ٢٩)

لعلنا نأتى لأول خطاب طويل يتقدم به يسوع لسامعيه ، ويسجله لنا البشير يوحنا بحذافيره . ولقد أسلفنا أن يوحنا كتب بعد صعود المسيح إلى المجد ، بما يقرب من سبعين عاما . لذلك فقد تميزت كتاباته بالنضوج الفكرى العميق . فى نور اختباره الطويل ، وتحت إرشاد الروح القدس ، استطاع هذا التلميذ الملهم ، أن يصل إلى اعماق فكر المسيح ، وإلى تأملاته فى حياته المباركة ، وإلى معان جديدة فى أحاديثه لم تتح لبشر سواه .

واننا نلمس هذا بوضوح بين سطور البشارة الرابعة . فبين الحين والحين نقرأ لمحة خاطفة ، نيِّرة ، رائعة ، يضيفها قلمه العجيب الساحر تلقى أضواء ، حلوة على ما يستغلق علينا فهمه من عقيدة ، أو حوار ، أو حديث .

وهذه الفقرة التى أمامنا هى من الأهمية بمكان حتى أننا سندرسها أولا

بصورة عامة ، ثم نقسمها بعد ذلك إلى فصول قصيرة ، وندرس كل فصل من هذه الفصول على حدة .

والآن دعنا ننظر إلى هذه الفقرة بصورة عامة . وحينما نأتى إلى فقرة نظير هذه علينا أن نفكر ، ليس فى معناها بالنسبة لمن سمعوها من اليهود فى تلك العصور البعيدة . فلقد كانت لليهود آراؤهم ، وكان لهم تفكيرهم الخاص وكانت لهم عقائدهم ، وتقاليدهم ، وكانت لهم آدابهم الدينية ، التى تغاير الآداب التى درجنا على التمسك بها ، والإيمان بصحتها ، والتسليم بما فيها . ولذلك لكى نصل إلى أعماق كل كلمة نطق بها السيد ، علينا أن ننظر إليها بعيون أولئك الذين نظروها فى القديم ، ونتأمل فيها بأذهانهم ، وبتفكيرهم.

وحينما نفعل ذلك فإن هذه الكلمات تتألق أمامنا بلمعان رائع ، لأن كل فكر فيها ، وكل عقيدة تعلنها ، تنطق بصورة صارخة ، بحقوق يسوع كالمسيا.. مسيح الله المختار . إن الكثير من تلك الحقوق التى نادى بها المسيح ، لا نستطيع أن ندرك مشاعر اليهود بالنسبة لها ، لأننا لا نعيش فى عصرهم ، ولا ننظر للأمور كما ينظرون ، ولا نعيها كما تعيها مداركهم . ولكن يكفينا أن نقول ان أقل واحدة منها ، كانت كافية أن تجعل الذى يستمع إليها ، يصاب بالذهول .

١ — وأول هذه الحقوق اللقب الذى اتخذه المسيح لنفسه ، انه ابن الإنسان . ونحن نعرف مدى ذيوع هذا اللقب ، فى البشائر ، وفى أحاديث يسوع . ولو تتبعنا تاريخ هذا اللقب ، لوجدناه يبدأ بسفر نبوات دانيال . هناك فى الاصحاح السابع ، والعدد الثالث عشر ، يرى النبى « وإذا مع سحاب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام . . . . . . فأعطى سلطاناً ، ومجداً ، وملكوتاً ، لتتعبد له كل الشعوب ، والأمم ، والألسنة . سلطانه

سلطان أبدى ما لن يزول ، وملكوته ما لا ينقرض » . ولقد كتب سفر دانيال ، فى السبى فى أوقات ضيق واضطهاد مرير . فى بداية هذا الاصحاح يصف الرائى تحت رموز حيوانات كاسرة ، الممالك الوثنية المتعاقبة التى تتابعت على العالم القديم . فهناك الأسد الذى له جناحا نسر (٧ : ٤) ، وهو يرمز إلى مملكة بابل . وهناك الدب الذى يحمل بين أنيابه ثلاثة أضلع ، وكأنه قد افترس فريسة (٧ : ٥) . وهو يشير إلى مملكة مادى . وهناك النمر الذى له أربعة أجنحة ، وأربع رؤوس (٧ : ٦) ، وهو يدل على مملكة فارس . وهناك الحيوان الرابع الرهيب الذى له عشرة قرون ، وأنياب من حديد ، وهو رمز لمملكة مكدونيا . كل هذه الممالك ستمضى ، وتزول ، ولا تبقى إلا أسماؤها فى صفحات التاريخ ، وسيأتى الوقت الذى يسود فيه قديم الأيام ، ويعطى السلطان لابن الإنسان . ان تلك الممالك كلها ، تقوم على النار ، والحديد ، أما ملكوت المسيح ، وسلطانه على العالم ، فأساسه السلام لأنه رئيس السلام . . . أساسه المحبة لأنه صاحب القلب الكبير . . . أساسه الرحمة ، لأن الذى يسود فيه هو ابن الإنسان ، وليس الوحوش الكاسرة .

وهكذا اصبح لقب ابن الإنسان لقبا صحيحا من ألقاب المسيا ، واسماً مباركاً من أسماء مختار الله الذى سيُسرع قديم الأيام عن طريقه ، بالعصر الجديد السعيد ، عصر المحبة والسلام . وهكذا كان يهود العهد القديم ، يقرنون اسم المسيّا ، بلقب ابن الإنسان .

وبين العهدين ، تتابعت الكتابات التى تصف العهد الذهبى العتيد أن يأتى . وهى كتابات ، مع أنها لم تدرج ضمن المجموعة القانونية ، إلا أنها تكشف لنا عن روح العصر ، وطريقة تفكير أصحابه . فى احداها ، يصور لنا الكاتب صورة ابن الإنسان وهو ينتظر فى السماء ،

حتى يحين الموعد المحدد ، الذى يرسله الآب السماوى إلى الأرض ، ليؤسس ملكوت الله فى هذا الوجود[1] ، ولذلك فإن سيدنا ، حينما لقب نفسه بابن الإنسان ، لم يكن يقصد بهذا القول ، إلا أن يثبت لسامعيه سلطانه كالمسيا ، مختار الله، مسيح الله المبارك . هنا تأكيد ضمنى ، لا يحتمل الشك ، يشير إلى حقيقة كون يسوع المسيا المنتظر ..

٢ — ولكن ليس هذا اللقب فقط ، هو الذى يعلن للناس، حق يسوع كالمسيا المنتظر ، بل المعجزات أيضاً تتحدث بحقه بأفصح لسان وأجلى بيان . لنأخذ على سبيل المثال معجزة بركة بيت حسدا . هنا نرى مريضاً ، مفلوجاً ، لا يستطيع الحراك ، وفى لحظة نراه يقفز من مكانه ، ويحمل فراشه ، ويسير فى طرقات المدينة وكأنه لم يعرف المرض على الإطلاق .

أليست هذه لمحة مشرقة ، رائعة ، من أمجاد العصر الذهبى الجديد ، عهد المسيا ، أثبتها أشعياء فى نبواته حين قال: « حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ، ويترنم لسان الأخرس . لأنه قد انفجرت فى البرية مياه ، وأنهار فى القفر » (أشعيا ٣٥ : ٦) ؟ بل أليست هذه نفس اللمحة التى تسطع علينا من خلال كتابات النبي أرميا حين يقول : « الأعمى ، والأعرج . . أسيرهم إلى أنهار ماء ، فى طريق مستقيمة لا يعثرون فيها » (إرميا ٣١ : ٨، ٩) . إن معجزة شفاء مريض بيت حسدا ، فى حد ذاتها ، ليست أقل من إعلان حق يسوع كالمسيا ، وتأكيد سلطانه المعجزى .

٣ — زد على ذلك التصريح الذى نادى به يسوع مراراً وتكراراً . بأن له الحق فى إقامة الموتى من بين الأموات ، كما له الحق أيضا فى دينونتهم.

---

(١) The Book of Enoch، سفر أخنوخ من أسفار الأبوكريفا.

فى العهد القديم نرى ، أن ذلك السلطان ، هو لله وحده . فهو وحده الذى يحيى الموتى . وهو ولاسواه ، له حق الدينونة . فى سفر التثنية نقرأ القول : « أنا أنا هو ، وليس إله معى . أنا أميت وأحيى » . (تثنية ٣٢ : ٣٩) . وفى سفر صموئيل الأول : « الرب يميت ويحيى . يهبط إلى الهاوية ويصعد » . (صموئيل الأول ٢ : ٦) . وحينما أتى نعمان السريانى من بلاده ، بحثا عن الشفاء من مرض البرص الرهيب ، حاملا معه خطاب توصية من ملك آرام ، إلى ملك اسرائيل ، يقول فيه : « فالآن عند وصول هذا الكتاب إليك ، هوذا قد أرسلت إليك نعمان عبدى ، فاشفه من برصه » (ملوك الثانى ٥:٦) فإننا نرى ملك اسرائيل يمزق ثيابه ، حينما يقرأ ذلك الخطاب . . ويصرخ فى يأس : « هل أنا الله لكى أميت وأحيى ، حتى أن هذا يرسل إلىّ أن أشفى رجلا من برصه » . (ملوك الثانى ٥ : ٧) ، لأنه ظن فى الأمر مكيدة سياسية .

وكذلك الأمر فى الدينونة ، والقضاء . فى سفر التثنية نقرأ القول : « لا تنظروا إلى الوجوه فى القضاء . . . لاتهابوا وجه إنسان ، لأن القضاء لله» (تثنية ١ : ١٧) . وفى العصور التى تلت ذلك اصبحت إقامة الأموات ، والجلوس على كرسى الدينونة من الامتيازات التى ستصبح لمختار الله الوحيد ، حينما يسرع بمجىء العهد الجديد المبارك . واننا نقرأ فى سفر أخنوخ قوله عن ابن الإنسان ، ان « خلاصة الدينونة قد أعطيت له » . وفى الفقرة التى امامنا ، نستمع إلى يسوع متحدثا عن الذين صنعوا الصالحات ، فإذا بهم يقومون إلى قيامة الحياة ، والذين صنعوا السيئات فإلى قيامة الدينونة . أما سفر باروخ ، وهو أحد الأسفار المحذوفة غير القانونية ، فإنه يتحدث للاشرار فى الملكوت الآتى ، فيقول : « إن الذين يعملون السيئات ، سوف يزدادون سوءاً آنذاك.

لأنهم سيقاسون العذاب ، والويلات » . بينما أولئك الذين وضعوا ثقتهم فى الناموس ، وعملوا به سوف يكتسون بالبهاء ، والجمال . وفى سفر أخنوخ نقرأ أيضا عما يحدث فى ذلك اليوم الرهيب حين « تنشق الأرض بجملتها إلى نصفين وكل ما على البسيطة ، يسوده الهلاك . وتقع الدينونة على كل البشر » . وفى أحد الأناجيل الأبوكريفية ، ويدعى انجيل بنيامين « جميع الناس سوف يقومون ، البعض للرفعة والسمو ، والبعض الآخر للخزى والعار » ..

ونحن لانستطيع أن نصل إلى حقيقة الفقرة التى أمامنا ، ومدلولها الخفى ، إلا إذا نظرنا إليها فى اطارها اليهودى ، وتخيلنا للمعنى الذى أدركه اليهود ، حينما سمعوها لأول مرة من فم السيد — فبالنسبة لهم ، صار واضحا أن يسوع يدعى لنفسه حقوقاً جبارة ، ليست أقل من حقوق الله نفسه ، وأنه يعلن بهذا أن العلامات التى تنبىء بانبلاج الفجر الجديد ، فجر العصر الالهى ، قد ظهر فى الأفق ، بل وبدأت بالفعل ، فى شخصه المبارك ، وأن شخصه ليس أقل من المسيا ، مختار الله الوحيد .

وحينما ندرك هذا ، تصبح هذه الفقرة ، أكثر من حديث تقدم به يسوع. انها ستصبح عملا من أعمال الشجاعة الفريدة والجرأة النادرة لقد كان يسوع يدرك جيداً ، أن الكلام بهذه الصورة لن يقل عن كونه تجديفاً صارخاً ، فى نظر رؤساء اليهود فى ذلك الحين ، بل لقد كان يدرك ، أكثر من هذا أن حديثه بهذه الصورة ، معناه المحاكمة ، والموت العاجل . لقد كان يدعى لنفسه حقوق الملك الممسوح ، وكان يعرف أن الذين يصغون إلى حديثه ، إما أن يسلموا بما ينادى به ، ويرون فيه ابن الله الحى ، ويقبلونه على هذا الأساس ، واما أن يبغضوه ، ويرفضوه كمجدف قاس ، وهكذا يسعون للايقاع به . ان حديثه هنا هو الرفش الذى يعزل القمح من التبن ، بل هو حجر الجاذبية

الذى يجذب مختاريه إليه ، وحجر العثرة الذى يترضض عليه مبغضـوه .
والآن دعنا نقسم هذه الفقرة ، إلى فصول صغيرة ، وندرسها ، فصلا بعـد فصل .

الآب ، والابن

« اَلْحَقَّ الحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ لا يَقْدِرُ الابْنُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً إِلاَّ مَا يَنْظُرُ الآبَ يَعْمَلُ . لِأَنَّ مهما عَمِلَ ذَاكَ فَهذَا يَعْمَلهُ الابْنُ كَذلِكَ . لِأَنَّ الآبَ يُحِبُّ الابْنَ وَيُرِيهِ جَمِيعَ مَا هُوَ يَعْمَلُه . وسَيُرِيهِ أَعْمَالاً أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ لِتَتَعَجَّبُوا أَنْتُمْ »

(يوحنا ٥ : ١٩ ــ ٢٠)

هذه أولى الـكلمات ، التى تقدم بها يسوع ، فى دفاعه عن نفسه ضـد ما قاله اليهود ، بأنه قد جعل نفسه مساويا لله . وفى هذا الدفاع ، يضع السيد ثلاث دعائم ، تقوم عليها علاقته مع الله الآب . .

١ — الدعامة الأولى ، مساواته الـكاملة مع الله. فإذا شئنا أن نشاهد الله عاملا، لنتطلع إلى يسوع،وهو يعمل. واذا أردنا أن نصغى إلى الله متكلما لننصت إلى ما ينطق به يسوع، حين يتكلم. وإذا تاقت نفوسنا إلى رؤية الله متلطفاً، محبا، لننظر إلى يسوع حين يفيض قلبه بالمحبة،والعطف. ان الأشياء التى يعملها الله،هى الأشياءالتى يقوم بها يسوع ، والتصرفات التى يتصرفها يسوع،هى تصرفات الله عينه. ان أعظم حق تنفرد به المسيحية،هو أنه فى يسوع نستطيع أن نعاين الله . ان أردنا أن نلمس محبة الله من نحو البشر ، ونعرف مشاعر الله أمام حاجات

البشر وندرك آلام الله تجاه خطايا البشر ، لنتطلع إلى يسوع — إن أفكار يسوع هي أفكار الله ، وتعاليم يسوع هي تعاليم الله ، وأقوال يسوع هي أقوال الله ، وأعمال يسوع ليست أقل من أعمال الله .

٢ — الدعامة الثانية التي تقوم عليها علاقة يسوع بالله الآب ، هي أن هذه المساواة لا تقلل من طاعة الابن الكاملة للآب . فيسوع لا يفعل شيئاً من ذاته . لا يتصرف تصرفاً من نفسه . بل أنه ما جاء ليعمل إرادته الذاتية ' لقد كان يعمل على الدوام ، مايريده الآب أن يعمله . ونحن ما كنا نستطيع أن نرى الآب غير المنظور ، حيا ، متكلما ، متصرفا ، مجسما ، في الابن ، إلا لأن إرادة الابن كانت خاضعة كل الخضوع ، ومسلمة للآب . ان مساواة الابن للآب ، لا تبنى على استقلال ذاتي عن الآب ، بل عن اتصـــال كامل به ، واعتماد كلي عليه .

٣ — الدعامة الثالثة في صلة يسوع بالآب ، ان طاعته للآب لا تقوم على أساس الخضوع بل على أساس المحبة . إن اتحاد الابن بالآب ، هو اتحاد محبة ، والرباط الذي يربط بين يسوع ، وبين الله جوهره المحبة ، وليس الخضوع للقوة . إننا كثيراً ما نتحدث عن نفسين يتحدان في الرأي الواحد وقلبين يخفق أحدهما مع خفقة القلب الآخر . بهذه الرموز الإنسانية الضعيفة نستطيع أن نصف صلة يسوع بالآب . ان المحبة الكائنة بين الآب ، والابن ، هي قوية بهذا القدر ، حتى أن الآب والابن واحد . هناك الفكر الواحد المشترك ، والمحبة الواحدة الرابطة ، والقلب الواحد الخافق ، والإرادة الواحدة المشتركة ، بين الآب والابن ، حتى أننا بهذه الصورة نستطيع أن ندرك معنى قول يسوع ، أنا والآب واحد .

ولكن هذه الفقرة ، تصل بنا إلى ما هو أعمق من هذا ، فهي تعلن لنا أموراً أعمق عن يسوع .

١ — انها تخبرنا عن ثقته الكاملة التى لا تتزعزع، وإيمانه الواثق بالمستقبل. فما يراه البشر الآن، هكذا ينبئنا، ليس سوى باكورة لثمار أوفر .. بداية لأعمال أمجد ستتم على يديه .. انه يرى خيوط المؤامرة تتجمع حوله، وغيوم الحقد والضغينة تتلبد فى الأفق، والموت الرهيب يتهدده، ولكنه مع ذلك لا يلقى بالا لهذا، ولا يحسب له حسابا. لقد كان يعرف أن تصريحاته هذه، معناها ثورة اليهودية عليه، وأن النهاية لا بد وأن تكون وشيكة الحدوث. ولكن يسوع كان يؤمن — نقول ذلك جسديا — أن المستقبل مضمون فى يدى الله، وليس فى أيدى البشر. وهكذا لم يخش مقاومة البشر، ولا مؤامرات البشر، وما كان يخطر له على بال، ان للانسان القدرة على الوقوف فى وجه الله وتحدى أعمال الله.

٢ — وهى تعلن لنا شجاعته المطلقة. لقد كان يعرف أن تصريحاته سوف يساء فهمها، وأن كلماته سوف تثير ثائرة سامعيه وتعرض حياته للخطر المحقق، ولكن يسوع لم ينحن على الإطلاق أمام العاصفة، ولم يقلل من مستوى مُثله العليا، أو يداهن الذين يلتفون حوله على حساب الحق. انه سينادى بالحق مهما كلفه الأمر من تضحيات. فطاعة الله هى فوق كل شىء. والأمانة للحق، اسمى من احترام البشر، والخوف من الناس.

الحياة، والدينونة، والكرامة

«لِأَنَّهُ كما أَنَّ الْآبَ يُقِيمُ الْأَمْوَاتَ وَيُحْيِي كَذَلِكَ الابْنُ أَيْضًا يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ. لِأَنَّ الْآبَ لَا يَدِينُ أَحَداً بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلِابْنِ. لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الِابْنَ كَمَا يُكْرِمُونَ الْآبَ

مَنْ لاَ يُكْرِمُ الإِبْنَ لاَ يُكْرِمُ الآبَ الَّذِى أَرْسَلَه »

(يوحنا ٥ : ٢١ – ٢٣)

هنا نرى ثلاث وظائف تختص بيسوع المسيح كابن الله . .

١ — فهو معطى الحياة . ويوحنا هنا يقصد ذلك بمعنيين :

(أ) فهو يرى يسوع واهب الحيـــاة فى الزمن . والإنسان البعيد عن يسوع ، لا يعرف معنى الحياة ، ولـكنه من اللحظة التى يملأ فيها يسوع كيانه، ويتثبت هو بالإيمان فى شخص المسيح ، عند ذلك يتذوق معنى الحياة الحقيقية، ويختبرها .أنه لن يكون حيا ، بكل معانى الـكلمة ، إلا إذا وصل لهذا الاختبار. حينما نـكتشف اكتشافا جديدا فى عالم الموسيقى ، أو نقرأ كتابا رائعا فى الأدب ، أو تتاح لنا فرصة الرحيل إلى مكان مزدهر ، فاننا نتحدث عن عالم جديد قد تفتحت آفاقه ، أمام عيوننا . . .

هذه صورة مصغرة لـما يحدث حين يدخل يسوع إلى حياة إنسان ، ويتربع على عرش القلب ، ويسيطر على كل الإمكانيات ، وتستسلم له الإرادة. ان الوجود يبدو أمامه، وقد لبس ثوبا جديداً . ان التغيير يسود على كيانه أولا، ومن خلال ذلك الـكيان المتغير ، تتغير نظرته إلى الوجود كله . ان صلاته الشخصية تتغير ، ومفاهيمه عن الواجب والعمل تتغير ، وإدراكه لقيم الحياة ، أو مباهجها يتبدل ويتغير ، وعلاقته بالله تتخذ وضعا جديداً . الحياة بجملتها تُبنى من جديد ، وتصاغ من جديد ، وتتشكل بصورة جديدة ، وتتجه اتجاها جديداً .

(ب) ويوحنا أيضاً يرى أن يسوع هو واهب الحياة فى الأبدية . فذلك الإنسان الذى فتح باب القلب أمام شخص المسيح المبارك ، سوف تتفتح أمامه

حياة أمجد ، وأعظم ، ليس فى الزمن فحسب ، بل أيضا بعد نهاية الزمن . بينما ذاك الذى أغلق الباب فى وجه المخلص ورفض سكناه فى القلب ، وسيطرته على النفس ، سوف يخسر الكثير من الأمجاد فى هذه الحياة ، كما فى الحياة القادمة . سوف يقاسى الموت الرهيب ، الذى هو الانفصال عن الله ، فى الزمن وفى الأبد . ان يسوع المسيح بالنسبة ليوحنا ، كما بالنسبة لنا نحن ، هو الواحد الذى يهبنا الحياة الحقة ، فى هذه الحياة ، وفى الحياة الأخرى .

٢ — ويسوع ليس واهب الحياة فحسب ، بل هو ذاك الذى أسند إليه الله الآب كل الدينونة هنا فى هذه الفقرة نقرأ القول ان الله لايدين أحدا ، بل قد أعطى كل الديـــنونة للابن . ترى ماذا يعنى هذا ؟ قد يعنى من أحد الجوانب ، أن دينونة الإنسان تتوقف على تفاعله مع شخص المسيح . . . على قبوله له أو رفضه إياه ، فموقفه من يسوع هو الذى يدينه ، ويحكم له ، أو عليه. فإذا اكتشف فى يسوع « نرجس شارون ، وسوسنة الأودية » ، إذا رأى فيه كلى القداسة والجمال ، إذا وضعه أمامه كالهدف الذى يتجه إليه ويعبده ويتبعه ، فذلك الإنسان هو فى طريقه إلى الحياة الحقة المباركة ، ولـــكنه ان لم يشاهد فيه شيئا من هذا كله . . . لم يشاهد فيه نبع الجمال ، ومصدر القداسة ، لم ير فيه الواسطة المباركة لاعادة التوافق بيننا وبين أنفسنا وبيننا وبين الوجود المحيط بنا ، وبيننا وبين إلهنا ، . . لم يبصر فيه سوى العدو الذى يقيد حريته فهذا الإنسان قد حكم على نفسه . ان يسوع هو حجر المحك الذى يكشف معدن كل إنسان . . . والتفاعل معه هو الاختبار الوحيد الذى يقسم البشر إلى فئتين : الذين نالوا الحياة ، والذين مازالوا تحت حكم الموت . ان مجرد مواجهة يسوع للانسان كالمخلص الوحيد له ، هو الذى يدين الإنسان .

٣ — ويسوع أيضاً هو صاحب المجد والكرامة . ان أعظم ميزة يتفرد

بها العهد الجديد ، هى التأكيد المبارك للحق الذى ينادى به ، والرجاء الذى لا يخزى ، الذى يقدمه للبشر . انه يقدم قصة مسيح مصلوب ، لـكنه لا يشك لحظة فى أن ذاك الذى رفع على خشبة العار ، قد ارتفع عن الأرض ليجذب الجميع إليه فى نهاية الأيام ، وسيأتى الوقت الذى فيه يحبه ويتعبد له ، كل شعب وأمة ، وقبيلة ، ولسان ، تحت الشمس . على هـــذا الرجاء الحى ، عاشت الـكنيسة الأولى ، فى وجه النار ، والحديد ، والدماء المراقة . وبالرغم من قلة أفراد أتباعها ، وضعف تأثيرهم ، والمثبطات التى أحاطت بهـــم ، إلا أن هذا الرجاء ، ساعد فى نمو الـكنيسة وازدهارها. فلم تشك الـكنيسة الرسولية الأولى ، فى يوم من الأيام ، أن رب المجد سوف يكون له فى مقبل الأيام ، كل الـكرامة ، وكل المجد ، وأن علمه سيخفق فوق كل قلب . هذه هى روح يسوع الجبارة المنتصرة . اننا نراه ممتلئا بالثقة حتى حينما رأى اتباعه يتفرقون من حوله ، الواحد يخونه ، والآخر ينـكره ، والبقية تتخذ طريق الضعف ، والجبن ، وتنفض عنه . هذه هى روحه القوية المنتصرة التى داست على الألم ، وانتصرت على الصليب ، وسحقت الموت . ورأت فى النهاية انتصار المحبة . حينما يجربنا عدو الخـــير باليأس لنذكر أن خلاص النفوس هو برنامج الله ، وهدفه ، وغايته ، وانه لا قوة فى الوجود تستطيع أن تقف فى وجه الله ، أو تتحدى أهدافه . ان إرادة الإنسان العاصية قد تؤجل قصد الله ، ولـكنها لن تهزم إله الجبروت .

قبول المسيح معناه الحياة

« اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَـكُمْ إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كَلاَمِي ويؤْمِنُ

بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيوةٌ أَبَدِيَّةٌ وَلاَ يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ بَلْ قَدْ انْتَقَلَ مِنَ الموْتِ إِلَى الحَيوةِ »

(يوحنا ٥ : ٢٤)

هنا نستمع إلى السيد يقول ان قبوله معناه الحياة ، ورفضه ليس أقل من الموت الرهيب . ترى ماذا يعنى الاستماع إلى كلمات المسيح ، والإيمان بالله الذى أرسله ؟

١ — انها قد تعنى فى أبسط صورها الإيمان بأن الله هو بالتمام كما قدمه يسوع إلينا ، فهو جوهر المحبة المجسمة الباذلة . وهذا يدفعنا إلى الدخول فى شركة سعيدة مباركة معه ، ينتفى فيها الخوف ، ونتمتع فيها بالسلام ، ونجد راحتنا الـكاملة فيه

٢ — وهى تعنى أكثر من هذا ، قبول الحياة التى يهبها يسوع لنا ، مهما كانت صعوباتها ، ومتاعبها ، وتضحياتها ، والعقبات التى تقابلنا فى سبيلها ، واثقين أن قبولها هو الطريق الأسمى للسلام ، والسعادة ، ورفضها هو الطريق الرهيب الموصل إلى الموت والدينونة .

٣ — وهى تعنى قبول المعونة التى يقدمها لنا المسيح المقام والنعمة التى يهبها الروح القدس ، وهكذا نتأيد بالقوة فى الإنسان الباطن حتى نستطيع السير فى الطريق المبارك . . . فإذا وصلنا إلى هذه الحالة ، إذا سمعنا صوت المسيح ، وقبلناه فى حياتنا ، فوجدنا الحياة المباركة فيه ، فاننا نتمتع بشركة سعيدة ذات أركان ثلاثة . . .

(أ) فنتمتع أولا بشركة سعيدة مع الله . . شركة جديدة مباركة يصبح فيها الديان العادل ، أباً محباً ، عطوفاً رقيق القلب ، يرثى لأبنائه ، ويفيض

قلبه بالحب من نحوهم ، ويقترب فيها الإله الذى يسكن فى نور لا يدنى منه ، ليسكون بجوار أبنائه ، قريبا منهم فى تجاربهم ، ومتاعبهم ، سائراً معهم فى وادى الآلام ، والدموع ، منتصرا فيهم فى وجه الشيطان ، والعالم ، والجسد ، بل ان ذاك الذى تهتف أمامه الملائسكة فى رهبة وخشوع قائلة : قدوس ، قدوس ، قدوس ، رب الجنود ، مجده ملء كل الأرض ، ولا تتجاسر ان ترفع أنظارها إليه ، فتغطى وجوهها بأجنحتها ، يصبح صديقا ، رفيقا ، محباً ينتفى الخوف فى علاقتنا به ، ونشعر بالسعادة السكاملة فى شركتنا معه .

(ب) ثم نتمتع بشركة جديدة مع أخوتنا من البشر . فبدلا من الحسد ، والخصام ، تحل المحبة ، والسلام ، وعوضا عن الأنانية التى كانت تدفعنا إلى الانطواء كل واحد على نفسه ، والسعى لمصلحة ذاته ، نسعى فى خدمة الآخرين ونبذل ذواتنا فى سبيلهم ، وننسى مصالحنا الذاتية ، فى سبيل خدمتهم ، ومنفعتهم . وحينما يقابلونا بروح العداء ، حينما يقدمون لنا الأشواك ، أمام الورود التى نتقدم بها إليهم ، فإننا لا نمتلىء بروح المرارة ، والانتقام ، بل تفيض قلوبنا بالتسامح ، والغفران ، كما سامحنا الله فى المسيح .

(حـ) ونتمتع أيضاً بشركة جديدة مع ذواتنا . وان الإنسان الذى لم يختبر الحياة الجديدة فى المسيح ، إنسان معذب ، منقسم على ذاته ، يمزقه الصراع الداخلى ، ولسكنه حالما يسمع إلى وصيته ويقبله ، وينال الحياة المباركة فيه ، فان ضعفاته التى كانت تذله تتحول إلى قوة ، وفشله فى معركة الحياة ينقلب انتصارا ، واضطرابه يولى الأدبار ليحل محله السلام السكامل الذى يفوق كل عقل .

هذه هى البركات التى يتمتع بها الانسان فى قبوله للحياة المباركة التى يهبها الله فى المسيح يسوع . فقبول يسوع معناه قبول الحياة . قد يكون كل واحد من بنى البشر ،

حيا بصورة من الصور ، وهناك صور كثيرة للحياة ، أقلها وأكثرها تفاهة ، الحياة الحيوانية . ولكن الحياة الحقيقية . . الحياة المباركة . . الحياة المجيدة بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ ، لم يختبرها الا القلائل. كثيرون موجودون، ولكنهم ليسوا بأحياء. هناك فارق كبير بين الحياة ، وبين الوجود — حينما كان السير جرنفيل يقوم بحملته لجمع المتطوعين للعمل معه فى لبرادور، كتب إلى مرسلة ممرضة ، يدعوها للخدمة معه ، وقال لها : اننى لا أستطيع أن أعدك بالمال الوفير ، ولكننى أقول لك انك فى قبولك لهذه الخدمة المباركة ، وفى عملك فى حقل المسيح ، وفى خدمتك لتلك النفوس المعذبة ، سوف تنالين فرصة الحياة .

وفى أبيات رقيقة يصف الشاعر الملهم « براونج » شعور اثنين ، طرق الحب قلبيهما لأول مرة ، فيقول :

فنظرت إليه وتطلع إليها ،
وفى عينيه بريق الحب الوله .
« وفجأة استيقظت الحياة » .

وفى قصة كتبها روائى معاصر ، نستمع إلى شخصية فيها تقول لشخصية أخرى « اننى لم أعرف معنى الحياة ، حتى رأيتها فى عينيك » .

هذه صور مهتزة تعطينا فكرة مصغرة عن معنى الحياة الجديدة فى المسيح ومشاعر الانسان الذى انتقل من الموت إلى الحياة . ان حياته فى هذا الوجود تصبح قوة جديدة زاخرة ، فياضة ، وحياته الأبدية مع الله ، فى العالم الآتى تصبح حقيقة ، أكيدة ، واقعة ، لاريب فيها .

الموت ، والحياة

« اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ حِينَ

يَسْمَعُ الأمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ والسَّامِعُونَ يَحْيُونَ. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيوةٌ فِي ذَاتِهِ كَذَلِكَ أَعْطَى الإبْنَ أَيضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيوةٌ فِي ذَاتِهِ. وأَعْطَاهُ سُلْطَاناً أَنْ يَدِينَ أَيضاً لأَنَّهُ ابْنُ الإنْسَانِ. لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ . فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيامَةِ الْحَيوةِ والَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّآتِ إِلَى قِيامَةِ الدَّيْنُونَةِ

(يوحنا ٥ : ٢٥ — ٢٩)

هنا فى هذه الفقرة ، أكثر من أية فقرة أخرى فى هذا الفصل، نستطيع أن نرى بأكثر وضوح حقوق المسيا ، كما نادى بها يسوع . فهو ابن الانسان وهو واهب الحياة، ومصدرها الوحيد. وهو الذى سيقيم الموتى بقدرته فى اليوم الأخير . ثم يحشرهم حشراً لموقف الدينونة العظيم ، فالذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة . هذه هى حقوق مختار الله الوحيد ، مسيح الله،الذى سيشرق فى شخصه العهد الجديد ، عهد ملكوت الله بين البشر .

وفى هذه الفقرة ، تتردد كلمة « الأموات » والذين فى القبور ، ويبدو أن السيد يستخدمها هنا بمعنيين ، متباينين :

أولا : نراه يستخدمها بالمعنى الروحى للدلالة على الأموات بالذنوب والخطايا. ان يسوع على استعداد أن يهب الحياة ، للذين انتفت حياتهم . . الذين رقدوا فى قبور خطاياهم وآثامهم .. الذين لم يعد لهم رجاء ،وأصبحوا أسرى للموت الروحى ، ترى ماذا نعنى بكلمة موتى الروح ؟

ا — ان الميت روحياً هو إنسان انقطع عن الجهاد ، عن المحاولة ، عن الصراع . إنسان قبل الواقع كما هو واستسلم لظروفه ، ونوازعه ، وأهوائه، انسان أصبح يرى الأخطاء شيئا حتميا لازما ،والآثام جزءاً لا يتجزأ من كيانه. أما المُثل العليا ، والفضائل ، فهو يراها أمورا يصعب تحقيقها .

ان الحياة المسيحية حياة جهاد ، وتقدم ، وصراع . انها لا يمكن أن تتوقف لأنها إما أن تتقدم ، وإما أن يكون مصيرها الرجوع إلى الوراء . ان التوقف عن المحاولة . . عن الجهاد . . عن التقدم ، معناه النكسة ، والذبول،والرجوع إلى الموت .

ب — والميت روحياً هو إنسان توقف عن الشعور ، والإحساس . فمن ملابسات الموت فقدان الإحساس ، وهناك الكثيرون ممن كان لهم ، فى وقت من الأوقات ، الشعور المرهف الحساس، تجاه الخطية ، والعار،وآلام الآخرين لكنهم شيئاً فشيئاً اعتادوا هذه الشرور ، فتبلدت أحاسيسهم ، وتجمدت مشاعرهم . وهكذا فقدوا حساسيتهم الروحية ، والأدبية ، فأصبحوا ينظرون إلى الخطايا ، ويلمسونها ، ويمارسونها،دون أن يحسوا بأدنى تأنيب من الضمير وصاروا يتطلعون إلى المتألمين فى ضيقاتهم وأحزانهم ،ويشاهدون دموعهم السائلة، وقلوبهم الممزقة، دون أن تهتز قلوبهم الجامدة . وحينما يتجمد القلب تموت معه كل العواطف ، والمشاعر النبيلة .

جـ — والميت روحياً هو إنسان تجمد عقله ، وتوقف تفكيره . يقول أحد المفكرين ، « حين تتوقف عند قرارما ، فى أمر من الأمور ، ولا تتقدم فى طريق البحث ، فأنت فى حالة الموت[1] » .

---

(١) Alexander Findlay

وهو يقصد بهذا انه حينما يصل إنسان ما إلى الحالة التى يغلق فيها عقله ، ويستغلق فيها تفكيره ، فلا يستطيع أن يفتح مصاريع ذهنه أمام حق جديد ، فهذا الانسان قد يكون حياً فى مظهره المادى ، ولكنه فى الحقيقة ميت عقليا وروحياً . فحينما يأتى اليوم الذى يحس فيه الانسان ، أن الرغبة فى المعرفة قد ماتت فى أعماقه . . اليوم الذى ينقطع فيه عن إكتشاف فكر جديد فى دائرة العقائد الأزلية الخالدة . . اليوم الذى تصبح فيه كل صورة جديدة للحق القديم الخالد ، عبئاً ثقيلا لا يطيقه عقله ، وتنفر منه حواسه . . . فهذا اليوم هو يوم موته الروحى . ونحن لا نقصد بهذا الجرى وراء كل ماهو جديد ، كما كان يفعل الأثينيون فى القديم ، فهناك عقائد رئيسية لايمكن أن تتزعزع ، والمساس بها مساس بجوهر الإيمان الخالد ، ولكننا نعنى اكتشاف أضواء جديدة فى الحق القديم الأزلى . . . الغوص إلى أعماق جديدة فى محيط الفكر الروحى الأساسى ، فالحياة وإكتشاف الحق ، صنوان لاينقطعان .

د — والميت روحياً إنسان نكث عهوده ، وتوقف عن التوبة . ان اليوم الذى نستطيع فيه أن نخطىء فى سلام ، دون أقل تأنيب من الضمير ، أو تبكيت من الروح القدس ، هو اليوم الذى تدق فيه أجراس السماء ، دقاتها الحزينة الباكية ، معلنة موتنا الروحى . انه اليوم الذى لا نكترث فيه أن كنا قد أخطأنا أو لم نخطىء . . . اليوم الذى تفقد فيه الخطية مظهرها الشنيع القاسى فى عيوننا ، اليوم الذى نخطىء فيه بلا ندامة ، ولا صراع داخلى . . هذا هو اليوم الذى تموت فيه النفس . . هذا هو اليوم الذى يتعفن فيه القلب ، وينحل . . هذا هو اليوم الذى تتجمد فيه الأحاسيس . وما أيسر أن يصل الانسان إلى تلك الحالة . فحينما نرتكب الخطية لأول مرة ، نحس بالخوف ، والندم ، والعار ، والخجل . وحينما نرتكبها للمرة الثانية ، يكون إحساسنا بالندم ، أقل من المرة

الأولى فإذا سقطنا فيها للمرة الثالثة يكون الطريق أ كثر تمهيداً أمامنا . فإذا اعتدنا على فعلها المرة بعد الأخرى ، يأتى علينا الوقت الذى نرتكبها فيه دون أقل تفكير ، ودون أدنى شعور بالندامة . ينبغى علينـــا حتى نجنب أنفسنا الوصول إلى تلك الحالة المريرة ، أن نحفظ حساسيتنا الروحية فى محضر المسيح الدائم ممارسين وسائط النعمة المنوعة .

ثانياً : نرى السيد يقصد بكلمة الأموات المعنى الحرفى . . . الموت المادى. فهذه الحياة الأرضية ليست نهاية كل شىء ، وبعد هذه الحياة توجد حياة أعظم وأوسع مجالا بما لا يقاس . والقبر لن يطبق أبوابه إلى الأبد على الذين يضمهم فى أحضانه . والموت لابد وأن يأتى عليه يوم، يلفظ فيه الذين ابتلعهم ، ومزقتهم أنيابه . فبعد الموت لابد وأن تأتى القيامة لأن هناك الحياة الأخرى . وهذه الحياة الأخرى التى أشرنا إليها، ترتبط إرتباطاً كاملا بالحياة التى نحياها هنا. وما يحدث للانسان فى الحياة القادمة، تكيفه التصرفات ، والملابسات، والظروف التى أحاطت به فى هذه الحياة . فنحن نصنع سماءنا من هنا، ونخلق أيضاً جحيمنا من هنا .. نبدأ حياة المجد من هنا ، ونبدأ أبدية التعاسة من هنا أيضاً . فالحياة الأخرى مرتبطة بهذه الحياة . هناك مثل غربى سائر يقول « إذا أردت معرفة مشاعرك فى الغد ، أفحص أعمالك اليوم ». ان أعظم حق رهيب يرتبط بهذه الحياة هى أنها تقرر مصيرنا الأبدى . ونحن فى كل لحظة من لحظات العمر ، اما نعـــدُّ أنفسنا للبيت الأبدى السعيد ، أو نشوه كياننا الروحى وإمكانياتنا الأدبيـة ، فلا نعود نصلح بعـــد إلا للحريق الأبدى . . إما أن نهىء أنفسنا للمثول فى محضر الله، والتمتع به إلى أبد الآباد، أو نملأ كؤوسنا بخمر النقمة، والغضب الإلهى ، وهكذا تحل علينا اللعنة الأبدية . إننا نستطيع أن نبدأ فى هذه الحياة طريقنا إلى الموت ، أو نخطو سائرين فى طريق الحياة. هذه هى الحقيقة الرهيبة

التى ينبغى أن نتيقظ لها كل اليقظة ، ان كل فكر يجول بخاطرنا . . .
وكل عمل نعمله، إما أن يبنى مستقبلنا ، أو يهدم بناء حياتنا . . . اما أن يعدنا
لأمجاد الأبد ، أو يعدنا لتعاسة الأبد . فالواحد منا ، فى هذه الحياة يستطيع أن
يهىء نفسه ليكسب الحياة الأسمى ، أو يستطيع أن يرتكب بيديه ، أقسى
جريمة يمكن أن يرتكبها مخلوق عاقل . . . . جريمة الإنتحار الروحى . .
وهذه الجريمة هى أقسى آلاف المرات ، من الانتحار المادى ، لأن الانتحار
المادى يُنهى حياة صاحبه فى دقائق معدودات . أما الانتحار لروحى ، فانه
بداية لأبدية ، قاسية ، رهيبة ، لا نهاية لها .

الدينونة الوحيدة الحقيقية

«أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئًا . كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ
وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ لِأَنِّى لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِى بلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِى
أَرْسَلَنِى » .

(يوحنا ٥ : ٣٠)

فى هذه الفقرة يتحدث يسوع عن حقه فى الدينونة الحقيقية . ولعل الذين
حوله ، قد ذهلوا حينما سمعوا هذا التصريح من شفتيه . ولعلهم قد تساءلوا أيضاً
كيف ينادى بهذا الحق الرهيب ، وكيف يدّعى لنفسه مقام الديان ؟ وهل يمكن
أن دينونته تكون دينونة حقيقية عادلة ؟

وفى هذه الفقرة يجيب يسوع على كل فكر يجول فى قلوب سامعيه ، وعلى
كل قول يتهامسون به فيما بينهم . وهو يثبت هنا الأساس الذى تقوم عليه
دينونته ، فدينونة يسوع حق ، وعادلة ، لأنه لا يرغب فى شىء ، إلا رضى

الإرادة الإلهية ، ولا يتحدث بشيء ، إلا الحديث الذى أثبتـه الله له ليتحدث به ، ولا يفـكر فى أمر إلا الأمور التى أعطاها الله له ، ليتجه إليها بالفـكر ، ولا يقوم بعمل إلا الخطط الذى حدده الله له ليعمل فى حدوده . وهكذا ليس من الغريب أن يصبح من حقه وحده الدينونة الحقيقية. لماذا ؟ لأن دينونته هى الدينونة الألهية . . . دينونة الله نفسه ، والأساس الذى تقوم عليه هذه الدينونة ليس أقل من فـكر الله ، وتقدير الله ، وعدالة الله .

وفى الحقيقة ان دينونة البشر كلها ضعف ، وقصور. فليس من اليسير على إنسان بشرى ، أن يمسك بميزان العدالة ، ويدين أخاه بالحق والعدل . وإذا فحصنا أعماق قلوبنا بكل أمانة واخلاص ،فإننا سوف نـكتشف دوافع كثيرة تشكل حكمنا على الآخرين ، وأسساً عديدة تقوم عليها أحكامنا . فقد يكون حكمنا على قريبنا مجحفاً ، قاسياً ، بدافع الـكبرياء المهانة .وقد يكون حكما أعمى غير عادل ، بدافع الأحقاد الدفينة . وقد يكون حكما مريراً ، بدافع الحسد ، والغيرة . وقد يكون حكما متعالياً ، جباراً ، بدافع الاحتقار ، والحط من قيمة الآخرين . وقد يسوده العنف ، بسبب روح عدم التسامح . وقد تبنى بنوده على أساس شعورنا بأننا أفضل من سوانا . وقد يصطبغ بصبغة البر الذاتى . وقد ندين الآخرين بدافع الحسد ، والغرور . وقد يكون حكمنا قائما على غير أساس سليم ، لأننا لم نحاول ان ندخل فى حسابنا الظروف والملابسات ، التى أحاطت بأخوتنا ، وشكلت تصرفاتهم ودفعتهم فى الطريق الذى اختـاروه . أو بمعنى آخر قد يكون حكمنا خاطئاً ، لاقيمة له على الاطلاق ، بسبب جهلنا الحقيقى ، أو جهلنا المتعمد — الانسان الوحيد الذى يحق له أن يدين أخاه بالعدل والحق هو صاحب القلب النقى ، الذى لم تشبه شائبة . . . هو صاحب الدوافع النقيـة التى لا تختلط فيها المصالح الذاتية ، بالبر الذاتى ، بالاحقاد الشخصية ، بالغرور

والعنجهية ، فتشكل هذه كلها أحكامه ، وتدفعه فى طريق الحقد والملامة .

على هذا القياس نستطيع أن نقول انه لا يوجد إنسـان بشرى ، تنطبق عليه هذه الأوصاف بحذافيرها . لذلك لا يوجد إنسان يحق له أن يدين سواه . أو بمعنى آخر ليس هناك سوى الله ، الذى يستطيع أن يدين بالحق والعدل ، لأن دينونة الله مبنية على ذات الله، وأوصاف الله، وبر الله، وعدالة الله ، ومحبة الله . . . فالله هو وحده الـكامل القدوس ، بل هو جوهر القداسة والـكمال، لذلك فهو الذى يحوى فى كيانه المقاييس العادلة التى يدين بها البشرية بالحق . والله هو وحده المحب . . بل هو المحبة المجسمة ، وفى حدود دائرة قلبه الـكبير الذى يسعنا ، ويسع ضعفاتنا ، ويقدر عجزنا البشرى ، بل يضم الوجود كله فى نطاق محبته الفائضة ، نثق كل الثقة أننـا سنجد العطف الـكامل الذى هو العنصر الرئيسى لـكل محاكمة عادلة . والله هو الـكلّى العلم ، ومعرفته تسع العالمين ، وتتغلغل إلى خبايا النفس ، وتميز أفـكار القلب،ولا تغفل عن عنصر الظروف ، والتجارب ، والمتاعب ، والملابسات ، ولذلك فإن دينونته هى الدينونة الحقيقية ، لأنها تدخل فى حسابها كل هذه الأمور .

ولأننا نثق بأن الله قد سرّ فى ملء الزمان أن يتجسد لنا بشراً منظوراً فى شخص يسوع المسيح ، لذلك نثق أيضاً بأن فـكر يسوع ليس أقل من فـكر الله ، وقلب يسوع ليس أقل من قلب الله ،ومعرفة يسوع ليست أقل من معرفة الله ، وهـكذا بالتالى دينونة يسوع حق ، وعادلة ، لأنها ليست أقل من دينونة الله . انه يدين بقداسة الله الـكاملة ، ومحبة الله الـكاملة ، وعطف الله الـكامل .

الشهادة للمسيح

« إن كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقا . الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ وأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ ٱلَّتِي يَشْهَدُهَا لِي هِيَ حَقٌّ . أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمْ إِلَى يُوحَنَّا فَشَهِدَ لِلْحَقِّ . وأَنَا لاَ أَقْبَلُ شَهَادَةً مِنْ إِنْسَانٍ . ولَـٰكِنِّي أَقُولُ هَذَا لِتَخْلُصُوا أَنْتُمْ . كانَ هُوَ ٱلسِّرَاجَ الْمُوقَدَ الْمُنِيرَ وأَنْتُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَبْتَهِجُوا بِنُورِهِ ساعَةً . وأَمَّا أَنَا فَلِي شَهادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا . لِأَنَّ الْأَعْمَالَ ٱلَّتِي أَعْطَانِي الآبُ لأُكَمِّلَهَا هَذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا ٱلَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ ٱلآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي » .

(يوحنا ٥ : ٣١ ـ ٣٦)

مرة أخرى نستمع إلى يسوع يردُّ على التهم التى يوجهها إليه مقاوموه . ولعل خصومه قد تساءلوا : وماهى الضمانات ، التى تؤكد صـــدق هذه الإدعاءات ؟ لقد كانوا يقولون بالفعل ، ان الحقوق التى ينادى بها هذا المعلم حقوق مذهلة ، رهيبة ، أعظم منه بكثير . ماهى الأدلة التى يقدمها على صدق هذه الحقوق ؟ » . وفى هذه الفقرة كلها يناقش يسوع علماء اليهود ، بالطريقة التى يفهمونها ، ويدركونها تماما . انه يتخذ طريقتهم فى النقاش ، وينسج على منوالهم .

١ — فهو يبدأ بإرساء القانون العام ، الذى كان معروفاً عند اليهود أن

شهادة شاهد واحد لا يمكن أن تتخذ كدليل ، لتؤكد حقيقة ما ، أو تنفيها . فقبل أن يثبت حق ما لإنسان ، ينبغى أن تكون هناك شهادة شاهدين على الأقل . وقبل أن يقوم إدعاء عليه ، لا بد وأن يستمع أعضاء المحاكمة إلى شهادة من إثنين ، أو ثلاثة .. « على فم شاهدين أو ثلاثة، يقتل الذى يقتل . لا يقتل على فم شاهد واحد » . (سفر التثنية ١٧ : ٦) « لا يقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما ، أو خطية ما ، من جميع الخطايا التى يخطىء بها ، على فم شاهدين ، أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر » (سفر التثنية ١٩ : ١٥) .

وفى معرض حديث بولس للكورنثيين ، وتوبيخه لهم ، نستمع إليه يقول : « هذه المرة الثالثة آتى إليكم . على فم شاهدين وثلاثة تقوم كل كلمة » (٢ كورنثوس ١٣ : ١). بل أننا نستمع إلى السيد نفسه ينصح سامعيه بالقول « وان أخطأ أليك أخوك ، فاذهب ، وعاتبه بينك وبينه . . . ان سمع منك فقد ربحت أخاك . وإن لم يسمع ، فخذ معك واحداً أو اثنين ، لكى تقوم كل كلمة على فم شاهدين ، أو ثلاثة » (متى ١٨ : ١٥ ، ١٦) . وفى الكنيسة الرسولية الأولى ، ما كانت تهمة تقوم ضد أى واحد من رجال الكنيسة ، إلا إذا أكدها شاهدان ، أو ثلاثة شهود . (تيموثاوس الأولى ٥ : ١٩) . وهكذا نرى يسوع يبدأ حديثه على هذا القياس مستندا على الناموس العام ، الذى يعرفه كل يهودى .

زيادة على ذلك ، فقد كان معروفاً أيضا أن شهادة إنسان عن نفسه لا تقبل ولا تثبت . يقول أحبار اليهود ، فى المشنه « ان الإنسان الذى يشهد لنفسه ليس أهلا للثقة ». ويقرر ديموثين ، الخطيب اليونانى الأشهر ، مبدأ هاما من مبادىء العدالة : « إن القانون لا يسمح لإنسان بالشهادة لنفسه » ، فقد كان معروفا أن المصالح الذاتية ، وحماية النفس ، لهما أثرهما فى شهادة الإنسان عن

نفسه . وهكذا يقبل يسوع الناموس اليهودى ، والحدود الغريبة ، ويتفق مع سامعيه بأنه ان جاءت الشهادة من جانبه هو فقط ، فلا داعى لقبولها .

٢ — ولقد كان هناك شهود آخرون . يقول يسوع الذى يشهد لى هو آخر . ويقصد بالآخر ، الله الآب جلّ جلاله . وهو سيتحدث عن شهادة الله عنه فيما بعد . ولـكنه فى مجال الحديث هنا يعرض لشهادة يوحنا المعمدان عنه. ولقد أشرنا آنفا إلى شهادة يوحنا عن يسوع (يوحنا ١ : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٦ — ١ : ٣٥ ، ٣٦). ورأينا كيف أثبتها البشير مرارا وتـكراراً ، للرد على الذين ينادون بأفضلية المعمدان ، وسموه على سواه . وهنا نستمع إلى يسوع يقـدم تحية للمعمدان ، وفى نفس الوقت ، يتقدم بتوبيخ لسامعيه من ممثـلى السلطات اليهودية . فهو يقول ان المعمدان كان السراج الموقد المنير . هذه هى تحيـة السيد للمعمدان ، واعترافه بمقامه ، ولـكنها فى الوقت نفسه تحديد لوضعه .

(ا) فالسراج ينير المـكان ، ويبدد الظلمة ، ويبهج قـلوب من يسطع عليهم ، ولـكن نور السراج ليس نوراً أصيلا ينبع من ذاته. إنه نور مستمد من سواه ، لأن آخر يقوم باشعاله .

(ب) والسراج يشيع الدفء فى دائرته التى ينير فيها — ورســـالة يوحنا لم تـكن رسالة المنطق البارد الجامد ، بل رسالة القلب المشتعل الملتهب .

(ج) والسراج يهدى أقدام السائرين فى ظلام الليل ، فى الطريق المنفرد الموحش ، ولقد كان للمعمدان نوره الهادى . فقد كان ينير لسامعيه الطريق إلى رضى الله ، بالتوبة والرجوع عن الخطية .

(د) والسراج يحرق نفسه بنفسه . وحتى ان كان يؤدى رسالته طيـلة الليل ، ليشرق على الجالسين فى الظلمة ، فلا بد وان يأتى الوقت الذى يتضاءل

فيه نوره شيئا فشيئاً ، حتى ينتهى ويخلى السبيل لنور النهار الكامل . فهو فى أضاءته يحترق ، ويستهلك نفسه بنفسه . وهكذا ، كما قال المعمدان ، ينبغى أن هذا يزيد ، وأنى أنا أنقص . ينبغى أن يختفى المعمدان وراء ستار الغموض والنسيان ، بعد أن قام بدوره ، ويظهر رب المجد على مسرح الخدمة المجيدة . ينبغى أن يبتعد الياور ، ويختفى ، بعد أن أعلن مقدم الملك .

وفى الوقت نفسه ، وبخ السيد سامعيه من اليهود ، فهم لم يأخذوا وصايا المعمدان على محمل الجد . لقد تحمسوا له ، واستمعوا لكلامه بسرور ، ولاشىء غير ذلك . أو كما قال أحدهم « لقد كانوا كالفراش ، يرقصون فى النور أو كالأطفال يجتمعون معا للعب فى ضوء الشمس ، فى الصباح المشرق . لقد كان المعمدان بالنسبة لهم ، منبر السعادة والسرور ، يلتفون حوله حين يردد على مسامعهم الأمور التى توافق هواهم . فإذا تحول عن ذلك ، إلى رسالة التوبيخ والإنذار ، ما أيسر عليهم أن ينفضوا عنه ويتركونه قائما حيث هو . وكثيرون من مسيحيى العصر الحاضر ، يشبهون يهود تلك العصور ، وفى موقفهم تجاه الحق الألهى ، لا يختلفون عن موقف أولئك . انهم يحضرون الكنيسة كأنهم يحضرون إلى مسرح ليشهدوا تمثيل رواية ، ويستمتعون بها . فالواعظ عندهم لا يزيد عن كونه ممثلا على خشبة المسرح يسعدهم الاستماع إليه ، إذا وافقت الرواية هواهم . فإذا تحول الواعظ إلى رسالة التبكيت والإنذار ، قالوا عنه انه ممثل فاشل ، وعن لفظه أنها رواية فاشلة . قال أحد مشاهير الوعاظ ، انه تقدم إلى سامعيه فى يوم من ايام الآحاد ، بعظة عن الدينونة . وبذل قصارى جهده فى تصوير الموقف الرهيب والنهاية المرعبة . وبعد العظة أثار دهشته أن يتقدم منه أكثر من واحد ويقول له « انها عظة جميلة رائعة ! » لقد كان ينتظر أن تذوب القلوب ، وتتكسر النفوس ، ويعود المؤمن إلى لهيبه

ويستيقظ الخاطىء من غفلته ، فإذا به يقابل بمجرد التلذذ بسماع عظته . إن حق الله ليس كرنين الصنوج فى حفل صاخب ، نستمع إليه فى سرور . . . ليس شيئاً نكتفى بالاستمتاع به . . انه أكثر من ذلك . انه سيف ماض ذو حدين ينبغى أن يخترق إلى أعماق النفس ، والفكر ، ويميز أفكار القلب ، ونياته . انه قوة جبارة تهزمنا ، وتذيبنا ، وتجعلنا نفكر ، ونندم فى التراب والرماد .

ولكن يسوع لم يستند بالكلية على شهادة يوحنا. إنه يقول إنه لا يعتمد على شهادة البشر ، بما فيهم من ضعفات وأخطاء لأن له شهادة أعظم ، تؤيد حقوقه كالمسيا العظيم ، وتعلن أمجاد لاهوته .

٣ — وهكذا يتجه السيد إلى شهادة أعماله المعجزية .

ولقد فعل يسوع هذا حين أرسل إليه المعمدان ، وهو فى السجن رسولين ليسأل إن كان هو المسيا ، أم ينتظر سواه ، فكان جواب المسيح لذينك الرسولين إذهبا واخبرا يوحنا ، بما تسمعان ، وتنظران : العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون » (متى ١١ : ٤، ٥ — لوقا ٧ : ٢٢).

لقد اتجه السيد إلى برهان أعماله المعجزية ، ليقدم الدليل الناصع على صدق رسالته . ولكنه فى نفس الوقت ، لا يستند على هذه الأعمال كأساس لتمجيد نفسه ، بل يرى فيها أصبعاً يشير إلى الله الآب . . . ظواهر ملموسة تعلن مجد الآب . . . « فهى الأعمال التى أعطانى الآب » هذه الأعمال عينها تشهد له . إن رسالته من الله ، وتكليفه من الله .

شهادة الله

« والآبُ نفسه الذي أرسلني يشهد لي . لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته . وليست لكم كلمته ثابتة فيكم . لأن الذي أرسله هو لستم تؤمنون به فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حيوة أبدية . وهي التي تشهد لي . ولا تريدون أن تأتوا إلي لتكون لكم حيوة .

مجداً من الناس لست أقبل . ولكني قد عرفتكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم . أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني . إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه » .

(يوحنا ٥ : ٣٧–٤٣)

ان الجزء الأول من هذه الفقرة ، نستطيع أن نفسره فى صيغتين .

١ — فهو قد يشير إلى شهادة الله الخفية فى قلب الإنسان .

يحدثنا يوحنا نفسه ، فى رسالته الأولى فى الاصحاح الخامس منها قائلا : « من يؤمن بابن الله ، فله الشهادة فى نفسه (أى شهادة الله) » . (يوحنا ٥: ٩ — ١٠) . لقد كان اليهود يؤكدون أن الله لم يشاهده إنسان . ولن تقع عين بشر عليه ، كما يقول البشير يوحنا « الله لم يره أحد قط » . وفى فرصة إعطاء الوصايا العشر للشعب ، نقرأ القول الموجه للشعب ، فى سفر التثنية « فكلمكم الرب من وسط النار ، وأنتم سامعون صوت كلام ، ولكنكم لم تروا صورة،

بل صوتاً » . (تثنية ٤ : ١٢) . ومع أننا نؤمن بحدوث المعجزة الفعلى ، ووصول الصوت إلى أسماع الشعب ، إلا أننا نستطيع أن نترجم هذا القول على هذه الصورة : « صحيح أنكم لم تبصروا صورة الله ، لأن الله غير منظور • ولكنكم رأيتم شاهده ، وسمعتم صدى أمجاده » . وشاهد الله فى أعماق الإنسان ، هو ترجيع الصدى الذى يتردد فى جنبات القلب ، حينما يواجه الإنسان بشخص المسيح • فحينما نواجه المسيح ، أو نُجابه به ، فنرى فيه كلىّ الجمال ، وكلىّ الحكمة ، فهذا الاقتناع الداخلى هو شهادة الله فى قلوبنا. يقول الفلاسفة الرواقيون ، ان اسمى درجات المعرفة لا تأتى عن طريق الفكر بل تأتى عن طريق ما يسمونه بالتأثيرات الأخاذة [1] . فالاقتناع يصل إلى نفس إنسان ما ، ويمسك بتلابيبه ، كما يطبق ضابط المباحث على المتهم الهارب.

وهكذا يصبح ذلك الإنسان مؤمنا من أعماق القلب ، ولو أنه لا يستطيع أن يفسر كيف وصل إليه هذا الاقتناع ، أو ما هو السبب الذى دفعه إلى ذلك وعلى ذلك قد يكون قصد يسوع أن الاقتناع الداخلى فى أعماق قلوبنا ، بأنه هو المسيح ، هو فى الواقع شهادة الله للمسيح فى أعماق قلب الإنسان .

٢ ـ وقد يكون قصد السيد ، فى حواره هذا مع اليهود ، أن شهادة الله للمسيح ، هى فى أعماق الأسفار المقدسة .

لقد كانت أسفار العهد القديم لليهود ، هى الكل فى الكل . ومن أقوالهم : « الذى يمتلك كلمات الناموس ، يملك الحياة الأبدية » . « من له الناموس ، له منطقة النعمة ، يتمنطق بها فى هذا العالم ، وفى العالم الآتى » . « أى إنسان يعتقد بأن موسى كتب حرفاً واحداً من الناموس

---

(١) "Arresting impressions"

بمعرفته الخاصة ، يحتقر الله ، ويقلل من قيمة الوحى » . وفى سفر باروخ ، وهو أحد الأسفار غير القانونية .

« هذا هو سفر وصايا الله .

والناموس الذى يثبت إلى الأبد

كل من يتمسك بها يُعدُّ للحياة .

ومن يهجرها مصيره الموت » .

ومن أقوال اليهود أيضاً : « إن كان الطعام الذى يسندك إلى ساعة ، يستلزم منك أن تباركه قبل تناوله وبعد الانتهاء منه ، فكم بالحرى الناموس الذى يتضمن حياة الدهر الآتى يلزم منك أن تباركه ». ومع أن الناموس كان بين يدى كل يهودى ، ومع أنه كان طعامه وشرابه ، إلا أنه لم يستطع أن يصل به إلى معرفة المسيح عند مجيئه إليه . ترى ما السر فى هذا ؟

هناك أمر واضح كل الوضوح ، لقد اتجه اليهود للناموس إتجاها خاطئا . . .

١ ـ لقد درسوه بعقول مغلقة . فهم لم يدرسوا الكتب ليبحثوا عن الله وليستمعوا إلى وصاياه ، بل درسوها ليكتشفوا حججا تسند موقفهم ، وأعذاراً تؤيد معتقداتهم وآراءهم . فهم لم يحبوا الله . من أجل ذلك لم يثبتوا فى الله ولم يثبتوا فى وصاياه ، كما لم تثبت وصاياه فى قلوبهم . فإن كان للماء المقدرة على اختراق الصوان ، تكون لكلمة الله المقدرة للدخول إلى أعماقهم والوصول إلى قلوبهم . انهم لم يرفعوا أنفسهم لمستوى المكتوب ، بل حاولوا أن ينزلوا بالمكتوب ليصل إلى مستوى نفوسهم . فهم لم يضعوا أنفسهم إلى

الحد الذى يتلقنون فيه مبادىء لاهوتية من المكتوب ، ولكنهم استخدموا المكتوب ليدافعوا به عن مبادىء سنوها لأنفسهم .

ونفس الخطر يكمن فى طريقنا نحن . فكثيرا ما نستخدم الكتاب ليؤيد معتقدنا ، وإيماننا ، لا ليمحصه ، ويفحصه ، ويمتحنه .

ولكنهم وقعوا أيضاً فى خطأ أقسى — لقد وصلوا إلى حد تأليه الحرف .. إلى حد اعتبار أن الله ركز كل اهتمامه فى الناموس ، وفى تقديم الوحى المكتوب ، ولا شىء سوى هذا . ولكننا نعلم أن الوحى ليس الله متكلماً فحسب ، بل الله عاملا فى الخليقة ، وأن لله طرقه المتعددة للاعلان عن ذاته . فهناك أحداث العناية ، وهناك دائرة الطبيعة ، وهناك منطق التاريخ . والكتاب المقدس ينبغى أن ننظر إليه كيد ممتدة تشير إلى شخص المسيح — فى رموزه .. فى أحداثه .. فى نظمه ، فى تعاليمه . . . فى نبواته .. فى كل شىء . ينبغى أن ندرس الكتاب فى نور المسيح ، وهذا هو الطريق الصحيح . حينذاك يتكشف لنا كل مايستغلق علينا فهمه . حينذاك نرى اصحاحات العهد القديم ، وكأنى بها درجات فى سلم يعقوب ، توصلنا إلى معرفة ابن الله وإلى الشركة السعيدة مع الله عن طريقه ، لأن فى المسيح كمال الناموس ، وفيه تحقيق النبوات ، وفيه حل الرموز ، وفيه إعلان كل وحى . لقد عبد اليهود إلها يمسك بالقلم ، ويكتب فى اللوح المحفوظ ، ولا شىء غير ذلك ، فهم لم يتصوروا الله عاملا . وهكذا حينما تقدم الله إليهم فى شخص المسيح ، لم يستطيعوا أن يدركوه . إن الوظيفة الأسمى للكتب المقدسة ، لا أن تهبنا الحياة ، بل أن تشير إلى مصدر الحياة ، يسوع المسيح ، وأن توجهنا إليه .

هنا فى الفقرة التى أمامنا ، حقيقتان من الأهمية بمكان ، لأنهما تعلنان لنا الكثير :

الأولى : نراها فى رجوعنا إلى العدد الرابع والثلاثين ، حيث نستمع إلى السيد يقول ، ان غاية الكتب ، والأعمال التى يقوم بها ، هى أن توجه الناس إليه « لتكون لهم حياة » . ثم يقول « مجداً من الناس لست أقبل . . » . وكأنى بالسيد يقول : « أن محاجتى معكم ، لا لأكسب انتصارا كلاميا . إننى لا أجابهكم بهذه الصورة القاسية ، لأننى أريد أن أخدكم ، وأخرس ألسنتكم ، ولا لأثبت تفوقى عليكم ، وانتصارى على حججكم ، إننى لا أفعل هذا لأخجلكم أمام الآخرين ، وأكسب مديح الناس . ولكننى أتحدث هكذا لأننى أحبكم ، وأريدكم أن تخلصوا ، وتنالوا الحياة » . هنا حقيقة عظمى ، تنير لنا الطريق فى تصرفاتنا ـ فحين يثور الناس علينا ، ويقاوموننا ، ويجادلوننا بحنق فكيف نرد عليهم جدالهم ؟ هل نجادلهم بالحسنى والمحبة ، ام بروح الغضب والكبرياء المهانة ؟ هل الشر يثور فينا ، ويدفعنا للثورة والمحاجة ؟ هل هو الضيق النفسى ، والكبرياء الذاتية ؟ هل هو محاولة فرض آرائنا ، ومعتقداتنا على الآخرين لأنهم ، كما نتصور ، أقل علما وحكمة ودراية ؟ لقد كان يسوع يجادل الآخرين لأنه كان يحبهم ، ويريد لهم الخير . فهو لم يخاصم ولم يرفع صوته ، ولم يُسمع فى الطريق صياحه ، لقد كانت حججه تتميز بالحزم ، ولكنه فى حزمه كان يتقدم إلى سامعيه بروح المحبة المتوسلة ، وكانت عيناه تقدحان بالنار ، ولكنها نار العاطفة ، الملتهبة ، الصادقة .

الثانية : نلمسها فى قول يسوع « إن أتى آخر باسم نفسه ، فذلك تقبلونه » . وتاريخ اليهود يذخر بأسماء كثيرة لأشخاص حاولوا أن يوهموا الشعب بأنهم محط آماله ، ورجائه ، وكان لكل واحد أتباعه (انظر مرقس ١٣ : ٦ — ٢٢ ، ومتى ٢٤ : ٥ ـ ٢٤) . ترى لماذا ينجذب البشر إلى أولئك المخادعين ؟ لماذا يجد أولئك صدى فى نفوس السامعين ؟ إن الناس يفعلون ذلك

ـ كما قال أحدهم ـ لأن الإنسان المخادع تتجاوب رسالة خداعه مع أشواق الناس ، ورغائبهم . . » •

لقد نادى أولئك الخادعين بإمبراطورية عظمى ، وانتصار ماحق ، وأمجاد باهرة ، ونجاح مادى • ولكن ماذا قدم يسوع لأتباعه ؟ لقد تقدم إليهم بالهزء ، والعار ، والدماء ، والصليب . ان المخادع إنسان يمهد الطريق ليشبع رغائب سامعيه ، ويسهل لهم السبيل ، ولكن يسوع تقدم بالطريق الضيق الذى يوصل إلى الحياة •

وماذا كانت النتيجة والعبرة فى النهاية ؟ لقد ثبت حق يسوع ، أما أولئك فقد اضمحلوا ، وانتهوا إلى النسيان •

الدينونة القصوى

« كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْداً بَعْضُكُمْ مِنْ بعْضٍ . والْمَجْدُ الَّذِى مِنَ ٱلإِلهِ ٱلْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ . لاتَظُنُّوا أَنِّى أَشْكُوكُمْ إِلَى ٱلآبِ . يُوجَدُ ٱلَّذِى يَشْكُوكُمْ وَهُوَ موسَى ٱلَّذِى عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ . لِأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِى لِأَنَّه هُوَ كَتَبَ عَنِّى . فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كَلَامِى » .

(يوحنا ٥ : ٤٤ ـ ٤٧)

لقد كان من الصفات الملازمة للكتبة والفريسيين ، حبهم الشديد لمديح الناس ، ورغبتهم فى اطراء البشر لهم . لقد كانوا يصلون فى المجامع ، وفى زوايا

الشوارع ، ليظهروا للناس أنهم مصلون . وكانوا يحتلون الأماكن الأمامية فى الجامع حتى ترمقهم العيون بنظرات الإعجاب .

وكانوا يتيهون عُجباً حينما يناديهم الناس بألقاب الاكرام ، وتحيات الاجلال والاحترام . بل حتى فى ثيابهم ، كانوا يختلفون عن بقية الناس . وكل هذه الأمور ، كانت ستاراً حجبت عن أنظارهم رؤية مجد الله ،وطمست آذانهم وقلوبهم ، فلم يستمعوا لصوت القدير . فطالما يعتمد الإنسان على مديح البشر . . . طالما يغتر بثناء الناس ، ويظن فى نفسه أنه أفضل من سواه . . طالما يقيس ذاته على مقاييس البشر ، ويقارن نفسه بأخوته ، فسيبقى مكتفياً بما هو فيه، وطالما كان له مجد العالم ، وافتخار العالم ، ومديح العالم ، فلم ير فى ذاته وازعاً يدفعه إلى طلب بر الله ومجد الله . . . لن يرى هناك أى داع للايمان بالله وبكفاية عمله . ان لب المشكل لايدور حول القول « هل أنا فى طيبة قريبى ؟ » بل يكمن فى السؤال « هل أنا فى درجة بر الله ، وصلاحه ، وقداسته ؟ » . . . المحك الحقيقى لنا ليس : « هل علمى ، وتقواى ، أعظم من علم الآخرين ، وتقواهم ؟ » بل المحك الذى يظهر معدننا تماما هو « هل هناك تشابه بينى وبين الله ؟ وبين حياتى وكماله ؟ وبين تصرفاتى وقداسته ؟ » . طالما تقيس أنفسنا بمقاييس بشرية . . . طالما نطبق حياتنا على شرائع البشر ونواميسهم . . فهناك مجال كبير للاكتفاء الذاتى . . والاكتفاء بالذات يقتل الإيمان ، لأن الإيمان ينبع من الشعور بالحاجة،ولكن حينما نقيس أنفسنا على مقياس المسيح الكامل وفى نور المسيح نرى صغارنا ، وضعفنا ، وعجزنا ، عن الوصول إلى قداسة الله وسموه ، وبره ، حينذاك نتضع إلى التراب . هنا يُولد الإيمان الحقيقى . لأنه لاسبيل لنا حينئذ إلا الاتكال على مراحم الله العميقة المتسعة، ولا طريق آخر للنجاة سواه .

وهكذا يختتم يسوع خطابه الطويل لليهود ، بتوجيه تهمة فى الصميم . لقد عرفنا فى فصول سابقة ، معتقدات اليهود بالنسبة لكتب موسى التى أعطيت لهم ، وكيف كانوا يؤمنون بأنها ليست أقل من كلمات الله نفسه . وهنا يختتم يسوع حديثه قائلا لهم : « لو كنتم تدرسون الكتب التى تؤمنون بهـا ، وتنادون بصحتها ، لكنتم تكتشفون أنها تشير كلها لى ». ثم يستمر فى حديثه لهم قائلا : « انكم تظنون بأنكم فى أمان من عدالة الله . . . من غضبه . . . من دينونته ، لأن لكم موسى شفيعاً يشفع لكم فى يوم الدين . لكن ما رأيكم أن موسى ، الذى تعلقون عليه كل آمالكم ، هو الذى سيدينكم ، وكتبه التى تؤمنون بصدقها سوف تكون شاهداً عليكم . إنكم ترفضون أن تستمعوا لكلامى . لكنكم تحت إلزام بأن تستمعوا لى وتطيعوا وصاياى ، لأنكم مرتبطون بكتابات ذاك . وهى التى تشهد لى» .

هنا الحق العظيم ، الحق الذى يرتبط بالالتزامات. فما ظنه اليهود إمتيازهم الأعظم ، كانت فيه مسئوليتهم العظمى ، ودينونتهم الكبرى . فلا سبيل إلى دينونة إنسان ، لم يُعْطَ الفرصة للمعرفة . . لا سبيل إلى دينونة إنسان ، قضى حياته فى ظلام الجهل ، وانتهى والظلام يكسو بصره وبصيرته . ولكن على قدر معرفة الانسان تثقل دينونته ، وهكذا كان اليهود . لقد شاءت عناية الله أن تأتمنهم على الكثير من كنوز الحكمة ،والمعرفة. لكن معرفتهم تحولت خنجراً حاداً يُشهر فى وجوههم ، وعلمهم صار مصدر دينونتهم .

لنذكر أنه كلما إزدادت امتيازاتنا ، إزدادت بالتالى مسئولياتنا وكلما كثرت الفرص المقدمة لنا للعلم والمعرفة ، إزدادت أيضاً دينونتنا بسبب هذا العلم ، وبسبب تلك المعرفة . ان الامتياز يرتبط إرتباطا وثيقاً ، بالالتزام والمسئولية .

الاصحاح السادس :

الأرغفة والسمك

« بَعْدَ هٰذَا مَضى يَسُوعُ إِلى عَبْرِ بَحْرِ الْجَلِيلِ وهُوَ بَحْرُ طَبَرِية . وتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ لِأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا آيَاتِهِ الَّتِي كانَ يَصْنَعُهَا فِي الْمَرْضَى فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى جَبَلٍ وجَلَسَ هُنَاكَ مَعَ تَلامِيذِهِ . وكانَ الْفِصْحُ عِيدُ الْيَهُودِ قَرِيباً . فَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ ونَظَرَ أَنَّ جَمْعاً كَثِيراً مُقْبِلٌ إِلَيْهِ فَقَالَ لِفِيلُبُّسَ مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزًا لِيَأْكُلَ هٰؤُلاَءِ . وإِنَّمَا قَالَ هٰذَا لِيَمْتَحِنَهُ لِأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ . أَجابَهُ فِيلُبُّسُ لا يَكْفِيهِمْ خُبْزٌ بِمِئَتي دِينَارٍ لِيَأْخُذَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ شَيْئاً يسيراً . قالَ لَهُ واحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ وهُوَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ . هُنَا غُلامٌ مَعَهُ خَمْسَةُ أَرْغِفَةِ شَعِيرٍ وسَمَكَتَانِ . ولٰكِنْ مَا هٰذَا لِمِثْلِ هٰؤُلاءِ . فَقَالَ يَسُوعُ اجْعَلُوا النَّاسَ يَتَّكِئُونَ وكَانَ فِي الْمَكَانِ عُشْبٌ كَثِيرٌ . فَاتَّكَأَ الرِّجالُ وعَدَدُهُمْ نَحْوَ خَمْسَةِ آلَافٍ وأَخَذَ يَسُوعُ الْأَرْغِفَةَ وشَكَرَ وَوَزَّعَ عَلَى التَّلَامِيذِ وَالتَّلَامِيذُ أَعْطَوُا الْمُتَّكِئِينَ وكَذَلِكَ مِنَ السَّمَكَتَيْنِ بِقَدْرِ ما شَاءُوا . فَلَمَّا شَبِعُوا قالَ لِتَلامِيذِهِ اجْمَعُوا الْكِسَرَ الْفَاضِلَةَ لِكَيْ لاَ يَضِيعَ شَيْءٌ .

فَجَمَعُوا ومَلأُوا أثْنتَيْ عشرَةَ قُفَّةً مِنَ الْكِسَرِ منْ خَمْسَةِ أَرْغِفَةِ الشَّعِيرِ الَّتِي فَضَلَتْ عَنِ الآكِلِينَ » .

(يوحنا ٦ : ١ ـ ١٣)

لقد كانت هناك أوقات كان يسوع يحب أن يختلى فيها بعيداً عن الجموع، فقد كان العمل المضنى المستمر يسبب له التعب والإرهاق ، وهكذا كان بحاجة إلى فترات من الراحة . كما أن اندماجه مع الجماهير ، ما كان يتيح له فرصة للاختلاء بتلاميذه ، لذلك فقد كان ينسحب بعيداً ليختلى بهم ، حتى يقودهم إلى فحص ذواتهم ، وإلى معرفة أعمق بشخصه الكريم ـ زد على ذلك أنه كان بحاجة أن يتزوّد ، بين الحين والحين ، بجرعات مقوية من الينابيع العلوية ، وهكذا كان ينفرد مع الآب فى شركة عميقة حُبيّة ، لا نستطيع نحن بعقولنا البشرية القاصرة ، أن نصل إلى أعماقها . وفى هذه الفرصة بالذات ، رأى السيد أنه من الحكمة أن يتحاشى الصدام مع السلطات الدينية ، ليس انحناء أمام العاصفة ، أو تراجعاً وهروباً أمام قسوتها . بل لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد ، وما زال الحقل المتسع أمامه ، ينتظر العمل الكثير ، قبل أن تأتى الساعة الفاصلة .

ولقد كان إتساع بحر الجليل ، من كفر ناحوم ، إلى الشاطىء المقابل ، شيئاً يقرب من أربعة أميال . وهكذا أصطحب السيد تلاميذه فى السفينة الصغيرة قاطعاً عرض البحيرة ، متجهاً إلى هناك . ولكن الجموع كانت مكدسة على الشاطىء . وكان من السهل عليهم ، من كفرناحوم المرتفعة ، أن يراقبوا السفينة ، ويعرفوا اتجاهها . وهكذا اسرعوا يدورون حول البحيرة متابعين الشاطىء الصخرى من الجنوب . وكان نهر الأردن ، يصب فى بحر الجليل ، فى أقصى طرفه الشمالى . ولمسافة تقرب من ميلين من مصبه ، كانت هناك مخاضات

الأردن . وبالقرب من المخاضات ، كانت تقوم قرية « بيت صيداً جولياس »
وقد لقبت كذلك تمييزاً لها عن بيت صيداً الأخرى الكائنة فى الجليل
(لو ٩ : ١٠) . وإلى هذا المكان اتجهت سفينة يسوع . وبالقرب من بيت
صيداً (جولياس) إلى جانب البحر ، يقع وادٍ صغير خصيب ، يموج بالخضرة
على الدوام ، ويعرف باسم « البطيّة » ـ هذا الوادى قدّر له أن يكون مسرحاً
لمعجزة السمك والأرغفة .

ولقد وصل يسوع قبل أن تصل الجموع ، إلى هذا المكان . وصعد مع
تلاميذه مدارج الهضبة المشرفة على الوادى . ثم بدأت الجماعات تظهر تباعاً
من بعيد ، وتسرع إلى هناك .

ولقد كانت المسافة شاسعة تقرب من تسعة أميال ، ولكن الجموع
أسرعت تقطعها بكل ما فى افرادها من نشاط وقوة ، وكان عيد الفصح ، كما ندرك
من سياق القصة ، قريباً . ولا بد وأن جماعات كثيرة ، كانت تسرع فى الرحيل
فى طريقها إلى أورشليم . وربما انضم جانب من أولئك ، إلى الجماهير المسرعة
فى طريقها إلى حيث وصل السيد . وكان هذا هو الطريق المفضل للحجاج المسافرين
من الجليل إلى أورشليم .[كانوا يتجهون شمالا إلى حيث تقع مخاضة الأردن
بالقرب من بيت صيداً جولياس ، ويقطعون النهر ، مخترقين دائرة بيرية ، ومن
هناك ينحدرون نازلين جنوباً حتى يصلوا مقابل مدينة أريحا ، ويعودون إلى
خوض الأردن مرة ثانية ، ثم يتجهون إلى أورشليم — طريق طويل ولاشك ،
ولكنه على أى حال أفضل عندهم من اختراق الطريق الأقصر ، عَبْر دائرة
السامرة البغيضة ، وإحتمال الهزء ، والتعرض للمخاطر] .

ولما رأى سيد الكل ، هذه الجموع الزاحفة نحوه ، فاضت نفسه بينابيع
الحب والمراحم . فقد كانوا جياع المعدة كما هم جياع النفوس . . . .

مرهقى الأجساد من طول المسافة ووعورة الطريق ، كما هم متعبى القلوب . . يحتاجون إلى راحة الجسد وطعامه ، كما يحتاجون إلى راحة النفس وطعامها . ولقد كان من الطبيعى أن يتجه السيد إلى فيلبس ، لأن فيلبس كان من بيت صيدا ، وكان أدرى بحاجات أخوانه ومواطنيه (يوحنا ١ : ٤٤).

كما أنه كان يعرف الأماكن التى يمكن أن يبتاع الأنسان منها الطعام . وهكذا قال له ، من أين نبتاع خبزاً لهؤلاء . وإنما قال له هذا ليمتحن إيمانه ، لأنه هو العالم بكل شىء ، وهو المزمع أن يقدم لهذه الجموع الخبز الذى يكفيها ويزيد عن حاجتها ، ونحن نستمع إلى نغمة اليأس ، فى جواب فيلبس ، فقد أجاب « لا يكفيهم خبز بمئتى دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً ».

ولقد كان الدينار الأجر اليومى العادى للعامل الأجير ، وكان يساوى مابين ثلاثة قروش إلى أربعة قروش . أى أن فيلبس قصد أن يقول ان أجر العامل لمدة ستة شهور كاملة، لن يكفى ليقدم لهم النذر اليسير. وإذا باندراوس يظهر على المسرح ، بشىء جديد ، فيقول إنه اكتشف غلاماً معه خمسة أرغفة صغيرة من خبز الشعير ، وسمكتان . ولعل والدة ذلك الغلام ، قد « صرّت » له هذا الغذاء البسيط فى منديله ، ليتزود به فى يوم عمله ،فإذا بالجموع تجتذبه فيسير وراءها . ونحن نرى اندراوس فى فرص متعددة يهتم بأن يأتى بأناس للمسيح ، ومع ذلك فلم يكن بين يدى ذلك الصبى شىء مناسب يقدمه ، فلقد كان خبز الشعير أحط أنواع الخبز ، وأقلها قيمة ، وكان اليهود ينظرون إليه باحتقار . واننا نقرأ فى « المشنة » شيئاً بهذا الصدد ، فى معرض الحديث عن تقدمة الخطية التى تتقدم بها المرأة للتكفير عن خطية الزنا . فمع التقدمات الأخرى ، كانت تقدم تقدمة اللحم . وكانت تقدمة اللحم تتكون فى العادة من الدقيق ، والخمر ، والزيت ، ملتوتاً معا . وفى الأحوال العادية كان الدقيق

من القمح ، ولـكن التقاليد اليهودية أصطلحت على أنه فى حالة تقدمة الزنا ، ينبغى أن يكون الدقيق من الشعير .لماذا ؟ لأن الشعير طعام البهائم ، وهو لذلك يوائم فى طبيعته الخطيئة البهيمية التى ارتـكبتها هذه المرأة . . ولقد كان خبز الشعير طعام الطبقات الفقيرة جداً ، أما السمك فلم يكن أكثر من سمك السردين الصغير المملح . وكان الـسمك المملح من بحر الجليل ، معروفاً ، ورائجاً فى كل أسواق الامبراطورية الرومانية ، أما السمك الطازج فقد كان ترفاً لا يصل إلى مستواه إلا الأثرياء والقادرون، لأن السمك سريع التحلل،ولا سبيل إلى نقله بسرعة إلى المستهلك فى تلك الأوقات ، دون أن يدب فيه التعفن والفساد . .

وقد كان بحر الجليل ، يذخر بهذه الأنواع من الأسماك الصغيرة . ومن تمليحها ، وتصنيعها ، وشحنها إلى الموانىء البعيدة ، نشأت صنـاعة هامة ، وتجارة مربحة لا بأس بها .

وهكذا أمر يسوع تلاميـذه ، بأن يُجلسوا الجموع فرقاً فرقاً ، على العشب الأخضر . وأخذ الخبزات والسمكتين وبارك . لقـد كان يقوم بواجب رب البيت ، كما يقضى بذلك التقليد اليهودى . فقبل كل وجبة ، ينبغى أن يقدم رب البيت بشكر الله على نعمته ، ويطلب بركته على الطعام ولا بد وأن الصلاة التى بارك بها يسوع ، كانت شيئا من هـــذا القبيل « أشكرك أيها الآب، الذى تجعل الأرض تخرج زرعاً للزارع، وخبزاً للآكل ». وهكذا أكل الجميع وشبعوا حتى الامتلاء . وحتى كلمة شبعوا التى يستخدمها البشير هنا ، هى فى الأصل اليونانى كلمة قوية ، معبرة . فهى تستخدم فى العادة للاشارة إلى إطعام الحيوان بالعلف . فإذا استخدمت للانسان فهى تعنى أنهم قد أكلوا ، وشبعوا ، وامتلأوا حتى النهاية .

وبعد أن أكلوا كفايتهم ، أمر السيد تلاميذه بأن يجمعوا ما فضل من الكسر . ولماذا الكسر ؟ لقد جرت العادة فى الولائم اليهودية أن يُترك شىء من الطعام للخدم . [هذا الفائض كان يعرف باسم « بيا »] . ولا شك أن الجوع قد آثرت ترك ما تبقى من الطعام ، لمن قاموا بتقديمه إليهم جريا على تلك العادة .

ومن هذه الكسر الزهيدة ، جمعت اثنتا عشرة قفة ممتلئة . ومما لا شك فيه أن كل تلميذ قد نال نصيبه . وكانت « القفف » اليهودية أشبه ما تكون فى منظرها بوعاء النبيذ ببطنه المنبعجة ، ورقبته الضيقة . وكان كل سائح يهودى ، يحمل معه الـ « كوفنوس » القفة . ويتحدث جوفنال مرتين فى كتاباته عن اليهودى الذى يحمل معه على الدوام قفته ، وحصيرته المضفورة من أعواد الدريس الجافة . (وقد كانت الحصير تستخدم كفراش للنوم ، حيث أن الكثيرين من اليهود كانوا يعيشون حياة الفجر الرّحل). ولقد كان اليهودى بقفته التى لا تفارقه شخصية بغيضة غامضة . وكان يحمل قفته على الدوام أولا ليجمع فيها كل ما يمكن جمعه ، حسبما يقتضى الحرص اليهودى، ثم ليحفظ فيها طعامه ، ان كان يريد أن يحفظ كل التقاليد اليهودية الخاصة بالنجاسة ، أو عدم النجاسة فى تناول الطعام .

وهكذا ملأ التلاميذ سلالهم من الكسر ، وشبع خمسة آلاف رجل عدا النساء والأطفال . وكل هذا من الخبزات الخمس ، والسمكتين الصغيرتين.

دلالة المعجزة (تابع)

(يوحنا ٦ : ١ ـ ١٣)

فى السطور القادمة سنتجه فى لمحات خاطفة إلى مدلول المعجزة: ومعناها ، وإلى تحليل مختصر لبعض الشخصيات التى ظهرت على مسرحها .

١ — ترى هل سننظر إلى إشباع الخمسة آلاف ، من خمسة الأرغفة ، والسمكتين، كمعجزة خارقة للطبيعة ؟ وهى كذلك بلا شك ، فلقد كانت هذه ، ومازالت ، نظرة الكنيسة المسيحية إليها ، يحدثنا هـ - ف - مورتون ، عن اكتشاف « كنيسة السمك والأرغفة » ، وهى أثر هام من آثار المسيحية ، ربما يرجع تاريخه إلى القرن الرابع للميلاد ، أو انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين. ولم يبق من هذه الكنيسة الآن ، سوى بضعة أعمدة ، والأرضية الرخامية . لكن ما تبقى يكفى ليرينا نظرة الكنيسة الأولى لهذه المعجزة — هناك فى وسط الأرضية الرخامية التى عُنى الرسامون القدامى ، أن يصوروا فى مربعّها كل مظاهر الحياة الطبيعية على شاطىء بحر الجليل ، اكتشفت صورة سلّة ممتلئة بالخبز ، وعلى كل جانب من جانبيها سمكة كبيرة تخليداً لذكرى هذه المعجزة .

يقول الكاتب : « وهناك لمحة فى ثنايا قصة البشير يوحنا تعطى لها لوناً خاصاً . فى الأصل اليونانى يلقب البشير السمك باسم « أوبساريون » ، وهى كلمة قريبة الشبه من كلمة « بساريا » المعروفة فى مصر ، نوع من السمك الصغير جداً . والكلمة فى حد ذاتها تكشف طبيعة كاتبها ، كإنسان عاش فى الجليل ، وكانت صناعته صيد الأسماك ، ومعرفة أنواعها . انها دليل قوى على أن يوحنا هو كاتب البشارة .

هنا ، كما قال احد علماء اللاهوت يتجلى سلطان ابن الله الأزلى المتجسد ، كخالق . لأنه خلق من الأرغفة الصغيرة القليلة والسمكتين الصغيرتين ، شيئاً كثيراً أشبع الألوف، وفاض عن حاجتها . . وهنا نرى عواطف ابن الإنسان ، كمن يحس بحاجة البشر ، ومتاعبهم ، وجوعهم ، وآلامهم، ويفيض قلبه بالعطف

عليهم ، والحب من نحوهم ، والمشاركة فى ضيقاتهم . وهنا نرى حكمة المسيح كمدبر محسن كريم ، بل نرى اقتصاده كرب بيت حكيم « أجمعوا الكسر لكى لا يضيع شىء » .

٢ — أم سنتطلع إلى هذه المعجزة بصورة أخرى فنرى فيها استجابة السيد لحاجة الجوع ، فى الوقت الذى أنكر فيه هذا على نفسه ، فى ساعة حاجته ؟ ففى الأصحاح الرابع من بشارة متى (٤ : ٣ ، ٤) ، نرى المجرب يلتقى به فى البرية ، بعد أن صام أربعين يوماً ، وأخيراً أحس بالجوع ، فإذا به يقول له : « قل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً » — ظروف متشابهة ، وإغراء متشابه ، لكن ما أنكره يسوع على نفسه وهو جائع فى البرية ، استجاب له أمام حاجة الجماهير الجائعة . هنا نرى روح التضحية المباركة التى ميزت حياة المخلص .

٣ — أم سننظر إلى المعجزة فى مغزاها الروحى ، فنرى فيها رمزاً لعشاء سرى ، وصورة أخرى لعشاء الفصح الأخير الذى تناوله السيد مع تلاميذه ؟ هنا نرى الجموع ملتفة حول مائدة السيد والسيد يكسر الخبز بيديه رمزاً لجسده المكسور لفداء العالم ، ومحضر المسيح الحلو يضفى جلالاً ومجداً على تلك الفرصة المباركة ويسبى قلوب الجميع فى خلوة روحية أخاذة ، ويرفعهم إلى آفاق الشركة العميقة الحلوة مع الله . أليس هذا هو نفس الشعور الذى يستولى على قلوبنا فى كل مرة نلتف فيها حول مائدة المسيح ؟

بقى لنا أن نتأمل فى بعض الشخصيات التى ظهرت على مسرح المعجزة .

(أ) فهناك أندراوس . واندراوس نستطيع أن نسميه التلميذ المتفائل ، على النقيض من فيلبس . لقد قال فيلبس ، رداً على سؤال السيد : «لا يكفيهم خبز بمئتى دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً » أو بمعنى آخر « لا مجال للعمل فالحالة ميئوس منها » . ولكن اندراوس قال « هنا غلام معه خمسة أرغفة ،

وسمكتان» ، أو بكمات أخرى ، سأعمل كل ما فى إمكانى أن أعمله ، وائتمن يسوع على الباقى . وهكذا أحضر أندراوس هذا الغلام ليسوع ، وساهم بالجانب البشرى فى إتمام المعجزة . إننا فى بعض الأحيان ، قد نحتقر الإمكانيات التى بين أيدينا . لكننا لا نستطيع أن نتكهن بمدى النتائج الجبارة التى تعود علينا ، وعلى الدائرة التى تحيط بنا ، بل على العالم أجمع من الوزنات الصغيرة التى نتاجر بها . قد يودع الله بين أيدينا طفلا ، ويقول ما قالته ابنة فرعون لأخت موسى : «أذهبى بهذا الولد ، وأرضعيه لى » ، إذهب بهذا الغلام ، وقوّمه وهذّبه ، ونشئه لى . وكم من الخير ، والبركة ، والثمار ، تعود على الكنيسة والمجتمع ، لو أطعنا هذا النداء ، واستجبنا بأمانة لهذا التكليف المبارك . وقمنا بتنشئة أولادنا وبناتنا ، فى معرفة الرب ومخافته ومحبته على السواء . لو عرف مدرس مدرسة الأحد ، المسئولية العظمى الملقاة على عاتقه ، والنتائج الجبارة التى تنجم عن خدمته فى حقله المتواضع لقام بخدمته بكل نشاط وسط الزهور الغضة المتفتحة التى تتداولها يداه ، ولكن كم من واحد لا يدرك مدى تلك المسئولية. هناك قصة تروى عن ناظر مدرسة عجوز ، فى مدينة من المدن الألمانية ، اعتاد عند دخوله فى الصباح على تلاميذه ، أن يرفع قبعته لهم وينحنى أمامهم بكل احترام ، ولما سئل فى يوم من الأيام ، عن سبب تصرفه هذا ، كان جوابه : « إنك لا تستطيع أن تتكهن عما سيصير إليه واحد من أولئك الصغار ، فى مقبل الأيام ». وقد كان محقا فى قوله .

فوسط تلاميذه كان صبى يدعى « مارتن لوثر » ، ولم يكن أحد يدرك فى ذلك الحين ، أن لوثيروس المصلح العظيم ، يسكن فى جسد هذا الصبى النحيل .

وهكذا حينما أحضر اندراوس هذا الغلام ليسوع ، بما تحمله يداه من مئونة

هزيلة ، ما كان يدرك هو ، ولا كان يعرف واحد من التلاميذ ، أن هذه هى الأداة التى سيستخدمها السيد ، ويبار كها ، ويعمل بها لإشباع الجماهير . هذا ينفخ فينا روح الحماس ، لنعمل بأكثر نشاط فى خدمة الرب ، ونسعى لتوصيل البشارة للنفوس المحتاجة .

(ب) وهناك الغلام . ومع أنه لم يكن لديه الكثير ليقـدم ، إلا أنه لم يحتقر الشيء الزهيد الذى بين يديه ، ولم يبخل به على الجموع المحتاجة . لو قال هذا الغلام فى نفسه ، ان هذه الخبزات بالكاد تكفينى حتى أعود إلى منزلى وأمامى الطريق الطويل فى العودة ، لخسرنا معجزة من أروع المعجزات التى قام بها السيد . والحقيقة التى نستشفها من خلال هذه التفاصيل الصغيرة ، هى أن السيد المسيح يحتاج إلى كل ما يمكن أن نقدمه إليه . قد لا يكون معنا الكثير ، لكنه بحاجة إلى القليل . قد تكون مواهبنا ضعيفة قاصرة ، لكنه ليس فى غنى عن هذه المواهب الضعيفة القاصرة . قد تكون بين أيدينا الوزنة الواحدة ، لكنه يحتاج إلى هذه الوزنة الواحدة . ترى كم تخسر البشرية من معجزة وراء معجزة ، وانتصار تلو انتصار ، لأننا لم نكن أمناء فى تقديم ما لدينا للسيد . آه لو عرفنا كيف نضع نفوسنا بالكلية على مذبح خدمة يسوع المسيح ، إذاً لرأينا نار الروح القدس ، يهبط من السماء ، ويلهب كياننا ، ويعمل بنا عملا عجيبا ويستخدمنا واسطة لبركة عظمى . ينبغى ألا نحتقر مواهبنا ، وإمكانياتنا ، بل لنضع الكل بين يدى صانع المعجزات ، حتى ولو كان بضع خبزات من الشعير . فالقليل يتحول بين يديه إلى خير كثير . . .

استجابة العامة

« فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ ٱلآيَةَ ٱلَّتِى صَنَعَهَا يَسُوع قَالُوا إِنَّ هٰذَا هُوَ

بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمْ . وَأَمَّا يَسُوعُ إِذْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ يَأْتُوا وَيَخْطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكاً انْصَرَفَ أَيْضًا إِلَى الْجَبَلِ وَحْدَهُ » .

(يوحنا ٦ : ١٤ — ١٥)

هنا نرى استجابة العامة للمعجزة . لقد كان اليهود ينتظرون مجىء النبى الذى أنبأهم موسى بأنه لا بد وأن يأتى فى ملء الزمان. فى الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية نقرأ قول موسى : « يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من أخوتك مثلى له تسمعون» (تثنية ١٨ : ١٥)، أو قـــول الرب الذى ردده لموسى « أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك ،وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لـكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » (تثنية ١٨ : ١٨ ، ١٩) .

لقد كان اليهود ينتظرون على أحر من الجمر ، مجىء ذلك المسيا . . مختار الله الوحيد الذى أنبأ به موسى . فى كل الحقب التى مرت بهم فى تاريخهم الطويل، وفى كل الأحداث التى ميزت حياتهم ، نستطيع ان نرى أنهم كانوا ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر ، كما وأنهم مازالوا ينتظرون ، وحينما أشرق يسوع أمامهم، فى تلك الساعة الحاسمة ، وتألق فى معجزة بيت صيدا ، قالوا لقد حانت ساعة الخلاص، تمم الله لنا الوعد ، الذى وعد به شعبه فى القديم . لقد جاء النبى ، والملك العظيم . هيا اهتفوا له ، وارفعوه على الأعناق ، ونحوّا عن العرش هيرودس انتيباس الثعلب الأدومى ، واجلسوه وحده ملـكا ، لا على الجليل فقط ، ولا على اليهودية ، ولا على السامرة معها ، بل على العالم أجمع ، ها قد انتهى نير المستعمر للأبد ومضى عهد الرومان ، ولن يحكم العالم بسلطان النار والحديد ، لأن عهد المحبة . . عهد المراحم . . . عهـــد المسيا المختار . . عهد

المُلك السعيد ، قد أشرق على الإنسانية جمعاء . لقد كانوا على استعداد ، في تلك الساعة ، أن يقودوا ثورة دامية في سبيله ، ولـكن لو نظرنا إلى الأمور في نور الأحداث التي تلت ذلك ، لوجدنا نفس الجمهور ، في فرصة لاحقة ، ليست بعد هذا بوقت طويل ، ينساق في تيار جديد ، ويهتف أمامه : « أصلبه ! أصلبه ! » — « دمه علينا وعلى أولادنا » .

ترى ما الذي دفع الجموع ، في تلك الساعة ، الى هذه الموجة من الحماس الطارىء ؟

١ — قبل كل شيء كان الجمهور على استعداد أن يرفع يسوع ويهتف ليسوع ، ويتوج يسوع ملـكا ، طالما كان يسير في ركابهم ، ويهبهم كل حاجاتهم . لقد قام بشفاء مرضاهم من مختلف الأمراض المستعصية والأدواء ، وقام بملء بطونهم دون تعب أو عناء ، وقام بتعزية قلوبهم لأنه وحده مصدر العزاء ، فماذا يريدون منه بعد ؟ أليس هـــــذا هو نفس الزعيم الذي كانوا ينتظرونه ، ويحلمون به ؟ ألا تتوافر فيه ، بحسب نظرتهم المادية ، كل بنود الزعامة الحقيقية ؟

لماذا لا يهتفون به قائداً لهم ، وملـكاً عليهم ؟ هناك شيء يعرف بالولاء المُشترى . . . الولاء الذي يعتمد على المعروف والهدايا .. الولاء الذي شعاره أرفعني ، وأنا أرفعك ... الولاء الذي يـكتسب عن طريق الرشاوى . هناك شيء نستطيع أن نسميه المحبة المحفوظة في الدولاب . . . المحبة التي لا تخرج قدراً منها ، إلاّ رداً على جميل ، أو إستجابة لمعروف . ولا تعتمد إلا على ما يستطيع أن يقدمه الآخرون إلينا في وقت ضيقنا ، وحاجتنا . ان مجرد التفكير في موقف العامة من السيد ، في تلك المناسبة ، يملأ نفوسنا بالتقزز . . . ولـكن ألا نتفق معهم في تصرفهم في كثير من الأحيان ؟ ألا نهتف ليسوع حينما يقدم لنا العزاء في

وقت الأحزان ، والقوة فى ساعة الضيق ؟ وألا نصفق له بحماس حينما يملأ قلوبنا بالسلام فى وقت التجارب ، والمعونة حينما يتخلى عنا الأصدقاء ؟ ألا ننادى به ملكنا الأسمى ، حينما يسير بنا من الضيق إلى الرحب ، ومن الفشل والهزيمة إلى الانتصار ؟ ولكن كم منا يستمر فى هذا الحماس والولاء ، حينما يرى السيد متوجاً بأكليل الشوك ، وحاملا صليبه باتضاع ، سائراً فى طريق الجلجثة ؟ من يستمر فى اتباعه ، حينما يسمع الصوت قائلا « إن أراد أحد أن يأتى ورائى ، فلينكر نفسه ، ويحمل صليبه كل يوم ، ويتبعنى » ؟ من منا لا يعرض عنه ، وينكره حينما يراه مقيداً وسط الأعداء ، يطلب العون والتضحية ؟ اننا لو فحصنا قلوبنا بالحقيقة ، فإننا سوف نكتشف ، بأننا نحب يسوع ، ونطيع وصايا يسوع ، ونعلن ولاءنا ليسوع ، ونهتف باسم يسوع ، لأننا نأكل من بين يديه ، لأننا نترجى الخير من راحتيه . . . لأنه يفتح لنا باب السماء . . . لأنه ينجينا من ويلات القضاء . ولكنه إذا جاء إلينا طالباً منا التضحية . . إذا جاء متحديا الشر المتأصل فى أعماقنا . . إذا جاء طالبا منا أن نضع ذواتنا ، وامكانياتنا ، ومواهبنا ، وكل مافينا على مذبح التكريس ، فإن حماسنا يختنق ، ولهيبنا ينطفى ، وربما وصل بنا الأمر أن نقف منه موقف البغضاء ان لم يكن العداء .

٢ — ومن الجانب الآخر ، لقد أراد الجمهور أن يتخذ من يسوع وسيلة يحقق بها أغراضه ، وتمثالا يشكله كيفما شاء ، حسب أهوائه ، ومطامعه ، وأحلامه . لقد كانوا يحلمون بالمسيا ، ولكن أحلامهم كانت تشكلها أفكارهم المادية الباطلة ، وعقلياتهم العنصرية الجامدة . كانوا يحلمون بمسيح يجلس على عرش داود الأرضى . . . بقائد مظفر يضع قدميه على عنق النسر الرومانى ، ويحرر فلسطين الذليلة من نير المستعمر الأجنبى . . . بملك يعيد أمجاد مملكة سليمان ، ويحول إسرائيل من أمة خاضعة للرومان ، إلى قوة ، عالمية ، مسيطرة

مدمرة ، تخضع لسلطانها الدول وتتذلل الشعوب. لقد رأوا الامكانيات العظمى التى بين يدى يسوع ، وقالوا فى أنفسهم : « هذا الإنسان له القوة . . القـوة المعجزية الجبارة . آه لو أستطعنا أن نلجمه ، ونوجهه كيف شئنا ، ونستخدمه لأغراضنا ، ونجعل من قوته وسيلة بين أيدينا ، نستخدمها لإتمام رغباتنا». ان تصرفهم هذا يشير إلى أنهم يريدون أن يضعوا أيديهم على مسيح الله ، أن يستولوا عليه ، ويسيروه وفق هواهم . ومرة ثانية نعود فنقول ، هل نحن أسمى حالا منهم ؟ حينما نأتى إلى يسوع ، ونركع أمامه طالبين منه نعمة ، أو بركة ، أليس لنأخذ منه قوة لأتمام أغراضنا الذاتية ، ومشاريعنا الأنانية ؟ هل نطلب منه العون لنـكون فى خدمته ، وطاعته ، ووفق مشيئته الالهية ؟ هل نصلى له بأخلاص طالبين : « ياسيد هبنى القوة لأتمم ما تريدنى أن أعمله »، أم اننا فى الحقيقة نقصد أن نقول : « أريد قوتك ياسيدى لأتمم إرادتى أنا . . ؟ »

لقد تهافت أولئك اليهود فى القديم حول يسوع ، وتحمسوا له ، وهتفوا باسمه ، لأنه أعطاهم مشتهى قلوبهم ، ولأنهم اكتشفوا فيـه قوة يستطيعون أن يستخدموها لأغراضهم ، وأحلامهم . وهذا الموقف الوضيع من رب المجد ، مازال يتكرر فينا ، حتى يومنا الحاضر . اننا نريد أن ننال الورود من يسوع بغير الأشواك . . . نريد أن نأخذ التاج بدون الصليب . . . نريد أن نستخدم يسوع لاتمام أغراضنا الباطلة الأنانية ، بدلا من أن نسلم حياتنـا له ، لتحل قوته فينا ، ويستخدمنا لمجد اسمه وخلاص النفوس . .

عونا فى الضيقات ، وجد شديداً[1]

« وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ نَزَلَ تَلاَمِيذُهُ إِلَى الْبَحْرِ . فَدَخَلُوا السَّفِينَةَ

(١) هذا الفصل مترجم بتصرف كبير معتمداً على كلارك وفارار وغيرهما

وكانُوا يَذْهبُونَ إلَى عَبْرِ الْبَحْرِ إلَى كَفْرَ ناحُومَ . وكانَ الظَّلاَمُ قَدْ أَقْبلَ ولَمْ يكُنْ يَسُوعُ قَدْ أَتَى إِلَيْهِمْ . وهَاجَ الْبَحْرُ مِنْ رِيحٍ عَظِيمَة تَهِبُّ . فَلمَّا كانُوا قَدْ جَذَّفُوا نَحْوَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ أَوْ ثلاَثِينَ غَلْوَةً نَظرُوا يَسُوعَ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ مُقْتَرِبًا مِنَ السَّفِينَةِ فَخَافُوا . فَقَالَ لهُمْ أَنَا هُوَ لاَ تَخَافُوا . فَرَضُوا أَنْ يَقْبَلُوهُ فِي السَّفِينَةِ ولِلْوَقْتِ صَارَتِ السَّفِينَةُ إلَى الأَرْضِ الَّتي كانُوا ذَاهِبِينَ إِلَيْهَا » .

(يوحنا ٦ : ١٦ ـ ٢١)

هذه واحدة من أعجب الأحداث التى مرت بحياة السيد المسيح، والتى عُنى البشير يوحنا باثباتها فى البشارة الرابعة .وهى تزيد فى عيوننا عجبا ،حينما نتعمق فى دراسة المعانى التى تذخر بهـــا تفصيلاتها ، كما وردت فى الأصل اليونانى ، ونستشف منها الكثير عن شخصية يسوع ، وعن امجاد لاهوته . قبل كل شىء دعنا نقدم للقارىء ، صورة تخطيطية لأحداث القصة كما وردت فى البشارة ، فبعد أن قام السيد بمعجزة أطعام الخمسة آلاف بالخمس خبزات ، والسمكتين ، وبعد أن طفت موجة الحماس على الجموع ، فحاولوا أن يختطفوه ويتوجوه ملكاً ، نرى يسوع يفارقهم ، ويتسلل وحيداً بين التلال . وابتدأ النهار يميل ، وحان الوقت الذى يدعوه اليهود بالمساء الثانى ،أو المساء الكاذب وهو الوقت ما بين الغسق ، وحلول الظلام . ولم يعد يسوع إلى تلاميذه على أننا لا ينبغى أن نظن ، بأن السيد قد تخلى عنهم ، أو نسيهم ، فإن البشير مرقس ، يقدم لنا لمحة تنير لنا هذا المشكل — فهو فى سياق عرضه للقصة يخبرنا بأن يسوع « ألزم تلاميذه أن يدخلوا السفينة ، ويسبقوا إلى العبر ، إلى بيت صيدا ، حتى يكون قد صرف الجميع ، وبعد ما ودّعهم مضى إلى الجبل ليصلى

(مرقس ٦ : ٤٥ ، ٤٦) ، ولقد كان يسوع يريد الاختلاء مع الآب ، ليتزود بالقوة أمام التجربة الجديدة التى كررها الشيطان له ، والمتاعب المريرة القاسية التى تنتظره فى الأيام القادمة. وبعد ذلك كان هدفه أن يلحق بهم عند كفرناحوم، أى بيت صيدا الغربية — لاحظ كلمة «ألزمهم» التى تشير إلى أن التلاميـــذ ، ما كانوا يقبلون أن يتركوا سيدهم وحيدا ، وسط الجموع الثائرة المتحمسة ، التى من المحتمل أن ينقلب حماسها إلى عداء ، بسبب رفض يسوع الاستجابة لمطلبهم وتحقيق آمالهم .

وهكذا أبحر التلاميذ بالسفينة ، ويوحنا كاتب البشارة معهم ، لا شك فى ذلك . فتفاصيل القصة ، واللمحات الخفية التى تظهرها ، تشير إلى أن راويها شاهد عيان الأحداث التى مرت به ، وكاتب أنضج اختباره سبعون عاما كاملة من الروية ، والتأمل ، والاختبار . وأبتدأ البحر يضطرب ، والأمواج تثور . والذى يعرف طبيعة بحر الجليل ، تلك البحيرة المغلقة التى تحيط بها الشواطىء الصخرية المرتفعة من كل جانب ، يدرك أنه منطقة انخفاض جوى ، يتعرض للعواصف التى تهب عليه فجأة، فتثير الأمواج بشكل خطير . فبينما يكون البحر فى هدوء ، إذا به يتحول فى لحظات ، إلى أمواج عجاجة ، مزبدة ، متقاذفة ، ترتفع إلى علو كبير .

كان الوقت وقت الفصح (يوحنا ٦ : ٤) . فى ذلك الوقت يكون البدر فى تمامه . والآن دعنا نتصور السيد ، وهو يصلى فى سفح الجبل . ونحن نراه ، قبيل الساعات الفاصلة فى حياته ، يقضى الأوقات الطويلة فى شركة حيّة مع الآب . ففى بداية خدمته ، قبيل اختياره للتلاميذ ، نراه يقضى الليل كله فى الصلاة . ولكن ما أعظم الفارق بين تلك الفرصة التى كان يستقبل فيها حقل الخدمة ، لينتقى منه الورود المتفتحة اليانعة ، وبين هذه التى كان يرتقى فيها مدارج جبل

الضيق ، والمتاعب ، والاضطهاد ، والصليب . هناك فى ضوء القمر ، على سفح الجبل ، فى تلك الليلة العاصفة الرهيبة ، جثا يسوع على ركبتيه على الصخور الصلدة ، والساعات تمر طويلة بطيئة ،وهو فى جهاد أكبر مع العواصف الداخلية التى تعصف فى أعماقه، بينما هناك على سطح البحيرة ، كانت السفينة الصغيرة التى تبدو كنقطة على سطح المياه ، تتقاذفها الأمواج المائجة ، فترتفع بها تارة إلى اعلى ، وتهبط بها تارة إلى الأعماق — صورة ، معبّرة ، مرتبطة ، رائعة .

ونحو الهزيع الرابع من الليل ، وقد قسم اليهود الليل إلى أربعة أهزعة ، ما بين السادسة مساء ، إلى السادسة صباحاً ، فى أحلك ساعات الظلمة ، فى الوقت الذى لم تستطع فيه السفينة أن تقطع سوى نصف المسافة ، بسبب ثورة الزوابع الأمواج ، ظهر يسوع ، كما يظهر دائما لخائفيه حينما تثور عليهم العواصف فى بحر الحياة ، وأتاهم سائراً على سطح المياه . وبنظراتهم الزائغة ، وخيالهم المجهد وأعصابهم المرهقة ، وقلوبهم المضطربة ، تطلعوا فى وسط الظلمة ، ليشاهدوا شخص المخلص ، وهو يهف كالطير ، سائرا على سطح الميــاه ، فظنوا أنهم يبصرون شبحاً . وللوقت صرخوا فى فزع ، فجاء الصوت الحلو المعزى : « أنا هو لا تخافوا » . فلما وصل إلى السفينة ،ودخل إليها،صار هدوء عظيم ،وللوقت سارت السفينة بسلام إلى الميناء . أما البشير متى فإنه يضيف قول بطرس للسيد « يا سيد ان كنت أنت هو، فمرنى أن آتى إليك على الماء» . وكيف أنه سار خطوات قليلة ، فلما رأى البحر والأمواج والرياح خاف ، وابتدأ يغوص فى المياه ، فصرخ قائلا « يا رب نجنى » . فمد السيد إليه يده ، وانقذه موبخاً إياه بالقول : «يا قليل الإيمان لماذا شككت». هذه هى القصة فى تفاصيلها، كما سطرها الوحى، بقلم يوحنا الصياد الذى عرف السفن، والبحر ، والأمواج ، والمخاطر . ولعله فى مقبل أيامه ، فى كل مرة كان يفكر فى أحداث تلك الواقعة ، كان المنظر كله يرتسم أمامه : الليل الرهيب الساجى . . المياه المائجــة المزبدة . .

القمر الشاحب الضياء . . الجاذيف الخشنة التى مزقت باطن يديه دون جدوى فى جهاده ضد التيار الجارف . . . الشراع الممزق الذى يضرب فى السارى بجنون . . . عويل الرياح التى يبدو كأنها تبكى نهايتهم . ثم بعد ذلك منظر السيد بثيابه الهفهافة وهو يسير على المياه ، وصوته الحلو الهادىء والحنون الذى سكن قلوبهم ، وأزال مخاوفهم ، ثم الهدوء الذى ساد على الطبيعة ، والسفينة التى سارت فى سلام إلى الشاطىء . ومن خلال أحداث هذه القصة نستطيع أن نستشف بعض الأمور عن شخصية المسيح . .

١ — هنا نرى يسوع الساهر المتيقظ ، الذى يرى عبيده بعين لاتغفل . فمن قمة الجبل ، فى لحظات صلاته القدسية مع الآب ، لم ينس تلاميذه . ولم تشغله ، حتى شركته مع الله ، عن رعايتهم ، والتفكير فيهم . ان اسماءهم مسطرة ، لا على كفه فحسب ، بل فى أعماق قلبه أيضا . ولعل يوحنا قد تحقق من ذلك وهو يكتب أحداث القصة ، بعد سنى التأمل الطويل ، ولو أنه لم يدرك هذا الأمر ، وهو فى حومة الصراع . . ، لعله عرف ، انه فى كل مرة كان ينحنى على المجذاف ، ويضرب بعنف فى المياه السوداء ، وقلبه يخفق بعنف ، كان هناك شخص آخر يتطلع إليه ، ويراه ، ويتألم لآلامه ، ويضطرب لاضطرابه ، ويخفق قلبه مع خفقات قلبه — حينما تثور علينا العاصفة ، لنثق بأن هناك العين التى ترعى ، والقلب الذى يشارك . ان يسوعنا فى حكمته لا يسهل لنا الأمور ، لتقويتنا ، وزيادة ثقتنا به . انه يتركنا نحارب حربنا ، ونكسب إنتصارنا . انه كالآب الحكيم ، الذى يراقب ابنه من بعيد ، وهو يجرى شوط السبلق ، ولكنه لايتدخل إلا إذا تأزمت الأمور . لنثق بأن حياتنا التى نحياها نقضيها ، وعين يسوع الساهرة تتطلع إلينا ، وترعانا .

٢ — وفى هذه القصة نرى أيضاً يسوع يسرع نازلا لمعونة عبيده . فمن

سفح الجبل أسرع ليمين تلاميذه على الوصول إلى هدفهم ، ويتقدم فى ساعة الخطر . ان سيدنا لا يتطلع إلينا بعين العطف السلبى ، انه يتقدم لمعونتنا إذا دهانا الضيق . انه ليس كآلهة الاولمب ، تحيا فى محيطها السعيد ، دون اهتمام بقضايا الانسان . انه ينظر ، ويعطف ، ويسرع ، وينقذ . وحينما تخور قوانا يمد لنا يد المعونة ، وحينما تتخاذل أذرعنا ، يمد ذراع جبروته ، وحينما يخشى علينا من وعورة الطريق يحملنا على منكبيه ،وحينما نقترب من النهاية ، ويكلل الشعر الأبيض رؤوسنا ، وتعجز أقدامنا عن المسير نستمع إلى وعده الحلو : « إلى الشيخوخة أنا هو ، وإلى الشيبة أنا أحمل » . لنثق بأن الإله القديم ملجأ لنا ، والأذرع الأبدية ترفعنا .

٣ — وهنا نرى أيضاً يسوع صانع المعجزات ، يسوع الذى يتحدى نواميس الطبيعة . فليس من الطبيعى أن يسير إنسان على سطح الماء ، بل هو أمر فوق الطبيعة . ولا يمكن أن يتغلب على قوانين الطبيعة، إلا رب الطبيعة وخالقها . هنا نرى لمحة من جلال المسيح المعجزى . ولقد حاول بعض ضعفاء الإيمان ، إنكار هذه المعجزة ، فقالوا ان الكلمات فى الأصل يحتمل أن تشير ، لا إلى البحر ، بل إلى شاطىء البحر . وقال آخرون ان التلاميذ ، فى ظلام الليل ، بأعصابهم المرهقة ، والموقف الخطر الذى وصلوا إليه ، ما كانوا يستطيعون أن يميزوا أين كان السيد ، فظنوه ما شيأ على المياه ، وهو ليس كذلك . . ونحن نقول لهم: لماذا تحاولون أن تطعنوا فى هذه المعجزة دون تلك؟ ان كنتم تريدون أن تنكروا بعض معجزات المسيح ، فالاحرى بكم أن تنكروا الجانب المعجزى برمته . الأجدر بكم أن تنكروا الميلاد العذراوى ، والمعجزات التى قام بها ، والقيامة من الأموات ، وكل شىء . هذه ليست حجج البسطاء ، لأن الكثيرين من علماء الكتاب ، أمثال كلارك ، وفارار ، وغيرهم ، يؤيدون صدق هذه المعجزة . وأننا نؤمن بأنه ليس من العسير على

ذاك الذى اسكت الأمواج فى فرصة سابقة ، وأظهر مجده فى أكثر من حادثة أن يتحدى ناموس الجاذبية ، ويسير على المياه .

٤ — وبالرغم من مقدرة المسيح المعجزية، إلا أنه لا يتقدم بمعجزاته جزافاً . انه يحتفظ بها للساعة الحاسمة ، والحاجة القصوى . انه لا يجمد مواهبنا ، ويشل إرادتنا ، ويعمل بنفسه كل شيء، ولكنه يزكى إيماننا، وينمى مواهبنا بالعمل. فإذا وصلنا إلى الحد الذى نعجز فيه تماما عن مجابهة الأحداث، والانتصار عليها يتقدم من جانبه بالمعجزة .

تحدثنا سيدة فاضلة ، عن مُدرسة فى مدرسة أحد فى قرية صغيرة ، كانت تقص على تلامذتها الصغار هذه القصة ، فى عصارى يوم من أيام الشتاء العاصف . وبعد أن انتهى الدرس ، واستعد التلاميـــذ لمغادرة المكان ، سارت معهم توصلهم إلى منازلهم . كانت تتركهم يجاهدون فى الطريق ، فإذا وصلوا إلى حفرة فاغرة ، أو شق لا يستطيعون عبوره ، كانت تحملهم الواحد بعد الآخر ، وتعينهم على العبور . فى أثناء ذلك سمعت صوت صبي صغير يهمس ، كأنما يخاطب نفسه قائلا : « وهكذا يعمل معنا صديقنا يسوع ، وهكذا ينبغى أن نعمل معه . ينبغى أن نجاهد على الدوام مع يسوع وفى جهادنا نحن لسنا فى غنى عن معونته » .

٥ — ويسوع نراه أخيراً يوجه سفينتنا إلى ميناء السلام والأمان . . وللوقت سارت السفينة للأرض التى كانوا ذاهبين إليها . يبدو لنا أن يوحنا فى مقبل الأيام ، حينما كان يراجع فى ذاكرته أحـــداث تلك القصة، كان يذكر كيف صار هـدوء عظيم، حينما دخل يسوع السفينة ، فسكتت

العواصف ، وهدأت الأمواج ، وتحقق صدق قول المرنم : « النـازلون إلى البحر فى السفن ، العاملون عملا فى المياه الـكثيرة،هم رأوا أعمال الرب وعجائبه فى العمق . أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه . يصعـدون إلى السموات يهبطون إلى الأعماق. ذابت أنفسهم بالشقاء . يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم أبتلعت . فيصرخون إلى الرب فى ضيقهم ، ومن شـدائدهم يخلصهم . يهدىء العاصفة فتسكن ، وتسكت أمواجها . فيفرحون لأنهم هدأوا فيهديهم إلى المرفأ الذى يريدونه » (مزمور ١٠٧ : ٢٣ — ٣٠) . وإن كان هذا ينطبق على هذه القصة فى محيطها الضيق ، ألا ينطبق بالتالى بصورة أعم على النفوس المتأرجحة فى بحر الحياة المـائج المضطرب ؟ الا يسكّن يسوع اضطراب القلب ، وانزعاج النفس ، وهياج الشهوات ، ومخاوف الحياة ، حينما يدخل إلى محيط الانسان ، ويتربع ملـكاً على العرش ؟

ان هذه الحادثة المعجزية، هى من أجمل الأحداث التى وعتها ذا كرة يوحنا الصياد القديم العجوز ، فسطرها لنا فى بشارته الرائعة بارشاد الوحى الإلهى .هنا يتجسم لنا غنى المسيح وأمجاده وسموه ، مع محبته واتضاعه، وعطفه .

الاتجاه الخاطىء

« وفى الْغَدِ لَمَّا رَأَى الْجَمْعُ الَّذِينَ كانُوا واقِفِينَ فى عَبْرِ الْبَحْرِ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ سَفِينَةٌ أُخْرَى سِوَى واحِدَةٍ وهِيَ تِلْكَ الَّتِى دَخَلَها تلَامِيذُهُ وأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَدْخُلِ السَّفِينَةَ مَعَ تلَامِيذِهِ بَلْ مَضَى تلَامِيذُهُ وحْدَهُمْ . غَيْرَ أَنَّهُ جاءَتْ سفُنٌ مِنْ طَبَرِيَّةَ إِلَى قرب

الْمَوْضِعِ الَّذِي أَكَلُوا فِيهِ الْخُبْزَ إِذْ شَكَرَ الرَّبُّ . فَلَمَّا رَأَى الْجَمْعُ أَنَّ يَسُوعَ لَيْسَ هُوَ هُنَاكَ وَلاَ تَلاَمِيذُهُ دَخَلُوا هُمْ أَيْضًا السُّفُنَ وَجَاءُوا إِلَى كَفْرِ نَاحُومَ يَطْلُبُونَ يَسُوعَ . وَلَمَّا وَجَدُوهُ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ قَالُوا لَهُ يَامُعَلِّمُ مَتَى صِرْتَ هُنَا . أَجَابَهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لِأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتٍ بَلْ لِأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ . اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَوةِ الْأَبَدِيَّةِ الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الْإِنْسَانِ لِأَنَّ هذَا اللهُ الْآبُ قَدْ خَتَمَهُ » .

(يوحنا ٦ : ٢٢ – ٢٧)

يبدو أن الجماهير لم تتفرق تماماً ، حينما ودّعهم السيد فى مساء اليوم السابق ، فقد بدأوا يتكأكأون حول المكان . ويبدو أن الذين قد ذهبوا إلى بيوتهم ، عادوا مرة أخرى مسرعين إلى حيث كانوا . وهذا يرينا مقدار تعلق الجماهير بالسيد . فأعمالهم لم يعد لها قيمة بجوار يسوع ، وبيوتهم لم يعد لها الرباط القوى الذى يتحدى ذلك الرباط الجديد .

وهكذا تجمعوا فى جماعات صغيرة ، جالسين على العشب الأخضر ، يثرثرون فى نور القمر ، حتى اسفر الفجر . ولقد شجعهم على الانتظار أنه لم تكن هناك سوى سفينة واحدة فى الشاطىء ، وهذه السفينة قد استقلها التلاميذ بدون المعلم ، وأبحروا بها . فلا بد إذا وأن السيد موجود بالقرب من المكان. وبعد أن طال بهم الانتظار ، وبدأ الصباح ينشر جناحيه فى الأفق ، اتجهوا إلى الميناء . وهناك فى الخليج كانت قد وصلت سفائن صغيرة من طبرية ، ربما

لتحتمى فى الميناء من العاصفة المزمجرة ، التى ظلت تعصف طول الليل . وهكذا استقلوا تلك السفن ، عابرين البحيرة ، عائدين إلى كفر ناحوم . ولدهشتهم اكتشفوا أن يسوع قد سبقهم إلى هنـاك . وتساءلوا مستغربين كيف حدث هـــذا ، وكيف وصل يسوع إلى المكان ، ولم تـكن هناك سفن ؟ ولـكن السيد لم يجبهم على هذا السؤال بكلمة . فليس الوقت وقت الأحاديث التافهة ، والحياة أقصر من أن نقضيها فى التسلى بالحديث عن الرحـلات ، والمغامرات ، ومتاعب الطريق ، وما أشبه ذلك . أو لعـل السيد لم يشأ أن يكشف أمام عيون الجماهير عن الجانب المعجزى الإلهى فى كيانه . فهو وإن كان قد شاء أن يعلن للناس بعض المعجزات ، إلا أنه فى البعض الآخر ، نظير ماحدث فى حادثة التجلى ، لم يعلنها إلا إلى أصدق أصدقائه ، وأحب التلاميذ إلى قلبه . . .

وهكذا اخترق يسوع بأنظاره أعماق قلوبهم ولمس موطن الداء ، ورفع مرآة الفحص أمام عيونهم ، ووجههم بصراحته المباركة إلى الدواء الشافى ، فقال لهم : « لقد رأيتم بعيونكم عجائب عظيمة . لقد لمستم معجزات لم يتح لغيركم أن يلمسها . لقد أكلتم وشبعتم من خبز معجزى ، لم تـكسره ، وتباركه ، يد إنسان بشرى . ولقد أتيحت لـكم هذه الفرصة ، لا لتثبتوا أنظاركم على الأرض ، بل لترفعوا أعينكم إلى السماء . . . لا لتنشغلوا بالعطية ، فتنسوا المعطى ، بل لتتجهوا إلى نبع كل خير . . . لا لتأخذوا الهبة لتفرحوا بها ، وتنسوا الذى قدمها إليكم ، بل لتزداد قلوبكم إرتباطاً وحباً بالواهب الـكريم . . إن أفـكاركم ينبغى أن تتجه إلى الله الذى منه كل عطية صالحة وكل موهبة تامة ، ولـكنكم فى عمى بصائركم تتجهون إلى الخبز وتبحثون عن الخبز . . وتبذلون

حياتكم من أجل الخبز ، ولا شى سواه » . وكأنى بيسوع يقول لهم « إن تفكيركم فى معدكم ، لابد وأن يبتلع تفكيركم فى أرواحكم » . لقد كان يوبخهم لقلوبهم المرتبطة بالأرض . لقد نظروا إلى الخبز كقوم للحياة، وليس كهبة من يدى الله . يقول يوحنا فم الذهب : « إن البشر مسمرون إلى أمور هذه الحياة» . هنا فى هذه القصة نرى جمهوراً لا يرفع عينيه عن دائرة هذا الوجود ، إلى آفاق الأبدية الخالدة .

هناك قصة تروى عن شهيد سانت هيلانه ، حينما كان فى أوج مجده ، كيف أنه كان يتحدث مع صديق له عن أسرار الحياة . كان الوقت مساء ، والظلمة حالكة السواد . واصطحب نابليون صديقه إلى نافذة الغرفة ، وأشار إلى الأفق البعيد . كان صديقه ضعيف الأبصار ، أما هو فقد كان يتمتع ببصر ثاقب . وفى الأفق كانت تنتثر نجوم ضئيلة . . . نجوم ضعيفة لا تكاد ترى بالعين . وقال نابليون لصديقه : « هل تستطيع أن ترى هذه النجوم ؟ . . وأجاب الصديق : « كلا اننى لا أرى هناك شيئاً » . وأجاب نابليون : « وهذا هو الفارق بينى وبينك » .

إن الإنسان المرتبط بالأرض هو إنسان يحيا نصف حياة . ولكن الذى يتمتع بالبصيرة الروحية الحية ، هو الانسان العظيم ، الذى يتطلع فى وسط الظلام ، فيرى النجوم المتألقة من بعيد . . .

وهكذا لخّص السيد نصيحته لهم فى كلمات قليلة قائلا :

« إعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقى للحياة الأبدية» وقبل ذلك التاريخ بمئات السنين ، هتف النبى أشعياء لسامعيه بنفس النصيحة قائلا : « لماذا تزنون فضة لغير خبز ؟ وتعبكم لغير شبع ؟ استمعوا لى استماعاً ، وكلوا الطيب ، ولتتلذذ بالدسم أنفسكم» (أشعياء ٥٥ : ٢). هناك صنفان من الجوع:

الجوع المادى الذى يشبعه الخبز المادى ، والجوع الروحى الذى لا تصل المادة إلى اشباعه. قد يكون الانسان فى ثراء قارون ومع ذلك يكون فى حالة جوع ، فى حالة ظمأ . . فى حالة عدم اكتفاء . قد يصل إلى غنى روتشيلد ، ومع ذلك تكون حياته ناقصة ، وقلبه غير ممتلىء ، ونفسه ظامئة جافة . يحدثنا التاريخ أنه فى الأعوام التى تلت عام ٦٠ للميلاد ، وصل الثراء بالمجتمع الرومانى إلى حد كبير ، حتى أن المآدب كانت تنفق عليها الآلاف من الجنيهات . وكان ضمن الأطباق النادرة التى تقدم ألسنة البلابل ، ومخ الطاووس . ويقال انه فى تلك الآونة ، سرت فى المجتمعات ، عادة تناول المقيئات بين الوجبات ، حتى تفرغ المعدة للوجبة التى تليها . وعن ذلك العهد يكتب المؤرخ « بلينى » عن سيدة رومانية تكلف ثوب زفافها المطرز بأسلاك الذهب ، والأحجار النادرة ، مايوازى أربعمائة واثنين وثلاثين ألفا من الجنيهات الاسترلينية .

هذا كله ان دلّ على شىء ، فإنما يدل على حالة عدم الاكتفاء . . الجوع الروحى الذى لايشبعه شىء . لقد كان الرومان يجرون وراء كل نشوة جديدة. . . وراء كل رحيق جديد . . . وراء كل سراب خلاب . . . وراء كل مظهر خادع ، لأن القلب كان يحترق بنيران الظمأ القاسى . حسنا قال أحد شعراء الغرب مصورا تلك الحال :

يعيون زائغات
فى رحاب قصره
وكؤوس مترعات
تلتقى . فى جوفه .
جلس الكهلُ النبيلْ

وجبينه الجليلْ

توجته أ كاليلْ ،

من زهور يانعات ،

زادت القلب اضطراباً

واحتراقاً . . والتهاباً

هكذا كانت حياة نبلاء الرومان : قصور وبذخ وخمر ، ولعب وثراء عريض. ومع هذه كلها فراغ عميق لا يسده شيء. ولقد كان هذا ماقصده يسوع حينما تحدث إلى اليهود عن شبع الجسد وفراغ الروح . لقد كان همهم أن يأكلوا ، ويشربوا ، ويمتلئوا ، وكفى . لقد تناولوا وجبة مشبعة من يدى صانع المعجزات . وهاهم يتكأكأون عليه يطلبون المزيد . . . يتكالبون عليه لعلّ هناك خبزاً آخر ، وسمكا آخر . لقد كانت تعذبهم أنواع أخرى من الجوع ، لم يحاولوا الاتجاه إلى إشباعها . .أنواع أخرى لا يسدّها إلا شخص يسوع المسيح . هناك الجوع للحياة النقية ، والخلاص من قبضة الخطية ، لاسبيل لنا للوصول إلى حياة النقاوة ، وانتزاع النفس من براثن العار ، إلا عن طريق المخلص الوحيد ، هناك الجوع إلى الحق المبارك ، وأين نجد الحق إلا فى ذاك الذى قال « أنا هو الطريق ، والحق » . هناك الجوع إلى الحياة ، وهو وحده الذى جاء لتكون لنا الحياة ، وليكون لنا الأفضل . هناك الجوع إلى الحب ، ولا أحد يستطيع أن يشبع أعماق الحب الخالد . . الحب الحقيقى، الحب الذى يتحدى الخطيئة ، ويسمو على الزمن ، لأنه فوق الزمن ، لا أحد يستطيع أن يشبع جوهر الحب الخالد فى أعماقنا ، سوى يسوع . . . هناك الجوع والعطش إلى الله ، كما يقول المرنم « عطشت نفسى إلى الله . . إلى الإله الحى »، ولن نشبع ذلك الجوع ، إلا فى ذاك الذى أعلن لنا ذات الله ، وجلال

الله ، ومحبة الله . ان الرب يسوع المسيح هو الذى يستطيع أن يشبع الأشواق الخالدة فى الانسان . . . جوع النفس وجوع القلب . .

ولماذا يستطيع ذلك ؟ هناك غنى لا يستقصى فى أعماق الـكلمة « لأن هذا الله الآب قد ختمه ». يحدثنا أحد العلامة المستشرقين ، عن الأختام وقيمتها فى العالم القديم فيقول ان المجتمع القديم ما كان يعطى للامضاء قيمته لأن القيمة القانونية كانت للختم . فالوثيقة التجارية، أو الوثيقة السياسية ، ما كان لها قيمتها وتصبح سارية المفعول ، إلا إذا مهرت بخاتم صاحبها . وفى العالم اليونانى كان الخاتم هو الذى يحكم بصدق الوصية . أما الطرود التجارية ، فلن يضمن محتوياتها إلا خاتم صاحبها . وما زال أهل الريف فى الشرق ، حتى يومنا الحاضر ، يحمل كل واحد خاتمه معه ، وفى أقل المعاملات العادية ، حينما يحتاج الأمر إلى توقيع ، يبرز الواحد خاتمه ، الذى يخبئه على الدوام فى حافظته ، ويحرص عليه أكثر من حرصه على أمواله ، ولا يفارقه ليلا ولا نهاراً . وفى القديم كانت الأختام تصنع من المعادن ، أو الأحجار الـكريمة، أما الفقراء فـكانوا يحملون أختاماً مصنوعة من الفخار . والمتحف البريطانى يذخر بأختام ملوك أشـــور ، ولقد اكتشفت هذه الأختام ملصقة بقطع من الطمى ، لـكى تظهر تفاصيلها ، والطمى ملصقاً بالوثائق . أما الوثائق فقد عفا عليها الزمن ، أما الأختام فقد بقيت هذه الآلاف من السنين .

وهناك قول لأحبار اليهود : « الحق ، هو خاتم الله » . ويقول التلمود : « فى يوم من الأيام كان أعضاء المجمع الـكبير ، يبكون ، وينوحون[1] ، ويتذللون ، ويصومون معاً ، حينما سقط فيما بينهم ، رقٌ ملفوف هابطاً من جلد السماء . ولما فتحوا الرق ، وجدوا كلمة واحـــدة مسطورة فيه : أميث ، ومعناها الحق .

(١) المجمع الـكبير هو الذى يضم دكاترة الناموس وكتبته .

وهكذا قال الربانيون : « الحق هو خاتم الله ». والـكلمة فى العبرية تنطق بحروف ثلاثة : « ألف » وهو الحرف الأول من الأبجدية — « مين » وهو الحرف الأوسط — و « تاو » الحرف الأخير منها : فحق الله هو بداية الحياة ، ووسطها ، ونهايتها أيضا .

وهـكذا نستطيع أن ندرك لماذا يستطيع يسوع أن يشبع جوع الحياة . انه ختم الله . انه حق الله المتجسد . فحينما نبصره ، نبصر الله ، وحينما نطيعه تقدم خضوعنا وطاعتنا لله ، وحينما نقبله ملكا متوجاً على عرش قلوبنا ، فاننا نقبل الله ونتوجه ملـكا فى حياتنا . والله هو وحده الذى يستطيع أن يشبع جوع قلوبنا ، لأنه هو الذى خلقنا لذاته ، وهو الذى زرع بذرة الأشواق المقدسة فينا .

العمل الوحيد ، الحق

« فَقَالُوا لَهُ ماذَا نَفْعَلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ ٱللهِ . أَجابَ يَسُوعُ وقال لهُمْ هٰذَا هُوَ عَمَلُ ٱللهِ أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِى هُوَ أَرْسَلَهُ .

(يوحنا ٦ : ٢٨ — ٢٩)

حينما تحدث يسوع عن عمل الله وأعمال الله ، تبادر لذهن كل واحد من اليهود ، أن المقصود بأعمال الله ، الأعمال الصالحة . لقد اتجه الفـكر اليهودى ، إلى أن الطريق الوحيد لـكسب رضى الله ، هو الحياة النقية الصالحة ، البعيدة عن كل لوم . وهكذا قسّموا البشر إلى فرق ثلاث : الأردياء ، والصالحين ، والذين هم بَيْن بَيْن ، فلاهم أردياء بالـكلية ، ولا هم صالحين بالـكفاية . وهذا الفريق الأخير ، الذى يعرج بين فريق الصـلاح ، والرداءة ، يستطيع أن ينتقل إلى فريق الصالحين بعمل صالح واحد . ولذلك حينما سأل اليهود يسوع عن عمل الله ، فانهم كانوا يتوقعون منه أن يقدم لهم باباً مفهرساً كاملا ، عن الأعمال الصالحة .

مذّيلا بالقوانين ، والنواميس ، والنواهى ، والأوامر اللازمة لذلك .

ولـكن يسوع لم يفعل شيئا نظير هذا بالمرة . لقد كان جوابه مركزاً ، مختصرا. ونحن إذا شئنا أن نصل إلى إدراك مرماه واستجلاء غوامضه ، علينا أن نوّسع هذا الجواب ، وندرك المعانى المختفية وراء كل كلمـــة فيه . لقد قال يسوع بأن عمل الله ، العمل الذى يريده الله منا ، هو الإيمان بذاك الذى أرسله ، وضع الثقة الـكاملة فى مسيحه . ونستطيع أن نقرأ هذا الجواب بصورة أخرى . . نستطيع أن نقرأه فى نور تعاليم رسول الأمم ، وتفسيره للفـكر المسيحى . أى اننا نستطيع ان نقول ان العمل الحق الذى يريده الله من الإنسان هو الإيمان. والآن ماذا تعنى كلمة إيمان؟

الإيمان هو اختبار خاص يوصل الإنسان إلى شركة مع الله . وهذه الشركة مع الله هى صلة عميقة ، حقيقية فعّالة ، لا تقل فى مستوها عن الصداقة الفعلية . أى اننا نصبح أصدقاء الله . . . فالله لن يكون عدونا بعد . . . لأننا سنختبر فيه الصديق الصدوق . ولن ترعبنا دينونته بعد ، لأننا سنـكتشف فيه الآب المحب . وهكذا تـكون ثقتنا فيه ، ثقة الأبناء فى الآباء ، وشركتنا معه ، شركة المحب مع حبيبه ، وطاعتنا له ليست طاعة العبودية والخوف ، بل طاعة الاحترام ، والحب ، والتقدير .

ولـكن ما هى صلة إيماننا بالمسيح بهذا الأمر ؟ وكيف نرتبط بالله عن طريق إيماننا بيسوع ؟

نقول ان جوهر العقيدة المسيحية ، يدور حول إعلان الله ذاته فى يسوع المسيح . فما كان لنا نحن البشر أن ندرك ما هو الله ،وماهى عواطفه ، وأحاسيسه من نحونا ، ما لم يأت المسيح الينا ، ويظهر فى وسطنا بشراً سويا ، ويحيا بيننا حياة الله ، ويعمل فينا أعمال الله ، ويختم حياته باصدق وأقوى دليل على

محبة الله من نحونا، ففي حنان يسوع، وعطفه علينا، استطعنا أن نعرف حنان الله، وأبوته الكريمة. وفي عناية يسوع بنا، رأينا صورة لعناية الله، واهتمامه بكل واحد منا. وفي غفران يسوع لخطايانا وسماحه لنا، استطعنا أن نرى سماحة الله، واتساع صدره من نحونا. وهكذا، ولأجل هذا فقط، زالت الثقة بيننا وبين الله، والوحشة التي كانت تفصلنا عنه، وأصبح الطريق إلى الشركة الجديدة مع جلاله، سهلا معبدا مفتوحاً.

لكن الأكثر من هذا، أن هذه العلاقة الجديدة مع الله عن طريق الإيمان بالمسيح، تولد فينا حياة جديدة، وتتفق مع مطالب هذه الشركة المباركة، وتعيننا للوصول إلى أهدافها، وتحمل مسئولياتها، وأعبائها. فنحن نعرف من هو الله، وندرك صفات الله. وعلينا في شركتنا الجديدة مع الله، أن تستجيب حياتنا لحياته، وصفاتنا لصفاته، واستجابتنا له ينبغي أن تدور حول محور مثلث، حسبما أعلنه يسوع لنا عن طبيعة الله وصفاته..

١ — فالله هو المحبة الكاملة. ولذلك ينبغي أن تتمثل في حياتنا روح المحبة الكاملة للآخرين، والخدمة المضحية لهم، بما يتناسب مع محبة الله، وخدمة الله — كما ينبغي أن يظهر فينا روح السماح من نحوهم، كما أظهر الله لنا غفرانه وسماحته.

٢ — والله هو القداسة المجسمة. وهكذا ينبغي أن تسود في حياتنا، وأفكارنا، وتصرفاتنا، القداسة التي تتناسب مع قداسة الله، وبره. ينبغي أن نكون قديسين لأن الله قدوس، فأنقياء القلوب، هم وحدهم الذين يعاينون الله.

٣ — والله هو الحكمة السامية التي لا تخطىء، على هذا ينبغي أن نكون في خضوع كامل لمشيئته، وتسليم تام لإرادته، وثقة لا تتزعزع في

تصرفات عنايته. فان كان الله هو الحكمة الكاملة ، فلا شيء يبقى لنا إلا قبول هذه الحكمة والخضوع الكامل لإرشادات هذه العناية والتسليم بكل رضى لكل ما يرسله إلينا .

طلب آية

« فَقَالُوا لَهُ فَأَيَّةَ آيَة تَصْنَعُ لِنَرَى ونُؤْمِنَ بِكَ . مَاذَا تَعْمَلُ آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزاً مِنَ السَّمَاءِ لِيأْكُلُوا .

فَقَالَ لهمْ يَسُوعُ اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ لِيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ اَلْخُبْزَ اَلْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ. لِأَنَّ خُبْزَ اَللهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيوةً لِلْعَالَمِ. فَقَالُوا لَهُ يَا سَيِّدُ أَعْطِنَا فى كلِّ حِينٍ هٰذَا الْخُبْزَ » .

(يوحنا ٦ : ٣٠ ـ ٣٤)

هنا يتخذ الحوار بين يسوع ، وبين اليهود ، صبغة يهودية فى تعبيراته ، واتجاهاته، وإشاراته. لقد نادى يسوع بحق عظيم ، حين قال لهم ان عمل الله الحقيقى هو الإيمان بالذى أرسله . وعند ذلك أجابه اليهود : « حسنا قلت . لقد ناديت بحق عظيم. وهذا الحق هو خليق بالمسيا وحده، أثبت لنا أهليتك لأن تكون مسيح الله ». ولقد كانت أفكارهم ما تزال دائرة حول معجزة إطعام الجماهير . وبالطبع اتجهت أفكارهم إلى المن المعجزى الذى تناوله آباؤهم فى البرية .

ولـكنهم لم يستطيعوا أن يروا تشابها بين الأثنين ، فأين هذا الخبز الأرضى من ذلك الخبز النازل من السماء ؟ صحيح أن هذا الخبز قد تـكاثر بين يدى يسوع بمعجزة ، وتقاسمته الجموع بمعجزة ، وكانت المعجزة الأعظم روح المحبة والألفة التى سادت قلوب الجميع ، حينما التفوا صغاراً وكباراً ، حول تلك المائدة، العظيمة ، المتسعة ، الفائضة ، التى جعلها لأولهم وآخرهم عيداً . ولـكن اليهود كانوا يعتبرون المن شيئاً عظيما ، فهو خبز السماء ، وطعـــام الملائـكة . وفى المزمور الثامن والسبعين ، نقرأ قول آساف : «أمر السحاب من فوق ، وفتح مصاريع السموات ، وأمطر عليهم مناً للأكل ، وبُرّ السماء أعطاهم وأكل الإنسان خبز الملائـكة . أرسل عليهم زاداً للشبع » (مزمور ٧٨ : ٢٣ — ٢٥)

وفى الأصحاح السادس عشر من سفر الخروج — نقرأ قول موسى رداً على استفسارات الشعب :« (هذا) هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا » . (خروج ١٦ : ١٥) ، ولقد ساد الاعتقاد بين الأحبار أن المسيا حينما يأتى سيكرر معجزة المن النازل من السماء ، وكما قام موسى بإعطاء الآباء طعام السماء وقد كانوا يعتبرون هذا أسمى ما قام به موسى — هكذا ينبغى أن يقوم المسيا بمثل هذا العمل ويفوقه .

يقول الأحبار فى التلمود : « كما فعل المخلص الأول ، هكذا ينبغى أن يفعل المخلص الثانى . كما قام المخلص الأول بانزال المن من السماء ، هكذا ينبغى أن يفعل بالتمام المخلص الثانى » . ومن أقوالهم لليهود : « لا ينبغى أن تنتظروا نزول المن ، فى هذا العصر ، لأنـكم ستتنا ولونه فى العهد الجديد » . ويقولون أيضاً « لمن تهيأ المن ، وأعدته السماء ؟ للأبرار فى العالم الآتى . لن يستحقه إلا المؤمنون — ولن يتناول منه سوى الأبرار » . ولقد ساد الاعتقاد أيضاً ، بأن قسط المن الذى حفظ فى القديم فى تابوت العهد ، قد خبأه أرميا النبى ، قبل السبى ، وإحراق الهيكل، وسوف يظهر المسيا عند مجيئه .

قصارى القول ان اليهود حينما طلبوا من يسوع آية ، وتحدوه بأن يظهر لهم المن المخفى ، كانوا يطلبون منه أن يثبت حقوقه المسياوية، ويؤكد لهم بذلك الخبز النازل من السماء ، أنه بالحق المسيا المنتظر . وهكذا لم يعتبروا الخبز الذى تناولوه من يديه خبزاً سماويا، لأنه بدأ بأرغفة أرضية ، وأنتهى بطعام أرضى. لقد كان المن بحسب اعتقادهم ، شيئاً يختلف عن هذا فى المظهر ، ومعجزة تختلف عن تلك فى الجوهر .

أما جواب يسوع لهم ، فقد كان له جانبان : فهو قد ذكَّرهم أولا بأن الذى أعطاهم المن السماوى ليس موسى ، بل هو الله . ثم أخبرهم أيضاً بأن المن ليس هو طعام الله ، بل هو رمز للخبز الإلهى النازل من السماء الواهب حياة للعالم — فخبز الله هو الآتى من السماء ، ويهب الناس ، لاشبع الجسد فحسب ، بل طعام الروح أيضاً .

ان يسوع يقصد بهذا ، أن الاكتفاء الحقيقى ، والشبع الكامل ، هو فى شخصه العجيب المبارك .

خبز الحياة

« فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَنَا هُوَ خُبْزُ ٱلْحَيوةِ . مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَداً. وَلٰكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ . كُلُّ مَا يُعْطِينِي ٱلآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ . وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا . لِأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لِأَعْمَلَ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي . وَهٰذِهِ

مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئاً بَلْ أُقِيمه فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. لأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي أَن كُلَّ مَنْ يَرَى الإِبْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيوةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ ».

(يوحنا ٦ : ٣٥ ـ ٤٠)

هذه هى إحدى الفقرات العظيمة فى البشارة الرابعة ، بل أكاد أقول فى العهد الجديد كله . وفيها نلمس اتجاهين عظيمين فى الفكر ، سنعرض لهما بالبحث والتحليل . .

أولا : ماهو قصد المسيح من القول ، أنا هو خبز الحياة ؟ ان البعض يرون فى هذا القول رمزاً شعرياً جميلا ، ولكننا نعتقد أنه أكثر من ذلك. ترى ماذا يقصد المسيح بهذا التعبير ؟ دعنا نحلله خطوة خطوة ، متأملين فى كل خطوة نخطوها حتى يكون طريقنا واضحا مأمونا ...

١ — قبل كل شىء الخبز واحد من مقومات الحياة ، لأنه غذاء الحياة . وبدون الخبز لا يمكن أن تستمر الحياة . فهو ضرورى لاستمرارها ، وازدهارها .

٢ — ولكن ماذا نقصد بكلمة الحياة ؟ من الواضح أننا فى سعينا وراء هذا التدرج المنطقى ، نخترق أعماقاً تندفع بنا إلى ما هو أعمق من دائرة الجسد والمادة . فحينما نتحدث عن الحياة ، فإننا نقصد ما هو أكثر من الوجود المادى. إننا نتجه إلى ما يسمو على المادة . إننا نقصد دائرة الروح . ولكن ما هى حياة الروح .

٣ — حياة الروح هي الحياة التي ولدت نتيجة العلاقة الجديدة بين الإنسان ، وبين الله . هذه هي الحياة الحقيقية . . . الحياة الهادفة ، الحياة البناءة ، حياة الإيمان بالله ، والاتحاد بالله ، والطاعة لله ، والمحبة لله .

٤ — ولكن هذه الحياة المباركة الجديدة لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق المسيح . فبدون السيد المسيح ، وبعيداً عن شخصه المبارك ، وعمل نعمته ، لن يستطيع إنسان أن يدخل إلى أعماق هذه الشركة الجديدة مع الله ، هذه الحياة الجديدة في ذات الله .

٥ — وعلى ذلك نستطيع أن نقول بصورة أخرى ، ان يسوع هو واهب الحياة فبدون يسوع لاسبيل إلى الوصول إلى الحياة بكل ما في الكلمة من قوة وعمق — بدون المسيح قد تكون الحياة مجرد وجود ، ولكنها لن تكون حياة .

٦ — وإن كان يسوع هو واهب الحياة ، وهو حافظها ، وهو مقومها ، فلا نجانب الصواب إذا قلنا انه هو خبز الحياة . أو دعنا نتحدث بلغة واقعية جافية بعيدة عن التصوير الشعرى ، فنقول ان يسوع هو « العنصر الرئيسى » الذى بدونه لن تبدأ الحياة ، ولن تستمر .

وفى اللحظة التى نعرفه فيها معرفة الاختبار الحق ، ونقبله فى حياتنا ، ونسلم نفوسنا له بالتمام ، فإنه يشبع كل رغبتنا الجائعة ، وكل مشتهياتنا الثائرة فى أعماق قلوبنا ونفوسنا ، فاذا بالجوع الذى كان يصرخ فى كياننا ، يهدأ ، ويصمت ، وإذا بالظمأ الذى كان يحرق أحشاءنا ينطفىء ، وإذا بالعاصفة التى كانت تزمجر فى أعماقنا يحل محلها السلام ، واذا بالعداوة التى كانت بيننا وبين الله تزول ، وتتلاشى . كل هذا يتم حينما نعرف المسيح فى حياتنا ، وعن طريقه نصل إلى معرفة الله الحقيقية . ان قلق النفس ينتهى ، وجوع القلب ينطفىء .

الأمر الثانى أن هذه الفقرة تـكشف أمام عيوننا ـ كل أطوار الحياة المسيحية . فهى تدور حول أولئك الذين أعطاهم الأب للابن ليضعوا ثقتهم فيه ، ويكونوا واحدا معه. وكما فعلنا فى تفسيرنا لـكلمة خبز الحياة ، وتطبيق ذلك على شخص المسيح ، هكذا سنتجه فى خطوات تأملية ، نـكتشف بها أطوار الحياة المسيحية ، وكيف يصل الإنسان الى التعرف على شخص المسيح .

١ — فنحن أولا نرى يسوع يسوع ، ولا نقصد بذلك المعنى الحرفى . اننا نراه مشرقاً أمام عيوننا فى صفحات العهد الجديد ، نراه متألقاً فى تعاليم الـكنيسة القديمة ، نراه ونلتقى به وجها لوجه فى أعماق قلوبنا وضمائرنا، نراه فى كماله كما يصوره لنا روح الله القدوس . .

٢ — ونحن اذ نراه نسرع اليه . انه ليس مجرد مثال جامد نراه فنعجب به وكفى ، ولا هو صورة علوية لا نستطيع أن نصل إليها ، ولا مقياساً سـامياً يشرق علينا بالقيم السـامية ، ولا شىء غير ذلك ، ولـكنه مخلص شخصى حىّ .

٣ — وفى مجيئنا إليه نؤمن به . أو بمعنى آخر نقبله فى حياتنا كالمرجع الأول والأخير فى معرفتنا بالله،وفى صلتنا الحية بالآخرين، وفى ادراكنا لأسرار الحياة ومطاليبها . وهذا يعنى أن مجيئنا الى يسوع ليس بدافع المنفعة الذاتية ، ولا هو لقاء الند للند على قدم المساواة ، ولـكنه لقاء الخشوع والخضوع والتسليم .

٤ — وحين نتابع هذه الخطوات ، ننال الحياة . أى أن الحياة تولد فينا بطريق سرى فنصبح فى علاقة جديدة مباركة مع الله ، نتحول فيها إلى أحباء الله وأبناء له. وذاك القدوس الأسمى الذى كنا نهابه، ونخشاه ، فنبتعد عنه ، يصير لنا الأب ، والصديق ، والأخ ، والمحب وكل شىء .

٥ — هذه البركـة العظمى ليست وقفاً على فئة دون فئة ، أو طائفة د.

طائفة . انها لكل الناس ، فهى بركة عامة شاملة ، والباب مفتوح للجميع ، والصوت يدوى : هلموا اشتروا بلا فضة ولا ثمن. ما علينا إلا أن نمد أيدينا فنأخذ . إن خبز الحياة لنا ، نطلبه فنناله .

٦ — ولكن ينبغى ألا ننسى قبل كل شىء ، أن الوصول لهذه العلاقة الجديدة مع الله ، هو عن طريق يسوع لا سواه . فبدونه ما كا ممكنا أن نصل إلى هذا المجد . إن العقل البشرى مهما سما فى مدارج الفكر ، والقلب الإنسانى ، مهما تدفق بالأشواق النبيلة ، لن يستطيع أن يصل إلى إدراك كنه الله ، أو يصل إلى الشركة المجيدة معه بعيداً عن المسيح .

٧ — ولكن وراء كل هذه الخطوات هناك الله الآب ـ فأولئك الذين للابن هم الذين يلتصقون به . إن الله لا يمهد الطريق فقط ، ولا يعد الهدف فحسب ، ولكنه هو الذى يتحرك فى أعماق الإنسان ليثير فيه الرغبة والشوق للمسيح ، وهو الذى ينتزع منه روح التمرد ، والكبرياء ، الذى يعوق الإنسان عن الخضوع له ، والتسليم لإرادته . فما كان ممكنا أن نصل إلى يسوع ونتعرف عليه ، مالم يكن الله هو العامل فينا .

٨ — ومع ذلك ، فهناك الذات فى كياننا ، والإرادة العنيدة فى أعماقنا ، التى تعطينا المقدرة على تحدى إرادة الله فينا وإيقاف عمله المبارك فى قلوبنا ، فالأمر بين أيدينا أولا وآخراً . نقول بكل احترام ان الشىء الذى يقهر الله ويوقف عمله ، هو تحديات القلب المتمرد . ولنا الخيار أن نأخذ البركة فننال الحياة ، أو نرفضها ويكون نصيبنا الحرمان من الحياة .

فإذا مددنا أيدينا لنأخذ البركة ، ماذا يحدث فى حياتنا ؟ يحدث أمران :

أولا : يدخل فى دائرة حياتنا شبع جديد . الجوع الأول ، والظمأ الأول

ينتهيان من قلوبنا . لقد وجد القلب مبتغاه ، ونال ما كان يبحث عنه لأن سلام الله قد ساد على الإنسان .

الثانى : وحتى بعد الحياة نوقن أننا سنكون فى سلام بعد نهاية العمر ، حينما ينتهى كل شىء لنا الرجاء الوطيد ، بأننا سنكون فى أمان . كما قال أحد المفسرين « ان المسيح يقود سفينتنا إلى شاطىء الأمان ، الذى لا خطر بعده ، ولا هوان ، هنا وهناك ». ان خبز الحياة النازل من السماء ، يهب الحياة فى الزمن ، وفى الأبدية . فاذا رفضنا هبة المسيح ، وتحدينا تحركات الله فى أعماقنا ، وصممنا آذاننا عن همسات الروح القدس ، فإننا نخسر الراحة والسلام هنا ، والمجد والبركات هناك .

فشل اليهود

« فَكَانَ الْيَهُودُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ قَالَ أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِى نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ . وَقَالُوا أَلَيْسَ هذا هُوَ يَسُوعُ بْنُ يُوسُفَ الَّذِى نَحْنُ عَارِفُونَ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ . فَكَيْفَ يَقُولُ هَذَا إِنِّى نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ . فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ لاَ تَتَذَمَّرُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ . لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَىَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الْآبُ الَّذِى أَرْسَلَنِى وَأَنَا أُقِيمُهُ فِى الْيَوْمِ الْأَخِيرِ . إِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِى الْأَنْبِيَاءِ وَيَكُونُ الْجَمِيعُ مُتَعَلِّمِينَ مِنَ اللهِ . فَكُلُّ مَنْ سَمِعَ مِنَ الآبِ وَتَعَلَّمَ يُقْبِلُ إِلَىَّ . لَيْسَ أَنَّ أَحَداً رَأَى الآبَ إِلاَّ الَّذِى مِنَ اللهِ . هذا قَدْ رَأَى الآبَ

الْحَقَّ الْحَقَّ أَقولُ لَـكُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيوةٌ أَبَدِيَّةٌ . أَنا هُوَ خُبْزُ الْحَيوةِ . آباؤُكُمْ أَكلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وماتُوا . هذَا هُوَ الْخُبْزُ النَّازِلُ مِنَ السَّماءِ لِكَيْ يَأْكلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلَا يَمُوتَ » .

(يوحنا ٦ : ٤١ ـ ٥٠)

إن أهم ما تقدمه لنا هذه الفقرة ، هى أنها تعلن لنا الأسباب التى من أجلها رفض اليهود يسوع ، وفى رفضه رفضوا الحياة الأبدية .

١ — لقد حكموا على الأمور فى نور القيم البشرية ، والمقاييس السطحية . فحينما أعلن يسوع لهم حقوقه كالمسيا المنتظر ، كان اعتراضهم عليه أنه ابن النجار ، وأنهم شاهدوه بأعينهم يحيا ويعمل ، فى دكان حقير بالناصرة .. فهم لم يستطيعوا أن يدركوا كيف أن رجلا من أرباب الصناعات ، يمتهن حرفة متواضعة وينتمى إلى أسرة فقيرة ، يحمل إليهم رسالة من الله . لقد رفضوا يسوع ، لأنهم اختبروه باختبار النظم الإنسانية ، والقيم الاجتماعية ، والمثل العالمية. فى الأيام التى كان فيها « ت . ى . لورنس » ضابطاً صغيراً فى قوات الطيران الملكية ، كان على عادة أن يقوم بزيادة « هاردى » فى منزله ، وهو فى زيّه العسكرى . وفى يوم تصادف أن انفقت زيارته مع زيارة إحدى السيدات النبيلات ، وأبدت السيدة النبيلة امتعاضها ، من أن يضم مجلسها الخاص، طياراً عادياً ، فقالت باللغة الفرنسية لمدام هاردى ، « لم يحدث فى حياتى أننى جلست لتناول الشاى ، مع جندى عادى » . وساد الصمت على الجميع ، إلى أن قال « لورنس » بنفسه بلغة فرنسية سليمة « اسمحى لى يا سيدتى ، ان مسز هاردى لا تجيد الفرنسية ، هل أصلح كمترجم لك ؟ » .

لقد أخطأت تلك السيدة الجافية ، المتعالية ، التقدير ، لأنهـا كانت

تلبس منظاراً عالمياً ، تبصر من خلاله الأشياء ، بنظرة مادية وتحكم على الناس بمقاييس اجتماعية خاطئة . وهذا ما فعله اليهود . حاشا لنا أن نكون مثلهم ، ونتصرف نظيرهم ، فنرفض رسالة الله لأننا نحتقر رسالة الله . لنفرض أن أحد الأثرياء ،قدم لنا هبة بمبلغ كبير ، بتحويل على أحد المصارف . هل نرفض الهبة لأن التحويل وُضع فى غلاف غير أنيق ؟ ان لله رسله الكثيرين . فإذا شاء الله أن يرتدى الابن الحبيب ، ثياب نجار جليلى ، ليقدم رسالة السماء للأرض ، فهل معنى هذا أن نرفض الرسالة ؟

٢ — ولقد كانت نقطة الضعف عندهم ، هى أنهم كانوا يدورون فى دائرة مُفرغة فى مناقشات لا طائل تحتها . ولقد شغلتهم هذه المماحكات عن الرجوع إلى فكر الله ، وقبول حكمه الصائب ، ومحاولة إدراك مشيئته . لقد كان كل همهم ، أن يعرف الناس حكمهم فى قضية من القضايا،ويدركوا رأيهم، ولاشىء غير هذا . أما فكر الله فهذا لا يهمهم فى شىء . وماذا نقول نحن؟ فى مؤتمراتنا ومجامعنا ، ومناقشاتنا ، ألا يحاول كل واحد أن يرفع صوته ، ويؤكد رأيه ، بدل من أن نستمع إلى صوت الله ، ونعرف فكر الله ؟ كم واحد منا يطيع الأمر الإلهى : «الرب فى هيكل قدسه، فاسكتى قدامه يا كل الأرض» ؟ وكم منا يحاول أن يعرف إرادة الله ، ويسعى لعمل إرادته ؟ إن الذى يهمنا ليس هو فكرنا نحن ، بل فكر الله . وهذا ما ينبغى أن نسعى لاكتشافه .

٣ — ويرجع فشلهم أيضاً إلى أنهم كانوا يسمعون ، ولكنهم ما كانوا يدركون . هناك أنواع متعددة من السماع . هناك سماع النقد ، وهناك سماع الاستنكار ، وهناك سماع الاستعلاء ، وهناك سماع عدم الاهتمام ، وهناك سماع الإنسان الذى يصغى لأنه يستغلق عليه الجواب، وتُغلق أمامه الأبواب. والنوع الوحيد من الأصغاء، الذى يستحق أن نمارسه لننال البركة ، هو الأصغاء

مع الإدراك والقبول . ولا طريق آخر للوصول إلى فكر الله، وإدراك مشيئته إلا هذا الطريق .

٤ — ولقد قاوم اليهود جاذبية الله . ان الذين يقبلون يسوع هم الذين يجتذبهم الآب ليسوع . والكلمة التى يستخدمها يسوع هنا ، للاشارة إلى الجاذبية ، جديرة بالتأمل . انها نفس الكلمة التى استخدمت فى ترجمة أسفار التوراة إلى اليونانية ، نقرأها فى قول الله لأرميا : « محبة أبدية أحببتك من اجل ذلك أدمت لك الرحمة » (ارميا ٣١ : ٣) . وفى الأصل « بمحبة أبدية جذبتك » والشيء المميز للفعل « جذب » هنا — وفى اليونانية « هلكوين » — هى أنه فى أى موضع يستخدم فيه ، يشير إلى وجود نوع من المقاومة . انه الفعل الذى استخدمه البشير فى الاصحاح الحادى والعشرين حينما « صعد سمعان بطرس وجذب الشبكة إلى الأرض » (يوحنا ٢١ : ١١) .

وحينما أمر السيد التلاميذ بأن يلقوا الشبكة إلى الجانب الأيمن ، نقرأ أيضاً « فلم يعودوا يقدرون أن يجذبوها لكثرة السمك » (عدد ٦) . وفى سفر الأعمال يرد نفس الفعل فى الحديث عن بولس وسيلا ، حينما جرّت الجموع بولس وسيلا فى مدينة فيلبى ، إلى دار الحاكمة (أعمال ١٦ : ١٩) . وهى أيضاً الكلمة التى استخدمت عن بطرس حينما اخترط سيفه من الغمد (يوحنا ١٨ : ١٠) . فى هذه الصورة مجتمعة ، نجد فكرة الثقل ، والمقاومة . ان الله يريد أن يجتذب الجميع إليه ، وهو يستطيع ذلك . ولكن هناك قوة أخرى تعاند ، وتقاوم جاذبية الله . هذه القوة هى إرادة الإنسان ، وعناده ، وتمرده. والله لن يرغم انساناً ، ولن يحطم إرادة البشر ، فلا انجذاب لنا ، طالما نحن لا نريد ذلك .

رأينا كيف أن يسوع هو خبز الحياة ، ورأينا أن هذا معناه بأنه وحده ،

لا سواه . وهو أساس الحياة ، ولذلك فإن رفض دعوته المباركة ،وعدم قبوله في الحياة ، معناه الموت . يقول أحبار اليهود : « إن جيـــل التيه في البرية لانصيب له في الحياة القادمة » . ونحن نقرأ في سفر العـدد أن أولئك الذين تمردوا على الجاسوسين ، ورفضوا مجابهة الأخطار في دخول أرض الموعد، ورأوا استحالة هذا الأمر ، حكم الله عليهم بالتيه في البرية ، حتى نهاية العمر . لقـد حرموا من دخول أرض الموعد ، لأنهم لم يصدقوا وعد الله ،وتمردوا على إرشاد الله . ولقد زاد الأحبار على ذلك ، الاعتقاد بأنهم لم يحرموا فقط من بركات الزمن ، بل حرموا أيضاً من بركات الأبد .

إن رفض هبة يسوع ، هو رفض جوهر الحياة ... هو فقدانها في الزمن وفي الأبد . أما قبول هبة يسوع ، فهو قبول الحياة ... الحيـاة التي تشرق علينا بالمعنى الحقيقي في هذا العالم ، وبالأمجاد في العالم الآتي .

الجسد ، والدم

أَنَا هوَ ٱلْخُبْزُ ٱلْحَيُّ ٱلَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّماءِ . إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا ٱلْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى ٱلْأَبَدِ . وَٱلْخُبْزُ ٱلَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي ٱلَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيوةِ ٱلْعَالَمِ .

فَخَاصَمَ الْيَهُودُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً قَائِلِينَ كَيْفَ يَقْدِرُ هذَا أَنْ يُعْطِينَا جَسَدَهُ لِنأْكُلَ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ٱبْنِ الْإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ فَلَيْسَ لَـكُمْ

حَيوةٌ فيكُمْ . مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِى وَيشْرَبُ دَمِى فَلَهُ حَيوةٌ أَبَدِيَّةٌ وأَنَا أُقِيمُهُ فِى الْيَوْمِ الأَخِيرِ . لِأَنَّ جَسَدِى مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِى مَشْرَبٌ حَقٌّ . مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِى وَيشْرَبْ دَمِى يَثْبُتْ فِىَّ وأَنَا فِيهِ . كَمَا أَرْسَلَنِى الْآبَ الْحَىُّ وأَنَا حَىٌّ بِالْآبِ فَمَنْ يَأْكُلْنِى فَهُوَ يَحْيَا بِى. هذا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِى نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ . لَيْسَ كَمَا أَكَلَ آبَاؤُكُمُ الْمَنَّ ومَاتُوا . مَنْ يَأْكُلْ هذَا الْخُبْزَ فَإِنَّهُ يَحْيَا إِلَى الْأَبَدْ . قَالَ هذَا فِى الْمَجْمَعِ وهُوَ يُعَلِّمُ فِى كَفْرِ نَاحُومَ » .

(يوحنا ٦ : ٥٠ — ٥٦)

هذه الفقرة غاية فى الصعوبة ، والتعقيد ، بالنسبة لـكثيرين منا . انها تتحدث بكلمات غريبة ، وتدور فى محور غريب من الأفكار لا ندركه نحن ، ولـكن ينبغى أن نعرف ، ان هذه الأفكار كانت عادية معروفة ، بالنسبة للعالم القديم ، بل أن تاريخها يرجع إلى أقصى درجات الزمن السحيق . . . . إلى بداية تاريخ الجنس البشرى .

والآن دعنا نعرض للممارسات القديمة بين الأمم ، لندرك ما يرمى إليه يسوع بقوله هذا. فحينما كانت تقدم الذبائح فى القديم — ونقول ذلك بوجه عام — فإنها نادراً ما كانت تحرق بجملتها . كان جزء منها يحرق على المذبح مع أن الذبيحة كلها كانت مكرسة للآلهة . وكان هناك جزء يخصص للـكهنة نصيباً لهم . والجزء الثالث كان يعطى لمقدم الذبيحة ليأكل ويفرح مع أصدقائه وذويه فى رحاب الهيكل . ومع ذلك فكل جزء من الذبيحة سواء على المذبح

أو بين يدى الـكاهن ، أو على مائدة العابدين ، هو مكرس للآلهة ، لا فرق بين هذا وذاك . والإله نفسه كان يجلس مع شعبه ، مشرّفاً لهم . بل الأكثر من ذلك ، ما دامت الذبيحة قد ذبحت باسمه ، وخُصصت له ، فإن الإله بنفسه قد حلّ حلولا فعلياً فى الذبيحة ، وأصبح واحداً مع جسدها . فحينما يأكل العابد منها ، فإنه بالفعل كان يأكل حرفياً الإله ، ويتغذى به ، ويتقوى بقوته ، ويتمتع بنعمته ، ويحيا بحياته ، ويمتزج كيانه بكيانه . وبعد أن تنتهى الوليمة ، كان العابدون يغادرون المعبد ، وكل واحد يوقن تماماً ، أنه امتلأ بملء الله ، وتمتع بكيان الله . ونحن قد نعجب لهذا ، ونرى فى ذلك ممارسة وثنية ، وهلوسة جبارة جماعية ، تسيطر على العقول .

ومع ذلك فانصافاً للحقيقة نقول بأن أولئك القدامى كانوا يؤمنون بالفعل بأن حيوية الإله ، وقوته ، قد دبت فى كيان الإنسان . وكان لهذا الإيمان أثره فى حياتهم . ومهما كانت أفكارنا عن مثل هذا النوع من العبادة . . . . ومهما قلنا عنها بأنها عبادة وثنية ، أو عبادة صنمية ، فإن الحقيقة تبقى ، وهى ان هذه الممارسة كانت اختباراً فعلياً بالنسبة للقدامى ، وأن العابدين كانوا يغادرن معابدهم وولائمهم ، وقد أيقنوا ، وأحسوا ، بأنهم قد نالوا البركة والنعمة .

نقول أيضاً ان ديانة الخاصة فى القديم كانت تدور حول ما يُعرف بديانات الأسرار . وكان من أخص ما تقدمه تلك الديانات لاتباعها ، ممارسة نوع من الشركة السرية ، أو الاتحاد الخفى مع الإله ، فيه تتمثل ذات الله فى كيان الإنسان . ولـكى يصل الإنسان إلى هذا المستوى ، كانوا يقومون بتمثيل نوع من قصص الآلام ، وغالباً ما كانت تدور تلك القصص المسرحية حول آلام ذلك الإله ، والأحداث الحزينة التى مرت به ، وبوجه عام نقول ان ذلك الإله فى قصصهم كان يقاسى من الأعداء أقسى الآلام ، وينتهى

الأمر بموته ، ثم لا يلبث ان يقوم من الأموت ظافراً منتصراً .

وقبل أن يصل العضو إلى مستوى التثبيت ، أو بمعنى آخر ، قبل أن يصبح أهلا ليرى الأحداث الإلهية تمثل أمام ناظريه ، كان عليه أن يجتاز فى فرص تعليمية طويلة ، تـكشف له عن أعماق معانى الأحداث الرمزية التى سيراها . كما كان لزاماً عليه أن يجتاز فى مراسيم متعددة للتطهير . فكانت تفرض عليه فترات طويلة من الصيام ، والامتناع بالـكلية عن الصلات الجنسية — فإذا حان الوقت المعين ، وأصبح العضو أهلا لهذا الشرف تـكون العدّة قد أعدت بحيث يكون الجو عاطفياً ، يستخدم فيه كل ما من شأنه التأثير فى العواطف والأحاسيس : الأضاءة ، والأنغام ، والموسيقى والجو المسرحى ، وكل شىء . فالأضاءة خفية خافتة ، والبخور يثير المشاعر ، والموسيقى قوية صاخبة ، ومن مكان خفى يتهادى صوت الملقن ، بكلمات شاعرية رائعة ، كل شىء يُعد بحيث يسمو بالعضو إلى قمة الإثارة ، والتوقع بصورة لم يعهدها من قبل — لقِّب هذا ماتشاء ، قل إنه هلوسة جبارة ، قُل إنه نوع من التنويم المغناطيسى فى صورة مؤثرات خارجية ، وإيحاء باطنى ، ولـكن بتوالى المناظر ، أمام عينى الإنسان ، يحدث ما كان يتمناه ، ويصبو إليه : الوصول إلى شبه الإله ، والاتحاد به ، بحيث يحل كيان الإله فيه ، ويمتزج كيانه به ، فتفيض فى أعماقه مشاعر الإله فى كل طور من أطوار حياته .

ففى حزن الإله يحزن وينـكسر قلبه . وفى آلامه يتألم ، وفى موته يحس بنصات الموت الأليم ، وفى قيامته يمتلىء بقوة الإله المقام . هو والإله يصبحان واحداً بلا انفصام ، منذ تلك اللحظة ، وإلى أبد الآباد .

وبعض الأقوال ، والصلوات ، التى كان يرددها العابدون جديرة بالتأمل فى أسرار « مثرا » . كان العضو يصلى:

« أمكث مع نفسي ...

« لا تتركني حتى أثبت فيك .

« وحتى يحل الروح القدس في كياني ..

وفي أسرار « هرمس » نستمع إلى أفكار أقرب ما تكون إلى الحلولية :

« انني أعرفك ياهرمس

« وأنت أيضاً تعرفني . . .

« أنا أنت .. وأنت أنا . . »

وهناك صلاة أخرى ، من نفس أعضاء هذه الهيئة :

« هلم إليّ ، ياربي هرمس ..

« كما يتكون الجنين في بطن الأم . . »

وفي أسرار إيزيس نستمع إلى القول . .

« مادام اوزيريس يحيا ،

« فأتباعه يحيون . . .

« وما دام حقا لا يموت ،

« فأتباعه لن يذوقوا الموت . . »

ينبغي أن نعرف أن أولئك القدامى ، كانوا يعرفون الكثير عن جهاد النفس ، وشوقها وحنينها ، للوصول إلى التشبه بذات الإله ، والاتحاد به . لقد كانوا يشتاقون إلى حلول الله ، وامتزاجه بكيان الإنسان ، وإلى امتزاج ذات الإنسان واتحادها بذات الله . فهم ما كانوا يفعلون مثلما يفعل

البعض منا : يفسرون أقوال المسيح حرفياً ، ويعتقدون أن الحياة فى شرب دمه الفعلى ، وأكل جسده الفعلى . لقد كانوا يدركون المعانى العميقة الحلوة المستترة ، فى الاتحاد الروحى بالسيد ، الذى ترمز إليه ممارسات التناول بمختلف صورها الرمزية ، بعيداً عن الملموس المادى .

هذه هى اللغة التى ادركها القدامى . . .

وهذا ما ينبغى ان يصل إليه فهمنا وإدراكنا . .

الجسد والدم (تابع)

(يوحنا ٦ : ٥٠ — ٥٩)

دعنا الآن نكتشف شيئا من المعانى التى قصدها يسوع بحديثه عن جسده ودمه. هناك طريقان نستطيع أن نفسر بهما حديثه هذا :

الطريق الأول : نستطيع أن نأخذ هذا القول بصورة معنوية ، ان يسوع يتحدث هنا عن أكل جسده ، وشرب دمه . ونحن نستطيع أن نقول إن جسد يسوع هو ناسوته . . . إنسانيته الكاملة . وفى رسالة يوحنا الأولى نجده يتحدث صريحا عن ناسوت المسيح ، ويؤكد ضرورة الاعتراف به فيقول : « كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله . وكل روح لايعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد ، فليس من الله . وهذا هو روح ضد المسيح »(١ يوحنا ٤ :٢، ٣) .

ويوحنا هنا يصرُّ على أننا ينبغى أن نتمسك بناسوت المسيح ، ولا نتخلى عن ذلك . . . أن نثق بأن يسوع عظم من عظمنا ، ولحم من لحمنـــا . وإلا فلا خلاص لنا، ولا رجاء . والآن ماذا يعنى هذا ؟ لقد أشرنا فيما سبق إلى أن

يسوع هو فكر الله صار جسداً . أو بصورة أخرى نقول إننا فى يسوع نرى الله آخذا جسم بشريتنا ، مواجها متاعب موقفنا،مجاهداً مع مشا كلنا ، مقاوما كل تجاربنا ، واضعا الأساس الصحيح لكياننا السليم ، ممهداً الطريق فى شخصه للعلاقات الإنسانية البناءة ، و كأنى بيسوع يقول :

« هلموا . . تعالوا . . كلوا . .

« غذّوا قلوبكم ، وعقولكم .

« لتمتلىء نفوسكم بالشبع الحقيقى .

« وأنتم تتأملون فى إنسانيتى .

« فحينما تعييكم سبل الحياة . . .

« تذ كروا اننى سلكت هذه السبل . . .

« وحينما توهنكم متاعبها وهمومها ،

« لا تنسوا اننى لاقيت هذه المتاعب ،

« وانتصرت عليها . . .

« وحينما تثور عليكم العواصف والأمواج .

« ثقوا بأنى فى سفينتكم ،

«أجابه العواصف معكم . . » .

حينئذاك تتألق الحياة المادية ببريق يخطف الأبصار ، حينما نوقن بأن كياننا الجسدى مرتبط بكيان الله ، ومتحد معه ، فآلامنا ومتاعبنا . لا نجابهها بمفردنا . ولقد كان هذا فى وقت من الأوقات،مصدر قوة العقيدة الارثوذكسية: ان يسوع قد ألّه جسم بشريتنا ، حينما صار جسداً وحل بيننا . أن آكل

جسد المسيح هو التغذى بالتأمل فى انسانيته الـكاملة القدوسـة ، حتى تتقوى إنسانيتنا ، وتتنقى بقوة اشعاع حياته المباركة .

وقد قال السيد أيضا ، ان علينا أن نشرب دمه . والدم فى الفـكر اليهودى هو أساس الحياة . وليس من العسير علينا أن ندرك السر فى اعتقادهم هذا . ففى الوقت الذى ينزف فيه الدم من جسد الإنسان ، تنزف معه الحياة . ولذلك كان اليهودى يؤمن ، بأن الدم ملك الله .. فإذا قام بذبح حيوان فهو لن يمسّ لحمه ، حتى تراق آخر قطرة من دمه على الأرض. فى سفر التـكوين نقرأ الوصية « كل دابة حيّة تـكون لـكم طعاما . . غير أن لحمًا بحياته دمه لا تأكلوه » (تـكوين ٩ : ٣ ، ٤).

وفى سفر التثنية : « احترز أن لا تأكل الدم . لأن الدم هو النفس ، فلا تأكل النفس مع اللحم » (تثنيه ١٢ : ٢٣) .

وهنا نستمع إلى يسوع قائلا :

« وعليـكم أيضا أن تشربوا دمى . .

« خذوا حياتى فى كيانـكم ، واتحدوا بى ،

« لتـكون لـكم حياة الله . .

فحينما يقول يسوع ان علينا أن نشرب دمه ، فانه يعنى أننـــا ينبغى أن نتشبع بحياته ، ونمتلىء بكيانه. هل نستطيع أن نوضح هذا بمثل صغير ؟ لنفرض انى امتلك كتاباً فى دولاب كتبى ، وهذا الـكتاب لم أفتحه قط . قد يكون هذا الـكتاب احدى روائع شكسبير ، أو تحفة أخرى من تحف الأدب الخالد. انه ملـكى ، ولـكننى طالما لم أقرأه فهو غريب عنى . . خارج دائرة حياتى . ولنفرض انى فى يوم من الأيام ، أخذت الـكتاب ، ونسيت نفسى فى خضّمه .

ان الكتاب الذى كان يبدو جامداً أمامى ، قد تدفق بالحياة ، والسطور الصامتة ، قد تجاوبت بانغام الخلود . لقد امتزجت أفكار الكتاب بعقلى ، وتدفقت فى قلبى ، وحفرت فى ذاكرتى ، واصبحت متمثلة فى كيانى فاذا دعت الحاجة ، أو حانت الفرصة ، استطيع أن أعود إلى مخزن عقلى ، واغترف منه ماشاءت نفسى ان تغترف ، وأتمتع به ما شئت ان أتمتع ، وتشبع به ذاتى ، ماشاء لها الشبع . فحينما كان الكتاب فى مكانه ، كان بعيدا عن دائرة نفسى ، ولكنه الآن قد دخل إلى دائرة كيانى .

وهكذا الأمر مع أى اختبار عظيم فى الحياة ، انه يبقى خارج حدودنا ، حتى يدخل إلى دائرة نفوسنا . وهكذا الأمر أيضاً مع يسوع . انه حياة الله المقدمة إلينا . ولكنه طالما كان صورة فى كتاب ، مهما كان سمو هذا الكتاب ، فسيبقى خارج دائرة كياننا . فإذا دخل إلى قلوبنا ، وأصبح فينا ، نستطيع أن نتغذى به ، ونشبع بحياته ، ونمتلىء بقوته ، ونسمو بسموه . ان يسوع يقول لنا : « خذوا حياتى فى أعماقكم ، فهى بالنسبة لكم أكثر من قصة فى كتاب ، اكثر من صورة قدمها البشيرون منذ ألفى عام . . أكثر من موضوع للمنازعات اللاهوتية والخلافات العقائدية . . هلموا خذونى فى أعماقكم ، لأتحد بكم فى أعماق . . . وعندها ستكون لكم الحياة الحقة » .

وهذا ما يقصده يسوع من حديثه عن ثباته فى أحبائه ، وثبات أحبائه فيه . وهذا ما يعنيه بقوله اننا ينبغى أن نتغذى بجسده ، ونرتوى بدمه . انه يريد منا أن نشبع قلوبنا ، وأرواحنا ، وعقولنا بناسوته ، وأن نعيش حياتنا بحياته حتى تتشبع به ، وتسمو بسموه ، وتمتلىء بملئه ، ونرتفع إلى قياسه .

الطريق الثانى : نستطيع أن نأخذ هذا القول فى حرفيته أن يسوع كان يشير أيضاً إلى احداث تلك الليلة الخالدة ، التى سيجتمع فيها مع تلاميذه لتناول العشاء الأخير

وكأنى به يقول لنا : « ان أردتم الحياة ، تعالوا والتفوا حول تلك المائدة ، حيث تتناولون الخبز المكسور ، وتتجرعون الكأس المسكوبة ، الواسطة التى عن طريقها تتحدون بمحبة المسيح ، وحياته المباركة . وما لم تجلسوا إلى مائدة المحبة هذه ، لن تختبروا ملء الحياة المسيحية ». على أنه مما يدعو للدهشة ان بشارة يوحنا ، لا تحوى ضمن ما أوردته ، قصة العشاء الأخير فى العلية ، أترى قد اكتفى يوحنا بما أورده غيره ؟ أم تراه قد اكتفى بقصة الطعام الذى تناوله السيد مع الجماهير الجائعة ، على سفح المنحدر ، بالقرب من بيت صيدا ؟ وهل معنى هذا أن البشير يرى فى الوجبة الخفيفة التى تناولتها الجماهير هناك ، عشاء سريا ؟ ان كان الأمر هكذا، فكل وجبة نتناولها بالشكر من يدى الله ، ينبغى ألا تقل فى أعيننا عن عشاء ربانى . .

هذا فكر جديد ، ولكنها عقيدة تسمو بنا ، وترفعنا إلى آفاق أعظم . ان كثيرين فى قلب الكنيسة ، يرفعون المائدة إلى أكثر مما ينبغى ، ويضفون عليها سحراً ، ويرون فيها إلها ، يخزون أمامه ويسجدون ، وفى محضره يخشعون ويتعبدون ، فالإقتراب منها يقربنا من للسيح المقام ، والبعد عنها يبعدنا عنه . صحيح أن المائدة فريضة رسمها الله لنا . ولكن يوحنا هنا ، باكتفائه بذكر المائدة فى هذا الموضع الخلاء ، قد رفع من مقام كل وجبة طعام نتناولها — فى بيت الغنى ، كما فى كوخ الفقير . . فى أبهاء القصر العامر ، كما تحت قبة السماء الزرقاء. ان يوحنا هنا ، قد رفض أن يحدّ المسيح بمكان كنسى، وبمراسيم دينيـــة ، وبخدمة كهنوتية . وكأنى به يقول : « فى كل رغيف تكسرونه على موائدكم ، تذكروا الجسد المكسور ، وفى كل كأس تتناولونه بالشكر ، أذكروا الدم المسفوك » . وهذا هو أسمى فكر يتقدم به البشير . ان مائدة التناول فى الكنيسة، ومائدة الطعام فى المنزل ، وإجتماع الاحباء حول وجبة خفيفة على العشب الأخضر ، كل هذه سواء بسواء . ففيها جميعها نتناول

الخبز ، ونشرب الكأس ، التى تقربنا من للسيح ، وتجعل حضوره فى وسطنا أمراً حقيقياً . وما أقسى حالة المجتمع المسيحى، الذى يحبس المسيح بين جدران الكنيسة ، ويجعل حضوره رهنا بمراسيم يقوم بها الكاهن ، وتلاوات يتلوها وصلوات يرفعها . ينبغى أن نلمس المسيح فى كل مكان لأن حضور السيد يملأ كل مكان وهذا لايقلل من قيمة الاسرار المقدسة،ولكنه يتسع بدائرتها حتى تشمل أكثر من دائرة المذبح— دائرة الحياة العادية، فى الأسرة ، ومكان العمل ، والمجتمع الكبير .

الروح المحيي

« قَالَ هذَا فِي الْمَجْمَعِ وهُوَ يُعَلِّمُ فِي كَفْرِ نَاحُومَ.

فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ تَلاَمِيذِهِ إِذْ سَمِعُوا إِنَّ هَذَا الْكَلاَمَ صَعْبٌ. مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ. فَعَلِمَ يَسُوعُ فِي نَفْسِهِ أَنَّ تَلاَمِيذَهُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَى هذَا فَقَالَ لَهُمْ أَهذَا يُعثِرُكُمْ . فَإِنْ رَأَيْتُم ابْنَ الإِنْسَانِ صَاعِدًا إِلَى حَيْثُ كَانَ أَوَّلاً . الرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي . أَمَّا الْجَسَدُ فَلاَ يُفِيدُ شَيْئًا . الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وحَيوةٌ. ولكِنْ مِنْكُمْ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ . لِأَنَّ يَسُوعَ مِنَ الْبَدْءِ عَلِمَ مَنْ هُمُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُهُ . فَقَالَ لِهذَا قُلْتُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ إِنْ لَمْ يُعْطَ مِنْ أَبِي .

(يوحنا ٦ : ٥٩ ـ ٦٥)

ليس من الغريب أن يلاقى التلاميذ صعوبة فى كلام السيد .

ان الكلمة المترجمة هنا «صعب» ، هى فى الأصل اليونانى : « سكليروس » . وكلمة « سكليروس » لا تعنى صعوبة فى الفهم ، ولكنها تعنى صعوبة فى القبول وصعوبة فى الاحتمال . لقد أدرك التلاميذ ما كان يرمى اليه يسوع بحديثه . لقد فهموا أنه أراد أن يعلن لهم انه هو حياة الله النازل من السماء ، ليهب حياة للعالم ، وأنه لا سبيل آخر ليحيا الإنسان حياته الحقة ، ويواجه الأبدية بأهوالها ، إلا بقبوله ، والخضوع له . هنا نأتى إلى حقيقة تتكرر فى كل عصر : ان المشكلة الرئيسية التى تعترض الناس فى قبولهم للمسيح ، ليست مشكلة العقل ، ولكنه المستوى الخلقى السامى الذى يتطلبه المسيح صحيح أن هناك أموراً يصعب على العقل إدراكها ـ فى المسيحية ، كما فى أى دين آخر ، لأنه فى أى دين ، لابد وأن يكون هناك سر لا يصل العقل إلى إدراكه . وليس هـذا بالغريب . فمن المنطقى ، ألا يحتوى المحدود — اللامحدود ، أو يصل العقل البشرى إلى إدراك الذات الإلهية وأعماقها . وكل مفكر أمين ينبغى أن يقر بهذه الحقيقة . اننا إذا استطعنا أن ندرك كنه الله فانه لن يكون إلها . انه يصبح محدودا ، لأن العقل المحدود استطاع أن يحدّه .

ان الصعوبة فى المسيحية ، ذات حدين : فهى تتطلب أولا التسليم الكامل المسيح ، قبوله فى الحياة كالسلطان المطلق الذى لا يقاوم ، وهى تستلزم أيضا مقياسا أدبيا ساميا ، لأن الأنقياء القلب ، هم الذين يعاينون الله . ولقد آمن التلاميذ بما نادى به المخلص ، بأنه حياة الله المتجسد على الأرض ، وفكر الله المجسم بين البشر ، وبقى عليهم أن يجسموا هـذا الحق الذى يؤمنون به فى حياتهم ، أن يقبلوه بكل مطالبه . ومازالت هذه هى العقبة الكأداء فى وجه الكثيرين . انهم يرفضون قبول المسيح فى حياتهم ، ليس لأنه

يحيّر أفكارهم ، أو يتعارض مع منطقهم ، ولكن لأنه يتحدى حياتهم ، ويدين تصرفاتهم .

وهكذا يتقدم يسوع إلى المعترضين عليه بالجواب ، لا ليعيد على مسامعهم تأكيدات جديدة عن حقوقه كالمسيا العظيم ، ولكن ليؤكد لهم أن الأيام ستثبت حقيقة كل شيء . وإذا شئنا أن نترجم حديثه بكلمات أخرى نقول : « انكم تجدون صعوبة فى قبول القول انى خبز الحياة النازل من السماء . وانى لا أقول لكم أكثر من أن تنتظروا الى الأيام القادمة ، وحينذاك ستقبلون كل ما قلته حينما تشاهدوننى صاعدا الى السماء ، وإلى حيث كنت أولا » .

وهذه نبوة عن صعوده ، وعن انتصاره على الموت . انه يقول : « حينما تأتى الساعة التى أعود فيها للآب ... حينما تأتى الساعة التى انتصر فيها على الموت .. حينما تأتى الساعة التى أرجع فيها لأمجادى السامية ، حينذاك تعرفون أن كلامى حق وصدق » . وهذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية . انها تشير إلى أن قيامة المسيح من الموت ، وصعوده إلى المجد ، هما ضمان كل حقوقه . انه ليس داعية عاش للحق ، ومات فى سبيله ، وانتهى الأمر باستشهاده ، وضياع الهدف الذى كان يتجه اليه انه مات ليقوم . . . ذاق الموت لينتصر عليه . . . أمسك بالكأس المرة وتجرعها ، ليقدم لنا اكسير الحياة . انه مات ليحيا للابد . النهاية ليست إلى قبر مغلق ، واحجار صماء ، وفشل نهائى ، لكن إلى غلبة ، وانتصار ، وأمجاد . ان قيامة المسيح هى أقوى دعامة تقوم عليها حقوقه ، وادعاءاته .

ثم يستمر السيد فى حديثه قائلا ان الجسد لن يقدم للإنسان المعونة ، ولكن قوة الروح، واهب الحياة ، هى التى تستطيع كل شىء ومع أن يسوع يشير

هنا إلى الروح القدس ، إلا اننا نستطيع بصورة أخرى ، أن نـكتشف فى ثنايا حديثه معنى آخر . فقد يعنى هذا أن اسمى شىء يظهر حقيقة عمل ما ،هو الروح الذى به يقوم الإنسان بهذا العمل ،أو كما قال أحدهم : « كل المجهودات البشرية تافهة ، لو لم تهدف إلى أوسع من محيطها » .ان قيمة الشىء يتوقف على هدفه. لنأخذ مثلا: الطعام — ان كنا نتناول طعامنا لمجرد التلذذ بتناول الطعام، نتحول إلى حيوانات نهمة ، وربما كانت نتيجة ذلك الاصابة بمختلف الأمراض ، والأوجاع . فإذا تناولنا خبزنا اليومى للحفاظ على الحياة ، واستهلكنا منه ما يضمن لنا الطاقة التى تعيننا على القيام بواجباتنا ، ولا تتعارض مع صحتنا ومقدرتنا ، حينئذ يصبح للطعام معناه البناء فى حياتنا .

لنأخذ مثلا آخر : التمرينات الرياضية . ان كان واحد يقضى كل وقته ، باذلا أقصى جهده ، فى أى مجال من مجالاتها ، فجهده مُضيع ووقته أيضاً ضائع، ولكنه ان أخذ من الرياضة القدر الذى يحفظ سلامة بنيانه ، ونشاط جنانه ، حتى يثمر الثمر المتكاثر فى مجتمع متكامل ، فهى لازمة كل اللزوم .

أن أى عمل من الأعمال ، تزداد قيمته بالروح التى ننفذ بها هذا العمل الذى نقوم به.

وهكذا يستمر يسوع فى القول : كلامى هو روح وحياة . . . ان المسيح هو وحده الذى يستطيع أن ينفخ الحياة فى كل عمل نقوم به ،... هو الذى يهبنا القوة لنقوم بذلك العمل . . . وهو الذى يجعل للحياة هدفها الحى . ان الحياة كأى نشاط آخر ، تستمد قيمتها من أهدافها . والمسيح هو وحده الذى يستطيع أن يهبنا هدف الحياة ، وروح الحياة ، وقوة الحياة ، بل أنه هو الذى يهبنا الحياة فى ملئها ، والقوة التى تعيننا على تحقيق أهداف الحياة فى وجه كل مقاومة من الداخل ، ومن الخارج — فى كلمات المسيح روح الحياة ، وقوة الحياة .

ولـكن يسوع كان يعلم تمام العلم أن هناك كثيرين لا يتصرفون تصرفاً سلبياً إزاء هبة الحياة، فيرفضونها فقط، بل يرفضونها بروح العداء والتمرد. ان يسوع يستطيع أن يخترق ببصره الثاقب، أعماق النفس البشرية ... أو قلوب البشر كأسفار مفتوحة أمام ناظريه. والمسئولية العظمى التي تقع علينا، هي أنه في أعماق نفوسنا توجد طاقات وامـكانيات لا يسيطر عليها إلا نحن، وليس سوانا. لا يوجد انسان يقبل يسوع في حياته، الا بفاعلية الروح القدس وتأثيره على القلب، ولـكن الى نهاية العمر، يستطيع ذلك الإنسان أن يقاوم عمل الروح. مثل هذا الإنسان لم يغلق الله الباب في وجهه، ولـكنه هو الذي أغلق باب النجاة بيديه ...

مواقف تجاه المسيح

« مِنْ هٰذَا ٱلْوَقْتِ رَجَعَ كَثِيرُونَ مِنْ تَلَامِيذِهِ إِلَى ٱلْوَرَاءِ وَلَمْ يَعُودُوا يَمْشُونَ مَعَهُ. فَقَالَ يَسُوعُ لِلِاثْنَيْ عَشَرَ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً تُرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا. فَأَجَابَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَارَبُّ إِلَى مَنْ نَذْهَبُ. وكَلَامُ ٱلْحَيٰوةِ ٱلْأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ. وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا وَعَرَفْنَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ٱبْنُ اللهِ الْحَيِّ. أَجَابَهُمْ يَسُوعُ أَلَيْسَ إِنِّي أَنَا اخْتَرْتُكُمْ الِاثْنَيْ عَشَرَ وَوَاحِدٌ مِنْكُمْ شَيْطَانٌ. قَالَ عَنْ يَهُوذَا سِمْعَانَ الْأَسْخَرْيُوطِيِّ. لِأَنَّ هٰذَا كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يُسَلِّمَهُ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْ الِاثْنَيْ عَشَرَ ».

(يوحنا ٦ : ٦٦ — ٧١)

هذه الفقرة تصطبغ بصبغة المأساة المرة، لأنها تحمل في حناياها بداية النهاية.

لقد جاء وقت كان يبدو فيه، وكأن الجموع كلها قد التفت حول يسوع ، لاتريد عنه بديلا .

فحينما كان فى أورشليم فى عيد الفصح نقـــرأ عن كثيرين أنهم رأوا معجزاته ، فآمنوا به (يوحنا ٢ : ٢٣) ، وهكذا تزايد عدد المعتمـدين على أيدى تلاميذه ، زيادة سببت القلق للكثيرين (٤ :١ — ٣) . وفى السامرة ظهرت ثمار عظيمة لخدمته القصيرة هناك (٤ : ١ — ٣٩ ، ٤٥) . وفى الجليل تجمهرت الجموع حوله ، قبل أحداث تلك الفرصـة بيوم واحد (٦ : ٢) . والآن ها قد تغيرت نغمة الأحداث . من ذلك الوقت فصاعدا ، سوف تتزايد العداوة، وتتصاعد حتى تصل إلىذروتها فى الصليب .

هنا يفتح البشير أمامنا النافذة ، لنطل على بداية طريق المتاعب والآلام. هنا يكشف لنا بداية للأساة . هناك ظروف تـكشف بالحقيقة معدن الإنسان ، وتظهر جوهره ، مثل الظروف التى تعرض لها الفقرة التى امامنا . وهنا تتمثل أمامنا مواقف ثلاثة تجاه يسوع :

١ — فهناك موقف الارتداد العلنى . وهذا يتمثل فى أولئـك الذين ارتدوا عنه ، ولم يعودوا يمشون بعد معه . لقد التفوا حوله فى يوم من الأيام والآن ها هم يتفرقون بعيدا ، الواحد بعد الآخر . البعض منهم يسمون أنفسهم بالمعتدلين غير المندفعين ، الذين يتمتعون ببعد النظر . لقد رأوا إلى أين يتجه إلى مقاومة السلطات ، وكيف بالإنسان أن يقف فى وجه القوة الحـاكمة؟ وكيف به يقاوم من بيده السلطان ؟ لقد رأوا سفينته تندفع نحو الصخور ، وتهددها الأخطار وهكذا تخلوا عنها ، وهجروها فى الوقت المناسب . انهم لايحبون ان يقاوموا التيار . . . لا مقدرة لهم للوقوف فى وجه العـاصفة . والبعض الآخر أصابهم التعب والإرهاق فى منتصف الطريق . لقد جاهدوا

وقاوموا طيلة تلك المدة ، وساروا نصف الشوط فى الطريق القاسى ، وها قد بدأت عزائمهم تتراخى. يقولون ان أروع اختبار يثبت صدق عزيمة الجندى ومرانه ، هو مقدرته على الحرب، حينما يكون مرهقا متعبا . لقد سار أولئك مع يسوع طالما كان صاعدا إلى القمة . وها قد بدأ أمامهم الوادى الرهيب ، وشبح الصليب يسودعليه . فما لهم والمتاعب والآلام والدماء والعار ؟!

وهناك فريق آخر نعثر وارتد ، لأن أصحابه تمردوا على سلطان يسوع . ونستطيع أن نسمى أولئك جماعة النفعيين . لقد أتوا إليه ليأخذوا منه ، فحينما أتى دورهم ليبذلوا شيئا من أجله ، ويتألموا فى سبيله ، تقاعسوا وارتدوا . حينما كان يرتدى ثياب المجد ، ووجه يشع بالنور ، استهواهم لمعانه، وساروا وراءه . ولما بدأ الطريق يلتوى ، ويتعثر تعثروا معه وسقطوا . لقد نظروا للتلمذة بنظرتهم النفعية فرأوا فيها سلماً يوصلهم إلى المجد ، فلما قصرت عن هذا الهدف لم يكن من هناك دافع يدفعهم إلى الالتصاق بها . انهم أنانيون لا يردون أن يضحوا بشيء .

لا يوجد واحد يهب ويبذل ، دون تحفظ ، قدر يسوع . ولكن الحقيقة تبقى ، أننا ان أتينا إليه لنأخذ ولا نعطى شيئا فنهايتنا ستكون نهاية أولئك الذين ارتدوا عنه ، ولم يعودوا يمشون معه . إن الذى يريد أن يتبع يسوع عليه أن يعرف أن هناك على الدوام صليبا ينتظره . . .

٢ — وهناك موقف الانحلال الخفى. وفى يهوذا نستطيع أن نرى صورة قوية لهذه الفئة التى ينتظر منها الكثير . ولكن الفساد يدب فى الداخل . لقد اختار يسوع يهوذا ضمن التلاميذ . ولقد اختاره ولاشك ، لأنه رأى فيه المواهب التى تبشر بالخير . ولكن يهوذا الذى كان ممكنا أن يصبح ضمن أبطال المسيحية ، قد قام بدور الخائن ، والأسم الذى كان ممكنا أن تحيطه هالة من نور ، قد أصبح مرادفاً للخزى والعار .

هناك قصة رهيبة ، لعلها حقيقية تروى عن واحد من مشاهير الرسامين ، كان يقوم برسم صورة عن العشاء الأخير . وأراد أن يبذل فيها كل جهده ، فاستغرقت منه سنين طويلة . وقبل الكل أراد أن يبدأ بصورة المسيح ، فابتدأ يبحث فى كل مكان عله يجد وجها يصلح لهذا الغرض . وأخيرا عثر على ضالته فى صورة شاب ، ذى جمال فائق ، ووجه ملائكى ، وملامح سماوية فنقل عنه صورة المسيح . وشيئاً فشيئا ابتدأت الوجوه الأخرى تحتل اماكنها فى الصورة حتى أتى اليوم الذى لم يبق فيه إلا صورة يهوذا الاسخريوطى ، التى أبقاها الرسام إلى النهاية . وابتدأ الرسام يجوب الحانات ، والأزقة ، وبيوت الفساد علّه يجد من يصلح ليقوم بدور الخائن ، حتى وجد فى نهاية الأمر إنساناً رسم الشيطان على وجهه كل ملامح الشر والخبث والعار . شعره الأغبر المشعث يدل على انطفاء زهرة شبابه ، وجنتاه المحتقنتان من الخمر تتحدثان عن أقسى ليالى العار ، عيناه الحمراوان ، يطل منهما لهيب الجحيم ، كيانه المزيل المهتز ، يحترق بنيران الأبدية الرهيبة . واصطحبه الرسام على الفور إلى مرسمه ، وابتدأ ينقل عن وجهه صورة الخائن . وبعد أن انتهت الجلسات المحددة ، قال الرجل للرسام « لعلك لا تذكر أننا التقينا قبل ذلك » . وأجاب الرسام « إننى لا أذكر متى كان ذلك » ــ « منذ مدة طويلة جئت إلى هنا وجلست فى نفس المكان ، ونقلت عنى صورة المسيح » ! .

لقد دب الانحلال فى قلب ذلك الإنسان ، واستطاعت الخطية أن تمسك صورة البر والطهارة فى أعماقه ، حتى انتهت به أخيراً إلى الحالة المرة التى وصل إليها . حذار من الاستسلام للخطايا الخفية . إنها السرطان الذى يدب فى كيان الإنسان الأدبى فيحطم مُثُله ، ويهدم أحلامه ، ويقتل كل جوهر طيب فيه . انها تجعلنا أقزاماً ، بعد أن بدأنا بداية العمالقة ، تجذبنا إلى الحضيض ، بعد أن ارتفعنا إلى القمة ، تجمد قلوبنا وعواطفنا من نحو المسيح ، وتشوه

كل جمال روحى فينا . الرب يحمينا من هذا المصير القاسى .

٣ — وهناك من يتخذون موقف العزم الحقيقى . . يارب إلى من نذهب؟ ما أشبه هذا القول باعتراف بطرس فى قيصرية فيلبس الذى أوردته البشائر الثلاث الأولى فى (مرقس ٨ : ٢٧ ، متى ١٦ : ١٣ ، لوقا ٩ : ١٨) : « أنت هو المسيح ابن الله الحى » . لقد كان موقفاً مشابهاً لهذا الذى استدعى إخلاص بطرس وإيمانه واعترافه . وهو هنا يقول إلى أين نتجه ، وأين نجد كلام الحياة إلا لديك أنت ؟ على أننا ينبغى أن نلاحظ أن اخلاص بطرس لسيده مبنى على صلته الاختبارية به ، ولاشىء غير هذا ، فهناك أمور كثيرة لم يستطع ذهنه أن يستوعبها . لقد كان فى حيرة من أمره نظير سواه ، ولكن كان هناك شىء فى يسوع يدفعه إلى الالتصاق به .

إننا مهما أرهقنا نفوسنا بالبحث ، فإننا سنجد فى نهاية الأمر أن المسيحية ليست فلسفة نقبلها ، ولا هى نظرية نصنمها ، ونستنتجها فنسلم بصحتها ، ولا هى أفكار منطقية ، وعقائد عقلية يسلم بصحتها العقل . انها استجابة ذاتية تلقائية للمسيح . انها جواب القلب لجاذبية السيد . انها روح الإخلاص والمحبة التى تفيض فى قلب الإنسان ، لأنه لاسبيل آخر سوى هذا . .

الاصحاح السابع

ليس وقت الأنسان، ولكن ساعة الله

« وكانَ يسوع يتردد بعدَ هذا في الجليلِ . لأنهُ لم يُرِدْ أن يتردد في اليهودية لأنَّ اليهودَ كانوا يطلبونَ أن يقتلوه

وكانَ عيدُ اليهودِ عيدُ المظالِّ قريباً . فقالَ لهُ إخوتهُ انتقلْ من هنا واذهبْ إلى اليهوديةِ لكيْ يرى تلاميذكَ أيضاً أعمالكَ التي تعملُ . لأنهُ ليسَ أحدٌ يعملُ شيئاً في الخفاءِ وهو يريدُ أنْ يكونَ علانيةً . إنْ كنتَ تعملُ هذهِ الأشياءَ فأظهرْ نفسكَ للعالمِ . لأنَّ إخوتهُ أيضاً لم يكونوا يؤمنونَ بهِ . فقالَ لهمْ يسوعُ إنَّ وقتي لمْ يحضرْ بعدُ . وأمَّا وقتكمْ ففي كلِّ حينٍ حاضرٌ . لا يقدرُ العالمُ أنْ يبغضكمْ ولكنهُ يبغضني أنا لأني أشهدُ عليهِ أنَّ أعمالهُ شريرةٌ . اصعدوا أنتمْ إلى هذا العيدِ . أنا لستُ أصعدُ بعدُ إلى هذا العيدِ لأنَّ وقتي لمْ يكملْ بعدُ . قالَ لهمْ هذا ومكثَ في الجليلِ » .

(يوحنا ٧ : ١ — ٩)

يقع عيد المظال فى أواخر شهر سبتمبر ، وأوائل شهر أكتوبر .

ولقد كان هذا العيد أحد الأعياد التى يلتزم كل يهودى ذكر بالغ ،

يعيش فى دائرة عشرين ميلا من أورشليم ، أن يحضر مراسيمها . ولكن الكثيرين من اليهود الأتقياء مع أنهم كانوا يعيشون بعيداً عن تلك الحدود الناموسية ، كان يلذ لهم ان يحجّوا إلى المدينة المقدسة فى هذه المناسبة . وكانت فترة العيد تستغرق أياماً ثمانية . وسوف نعرض لهذا بشىء من الايضاح فى نهاية هذا التأمل .

وفى فرصة مثل هذه ألحّ أخوة يسوع عليه ، أن يحضر مراسيم العيد فى أورشليم ، مسافراً معهم ، ولكن يسوع انتظر حتى صعدوا ثم صعد هو بمفرده .

وفى هذه الفقرة نلاحظ شيئاً فريداً . . فى العدد السابع يتحدث يسوع قائلا ان ساعته لم تأت بعد . ومع ان يسوع قد تحدث مراراً وتكراراً عن ساعته ووقته ، إلا أنه فى هذه الفقرة يستخدم كلمة مغايرة للكلمات الأخرى ، لا يستخدمها إلا فى هذه المرة فقط . فى الفرص الأخرى ، (يوحنا ٢ : ٤ ، ٧ : ٣٠ ، ٨ : ٢٠ ، ١٢ : ٢٧) يستخدم السيد كلمة « أورا[١] » التى تعنى ساعة الله المحدودة المحتومة . هذه الساعة ثابتة لا سبيل إلى تغيرها ، حاسمة لا مناص من الوقوع تحتها ، مُلْزِمة ينبغى أن نقبلها كما هى ، بلا مناقشة أو جدال ، لأنها الساعة التى حدد فيها حكمة الله ، وخطة الله ، وقوع أمر من الأمور فى برنامجها .

ولكن الكلمة التى يستخدمها الرب هنا ليست كلمة « أورا » . انها كلمة « كيروس »[٢] التى تعنى فرصة مناسبة . إنها تعنى أفضل موعد يناسب عمل أمر ما . انها تعنى اللحظة التى تناسب فيها الظروف القيام بمثل هذا العمل . انها تعنى اللحظة التى تتفتح فيها نفس الإنسان، لقبول هذا العمل. انها

---

(١) Hora (٢) Kairos

تعنى اللحظة التى ينبغى ان يغتنمها الإنسان لئلا تذهب ولا تعود . ان يسوع لا يقصد بقوله هذا ان ساعة الله المحددة لم تأت بعد ، انه يقصد معنى عادياً . . . انه يقول ان هذه الساعة لن تعطيه الفرصة التى كان ينتظرها ، وهذا يشرح لنا السبب الذى دفع يسوع إلى الذهاب بعد ذلك . ان الكثيرين قد حيرتهم حقيقة قول يسوع لإخوته انه لن يصعد إلى العيد ، ثم صعوده بعد ذلك ، مما دفع أحد الفلاسفة المتشككين إلى القول ان يسوع لغرض معين ، نطق بكذبة بريئة . وذهب آخرون إلى القول إن يسوع قصد أنه لن يذهب علانية ، ولكن هذا لا يعفيه من الذهاب سراً . ولكننا فى نور الأصل اليونانى نستطيع ان نرى ان يسوع كان يقصد ان يقول لهم : « إذا ذهبت الآن معكم ، فانى أرى ان هذا الوقت غير ملائم بالمرة . اصعدوا أنتم ، ولكنى لن أصعد معكم » . . وهكذا أجّل رحيله إلى منتصف فرصة العيد ، حتى يتكامل عدد المعيدّين ، وتكون الفرحة أوسع مما فى البداية — هنا نرى يسوع يختار وقته الخاص بكل حكمة ودقة حتى يصل إلى أقصى ما يريد من نتائج مباركة .

من هذه الفقرة نتلقن أمرين :

الأول : نتعلم قبل كل شىء ، اننا لن نستطيع ان نرغم يسوع على عمل ما . لقد حاول إخوة الرب ، أن يرغموه على الذهاب معهم إلى أورشليم وكان فى محاولتهم الكثير من الجرأة والتحدى . وقد يكونون على صواب من وجهة النظر البشرية . فحتى الآن كانت دائرة الجليل ، هى مسرح خدمة السيد ، وهناك قام بمعجزاته العظيمة . ففى عرس قانا الجليل ، قام بتحويل الماء إلى خمر (يوحنا ٢ : ١ — إلى النهاية) . هناك شفى ابن خادم الملك (يوحنا ٤ : ٤٦) وهناك أشبع الخمسة آلاف من الخبز المعجزى (يوحنا ٦ : ١ — إلى

النهاية) ، والمعجزة الواحدة التى قام بها فى أورشليم هى معجزة شفاء المريض الأشل فى رواق بركة بيت حسدا (يوحنا ٥ : ١ — إلى النهاية) . لذلك لم يكن أمراً غريباً من إخوة يسوع ، أن يطلبوا منه أن يذهب إلى أورشليم حتى يرى مريدوه ، ومؤيدوه ، قوته المعجزية الخارقة . أما معجزة شفاء مريض بيت حسدا ، فقد أصبحت عملا موجهاً ضد يسوع ، بدلا من أن يكون مؤيداً له ، لأن شيوخ اليهود استغلوا هذا الحادث فى الدعاية ضده كمن يتحدى الناموس ، ويحاول تغيير عوائد الشعب ، ويدنس قدسيه السبت .

زد على ذلك انه إن كان يسوع يريد أن يكسب شعبية كبرى فلن يتم ذلك بانزوائه فى مكان خفى . ينبغى أن يعمل فى ضوء الشمس .

كما أننا ينبغى ألاّ ننسى ، أن اورشليم كانت المحك الحقيقى لأى خدمة ناجحة ، والمفتاح الأول لكل نغمة تبشيرية شاملة . لقد كان الجليليون ساخنى الدماء ، ملتهبى العواطف ، لذلك كان من السهل اليسير اثارتهم ، وكسب حماسهم ، كما أنهم كانوا ، بصورة عامة ، أميّين ، لا يدركون تفاصيل الناموس مثل سكان أورشليم . فالجليل ليست مقياس التفوق ، ولكن أورشليم هى التى تظهر المعدن الحقيقى للخدمة الناجحة . لقد كان فى إمكان إخوة يسوع أن يدللوا بالبراهين الكثيرة على رجحان رأيهم ، وعمق تفكيرهم ، ولكن يسوع احتفظ لنفسه بفكره الخاص ، ووقته الخاص . ولن يفرض عليه مخلوق أى طريق آخر . انه سوف يعمل لا فى وقت الناس بل حينما تدق ساعة الله . إن عجلتنا وتسرعنا ، ينبغى عليهما أن ينحنيا أمام موعد الله ، ووقت الله .

الثانى : ان يسوع لا يمكن أن يمر فى دائرة حياتنا مروو الكرام ، أو بمعنى

آخر أننا لا يمكن أن نتنصل عن مسئوليتنا تجاه يسوع ، ولا يمكن أن يكون ظهور يسوع فى حياتنا بلا معنى . . .

لقد ذهب إخوة يسوع إلى أورشليم فى بداية العيد ، ولكنهم لو ظهروا فى أورشليم ، قبل هذا الموعد ، أو بعده ، فماذا يهم ؟ من يحس بوجودهم ، أو يقلق لتغيبهم ؟ وما هى النتائج المباركة ، أو غير المباركة ، التى تنجم عن هذا الموقف أو ذاك ؟ ولكن الأمر بالنسبة ليسوع يختلف كل الاختلاف . لماذا ؟ لأن إخوة يسوع هم جزء لا يتجزأ من هذا الوجود المادى ، عواطفهم ومشاعرهم مع العالم ، أنغامهم وقلوبهم ، تتجاوب مع العالم ، لذلك لن يصطدم العالم بهم ، ولن يصطدموا هم به . ولكن يسوع يدخل إلى العالم بقوة دافعة مضادة . إن وجوده يدين طرقنا ، وحياتنا ، ومُثُلنا وكل شىء فينا . إنه يتحدى أنانيتنا ، وجمودنا . لقد كان على يسوع ان يختار وقته الخاص ، لأن دخوله إلى دائرة الحياة يعنى حدوث أشياء ، وأشياء .

تفاعلات الجماهير

« ولَمَّا كانَ إِخْوَتُهُ قَدْ صَعِدُوا حِينَئِذٍ صَعِدَ هُوَ أَيضاً إِلَى الْعِيدِ لا ظَاهِراً بَلْ كأَنَّهُ فِي الْخَفَاء . فَكانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَهُ فِي الْعِيدِ وَيَقُولُونَ أَيْنَ ذَاكَ . وكانَ فِي الْجُمُوعِ مُنَاجَاةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ نَحْوِهِ . بَعْضُهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ صَالِحٌ . وآخَرُونَ يَقُولُونَ لاَ بَلْ يُضِلُّ الشَّعْبَ . ولَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ عَنْهُ جِهَاراً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ » .

(يوحنا ٧ : ١٠–١٣)

وهكذا اختار يسوع فى النهاية وقته ، وصعد إلى أورشليم . وهنا فى هذه الفقرة نرى تفاعلات الجموع ، تجاه يسوع — نلاحظ فى هذا الاصحاح أهم ما يحويه مواقف بعض الفئات تجاه يسوع . وهذا نلمحه فى أكثر من موضع من فصوله . . .

١ — فهناك موقف الاخوة الساخرين (اعداد ١ — ٥) . لقد كان موقفاً اشبه ما يكون بالسخرية الممتزجة بالاحتقار ، التى تريد أن تتسلى بشىء ما . فحينما كانوا يطلبون منه أن يرافقهم إلى أورشليم ، كانوا — على حد التعبير — يريدون أن يدفعوه إلى مأزق حرج . فهم ما كانوا يؤمنون به ، بل كان كل همهم من دفعه إلى أورشليم ، إظهار ضعفه وعجزه ، حسب ظنهم ، أمام الكهنوت ، ورؤساء الشعب . ونحن كثيراً ما نلتقى بمثل هذه المواقف . يقول أحد الكهنة[1] فى كتاب له بعنوان « يوميات قسيس القرية » ان الأغنياء فى أبروشيته اعتادوا أن يدعوه لمآدبهم الكبرى ، وفى فرصة تناول الطعام ، كان المضيف يتقدم بأسئلته له ، لا لينال جواباً عليها ، ولكن بروح السخرية ، حتى يسلى ضيوفه ، ويكسب رضاهم ، وكأنى به يعرض أمامهم ، ألعاب قرد متمرن . إن كثيرين يسخرون من الدين ، ومن المتدينين ، غير عالمين أن الدين مسألة حياة أو موت بالنسبة للانسان . .

٢ — وهناك موقف الأعداء السافرين ، وهذا موقف رؤساء الكهنة ، والفريسيين . (اعداد ٧ — ١٩) ، ومع أن هؤلاء وأولئك ، لم يكونوا على اتفاق فيما بينهم ، إلا أنهم اتفقوا فى روح العداء من نحو يسوع ، كل بطريقه الخاص . أما الفريسيون فقد أبغضوا يسوع ، لأنه كان يحتقر جمودهم ،

---

(١) George Bernanos

وتمسكهم بالحرف ، ونواميسهم الجوفاء. فإن كان هو على صواب فهم ولا شك على خطأ . ولقد كانوا يحبّون نواميسهم ويتمسكون بهـا ، أكثر من محبتهم لله ، وتمسكهم بوصاياه . لا يهم ما يوصى به الله ، إن كان هذا يتعارض مع تقاليدهم .

أما الصدوقيون فقد كانوا حزباً سياسياً ، أكثر منه فئة دينية . وما كانوا يتمسكون بتقاليد الفريسيين ، وخاصة بعقيدة القيامة من الأموات . وكان معظم الـكهنة من الصدوقيين من الممالئين للمستعمر الرومـانى ، وما كان يهمهم الشعبُ طالما كانت جيوبهم منتفخة ، وبطونهم ممتلئة . ولقد كان ذلك العصر بحق ، عصرهم الذهبى . أما عن المسيا ، أو مجيئه ، فماذا يهمهم ذلك ؟ بل إنه من الأفضل لهم ألاّ يأتى المسيا على الإطلاق . لأن مجىء المسيا معناه نهاية دولتهم ،وسطوتهم ، وثرائهم ، ونفوذهم فى الشعب . ولقد أبغضوا يسوع لأنه وجه النقد إلى تقاليدهم ، واتجه إلى تطهير الهيكل من تجارتهم ومنافساتهم ، التى كانت أعز لديهم من كرامة الهيكل ، ورب الهيكل .ونحن ؟ كيف الحال بالنسبة إلينا ؟ ألا نفضل مصالحنا وأمورنا ، على عمل الله ؟

٣ — وهكذا اتفقت الطائفتان على أنه لا سبيل إلا إزاحة يسوع من الطريق (اعداد ٣٠ — ٣٢) . حينما تتعارض مُثُـل إنسان مع مُثُـل المسيح السامية ، فإما أن يخضع الإنسان ويسلّـم ، أو يقاوم المسيح ، ويتمرد عليه . إن الإنسان حينما يصطدم بالمسيح فإنه يقف فى مفترق الطرق . فهو يستطيع أن يسير فى طريق هواه ، أو يسير فى الطريق الضيق ، طريق التضحية والتسليم للمسيح . فإذا اختار طريقه الخاص ، ورفض طريق المسيح ، فهو لا بد وأن يقاوم هذا الطريق .

٤ — ولقد كان هناك أيضاً المتعالون ، المتعجرفون . (الأعداد ١٥ ، ٤٧ — ٤٩). ترى من يكون يسوع هـذا ؟ ابن من هو ؟ فى أى مدرسـة من مدارس اللاهوت تلقى علومه ؟ وعلى يد مَنْ تتلمذ ؟ وعند رجلى مَنْ من معلمى الناموس ، تلقن التعليم ؟ حتى المدارس الأولية لم يلتحق بها ، فكم بالحرى مدارس الربانيين وكبار الناموسيين ؟ إنه لا يعرف حتى مبادىء القراءة . هل يمكن أن إنساناً متعلماً يصغى لتعاليمه ؟هنا نجد تفاعل أهل المعارف الأكاديمية بالنسبة للمسيح .

ومع ذلك ، نقول جسدياً ، ان التعليم المدرسى لا يخلق العباقرة . وكم من كثيرين من كبار الـكتاب ، والشعراء ، والعلماء لم يعرفوا الطـريق إلى المدارس . ولا نقول هذا لنقلل من قيمة العلم ، والثقافة ، ولـكن لنحترس من أن نحتقر إنساناً ما لأنه لم يرتدِ يوماً الروب الجامعى ، ولم يمسك فى يمينه الوريقة المسماة بالشهادة العلمية ، فقد تـكون له رسـالته المعطاة من السماء للبشر .

٥ — ونرى فى هذا الاصحاح أيضاً تفاعلات جماهير المعجبين . وتفاعل الجماهير — كما يبدو فى هذا الاصحاح — له جانبان :

أما الجانب الأول فهو مظهر الاهتمام (عدد ١١) . ان الشىء الوحيد الذى يبدو مستحيلا بالنسبة لنا ، حينما يغزو يسوع دائرة الحياة ، هو عدم الاهتمام . طالما بقى يسوع شخصية تاريخية مدونة فى كتاب ، نستطيع أن ننظر إليه نظرة عدم الاكتراث ، ولـكنه حينما يصطدم كائناً حياً جباراً بنا ، ويدخل دائرة حياتنا ، حينذاك لا مفر لنا من أن نجابهه ، ونحدد موقفنا منه .. إنه يصبح مركز حياتنا ، ووجودنا ، وكل شىء لنا .

الجانب الثانى : الحديث عن يسوع (اعداد ١٢ — ٤٣) ، لقد تحدثت

الجماهير عن يسوع . . حدثت مجادلات بين أفرادها بسببه .

لقد تحدثوا فيما بينهم عن يسوع ، وأدلوا بآرائهم عن يسوع ، وحدثت مشادات فيما بينهم عن يسوع . هنا الفائدة ، وهنا أيضاً الخطر . أما الفائدة فهى أننا لن نستطيع أن نبلور أفكارنا عن المسيح إلا بتفاعلها مع أفكار الآخرين . فالفكر يشحذ الفكر ، كما يشحذ الحديد الحديد . أما الخطر فهو أن تصبح الديانة مسألة نقاش ، وجدال ، وأحاديث تدور ، ومواضيع تثار يتحدث عنها المتحدثون ، ويتبارى فيها المتكلمون ، ولكنها لا تمس جوهر الحياة . هناك فارق عظيم بين أن يصبح الإنسان رجل منبر متمرساً يتحدث عن أى موضوع لاهوتى ، ويسحر الجماهير ببيانه ، وبين أن يكون متديناً حقيقياً ، استطاعت الديانة أن ترسب إلى أعماق قلبه ، وتجدد حياته ، بدلا من أن تطفح على شفتيه . وهكذا انتقل من دائرة الحديث عن يسوع إلى دائرة معرفة يسوع ، ومن مستوى الجدال عن المسيح ، إلى مستوى حياة المسيح .

أحكامٌ عن يسوع (تابع)

(يوحنا ٧ : ١٠ — ١٣)

فى هذا الاصحاح أيضاً، نرى سلسلة من القرارات والأحكام التى تقدمت بها الجموع ، عن يسوع . . .

١ — فهناك قرار البعض بأنه إنسان صالح . (عدد ١٢) . وهذا القرار حق ، ولكنه ليس كل الحق . يُروى عن نابليون أنه قال يوما عن يسوع : « أنا أعرف الكثير عن طباع البشر ، ولكن يسوع المسيح اسمى من أن يكون إنساناً » . لقد لبس يسوع جسم بشريتنا ، ومع ذلك هو اسمى من أن يكون

إنساناً صالحاً فحسب . إن فيه فكر الله ، بل انه هو العقل الإلهي المتجسد . فحينما يتحدث إلى الناس ، فهو ليس واحدا منهم. وهكذا لا يحق لنا أن نناقش أوامره ونواهيه . انه حينما يتحدث ، فهو الله يتحدث إلى البشر . وما علينا الا أن نقبل كلام الله، ونطيع وصايا الله .

٢ — وهناك حكم البعض الآخر عليه بأنه نبي . (عدد ٤٠) . وهذا أيضاً حق . فالنبي هو الذى يُعلن للبشر نبوات الله ... هو الذى عاش أقرب الكل إلى ذات الله ، وهكذا عرف فكر الله ، وقصد الله . وهذا حق بالنسبة ليسوع. ولكن هناك فارقاً. فالنبي يقول :هكذا يقول الرب. إن سلطته سلطة مستمدة من سواه . إن رسالته معطاة من غيره ، وليست من ذاته . أما يسوع فاننا نستمع إليه قائلا : «قد سمعتم ... أما أنا فأقول لكم» . . « الحق الحق أقول لكم » . إن له الحق أن يتحدث من ذاته بسلطانه الخاص ، لأنه أهيه" الذى أهيه" .

٣ — وحكم عليه آخرون بأنه مجنون به شيطان . (عدد ٢٠) وبحسب نظرة العالم نقول بأن يسوع اما أن يكون الشخص الأوحد العاقل فى هذا الوجود أو أن يكون مجنوناً ، به شيطان .

لقد اختار صليباً فى الوقت الذى كان ممكناً أن يلبس التاج . لقد رضى بمركز الخادم المتألم ، ورفض مقام الملك المعظم . لقد ركع أمام تلاميذه يغسل أقدامهم ، فى الوقت الذى كان العالم كله على استعداد أن يركع عند قدميه ، لو أظهر مجده الالهى للجميع . بل أن تعاليم يسوع ، فى موازين العالم ، لا تقدم لنا المنطقى المعقول، بل تصطبغ بصبغة اللامعقول . فماذا يعنى أن يحول الإنسان خدّه الأيسر ، لمن يضربه على اليمين ؟ وما معنى أن يبارك لاعنيه ، ويحسن إلى مبغضيه ؟ لقد قلب يسوع مقاييس العالم رأساً على عقب ، لأن العالم بالطبيعة مقلوب المقاييس . لقد أتى إلى عالم أحمق مجنون ، ليجلب إليه فكر الله ، وحكمة الله .

٤ — وقال البعض انه مضلّ . (عدد ١٢) . لقد رأت فيه السلطات اليهودية مضلاً يحوّل قلوب الناس عن الديانة الحقيقية . لقد اتّهم شيوخ اليهود يسوع بكل التهم ضد الديانة الناموسية . فهو متهم بكسر السبت ، وهو أكول وشريب خمر ، وهو محب للعشّارين والخطاة ، وهو كاسر لبنود الناموس . وأننا نقول ، بأننا لو وقفنا فى موضع أولئك اليهود ، وعشنا فى وقتهم ، فربما كنا نتفق معهم فى الرأى . ولماذا نرجع بعيدا ؟ ألا نفضّل دياناتنا ، وتقاليدنا ، وأنظمتنا ، لو تعارضت مع حق يسوع ؟ وهل توجد طائفة على استعداد أن تعترف بخطئها ، لو اصطدمت بحق المسيح ، وتعارضت معه ؟

٥ — وقيل عنه أيضاً انه يتكلم جهارا ، فهو إنسان شجاع (عدد ٢٦). إن الأمر الوحيد الذى لم ينكره انسان عليه ، هو شجاعته ، وجرأته النادرة. لقد كانت له الشجاعة الأدبية ليتحدى الجمود والأنانية والتقاليد الباطلة ، ويقف علماً مفرداً ، وسط الجميع لقد كانت له الشجاعة النادرة ، ليتحمل الهزء ، والعار ، والألم فى جسده . لقد كانت له الشجاعة ليسير فى الطريق بمفرده ، فى الوقت الذى هجره فيه أصدقاؤه ، وأحباؤه ، وأقرباؤه ، وحتى تلاميذه . واحد منهم خانه، وآخر أنكره ، والبقية تركوه وهربوا . لقد كانت له الشجاعة ليثبت وجهه لينطلق إلى أورشليم ، وهو يعلم أنه لن ينتظره هناك إلا العار ، والألم ، والصليب . لقد كان يخاف الله ، فلم يخش وجه إنسان .

٦ — وقال آخرون ان شخصيته قوية ساحقة (عدد ٤٦). لقد حكم عليه هذا الحكم جنود الهيكل ، الذين أرسلهم الكهنة ليلقوا عليه الأيادى ، فعادوا يقولون : لم يتكلم قط إنسان بمثل هذا الكلام . يحدثنا أحدهم انه كان مسافراً على ظهر سفينة يستقلها «سير ولفريد جرنفيل» وانه حينما كان يدخل غرفة من

الغرف ، كان كل من فيها يهب على قـدميه حتى ولو كان مديراً ظهره له ، وكأنما قوة كانت تصدر عنه ، وتطغى على المكان . إننا حينما نتأمل كيف استطاع ذلك المعلم الجليلي البسيط أن يواجه سلطة الـكهنوت ، تؤيدها قوة النار والحديد ، وأن يضع أصحابها فى موضع الاتهام ، نستطيع أن نقول ـ جسدياً ـ ان يسوع أعظم شخصية ظهرت فى التاريخ . ان صورة مسيح طيب ، وديع ، لا تلقى كل الضوء على جوانب شخصيته الفريدة الفذة . لقد كانت تصدر منه قوة عجيبة تجعل أولئك الجنود المسلحين ، يخشعون أمامه ، ويتراجعون ، فى هذه الفرصة ، كما فى فرصة القبض عليه فى البستان .

٧ — وهناك من أكدّوا أنه ليس سوى مسيح الله المرسل المسوح من الله . وهذا هو الحق . إن يسوع لا يمكن أن يوضع ضمن قوائم البشر . إن تعاليمه ، وشخصيته ، وتأثيره ، وأعماله ، ترفعه فوق مستوى الإنسان . ولا سبيل أمامنا إلا أن نقر مع بطرس : أنت المسيح ابن الله الحى . .

وقبل أن ننتهى من هذه الدراسة الخاطفة الشاملة لمحتويات الاصحاح السابع ، وندخل فى تفاصيله فقرة بعد أخرى ، يجمل بنا أن نلخص بوجه عام ، تفاعلات الجماهير ، ومواقفها تجاه يسوع . .

١ — فهناك موقف الخشية والرهبة (عدد ١٣) . لقد تهامسوا عنه ، ولـكنهم لم يصلوا إلى درجة رفع أصواتهم . والكلمة التى يستخدمها البشير هنا ، كلمة صوتية ، أى انها تقـــلد الصوت الذى تدل عليه . . . انها فى اليونانية كلمة « جوجوزموس » ، همهمة ، أو دمدمة ، وقد ترجمت فى ترجمتنا العربية مناجاة . إنها نفس الـكلمة التى أستخدمت للإشارة إلى تذمر الإسرائيليين على موسى فى البرية — تذمر . . . قلق . . . عدم رضى ، لقد كانوا يعضغون الـكلمات ، التى كانوا يخشون أن ينطقوا بها . إن الخوف

قد يُلجم لسان الإنسان ، ويدفعه إلى اجــترار الـكلمات التى يؤمن بحقيقتهـــا . أما المسيحى الحقيقى فإنه لا يخشى أن ينادى بإيمانه على رؤوس الأشهاد .

٢ — وهناك موقف الإيمان الحقيقى (عدد ٣١) . وهذا الموقف يشمل رجالاً ، ونساء ، آمنوا حقاً به ، ولم يستطيعوا أن ينـكروا إيمانهم ، أو يتنـكروا لما رأته أعينهم . لقد رأوا بأعينهم ، وسمعوا بآذانهم ، ولمسوا بأيديهم ، ولن يتنـكروا لما رأوه وسمعوه ولمسوه . لقد اختبروا قوته الفائقة وعرفوا لمسته المغيِّرة ، فآمنوا به . إن كل إنسان مهما كانت عقيدته ، لو عرف كيف يتخلى عن العنصرية ، والأنانية ، والأحقاد الذاتيـــة ، لإنتهى به الأمر إلى الإيمان الحقيق .

٣ — وهناك موقف نيقوديموس.أما نيقوديموس فقد وقف موقف الدفاع من يسوع . (عدد ٥٠) . وأمام أعضاء مجمع السلطات الـكهنوتية ، كان هو الوحيد الذى استطاع أن يرفع صوته ، مدافعاً عن يسوع المسيح . هنا يكمن الواجب على كل واحد منا. اعتاد « إيان ميكلارين » أن يقول لطلبة اللاهوت « قولوا كلمة طيبة عن يسوع المسيح ». إننا نعيش اليوم فى عالم غريب ، عالم انقلبت فيه المعايير . إن روح العداء للمسيحية تسود بقاعاً كثيرة من العالم . ولـكن الأمر الغريب انه لم يكن العـــالم مستعداً للحديث عن المسيح ، وديانة المسيح ، فى وقت من الأوقات ، قدر استعداده الآن . إننـــا نعيش فى عصر يستطيع كل واحد فيه أن يكتشف لقب : حامى الإيمان . إنه الامتياز المبارك الذى قدمه الله إلينا أن نـكون محامين عن يسوع ، فى وجه انتقادات البشر ، وسخرية البشر ، وإلحاد البشر . .

السلطان الأعظم

« ولَمَّا كانَ الْعِيدُ قَدْ انْتَصَفَ صَعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْهَيْكَلِ وكانَ يُعَلِّمُ . فتَعجَّبَ الْيَهودُ قائلينَ كَيْفَ هَذَا يَعرِفُ الْكُتُبَ وهُوَ لَمْ يَتعَلَّمْ . أَجَابَهُمْ يَسُوعُ وقالَ تَعْليمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي . إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعرِفُ التَّعْليمَ هَلْ هُوَ مِنَ اللهِ أَمْ أَتَكَلَّمُ أَنَا مِنْ نَفْسِي . مَنْ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ يَطْلُبُ مَجْدَ نَفْسِهِ . وأَمَّا مَنْ يَطْلُبُ مَجْدَ الَّذِي أَرْسَلَهُ فَهُوَ صَادِقٌ ولَيْسَ فيهِ ظُلْمٌ » .

(يوحنا ٧ : ١٤ ــ ١٨)

يبدو أن كلمات هذه الفقرة ، تشكل إمتداداً مناسبا متقاربا ، مع كلمات السيد فى نهاية الأصحاح الخامس . هناك نقرأ القول : « لو كنتم تصدقون موسى ، لكنتم تصدقوننى ، لأنه هو كتب عنى . إن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك ، فكيف تصدقون كلامى » . (يوحنا ٥ : ٤٧) فإذا تقدمنا لقراءة ما ورد فى الأعداد (١٥ — ٢٤) من الاصحاح السابع ، لوجدنا التقارب واضحاً . اليهود يتساءلون بعد ذلك فيما بينهم « كيف يعرف هذا الكتب ، وهو لم يتعلم » . ويسوع يجيبهم بكلمات تلك الفقرة . . . أو لعل اليهود تساءلوا هكذا فيما بينهم ، حينما شاهدوا يسوع يحتل مركزه أمام المنبر ، ليقدم التعاليم للشعب .

وتقدم شيوخ اليهود بانتقاداتهم بأن يسوع إنسان غير متعلم . وهذه هى

نفس التهمة التى وجهت إلى بطرس ويوحنا ، حينما وقف الاثنان فى موضع الاتهام ، أمام مجلس السنهدريم (أعمال ٤ : ١٣) . ان يسوع لم يدخل مدرسة من مدارس الأحبار . ولقـد جرت العادة ، انه لا يصرح لأنسان بأن يفسر الـكتب ، أو يتحدث عن الناموس ، إلا إذا كان تلميذاً لمعلم معروف ، وقام بدراسة التوراة تحت إرشاد واحد من كبار الأحبار . وما كان واحد يجسر أن يتقدم بتعليم ، أو تفسير ، من عنده ، أو على مسئوليته . فحينما كان يبدأ حديثه ، كان يقول : « هناك تعليم منقول عن الآباء يقول . . . » . وبعـد أن يورد نص التعليم ، كان يذكر المراجع التى يرجع إليها فى كل كلمة ينطق بها . وها هو هذا النجار الجليلى ، الذى لم يتمتع بأدنى قسط من التعليم ، يتجاسر ويقتبس تعاليم موسى ، وأقوال الـكتب ، مفسراً ، وشارحاً ، وواعظاً .

ولقد كان ممكنا أن يثير هذا غضب يسوع ، فيجيبهم بالقول : « إننى لست بحاجة إلى تعليم ، لأن تعليمى هو من ذاتى . لقد نلت حكمتى ، وتعليمى وعقائدى ، ليس من انسان بل من ذاتى . . » . ولـكن يسوع لم يقل شيئا من هذا ، بل فى هدوء أجابهم قائلا . « تسألوننى عمن يكون معلمى . . تسألوننى عن المراجع التى استند إليها فى حديثى ، تسالوننى على أى أساس أفسر الـكتب . وإنى أقول لـكم إن تعليمى وسلطانى ، هو من الله » . ان يسوع لم يقل مرة انه علَّم نفسه بنفسه ، بل على النقيض من ذلك صرح مراراً أنه تلقن كل تعليم من الله : « الـكلام الذى أكلمكم به ، لست أتـكلم به من نفسى » (يوحنا ١٤ : ١٠) . « لأنى لم أتـكلم من نفسى ، لـكن الآب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول وبماذا أتـكلم (يوحنا ١٢ : ٤٩) .

يحدثنا أحد كبار الرسامين ، ويدعى « فرانك سلسبورى » عن خطاب تلقاه من زميل له ، يقدم له التهنئة على صورته الفنية عن قبر الجندى المجهول فى

كنيسة وستمنستر ، ويقول فيه : « تهانى الحارة لك ، لأجل هذا العمل الفنى الرائع الذى قمت به . . . أو الذى ألهمك الله ان تقوم به ». ان كل الانجازات العظيمة التى يقوم بها العقل البشرى ، هى قبل كل شىء ، بإلهام من الله . وكل رجل عظيم له مجاله فى ميدان الفكر ، أو العلم ، أو الاكتشاف ، لا يمكن أن ينسب ما وصل إليه إلى ذكائه ومقدرته ، بل لابد وأن يرجع بالفضل إلى الله .

ويستمر يسوع فى حديثه بعد ذلك ، ليضع الأساس لحق عظيم فى الحياة ، فيقول لاسبيل لمعرفة تعليم الله ، إلا بعمل إرادة الله . هذا ليس مبدأ لاهوتيا ولكنه حق اختبارى انا نتلقن الكثير بالعمل والاختبار . قد يقضى الطبيب سنوات طويلة يدرس فنون الجراحة فى المراجع العلمية . وقد يمتلىء عقله بكافة النظريات الحديثة، ولكن هذا لن يغنيه عن قضاء فترة التمرين الكافية بالمستشفيات . عليه أن يطبق العلم على العمل ويعمل بمبضعه فى الأجساد الحية ، حتى يخرج للحياة العملية ، جراحاً ، متمرساً ، ناجحاً . وقد يقتنى أحد الهواة ، كل الكتب الخاصة بهندسة السيارات . إنه يعرف نظريا كل الأضرار التى يمكن أن يتعرض لها محرك السيارة ، وكل الوسائل التى يمكنه أن يتفادى بها تلك الأضرار . ولكن هذا كله لن يجعله مهندساً ميكانيكيا . عليه أن يقتنى سيارته ويقوم بقيادتها ، ويتعرض للمتاعب ، ويعرف كيف ينتصر عليها . وهكذا الأمر فى الحياة المسيحية . إن كنا نظن أننا بدراستنا للكلمة فقط ، نستطيع أن نصل إلى فكر الله ، نخطىء كل الخطأ . ينبغى أن نخضع ارادتنا لإرادة الله ، ونسعى فى تطبيقها فى حياتنا العملية ، وشيئا فشيئا يتضح حق الله لنا . اننا نتعلم بالعمل . إن قال واحد لن استطيع أن أصبح مسيحياً إلا اذا دخلت مدرسة اللاهوت ، ودرست علم العقائد ، ومقارنة الأديان ، وأدركت كل

صغيرة وكبيرة من أسرار العقيدة المسيحية ، فانه لن يصبح مسيحياً على الاطلاق حتى لو أتيحت له تلك الفرصة . إن جوابنا له : « إنك لن تستطيع أن تفهم أسرار الحياة بالدراسة . لا سبيل لمعرفة المسيحية إلا أن تحيا الحياة المسيحية وعندها سوف تتكشف لك المسيحية شيئاً فشيئاً ، كلما تعمقت فى الاختبار. إن طريق المعرفة فى المسيحية ، كما فى أى مجال آخر ، هو الحياة العاملة المختبرة .

حجج دامغة

« أَلَيْسَ مُوسَى قَدْ أَعْطَاكُمُ النَّامُوسَ . وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَعْمَلُ النَّامُوسَ لِمَاذَا تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي .

أَجَابَ الْجَمْعُ وَقَالُوا بِكَ شَيْطَانٌ . مَنْ يَطْلُبُ أَنْ يَقْتُلَكَ . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ عَمَلاً وَاحِداً عَمِلْتُ فَتَتَعَجَّبُونَ جَمِيعاً . لِهَذَا أَعْطَاكُمْ مُوسَى الْخِتَانَ . لَيْسَ أَنَّهُ مِنْ مُوسَى بَلْ مِنَ الآبَاءِ . فَفِي السَّبْتِ تَخْتِنُونَ الإِنْسَانَ . فَإِنْ كَانَ الإِنْسَانُ يَقْبَلُ الْخِتَانَ فِي السَّبْتِ لِئَلاَّ يُنْقَضَ نَامُوسُ مُوسَى أَفَتَسْخَطُونَ عَلَيَّ لأَنِّي شَفَيْتُ إِنْسَاناً كُلَّهُ فِي السَّبْتِ . لاَ تَحْكُمُوا حَسَبَ الظَّاهِرِ بَلِ احْكُمُوا حُكْماً عَادِلاً » .

(يوحنا ٧ : ١٩ ـ ٢٤)

قبل أن نبدأ فى دراسة هذه الفقرة ، علينا أن نصور لأنفسنا المنظر كله كمحاورة بين يسوع ، وبين شيوخ اليهود ، والجموع تلتف حولهما تقف

حكما بين الاثنين، وتصغى إلى حجج الاثنين. ويسوع يتقدم بحججه مبرراً شفاءه للمريض الأشل فى بركة بيت حسدا، لأن شيوخ اليهود قد اتخذوا من هذا الحادث حجة عليه، لأنه قام بهذا العمل فى يوم السبت، كسرا للوصية. ويبدأ يسوع محاورته معهم قائلا: إن موسى إعطاكم ناموس السبت. ومع ذلك ولا واحد منهم يحفظ هذا الناموس بحذافيره. وسنعرض لما يقصده بهذا القول بعد قليل. فإن كان هو قد كسر الناموس — فى نظرهم ليشفى إنسانا، فلماذا يدينونه، وهم واقعون فى نفس «الخطأ»؟ لماذا يدبرون المؤامرات لقتله؟ وعند هذا الحد يقاطعه الجمهور صارخاً: «أنت مجنون. بك شيطان. ومن الذى يريد أن يقتلك؟». إن الجمهور لم يدرك بعد المداوة الرهيبة المختمرة فى صدور الرؤساء من نحو يسوع. لقد ظن أفراده أن يسوع مصاب بجنون الاضطهاد، وأن فكره مضطرب، وخياله مشوش، فهو فى كل كلمة ثورة ضدة، وفى كل حركة مؤامرة تدبر. انهم يظنون ذلك، لأنهم لا يدركون بواطن الأمور. وفى الحقيقة لم يجب يسوع على اعتراض الجماهير. لقد كان مجرد اعتراض قطع الحديث بينه، وبين شيوخ اليهود.

وهكذا استمر فى حديثه الأساسى مع محاوريه.

واتخذ يسوع أساسا لحديثه ممارسة يهودية معروفة. فقد كان الناموس يحتم، أن يختتن كل ذكر طفل فى اليوم الثامن من ولادته. «اليوم الثامن يختتن لحم غرلته» (لاويين ١٢ : ٣). وأحيانا كان يوافق اليوم الثامن، يوم سبت. وبالرغم من هذا، كانت كل الاستعدادات ترتب ليتم الاختتان فى موعده بلا تأخير. فالتقليد يقول: كل ممارسات الختان يمكن أن تتم فى يوم السبت ... وهذا القول وارد فى المشنة التى هى فهرس الناموس اللاوى، فى أكثر من موضع هناك. وهكذا يقول يسوع لهم .. انكم تنادون بأنكم حفظة الناموس، والأوصياء على بنوده وتعاليمه، وأنكم تسلمتم هذا

الناموس رأسا من موسى ، ومع أن الناموس يقول صريحا ان يوم السبت قدس للرب ، لا تعمل فيه عملا ما ، فأنكم قد أدرجتم ضمن الأعمال التى يمكن القيام بها فى يوم السبت كل الوصايا الصحية والطبية التى هى أبعد من أن تكون جوهرية لازمة لحفظ الحياة أو انقاذها ، والختان واحد من هذه الأمور التى أبحتم القيام بها فى يوم السبت . أما عن هذه الممارسة فهى تضمن أمرين : فهى اتجاه إلى الاهتمام بجزء واحد من أجزاء الجسد ، والجسد (بحسب الفكر اليهودى) ، يضم مئتين وثمانية وأربعين جزءاً وهى بالتالى تشويه للجسد ، لأنها اقتطاع لجزء منه . كيف توجهون اللوم إلىَّ لأننى قمت بتصحيح جسد كامل ، لإنسان عليل ؟ وكيف تعيبون علىَّ لأننى صححت جسد إنسان فى السبت وأنتم تقومون بتشويه جسد الإنسان فى يوم السبت . هذه محاجة قوية رائعة ، وحجج دامغة لا تقبل المقاومة . فان كان الناموس يبيح عملية تشويه الجسد فى يوم السبت ، فهو بالأولى لن يمنع عملية تهدف إلى تصحيح الجسد فى يوم السبت .

وهكذا يختتم يسوع محاجته ناصحاً اليهود بأن يتركوا الأمور السطحية ، ويهتموا بالجوهر ، ويحكموا حكما عادلا . فإذا أطاعوا نصحه ، فلن يكون هنـــاك مجال لانتقاده أو توجيه اللوم إليه . ومع أن نقاشاً مثل هذا ، يدور حول مشكلة نظير هذه ، قد يبدو فى أعيننا نقاشا لاطائل تحته ، إلاأن مثل هذه الأمور كانت جوهرية بالنسبة للعصر الذى عاش فيه المسيح ، كاان حججه هنا تبدو قوية واضحة منطقية ، يلتقى فيها بالأعداء على أرضهم ، ويجابههم من حججهم ، وينتقى الأسلحة التى يوجهها إليهم من بين أيديهم . وهكذا ينتصر عليهم .

دعوى المسيح

« ولمَّا كانَ الْعِيدُ قَدِ انْتَصَفَ صَعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْهَيْكَلِ وكانَ يُعَلِّمُ .

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ أُورُشَلِيمَ أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ . وهَا هُوَ يَتَكَلَّمُ جِهَاراً ولاَ يَقُولُونَ لَهُ شَيْئاً . أَلَعَلَّ الرُّؤَسَاءَ عَرَفُوا يَقِيناً أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ فَمَتَى جَاءَ لاَ يَعْرِفُ أَحَداً مِنْ أَيْنَ هُوَ .

فَنَادَى يَسُوعُ وهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ قَائِلاً تَعْرِفُونَنِي وتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا ومِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ . أَنَا أَعْرِفُهُ لِأَنِّي مِنْهُ وهُوَ أَرْسَلَنِي . فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ . وَلَمْ يُلْقِ أَحَدٌ يداً عَلَيْهِ لِأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْد » .

(يوحنا ٧ : ١٤ ، ٢٥ — ٣٠)

يبدو أننا نفعل حسنا ، لو جعلنا الفقرة التى تحوى الآيات من (١٥ — ٢٤) تأتى بعد العدد السابع والأربعين من أصحاح ٥ — أما مقدمة هذه الفقرة فهى العدد الرابع عشر . ولذلك سنبدأ بهذا العدد ، ثم ننتقل إلى الرابع والعشرين .

لقد دهشت الجماهير حينما شاهدت السيد يعلّم فى أروقة الهيكل . فعلى

جانبي ساحة الأمم ، كان رواقان مكشوفان يفضيان إلى الساحة تحدها الأعمدة المقببة . فى هذين الرواقين ، كانت الجموع تسير إلى الساحات الداخلية ، او تلتف حول معلم يتقدم بتعاليمه . وهناك كان يسوع يعلم ، ولقد كانت الجماهير تعرف عداوة السلطات الكهنوتية له . وهكذا أثارت دهشتهم شجاعة يسوع فى تحدى السلطات ، كما أدهشهم بالتالى ، ان يُسمح له بالمناداة بتعاليمه هناك ، بكل مجاهرة ، وبلا عائق . وبدأ الجميع يتساءلون: «هل هذا بحق هو المسيح المنتظر ؟ وهل بدأت السلطات الدينية تؤمن به ؟ ... ولكن ما ان بدأ هذا الفكر يراودهم ، حتى تبخر أو زال ، فقد سرت الهمسات بينهم . انهم يعرفون من اين أتى يسوع . فها هو بيته فى مدينة الناصرة ، وها هم اخوته وأبواه ، بين ظهرانيهم. أما المسيا ، فانه حين يأتى ، فلن يعرف واحد من أين هو . لقد كانوا يؤمنون بأن المسيا لابد وان يولد فى بيت لحم اليهودية ، ولكنهم كانوا يعتقدون أيضاً بأن المسيا متى جاء ، لن يعرف أحد عنه شيئاً . وهناك قول للأحبار: « أمور ثلاثة تأتى بلا توقع ، ولا مراقبة : المسيا ، والكنز ، والعقرب السام ». فكما يتعثر الإنسان فى كنز خفى فيكون فى ذلك عزه ، وسعده ، وكما يطأ بقدمه عقرباً ، فتكون فى ذلك نهايته ، هكذا يأتى المسيا فجأة ، بلا توقع . ويروى عن « يوستنوس الشهيد » أنه كان يحاور يهوديا عن معتقداته بخصوص المسيا ، فقال له اليهودى : « وحتى لو كان المسيا قد ولد فى مكان ما ، فانه لن يدرى به إنسان ، ولن يعرف هو مقامه السامى ، حتى يأتى ايليا ويمسحه ، ويعلنه للشعب » . لقد كان المعتقد السائد بين اليهود أن المسيا سيظهر فجأة ويخرج للوجود بصورة سرية غامضة ، ولا يعلم إنسان من أين أتى ، أما بالنسبة ليسوع ، فانه لن ينطبق عليه هذا المقياس — فى نظرهم — فلا سرٌ يحيط بمجيئه ، ولا غموض فى أصله .

هذا الاعتقاد كان خاصاً باليهود ، وما زال حتى الآن ـ الاعتقاد بأن الله أعظم من ان يظهر فى الصور البسيطة ... الاعتقاد بأن ظهوره لا بد أن يكون فى صورة معجزية غير عادية . إنهم لا يمكن أن يروا الله فى الأشياء العادية . ولكن تعليم المسيحية هو على النقيض من ذلك . فان كان الله لا يدخل إلى العالم ، إلا من الأبواب الغريبة ، المعجزية ، غير العادية ، فانه قلما يظهر فى العالم ، ولكننا إذا أبصرنا الله ، واكتشفناه فى الأمور البسيطة ، فمعنى هذا أنه موجود على الدوام . إن المسيحية لا تنظر إلى هذا الوجود وكأنه دائرة غريبة عن كيان الله ، يأتى إليه نادراً . ولكنها ترى العالم ممتلئاً بمحضر الله ، لا يفترق عنه خالقه ، ولا يغيب لحظة أو طرفة عين .

وجوابا على اليهود، ومعارضتهم، تقدم يسوع لهم بحقيقتين أساسيتين، كان لهما أثرهما القوى على نفوس السامعين . فهو يقول لهم : « إنكم تقولون بأنكم تعرفون من أنا ، ومن اين أتيت . وهذه حقيقة واقعة ، ولكن هناك حقيقة أخرى انى أتيت أيضاً من عند الله . لقد أتيت من مدينة الناصرة ، وهذا حق ، لكن الحقيقة الأعظم أننى أتيت من الله». ثم عاد يقول لهم : «إنكم لا تعرفون الله ، ولكننى أنا اعرفه حقاً » . ولقد كانت هذه إهانة قاسية لمن يدعون أنفسهم شعب الله المختار ، فكيف بهم لا يعرفون الله ؟ وأى اهانة فى الوجود أقسى من هذه .

ولقد كانت هذه دعوى جبارة نادى بها يسوع . . . دعوى لا يمكن تصديقها . انه هو وحده ، وليس سواه الذى له المعرفة الصحيحة لله ، وانه هو الذى له الصلة الفريدة بذات الله ، وانه هو الوحيد الذى أتى من عند الله ، ومرجعه الى الله ، وانه هو الذى يعرف ذات الله ، كما لا يدركه أحد سواه ...

وهنا نأتى الى واحدة من اللحظات الحاسمة الفاصلة فى حياة يسوع . فحتى تلك الساعة كانت السلطات ترى فيه معلماً ، ثائراً ، ومستهتراً بالتقاليد الموسوية. وقد كانت تكفيه تهمة خطيرة مثل هذه ، ولكن ها تهمة جديدة تضاف الى قائمة اتهاماته ... تهمة لا تقاس بها جريمة كسر يوم السبت .

هذه التهمة الرئيسية هى التجديف . لقد تحدث عن الله ، وعن صلته به بصورة لم يسبق لإنسان أن تحدث بها . ولقد تحدث أيضاً عن شعب الله بطريقة لا يليق لإنسان أن ينطق بها ..

وازاء هذا القول الذى نطق به السيد أمام الجموع ، نجد أنفسنا فى مفترق الطرق ، والاختيار أمامنا . فاما أن نرى فى يسوع مخادعاً نادى بتجاديف لم يسبق لمخلوق أن نادى بها ، وفى هذه الحالة يستوجب مالقيه من عداوة السلطات الدينية التى وصلت به الى الصليب ، أو أن نصدق مانادى به ، ونرى فيه كل الحق ، وهكذا نقبله بالإيمان كالإبن المبارك الوحيد الذى هو فى حضن الآب . ان يسوع يجتذبنا هنا الى مفترق الطرق ، فاما أن نقبله بالكلية ، أو نرفضه بالكلية — ولكل انسان الحق فى الاختيار .

الطلب ، والبحث ، فى الوقت المناسب

« فَآمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ ٱلْجَمْعِ وَقَالُوا أَلَعَلَّ ٱلْمَسِيحَ مَتَى جَاءَ يَعْمَلُ آيَاتٍ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ ٱلَّتِى عَمِلَهَا هٰذَا . سَمِعَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ ٱلْجَمْعَ يَتَنَاجَوْنَ بِهٰذَا مِنْ نَحْوِهِ فَأَرْسَلَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَرُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ خُدَّامًا لِيُمْسِكُوهُ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوع أَنَا مَعَكُمْ

زَمانًا يَسِيرًا بَعْدُ ثُمَّ أَمْضِي إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي . سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي وَحَيْثُ أَكُون أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَأْتُوا . فَقَالَ الْيَهُودُ فِيما بَيْنَهُمْ إِلَى أَيْنَ هٰذَا مُزْمِعٌ أَنْ يَذْهَبَ حَتَّى لاَ نَجِدَهُ نَحْنُ . أَلَعَلَّهُ مُزْمِعٌ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى شَتَاتِ الْيُونَانِيِّينَ . مَا هٰذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَ سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا ».

(يوحنا ٧ : ٣١ـ٣٦)

لقد كان هناك أشخاص ، بين الجموع ، لم يستطيعوا الا أن يقروا بأن يسوع هو مسيح الله الوحيد . لقد آمنوا بأنه لا يمكن لإنسان أن يصنع آيات أعظم من التى يقوم بها . وهذا هو نفس المنطق الذى اتبعه يسوع فى جوابه لتلميذى المعمدان ، حينما أرسل يوحنا اليه ، وهو فى السجن ، متسائلا : أنت هو الآتى ، أم ننتظر آخر، فكان جوابه « أذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان ، وتنظران ، العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يظهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لا يعثر فى » (متى ١١ : ٥ ، ٦).

وحينما لمحت السلطات الدينية ، ان موجة مثل هذه قد بدأت تتماوج فى قلب العاصمة اليهودية ، ثارت ثائرتها ، وأسرعت فى محاولة محمومة ، لتطفىء النار فى مهدها . وأسرع الكهنة يستدعون حرس الهيكل للقبض عليه . وأجاب يسوع الجند ، بأنه معهم زمانا يسيراً بعد ، وسيأتى الوقت الذى فيه يغادر الوجود المادى فيبحثون عنه ، ولا يجدونه . . . سيأتى اليوم الذى فيه

يبحثون عنه، لا لـكي يلقوا عليه الأيادي، بل ليطلبوا النعمة من بين يديه، وهيهات. فالوقت سيكون قد مضى ، والفرصة لا رجوع لها، وحيث يكون هو ، لا مجال أن يصل إلى هناك اصحاب الزور والنفاق .

ولقد قصد يسوع بهذا أنه سيرجع إلى بيت الآب السماوى ، الذى أغاظوه م ، وفضلوا أنفسهم عنه بعنادهم، وتمردهم ، وشر قلوبهم ، ولـكن اليهود لم يدركوا من حديثه شيئا . ولم يفهموا ما يرمى اليه من قوله هذا . وانتهوا إلى التشتت والمهانة . وخلال العصور الطويلة ، كان طريقهم طريق الالم ، والدموع، والتشريد بين شعوب العالم قاطبة . أحيانا كانوا يضطرون — كما فى أوقات السبى — أن يُشتتوا من ديارهم أذلاء سبايا ، وفى أحيان أخرى كانت تضطرهم قسوة الحياة فى ديارهم ، الى المهجرة هنا ، وهناك ، سعيا وراء الرزق ، وأولئك اليهود الذين تشتتوا وسط الأمم ، بعيداً عن فلسطين مهما كانت مواطنهم ، كان يطلق عليهم لقب ، الدياسبورا ، أو يهود الشتات — هذا هو اللقب الذى أطلق عليهم منذ سحيق الأجيال . وهنا فى هذه الفرصة ، حينما تحدث يسوع قائلا ، انهم سيطلبونه ، ولا يجدونه ، وحيث يذهب هو لا يستطيع أحد أن يصل إليه ، تساءلوا فى ما بينهم قائلين : أتراه يزمع أن يغادر فلسطين ، ويعيش بين يهود الشتات ؟ أم لعله سيصبح واحداً من الفلاسفة اليونانيين ، ويقوم بتعليم الأمم ، ثم ينتهى به الأمر إلى أن يصير منهم ؟ ومن الغريب ان ما تفوه به اليهود ، بروح الهزء ، والسخرية ، قد اصبح نبوة واقعة . لقد انطفأ سراج اسرائيل ليضىء بين الأمم ، والمسيا الذى جاء لشعبه ، ورفضته أمته ، صار مسيح العالم أجمع . لقد كان اليهود الساخرون، ينطقون بنبوة لم يستطيعوا ان يدركوا مداها .

وهذا يأتى بنا وجها لوجه ، مع وعد يسوع ، ووعيده .

لقد قال السيد مرة : « اطلبوا تجدوا» (متى ٧ : ٧) ، وهنا نستمع إليه يقول « ستطلبوننى ، ولاتجدوننى » (عدد ٣٤) . وقبل ذلك التاريخ ، بمئات السنين ، تقدم النبى أشعياء ، بهاتين الحقيقتين ، فى نصيحة واحدة هاتفاباليهود، « أطلبوا الرب ما دام يوجد » (اشعيا ٥٥ : ٦) . ان الحقيقة العظمى التى تميز حياتنا القصيرة، هى أن الوقت محدود ، وان الفرصة للقيـــــام بعمل ما ضيقة والمقدرة على تنفيذ هذا العمل محدودة ، فإذا ضاعت الفرصة تضيع للأبد ، وإذا لم نغتنمها فى فجر قوتنا ، فقد لانجد العزم الذى يمكننا من القيام بها فيما بعد .

إن مقدرتنا تتناقص يوما بعد يوم ، وأمواج الأيام تفتت عزيمتنا . والذى نقوم به فى الثلاثين ، لن نتمكن من القيام به فى سن الخمسين . وقوانا الذهنية تتأثر أيضاً بتقدم العمر . والذين يعملون فى ميادين الفكر ، يعلمون تماما ، أن ما كان يقومون به فى سن الثلاثين ، لا مقدرة لهم على القيام به ، وقد وخط الشيب رؤوسهم ، حتى العضلات الخلقية ، تتجمد ، وتتليف بمرور السنين ، فالذى يسمح لعادة من العادات ، أن تسيطر عليه مدة طويلة ، فسيأتى اليوم الذى لا يستطيع أن يحطم فيه قيودها ، مع أن فى إمكانه ذلك ، فى بداية الأمر .

وبنفس المعنى ، يتحدث يسوع هنا لسامعيه . انه يقول لهم : « انكم تسيرون الآن فى طريقكم مسرورين، غير مبالين ، ولكنكم يوما ما ستشعرون بالحاجة إلىَّ . وعندها تستيقظون لأنفســــكم ، وستكون يقظة متأخرة ، ستطلبوننى ولا تجدوننى » . فقد يرفض إنســـان ما ، ان يقبل المخلص ويسير فى طريقه الخاطىء غير عابىء بشىء ، فيصبح الحلو مرا لديه والمر حلواً . وفى النهاية سيكتشف أن التوبة مستحيلة ، والرجوع لله لامكان له فى قلبه — طالما كان فى الأجل فسحة ، وطالما شعرنا بالألم والندم ، على خطيتنا ، وطالما

رأينا المثل الأعلى وكأنه يشير اليناالنسمو إليه ، فالفرصة أمامنا ، والباب ما يزال مفتوحاً . ولكن حذار من أن يتجمد القلب والمشاعر ، ونعتاد على خطايانا ، فلا نرى فيها أى عيب ، ونهمل الصلة بمسيحنا ، فلا نرى فيه أى جمال ، ونتخلى عن إلهنا ، حتى ننسى بان هناك إلهاً، لأن شعورنا بالحاجة حينذاك يموت فى أعماقنا. وإذا لم تكن بنا حاجة للمسيح،فلن نسعى إليه . وإذا لم نسع إليه، فلن نجده . ينبغى أن نحفظ ضمائرنا فى حساسية مرهفة من نحو الخطية ، ومن نحو حاجتنا المستمرة للمخلص .

ينبوع المياه الحية

« وَفِى الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعِيدِ وَقَفَ يَسُوعُ ونَادَى قَائِلاً إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيقْبِلْ إِلَىَّ ويَشْرَبْ . مَنْ آمَنَ بِى كما قال الْكِتَابُ تَجْرِى مِنْ بَطنِهِ أَنْهارُ مَاءٍ حَىٍّ . قَالَ هذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِى كانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مزْمعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ . لِأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِىَ بَعْدُ . لِأَنَّ يَسُوعُ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ . فَكَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ لَمَّا سَمِعُوا هذَا الْكَلاَمَ قَالوا هذَا بِالْحَقِيقَةِ هُوَ النَّبِىُّ . آخَرُونَ قَالُوا أَلعَلَّ الْمَسِيحَ مِنَ الْجَلِيلِ يَأْتِى. أَلَمْ يَقُلِ الْكِتَابُ إِنَّهُ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ ومِنْ بَيْتِ لَحْمِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَ دَاوُدُ فِيهَا يَأْتِى الْمَسِيحُ . فَحَدَثَ انْشِقَاقٌ فِى الْجَمْعِ لِسَبَبِهِ .

وكانَ قَوْمٌ مِنْهُمْ يرِيدُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ ولٰكِنْ لَمْ يُلْقِ أَحَدٌ عَلَيْهِ ٱلْأَيادِيَ » .

(يوحنا ٧ : ٣٧ — ٤٤)

كل الأحداث المدونة فى هذا النص ، وقعت فى عيد المظال . ولكى ندرك المعانى المستترة فى هذه الفقرة ، علينا أن نعرف شيئاً من تقاليد ذلك العيد ، ومعناه بالنسبة لكل يهودى .

أما عيد المظال ، فقد كان واحداً من الأعياد الثلاثة الكبرى عند اليهود . وهذه الأعياد كما أشرنا آنفا ، كانت أعيادا ملزمة لكل يهودى . وكان كل يهودى ذكر بالغ ، يعيش فى دائرة عشرين ميلا من العاصمة عليه أن يحضر فرصة هذه الأعياد . وهذه الأعياد هى ، عيد الفصح ، وعيد الخمسين ، او خمسين يوما بعد الفصح ، ثم عيد المظال . وكان الأخير يقع على الدوام فى اليوم الخامس عشر من الشهر السابع ، أى شهر أكتوبر . ومثل أى من الأعياد اليهودية الكبرى ، كان له مدلولان ، أو معنيان :

الأول : دلالة تاريخية . فهو قد أخذ اسمه من أن اليهود ، فى فرصته ، كانوا يتركون مساكنهم ، ويعيشون فى أخصاص مصنوعة من أغصان الأشجار . وخلال أيام العيد ، كانت تلك الأخصاص ، تنتشر فى كل مكان ، على أسطح المنازل ، وفى الشوارع ، وفى ساحات المدينة ، وفى الحدائق ، وحتى فى أروقة الهيكل .

ولقد كان الناموس يحتم أن مثل هذه الأخصاص ، لا تكون مكاناً دائماً للسكنى ، بل تقام لفرصة العيد فقط . وكانت جدران تلك المظلات تقام من أغصان الشجر ، بحيث تحمى ساكنيها من تقلبات الطقس ، ولكنها لا تمنع

دخول أشعة الشمس . وكان سقف المظلة يغطى أيضاً بالأغصان . ولكن كانت تترك فيه فرجات تسمح برؤية النجوم فى الليل . وكان الدلالة التاريخية لهذه الممارسات أن يذكر أفراد الشعب على الدوام أنهم كانوا فى وقت من الأوقات غرباء ، سائحين ، مشردين ، بلا سقف يغطيهم ، إلا نجوم السماء ، ولا جدران تحميهم من حرارة الشمس (لاويين ٢٣: ٤٠ — ٤٣) . « لكى تعلم أجيالكم أننى فى مظال اسكنت بنى اسرائيل، لما أخرجتهم من أرض مصر. تأخذون لأنفسكم ثمر أشجار بهجة ، وسعف النخل ، وأغصان أشجار غبياء ، وصفصاف الوادى ، وتفرحون أمام الرب إلهكم سبعة أيام » .

وفى عصر المسيح أضيف يوم ثامن إلى أسبوع العيد ، فكانوا يعيدونه ثمانية أيام . وهكذا كان الهدف من هذا العيد ، تذكير الشعب ، بأنهم يوماً ما كانوا تائهين فى البرية ، قبل أن يستقر بهم المقام فى أرض الموعد .

الثانى : دلالة زراعية . فلقد كان هذا العيد يقع فى وقت الحصاد . وكان فى الواقع عيد فرح ، وتهليل ، وشكر ، لأجل الحصاد . حتى أنه كان يدعى أحياناً عيد الحصاد . (خروج ٢٣ : ١٦ ، ٢٤ : ٢٢) . وبالنسبة لليهود كان ذلك العيد أبهج الأعياد وأشهرها . لهذا لاغرابة أن يلقب بالعيد وكفى ، كما ورد فى سفر (الملوك الأول ٨ : ٢) ، وأحياناً أخرى يلقب بعيد الرب (لاويين ٢٣ : ٣٩) . لقد كان أكثر الأعياد شعبية ، وكان الشعب يصفه بأنه « عيد أفراحنا ». ان حلوله فى الخريف، فى موسم الحصاد ، فى الوقت الذى تجمع فيه الحنطة ، والشعير ، ومحصول العنب ، حيث يفرح الشعب بتخزين المحاصيل الزراعية فى الأهواء ، كان فى حد ذاته فرصة أفراح .. . لقد كان الناموس يحتم ذلك فى سفر التثنية « تعمل لنفسك عيد المظال سبعة أيام ، عند ما تجمع من بيدرك ومن معصرتك » . (تثنية ١٦ : ١٣ ، ١٦). وفى سفر الخروج

يعيد الشعب العيد « عيد الحصاد ، أبكار غلاتك ، التي تزرع في الحقل » ... (خروج ٢٣ : ١٦) .

ولم يكن هذا العيد عيد شكر لأجل المحصول الوفير فحسب ، بل كان عيد شكر ، وحمد لله ، على كل ماتقدمه الطبيعة من مقومات الحياة . وفي نبوات زكريا ، نجد نبوة عن المُلك السعيد ، حيث تصبح الممالك كلها للرب والمسيح ، فيعيد الجميع هذا العيد ، من الكبير إلى الصغير . (زكريا ١٤ : ١٦ — ١٨). ويصف يوسيفوس عيد المظال بأنه « أقدس وأعظم أعياد اليهود جماء » . ولم يكن هذا العيد ، وقفاً على الأثرياء والمقتدرين ، بل كان أيضا عيد الطبقة الوسطى ، وكانت التقاليد تحتم أن يشارك الأغنياء — العبيد ، والغرباء ، والأرامل والفقراء حتى يعم الفرح جميع الشعب .

ولقد أشرنا أن الناموس كان يحتم أن يحضر العابدون في فرصة العيد ، ثمر أشجار بهجة ، وسعف النخل ، وصفصاف الوادي ، وأغصان الأشجار الضخمة . وقد اختلف اليهود في تفسير هذه الوصية . فقال الصدوقيون ، انها وصف للمواد التي تقام منها المظال ، ولكن الفريسيين فسروها على أنها تقدمات للهيكل ، يحضرها الشعب معه ، في فرصة العيد . وطبيعي أن يقبل اليهود تفسير الفريسيين ، فقد كان هذا يهيء لهم فرصة أفراح جماعية ، يشتركون فيها معاً ، صاعدين بما يحملون من ثمار بالتهليل والنشيد . في مثل هذه المناسبة نطق يسوع بهذه الدعوة المباركة . ولقد كانت مراسيم العيد تجرى أمام عينيه كل يوم من أيام ذلك الأسبوع . فكان العابدون يحضرون معهم سعوف النخيل ، وأغصان الصفصاف ، وقد ضفروها على شكل مظلة يطوفون بها حول المذبح الكبير . وفي نفس الوقت كان أحد الكهنة ، يحضر جرة ذهبية

تسع مايقرب من جالونين من المياه ، ويسرع إلى بركة سلوام ، ويملأها ثم يعود بها ، من بوابة المياه . والشعب يردد ماورد فى نبوات اشعيا « وتستقون مياها بفرح من ينابيع الخلاص » (اشعياء ١٢ : ٣) . ويعود الكاهن إلى الهيكل حاملا جرة المياه ، ويصب الماء على المذبح ، سكيباً لله .

وبينما كانت هذه المراسيم تجرى،كان الشعب يردد مزامير « الهلليل » أو التهليل، وهى المزامير الخمسة من المزمور المئة والثالث عشر إلى المزمور المئة والثامن عشر، بينما ينفخ اللاويون فى المزمار، حتى اذا وصل العابدون للقول: «أحمدوا الرب لأنه صالح» (مزمور ١١٨ : ١)، ثم إلى منتصف المزمور : « يارب خلص.. يارب انقذ» (عدد ٢٥) ، ثم إلى نهاية المزمور : «احمدوا الرب لأنه صالح ، لأن إلى الأبد رحمته » (عدد ٢٩)، يهتف العابدون فرحين ، وهم يلوحون بسعف النخل نحو المذبح . لقد كانت كل مراسيم العبادة ، خطوات تقديم شكر للرب لأجل هبة الماء ، وصلاة لله لكى تستجيب السماء الأرض بالأمطار ، وتذكارا للماء المتفجر من الصخر ، حينما كان آباؤهم فى البرية .

وفى اليوم الأخير من العيد ، كانت هذه المراسيم يُزاد عليها ، دوران الجموع حول المذبح سبع مرات ، إشارة إلى حادثة سقوط أسوار أريحا حينما دار الشعب حولها سبع مرات ، فسقطت الأسوار ، واستطاعوا أن يتملكوا المدينة . .

هذه هى الصور المتتابعة التى كانت تجرى فى الهيكل ، حينما دوى صوت السيد بالقول : « إن عطش أحد فليقبل إلى ويشرب » .وكأنى بالمخلص يقول للجموع : « إنكم تشكرون الله ، وتمجدونه لأجل الماء المادى الذى يطفىء ظمأكم الجسدى ، هلموا إلىّ إن أردتم أن تطفئوا ظمأ نفوسكم المحترقة » . لقد

انتهز يسوع هذه الفرصة ليحول أنظار الشعب عن الأمور المادية ، إلى أشواق النفس لله ، وظمأها للأمور الروحية .

ينبوع المياه الحية (تابع)

(يوحنا ٧ : ٣٧ — ٤٤)

والآن وقد تجسم أمامنا الإطار، الذى ظهر فيه يسوع متقدماً بهذه الدعوة المباركة لسامعيه ، علينا أن نتأمل قليلا فى تفاصيل هذه الدعوة .

ترى ماذا يعنى السيد بقوله ، « من آمن بى . . تجرى من بطنه أنهار ماء حية » . . هناك احتمالان نستطيع أن نفسر بهما هذا القول :

١ — فقد يشير هذا القول ،إلى قبول الأنسان لشخص المخلص وشعوره بالسعادة ، والإكتفاء به. حينئذ يحس الإنسان وكأن ينبوعا من المياه الحيَّة المروية يتفجر فى أعماقه . انها صورة أخرى لحديث السيد مع السامرية حينما قال لها « من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد ، بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية » (يوحنا ٤ : ١٤) . أو لعلها صورة أخرى لقول النبى اشعياء :« ويقودك الرب على الدوام ،ويشبع فى الجدوب نفسك ، وينشط عظامك فتصير كجنة ريا وكنبع مياه لا تنقطع مياهه » (أشعياء ٥٨ : ١١) والمعنى هو أن يسوع يستطيع أن يهب الإنسان عطية الروح القدس ، فينعش نفسه الذابلة ، وروحه الظامئة . ولقد كانت نظرة اليهود إلى أعضاء معينة فى الجسد ، كأنما تتركز فيهـا بعض الأحاسيس والمشاعر ، والعواطف . فالقلب مركز الفكر والتأمل ، والكلى والاحشاء موضع العواطف ، والمشـاعر ، والأحاسيس . وكما يقول كاتب الأمثال :

« نفس الإنسان سراج الرب ، يفتش كل مخادع البطن » (أمثال ٢٠ : ٢٧) .
وهذا معناه أن يسوع يعدنا فى قوله هذا ، بقوة الروح المطهر ، المنعش ، واهب الحياة ، حتى تتطهر أفكارنا ، وعواطفنا الداخلية ، وتنتعش بفاعلية روحه ، وتمتلىء بقوة الحياة الجديدة. وكأنى بيسوع يقول لنا : «هلّموا إلىّ ، أقبلونى فى قلوبكم ، ثقوا بمواعيدى الصادقة ، وأنا سأملأكم بنعمة روحى ، بحياة جديدة ، تهبكم الطهارة ، والنقاوة ، والشبع ، والإكتفاء ، وتنزع منكم كل تعب ، وتطفىء فيكم كل ظمأ ، وتهبكم الحياة التى كنتم فى شوق غامر إليها ، ولكنها كانت بعيدة عنكم كل البعد » . وهذا تفسير حق ، لأنه ينطبق على الاختبار .

٢ — وقال البعض أيضاً ، ان يسوع حينما تحدث عن المياه الدافقة من أحشاء الإنسان ، فقد كان يقصد بذلك نفسه ، وليس سواه . لقد اقتبس هذا القول من نبوة لا ندرى موضعها عن السيا ، وقام بتطبيقه على نفسه . ونفس الاستعارة اتخذها المسيحيون لتشير إلى شخص المسيح . فكثيراً ما قام المسيحيون بتشبيه يسوع بالصخرة التى تفجرت منها المياه فى البرية لتروى ظمأ الشعب . (خروج ١٧ : ٦) . واننا نجد الرسول بولس ، يتخذ من الصخرة رمزا ليشير به إلى شخص المسيح (كورنثوس الأولى ١٠ : ٤) .
والبشير يوحنا يتحدث فى حادثة الصلب ، عن ذلك الجندى الذى رفع رمحه وطعن المسيح فى جنبه « وللوقت تفجر دم وماء » . أما الماء فهو يشير إلى عملية تطهير القلب من الخطية بعمل الروح القدس ، وأما الدم ، فهو يشير إلى الموت الكفارى النيابى عن خطايا البشرية .

ونحن نجد إشارات لهذا الرمز ، بأن الله هو الماء الحى ، فى أجزاء متفرقة من العهد القديم . فى رؤيا حزقيال النبى نقرأ عن المياه المتفجرة من قلب الهيكل

حيث تجرى فى طرقات أورشليم ، وتصبح نهر سباحة لا يُعبر ، تنمو على جانبيه الأشجار ، وينتشر الصيادون . (حزقيال٤٧ : ١ — ١٢). وفى نبوات يوئيل : « ويكون فى ذلك اليوم أن الجبال تقطر عصيرا ، والتلال تفيض لبنا وجميع ينابيع يهوذا تفيض ماء . ومن بيت الرب يخرج ينبوع ويسقى وادى السنط » (يوئيل ٣ : ١٨). ان الماء يطهر وينقى ، كما يطفىء الظمأ ، وبدون الماء لاحياة لانسان .

والمسيح يطهرنا ، وينقينا ، ويروى قلوبنا ، وبدونه لاحياة لنا . فمن لدنه تأتى كل عطية صالحة ، وكل موهبة تامة ، واعظم هذه المواهب هبة الروح القدس فهو الذى يبكت العالم على خطية ، وعلى بر ، وعلى دينونة ، فكما أنه يكشف حقيقة الإنسان ، وحقيقة الغضب الالهى المعلن من السماء على خطية الإنسان ، فإنه يوجهنا إلى مصدر البر الحقيقى ، شخص المسيح الفادى .

فسواء اتخذنا من هذه الآية هنا رمزا ، إلى شخص المسيح المبارك ، الذى تجرى منه كل عطايا الله ، أو رأينا فيها رمزاً لذاك الذى يقبل المسيح ، بالإيمان فتفيض فى قلبه ينابيع الحياة ، فمعنى ذلك أن من لدن يسوع تفيض كل نعمة ، وكل بركة ، تطهر القلب ، وتروى النفس ، وتهب الإنسان الحياة .

على أن هناك كلمة غريبة وردت فى العدد التاسع والثلاثين ، حيث نجد البشير يقول : « لأن الروح لم يكن قد أعطى بعد » ، أو بحسب الترجمة اليونانية « لأن الروح لم يكن هناك بعد » . ترى ما معنى هذا ؟ وهل انقطع روح الله عن الوجود منذ أن بدأ يرف على وجه المياه قبل الخليقة ؟ ألا نلمس وجوده فى حقب كثيرة من التاريخ المقدس ، قبل أن يشرق نور العهد الجديد. نجيب بالقول ان الروح لم ينقطع وجوده عن العالم ، ولكن لم تكن هناك القلوب المعدة لقبوله ، وظهور قوته فيها ، كما حدث فى العهد الجديد. فخلاص

المسيح الكامل قد مهد لهذا الانسكاب الشامل ، وتمم الوعد الالهى القائل « ويكون فى آخر الأيام أنى اسكب من روحى على كل بشر » . لنأخذ مثلا لذلك قوة الكهرباء ، انها كائنة منذ خلق العالم ، ولكنها لم تدخل كل بيت ، ولم ينتفع بها كل إنسان ، إلا منذ أجيال قلائل ، حينما عرف نواميسها ، ومهد السبيل لظهورها . لنأخذ مثلا آخر ،القوة النووية. إن الذرة كائنة منذ الأزل ، ولكن الإنسان لم يصل إلى تسخيرها واستخدامها ، إلا منذ سنوات قلائل . وهكذا الروح القدس ، كائن فى الوجود منذ الأزل ، ولكن البشرية لم تتمتع بقوته وبثماره ، إلا بعد يوم الخمسين . لقد كانت لها لمحات من عمل الروح القدس ، وبواكير من ثماره الحلوة ،ورذاذ من سيله الدافق، ولكن القوة الدافعة والحصاد الوافر ، والسيل المتدفق ، لم يحدث إلا بعد صعود المسيح إلى المجد . لقد انفتح الباب على مصراعيه فى عيد الخمسين. و كما قيل عن الكنيسة الرسولية إنه ما كان ممكنا أن يحل يوم الخمسين فى تاريخ الكنيسة ، لو لم تكن هناك الجلجثة، والقبر الفارغ.

لقد دخل الإنسان إلى أمجاد الروح ، عن طريق ذاك الذى قال « أنا هو الباب » . قبل ذلك التاريخ ، كان الروح القدس قوة مجردة ، ولكن بعد ذلك أصبح الروح القدس ، ذاتاً حية ، فى اختبار البشر ، وصار بالنسبة لنا لا أقل من القناة التى تسرى فيها إلينا، قوة المسيح المقام ، ونعمته العجيبة . فى هذه الكلمة لا يقصد يوحنا بأن الروح لم يكن كائنا فى الوجود ، بل يقصد أنه لولا حياة المسيح ، وموته ، وقيامته ، ما كان ممكنا أن نصل إلى إنسكاب حقيقى لعطية الروح القدس ، وقوة غامرة لفاعليته العجيبة .

على اننا ينبغى أن نلاحظ أيضا ما ورد فى نهاية تلك الفقرة .

لقد ظن البعض بأن يسوع هو النبى الذى أنبأ موسى بمجيئــــه (تثنية

١٨ : ١٥) . واعتقد البعض الآخر أنه ليس أقل من مسيح الله المختار . ثم حدثت بين الجموع مشادة ، إن كان ممكنا أن مسيح الله ، يأتى من الناصرة ، أم من بيت لحم. هنا المأساة .

إن اختباراً عظيما مباركا ، قد أبتلع فى الخلافات اللاهوتية العقائدية . هذا ما ينبغى أن نحترس منه. ان يسوع المسيح ، لا ينبغى ان يكون مجـــرد موضوع جدل ، ونقاش ، وخلاف عقيدى . ينبغى أن نعرفه ، ونحبه ، ونقبله كالمخلص الوحيد . إن كنا نعتقد عنه شيئا ، وينظر إليه آخرون ، فيكتشفون فيه شيئاً آخر ، فلا يهم هذا طالما لنا الإيمان الواحد به ، وبخلاصه العجيب . وحتى وإن كنا نعبّر عن هذا الإيمان الواحد ، بتعبيرات متباينة ، فينبغى الا نفترق أحدنا عن الآخر بسبب هذا ، وينبغى ألا يكون فى ذلك ، موضوع خلافنا ، وسبباً لنفورنا وعداوتنا . إن أهم شىء فى كيان المسيحية ليس الفكر اللاهوتى ، بل الاختبار القلبى — الاختبار وحده ، وليس تفسير المقول له .

إعجاب خفى ودفاع متحفظ

« فَجَاءَ الْخُدَّامُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ . فَقَالَ هؤُلاَءِ لَهُمْ لِمَاذَا لَمْ تَأْتُوا بِهِ . أَجَابَ الْخُدَّامُ لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ إِنْسَانٌ هكَذَا مِثْلَ هذَا الإِنْسَانِ .فَأَجَابَهُمُ الْفَرِّيسِيُّونَ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيضاً قَدْ ضَلَلْتُمْ . أَلَعَلَّ أَحَداً مِنَ الرُّؤَسَاءِ أَوْ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ آمَنَ بِهِ . ولكِنَّ هذَا الشَّعْبَ الَّذِي لاَ يَفْهَمُ النَّامُوسَ هُوَ مَلْعُونٌ . قَالَ لَهُمْ نِيقُودِيمُوسُ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ لَيْلاً وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ .أَلَعَلَّ نَامُوسَنَا

يَدِينُ إِنْسَانًا لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ أَوَّلاً وَيَعْرِفْ مَاذَا فَعَلَ . أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ أَلَعَلَّكَ أَنْتَ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ . فَتِّشْ وَانْظُرْ . إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ نَبِيٌّ مِنَ الْجَلِيلِ . فَمَضَى كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى بَيْتِهِ » .

(يوحنا ٧ : ٤٥ ـ ٥٢)

هنا نرى إنطباعات متباينة بين أناس مختلفين ، عن شخص المسيح .

١ — فهناك الإعجاب الذى ملأ قلوب حرس الهيكل . لقد ذهبوا ليلقوا عليه الأيادى . وها هم يعودون بدونه ، لأنهم لم يسمعوا طيلة حياتهم إنساناً يتكلم بمثل الكلام الذى نطق به . حقا ان سماع صوت يسوع ، هو اختبار عجيب لا يُبارى ، يملأ القلب بالسلام ، والنفس بالهدوء .

٢ — وهناك موقف الكتبة والفريسيين ، وهو موقف الاحتقار ، والازدراء . لقد كان هناك قولٌ جارٍ بين الفريسيين ، يصفون به الناس البسطاء الذين لا يحفظون آلاف الوصايا ، والتقاليد الناموسية المتشعبة ، فكانوا يلقبونهم « شعب الأرض » ، انهم فى نظرهم أقل من أن يكونوا موضوع إحتقار .

وزواج ابنة من طبقتهم لواحد من الشعب ، كالقاء فريسة بين أنياب الوحوش ، « هذا الشعب الذى لا يفهم الناموس هو ملعون » . وهناك قول مأثور عن أحبار اليهود عن كيفية التصرف مع شعب الأرض ، وهو يتضمن ستة بنود:

« لا تأخذ منهم شهادة . .

ولا تأتمنهم على شهادة . .

ولا تفضى إليهم بسر . . .

ولا تجعلهم أولياء على يتامى . . .

ولا تتخذهم حراساً لمشاريع خيرية . . .

ولا ترافقهم فى رحيلك » .

لقد كان محرماً أن يستضيف أحد الكهنة أو الفريسيين واحداً من شعب الأرض ، أو يتخذ منه سميراً أو جليساً . بل لقد وصل الأمر بهم إلى الحد أنه ان كان ممكناً لا ينبغى أن تكون هناك معاملات بيع أو شراء مع شعب الأرض . لقد كانت طبقة الكهنة والفريسيين ، تعيش فى ابراجها العاجية ومن عليائها تنظر باحتقار ، وكبرياء ، وغرور ، إلى الشعب الذى يجاهد فى طريق الحياة القاسى . ولقد كانت حجتهم التى يتمسكون بها ، أنه لم يؤمن واحد ، له مكانته الدينية والعلمية ، بهذا المعلم الجديد الذين فتحوا قلوبهم له ، هم الأغبياء ، والجهلاء . حقاً ياله من أمر رهيب أن يحس الإنسان أنه أذكى ، وأحكم ، من أن يقبل المسيح فى حياته . وهذا ما يحدث حتى فى أيامنا ، مع أولئك الذين يدعون أنفسهم بالحكماء والفهماء .

٣ — وهناك موقف نيقوديموس . ولقد كان موقفا فيه الكثير من التحفظ . ان نيقوديموس لم يدافع عن يسوع علنا . لقد استند على بعض الحجج الناموسية التى كانت معروفة للجميع . ولقد كان الناموس يحتم أن العدالة ينبغى أن تكون مكفولة لكل إنسان . (خروج ٢٣ : ١ ، تثنية ١ : ١٦) وركن قوى من أركان العدالة ، أن يتاح للمتهم حق الدفاع عن نفسه ، ولا يحكم عليه بناء على شائعات وصلت من الغير . ولقد كسر الفريسيون هذا الشرع بالنسبة ليسوع بتصرفهم . وأرادوا أن يقبضوا عليه بناء على ماوصل إليهم . ويبدو أن نيقوديموس توقف عند هذا الطلب ، فلم يرد عنه انه تحدث بكلمة أخرى . لقد كان قلبه يدفعه ليدافع عن يسوع ، وكان عقله يمنعه من أن يقدم على تلك المخاطرة . ولقد اسكته الفريسيون حينما قالوا له انه لم يقم نبى واحد

من الجليل ، وعيروه بتواطئه مع رعاع الجليل . وكان فى هذا الكفاية .

وكثيراً ما يجد الإنسان نفسه ، فى موقف من المواقف وقد التهب غيرة ، وأراد أن يدافع عن مسيحه . ولكنه غالبا ما يجد الرياح المضادة شديدة ، فيجبن ، ويكتفى بدفاع هزيل . وأخيرا ينتهى به الأمر إلى السكوت المخجل. فى دفاعنا عن سيدنا المسيح ، علينا أن نتبع نداء القلب ، والعاطفة ، أكثر مما نصغى إلى صوت العقل . ان الوقوف بجانب يسوع قد يجلب السخرية لنا ، والمتاعب لنفوسنا ، وغالبا ما ينتهى بنا إلى التضحية والألم ، ولكن علينا أن نذكر قول السيد ، انه على استعداد أن يعترف أمام الآب باولئك الذين اعترفوا به قدام الناس ، ويتنكر أمام العرش، لأولئك الذين انكروه بين الناس . ان الولاء للمسيح قد يضع على اكتافنا صليبا فى هذه الحياة ، ولكنه سيضع على رؤوسنا أكاليل المجد فى الحياة القادمة . .

